الدر المنقـــوش
فى الرد على
چـــورچ بــــوش

عبد البديع عبد السميع كهافى

المحامى

أمام محكمة النقض والإدارية العليا

والدستورية العليا



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الأولياء والمتقين ، وقائد الغرّ المحجلين ، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد النبى العربى الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . .

دخلتُ مكتبة مدبولى بميدان طلعت حرب (سليمان باشا سابقاً) بقصد شراء كتاب كنتُ فى حاجة إليه كمرجع من مراجع بحث أَزْمعتُ كتابته ، فوقع نظرى على كتاب يحمل اسم « چورچ بوش » مؤلفاً وسيدنا محمد ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ مقترنًا بصفَتين « مُؤسِّس الإسلام ومُؤسِّس الإمبراطورية الإسلامية » فأيقنتُ من قراءة اسم الكتَاب ؛ أنه يشتمل على هجوم على شخص سيِّدنا محمد ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ وذلك لأن حقيقة الإسلام أنه شريعة الله سبحانه وتعالى ، وقد اصطفى الله نبيه ورسوله أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ نبيًّا ورسولاً يدعو الناس بدعاية هذا الدين ، وهو فطرة الله التى فَطَرَ النّاسَ عليها .

وأما كلمة الإمبراطورية فلا يجوز اقْترانها بالإسلام ، وكذلك لا يجوز اقترانها بشخصِ سيدنا محمد الشريف ﷺ ؛ إذ أنها مقترنة بالظلمِ والقهرِ والبطش والتَّجبر ، وهى صفاتٌ يبرأ منها الإسلام ورسول الإسلام ﷺ .

وترددتُ فى شراءِ الكتاب إشفاقاً على مكتبتى أن تضم هذا الكتاب الذى يشتمل على العيب فى سيدنا رسول الله ﷺ .

وأوشك التردد أن ينال حظه من نفسى ، ويمنعنى من شراء الكتاب وقراءته ، وإذا بصورة الصحابى الجليل حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ

تلوح أمامي وهــو يتلو قصـــيدته التي جاء بها هــذان البيتـــان :

هجوت محمــداً فأجبت عنه وعنـد الله في هــذا الجــزاء

أتهجـــوه ولســت له بكفء فشــر كما لخير كما الفـداء

حتي خاطب سيدنا رسول الله ﷺ وقال له :

خلقت مبــرّءاً مــن كل عيبٍ كأنك قـد خلقتَ كما تشاءُ

فـما لبـثت حتى انشـرح صـدرى لشـراء الكتـاب ، بـل وقـراءته ولـيس ذلك فـقط ، بل والرّد عليـه إحقـاقـاً للحق ، ودفـاعـاً عن سيّـدنا رسـول الله ﷺ وعن الإسلام الحنيف ، قرآناً وسنة .

وعندما بدأت قراءة هذا الكتاب ، تبين لى أن مؤلفه هو جورج بوش - جد جورج بوش الثانى - حاكم الولايات المتحدة الأمريكية ، ومررت عليه مرور الكرام فى أول قراءة فهالنى ما اكتشفت فيه من بذاءات ، وأراجيف تطفح بها صفحات هذا الكتاب من أول سطر إلى آخر سطر؛ وتعجبت أن يصدر كل هذا السباب من رجل له مرتبة دينية فى قومه ؛ إذ أنه قسيس فى إحدى الكنائس وله درجة علمية ؛ إذ وأنه أستاذ اللغة العبرية بكلية الآداب ، وعند ذلك أيقنت أنه مدفوع بدوافع غير مرتبته الدينية ، وغير درجته العلمية . بل هناك دوافع أخرى هى التى تحركه ، وتلقى به فى مستنقع الحقد الأسود يتجرع صديده ، ويأكل زقومه .

وهذه الدوافع سيكتشفها القارئ بارزة للعيان على صفحات هذا الكتاب ، وهى أمر نتركه لضمير القارئ ، ليحكم فيه بحيدة البحث ، ونزاهة الرأى ، وسمو الشرف ، وكل ما أطلبه من القارئ الكريم فى أى مكان على الأرض ، وتحت أى سماء أن يتحلّى بالصبر على قراءة كتابى هذا ، وأن يتأنّى فى إصدار حكمه على ما سطّره قلم ذلك الرجل القسّيس ، والعالم الأستاذ فى كلية الآداب .

ذلك أن القرآن الكريم عندما قدم لنا الطائفة التى ينتمى إليها قال :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وعندما فرغت من قراءة هذه الآيات . . أيقنت أن مرتبة هذا الرجل كقسيس ليست من بين الدوافع التى دفعته إلى تسطير كتابه هذا الذى عزمت على الرد عليه .

أما درجته العلمية وكونه أستاذاً فى كلية الآداب ؛ فإنها تعطيه كرسى العلم الذى كان يلقى فوقه الدروس على تلامذته وطلابه ، وهذا الكرسى يشبه منصة القضاء فى التّجرد والحيدة والنزاهة والتعالى على كل العواطف السلبية ؛ إذ أنه كالقاضى يحكم بالعدل ويخدم الحق . . ومن أجل ذلك أطلق على العلماء لقباً

تتحلى به شخصياتهم وتزدان به سيرتهم ألا وهو « سدنة العلم » ، أما القضاء فقد حازو لقباً يمثل مقاماً عليّا عندما سماهم المجتمع « سدنة العدل » .

وفوق منصة القضاء وكرسى العلم .. تبيّن لى بجلاء أن المرتبة الدينية التى تسلل هذا الرجل إلى كنيستها ، وأن كرسى العلم الذى انتسب هذا الرجل إلى كليته .. كل منهما برئ تماماً مما سطرت يده بقلمه على كتابه عند ذلك تزاحمت على خواطر إيماني وأمسكت بعصا القيادة ، تأمرني بسرعة الرد على هذا الرجل مستعيناً بالله ـ عز وجل ـ مستلهماً سيرة سيدنا رسول الله ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ العطرة ومسيرته الظافرة المؤيدة من الله سبحانه وتعالى بالنصر والفتح المبين .

بقى أن أُشير إلى أننى عندما ذكرت أن سيدنا حسان بن ثابت ـ شاعر الرسول ـ ﷺ عندما ذكرته ـ رضى الله عنه ـ ، لا أزعم أنى أقارن بين شخصى الضعيف ، وهذا الصحابى الجليل ، فهذا الصحابى من السابقين من المهاجرين والأنصار ، ومكانى منه خلفه بمسافة بعيدة يجتازها مثلى فى قرون .

ولكننى أزعم بقدر من الحب لسيدنا رسول الله ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ نشترك فيه سويًا .. هو بالقدر الأعظم .. وأنا بالقليل الذى أطمع أن أكون تابعاً لحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ فى الذود عن سيدنا رسول الله ﷺ والدفاع عن مقامه الرفيع يحدوني : حديثه العذب الفرات الذى رواه الإمام :

« وددت لو رأيت إخوانى . قالوا أو لسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال :

أنتم أصحابى ، إنما إخوانى قوم يأتون من بعدى ، يؤمنون بى ولم يرونى » .

فهذه يدُ سيدنا رسول الله ﷺ تضئ من خلال هذا الحديث ، وإن أشرف بأن أقبّلها بحرارة وأقول له مع حسان بن ثابت رضى الله عنه :

(لبيك يا رسول الله .. لبيك وسعديك والخير كله بين يديك)

والصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

وإني عندما قررت البدء فى كتابة الكلمات الأولى ، بعد أن وضعت المراجع أمامى .. عاودنى التفكير فى أن هذا العمل يتطلب جهوداً مشتركة من علماء أغزر منّي علماً وأقوى منى تثبتًا ، وأطول منّى باعاً ، وهذا أعلى من مستوى نظرى ، وأعمق من مستوى فكرى ، لا سيما ومصر عامرة برجال العلم ، والفكر ، واللغة وتزدان مواكب العلم فيها بذوى التخصصات المتعمقة فى العلم والحكمة ، وهم بحق أقدر على مواجهة هذا المؤلف الماكر منّى .

ولكنى راجعت نفسى فى هذا الخاطر ، وقلت لنفسى إن هؤلاء الذين هم أقدر منى ، وأعلم منّى ، وأقوى إحاطة بفن الحوار لم يتكلّموا ، ولم ينشطوا للرد على ما ورد بهذا الكتاب ، وتوأمه اللصيق به ، وهو كتاب (وادى الرؤيا) للمؤلف نفسه ، وجماهير المسلمين فى مصر ، يزعجهم ما ورد بهذا الكتاب من خروج على آداب البحث العلمى من تجريح وسباب وقذف فى حق نبيّها ورسولها الأعظم أشرف الخلق سيدنا ـ محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ الذى شغل قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم بحبه العظيم ، الذى ملك عليهم حياتهم وأنفاسهم به ، وألهمهم هذا الحب الأناشيد التي تنافس نشيد « طلع البدر علينا » الذي ملأ الآفاق فى كل مكان وزمان بعطر الحب الذى تدفّق من قلوب الأنصار ، وألهمهم إنشاء الجمعيات والتجمعات والمنتديات والنوادى التى تعمل بأحكام سنّته الطاهرة ، وألهمهم الالتزام بمجالس الذكر التى تزفُّ إلى الملأ الأعلى خالص الصلوات والتسليمات عليه وعلى آله وصحبه أناء الليل وأطراف النهار ، وهؤلاء الجماهير الهادرة بأناشيد الحب لحضرة النبى الأعظم ، يزعجها ما جاء بهذين الكتابين ، ومن شتائم وقذف وسبّ ، صدر عن هذا الكاتب ولفه بهذه الخرق البالية المتعفنة التى أفرزتها حشرة الكراهية التى تُعشش فى قلب چورچ بوش المريض وتنسجها نسيجاً أوهن من بيت العنكبوت ، وأنتن من رائحة النفاق ، وبقدر ما يزعج هذه

الجماهير ذلك ، يسرها أن تقرأ أو تسمع ما يردّ كيد هذا الثعلب إلى نحره ، وما يرد سهام الحقد إلى صدره وصدور الذين يدينون بآراءه ، وينصتون إلى هراءه .

ولما كانت أسلحتى ليست بالصرامة التي تكفل تحقيق الدفاع رفيع المستوى الذى يلزم أنصار هذا الكاتب بالحجة والبرهان ، ويلقمهم أحجار الحقيقة فيَخْسأون ، فإنى اضطررت لفتح خزانة السلاح الفكرى لكل عالم من علماء المسلمين ، الذين تصدوا به لدعاوي المستشرقين ، كما فتحت خزانة العلم لكل عالم متخصص فى العلوم الكونية ، أنتقى من كل خزانة قطعة السلاح التي تخدم معى تحقيق النصر على هذا الكاتب الذى انطلق على الإسلام ونبى الإسلام ﷺ وحشاً ضارياً من غابات الكره والحقد والحسد .

وهؤلاء وهؤلاء من العلماء .. هم عدة أمثالى من الضعفاء آخذ من خزائنهم من سلاح الفكر ما أسدد إلى ادعاءات هذا المؤلف ، فتدمغها فإذا هى زاهقة زهوق الباطل يدمغه الحق فإذا هو زاهق .

وإذن فإن علماءنا ليسوا غائبين عن هذه المعركة الفكرية ، بل هم حاضرون ، يمدّون ، ويدعمون ، وينصرون ، وينتصرون ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وإني بهذا السلاح - القلم - كالجندى البسيط الذى وجد نفسه فى مواجهة فرضت عليه مع عدوّ يشهر سلاحه فى وجهه ، بينما هو لا يملك السلاح الذى يحسم المعركة فلجأ إلى أسلحة قادته .. ينتقى منها ما هو متيقن أنه سبب للنصر بإذن الله .

وهؤلاء ..وهؤلاء من أمثال شيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة ، والشيخ الإمام المتبتل محمد عبد الله دراز ، والأستاذ الجليل الدكتور مهدى علام ، والعلماء الدكتور زغلول النجار ، والدكتور موريس بوكيه ، والدكتور توماس أورنولد ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ عباس محمود العقاد ،

وهؤلاء وهؤلاء ، شعرت وهم حولي أني أصبحت كثرة بعد قلة ، وقوة بعد ضعف ، وفصاحة بعد غيّ ، وعلماً بعد جهل ، وكيف لا يكونون كذلك وهم جميعاً قد استطاعوا أن ينهلوا من مورد القرآن الكريم ، ومورد السنة المطهرة ، استمدوا العلم من الله فأمدهم ، واستلهموا الحكمة من سيدنا رسول الله ﷺ فأبدعوا ، فقلت لنفسي :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

فتوكلت على الله سبحانه وتعالي ، واستعنت به ، وشمرت عن ساعدى ، وأمسكت بقلمى ، وتمثلت حضرة النبى - صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - أمامى بطلعته البهية ووجهه المشرق البسّام ، فصليت وسلمت عليه واستأذنته فى أن أجرى القلم فكتب والله المستعان والمسئول أن يتقبل هذا الذى ألهمنى به .

والمسئول أن يعفو عما ورد به من خطأ ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وصل اللَّهم وسلم وبارك على أشرف خلقك نبيّك ورسولك ورحمتك للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

القاهرة - الزهراء - مصر القديمة -

٧ شارع حسن فريد ت : ٣١٦٣١٩١

الفقير إلى ربه الكريم

عبد البديع عبد السميع كفافى

* * *

الفصـل الأول

أميّة سيدنا رسول الله ﷺ

أثار المؤلف هذه القضية التى فصل فيها القرآن الكريم بالقول الفصل ، حيث أثبت أن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ كان أميًا بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب اللغة العربية ، ولا أى لغة أخرى بالطبع .

ولولا أني - وبالطبع غيري من الكتاب والعلماء وكذلك القراء - ندرك تماماً ما يرمى إليه هذا المؤلف وغيره من المستشرقين المغرضين من وراء إتيانهم أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يقرأ ويكتب ، وهذا الذى يقصدونه بخبث ، هو أنه عليه الصلاة والسلام هو واضع القرآن الكريم ومؤلفه - وهذا الزعم منه ومنهم افتراء وكذب ، وضلال وتضليل ، لولا ذلك ما ناقشت هذه القضية .

وإنى أعتبرها قضية كبرى إذا حسمت ، فإن ما يترتب على هذا الحسم هو أمر عظيم جليل خطير ، وهو صدق سيدنا رسول الله ﷺ وتصديقه والتئام صفوف المؤمنين به عقيدة وفكراً . أى قلباً وعقلاً ، ثم فضح خبث هذا المؤلف وأمثاله من ذوى القلوب الحاقدة على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه .

يقول صاحب هذا الكتاب فى ص ١٤١ من الترجمة ما يأتي :

[وليس لدينا معلومات عما إذا كان أبو طالب ـ عم سيدنا رسول الله ﷺ ـ قد وعى الوصية - وصية عبد المطلب - بمضامينها الجليلة التى بثها أبوه فى كلماته ، لكن الأدلة بشكل جيد أنه كان بالنسبة لابن أخيه صديقاً وحامياً قد علمه تعليماً لا يقل عن التعليم الذى اعتاد عليه الناس فى هذه الأنحاء . إنه قدر قليل من التعليم - حقيقة - ولكنه لا يقل عن التعليم الذى أتيح لغيره] .

وقارئ هذه العبارة يدرك تماماً مدى خبث هذا الرجل وذكائه ومكره : فهو بها يخدع القارئ ، ويحاول أن يسوقه إلى النتيجة التي يصر على غرسها فى ذهنه .. ألا وهى تعلم سيدنا رسول الله ﷺ القراءة والكتابة ، وتمهيداً إلى غرس فكرته الخبيثة ، وهي أنه واضع القرآن الكريم ومؤلفه ، حيث أعقب مقالته تلك بالعبارات الآتية في نفس صفحة ١٤١ :

[حقيقة إن أتباع محمد ﷺ رغبة منهم فى المبالغة فى مواهب نبيهم - وعزوها إلى قوى خارقة ورغبة منهم فى إضفاء مزيد من الاعجاز على القرآن الكريم .فإنهم يؤكدون عموماً على أن محمداً كان يجهل القراءة والكتابة تماماً . حقيقة إن هذا الإدعاء أكده محمد نفسه ، فهو نفسه يقول :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

انظر معى إلى إسناده القرآن إلى سيدنا رسول الله ﷺ !!!] .
أيضاً آية :

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وانظر معى أيها القارئ إلى هذا الرجل يفضحه حقده الذى أجبره على إبرازه هدفه الخبيث ، وهتك الستارة التى كانت تخفيه فى هذه العبارة بصفحة ١٤٢ .

[لكن آخر ما نتوقعه من القرآن - وهو ادعاء بكل ما فى الكلمة من معني - أن يكون صادقاً دالاً علي الحقيقة ، فهناك أدلة كثيرة من هذا الوحى الزائف نفسه تدلنا على أن الكتابة كانت شائعة بين العرب في تلك الأيام ، فالوصية التالية التى وردت فى القرآن الكريم تؤكد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم هو يسوق افتراضا على أنه استدلال فى هذه العبارة ص ١٤٢ .

نحن نعلم أيضاً أن عليّ بن أبى طالب ، وهو ابن عم محمد ﷺ الذى تربى مع النبى ﷺ أصبح بعد ذلك أحد الذين كتبوا له (المقصود أحد كتاب الوحى) .

وقد اختار منهم محمد عدداً لعمل نسخ من القرآن الكريم ، مرتبة على حسب نزولها .

كيف يعقل إذن أن أبا طالب علم ابنه الكتابة ولم يعلم ابن أخيه ؟ وأكثر من هذا ، فقد كانت مكة ملتقى حركة تجارية ، ولابد أن التجار كانوا يحسون - كل ساعة - بحاجتهم إلى تسجيل صفقاتهم ومعاملاتهم المالية ، ونعلم أن محمداً ﷺ ظل لعدة سنوات يعمل فى التجارة قبل أن يبدأ دعوته إلى الدين الجديد .. فمن غير المحتمل ألا يكون عارفاً باستخدام الحروف] .

وكل هذه المقولات التى جاءت بهذا الكتاب فى هذه الشأن ، لا تصمد أمام المناقشة العلمية التى أساسها العقل والقلب ، بل إنها تسقط وتهوى بها الريح فى مكان سحيق .

ونحن المسلمين تلقينا أمراً من الله - سبحانه وتعالى - نذعن له منفذين طائعين له سبحانه وتعالى ، حيث هو الذى يوفقنا ويهدينا سواء السبيل ، هذا الحكم هو قوله سبحانه فى سورة العنكبوت الآية ٤٦ :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وسيكون الرد على هذا المؤلف كالآتى :

سنوضح معني كلمة (الأمية) ثم نثبتها فى حق سيدنا رسول الله ﷺ ، ومن خلال السياق سيتضح بجلاءٍ هذا الكذب الذى يغطّى وجه افتراءات المؤلّف بالسواد فى الدنيا ، ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

أولاً : معنى الأميّة فى حق سيدنا رسول الله ﷺ يقول العلامة الفخر الرازى فى تفسيره للقرآن المشتهر (بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب) ، (المجلد الثامن - ١٥-١٦) [دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع] فى تفسير الآية ١٥٧ من سورة الأعراف :

الصفة الثالثة : كونه أمّيًّا : قال الزجاج : معنى الأمى : الذى هو علي صفة أمة العرب : قال عليه الصلاة والسلام (إنّا أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب) فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أمّيًّا قال أهل التحقيق : وكونه إميًّا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه :

الأول : أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى ؛ من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته ، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها ، فإنه لابد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير . ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ، وما كان يقرأ ويتلو كتاب الله من غير زيادةٍ ولا نقصان ، ولا تغيير ، فكان ذلك من المعجزات وإليه الإشارة بقوله تعالى :

الثانى : أنه لو كان يحسن الخطَّ والقراءة لصار متهمًا فى أنه ربما طالع كتب الأولين ؛ فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة . كان ذلك من المعجزات ، وهذا هو المراد من قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

الثالث : لم يكن فى حاجة إلى تعلم القراءة والكتابة ، فالذى يحتاج إليها فى ذلك الزمان ، إنما هو من لم يتوفر له الذكاء والعقل ، وسيدنا رسول الله ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ قد حباه الله بذكاء لا نظير له ، وذاكرة قوية كأقوى ما تكون الذاكرة واستودع الله هذه القوى العظيمة التي منحه الله إياها علوم الأولين والآخرين ، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر .

(حاولت أن أجمع فى هذا البند خلاصة ما أراد أن يقوله الإمام الفخر الرازى ، وأدعو الله أن أكون قد وفقت) .

ثانياً : بمناقشة ما أورده هذا المؤلف جورج بوش فى كتابه من استدلالات على أن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد تعلم القراءة والكتابة بتوجيه عمه أبى طالب : على سند من القول إنه علم أبنه عليًّا (كرم الله وجهه) القراءة والكتابة ، وهذا قد رشحه أن يكون كاتباً من كتاب الوحي .

وهذا فى حقيقته دليل واه ينقضه : أن أبا طالب قد كفل سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعد وفاة أبيه عبد المطلب ،

الذي هو جد سيدنا رسول الله ﷺ وكانت سنه الثامنة ، وهي سن الصبا ، المرحلة التالية للطفولة ، ومرحلة الصبا تتميز عن مرحلة الطفولة ، بأن صاحبها يكون لديه وعي واستيعاب لما يحيط به من ظروف ووقائع وأحوال تجرى وتظهر فى أفق الأسرة ، وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ شديد الإحساس بحب عمه أبى طالب له ، هذا الحب المتميّز المتفرّد الذى كان يقتضيه أن يغمره عليه الصلاة والسلام بعواطف نبيلة ، وحيث أنه عليه الصلاة والسلام كان فى هذه السن دقيق الملاحظة ، فإنه قد وجد أن عمه فقير وأنه كثير الأولاد ، فدفعته مروءته إلى امتهان حرفة رعى الغنم فى مقابل أجر ، حتى يستطيع أن يخفف عن عمه أعباء مئونته ، فانشغل برعى الغنم عن تعلم القراءة والكتابة ، حيث لم يكن لديه وقت ينفقه فى هذا الاتجاه ، ولأنه لم يكن فى حاجة إلى ذلك ؛ لأنه يتمتع بالذكاء وقوة الذاكرة ، ولم يكن رعيه للغنم يحتاج القراءة والكتابة .

أما بالنسبة لسيدنا على بن أبى طالب ؛ فإنه كان أصغر أبناء أبى طالب ، فلما تزوج سيدنا رسول الله ﷺ أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - ، وكان الإمام على صغير السن استأذن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم عمه أن يضمه إليه ، حيث رأى أن فى هذا بعض مكافأة لعمه لقاء كفالته له وهو صبى .

وفعلاً نقل عليًّا - رضي الله عنه - إلى دار سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث نشأ نشأة طيبة ، وأن تعلمه القراءة والكتابة إنما يعزى لسيدنا رسول الله ﷺ ، وليس لأبيه أبى طالب ؛ ذلك لأنه - رضى الله عنه - تربى فى بيت سيدنا رسول الله ﷺ ونشأ فيه ، فإلى سيدنا رسول الله ﷺ يسند فضل تربيته وإتاحة الفرصة له ليلجأ إلى من يعلمه القراءة والكتابة من الفريق الذى كان يحرص على تعلمها وتعليمها .

ولقد تولى الشيخ الجليل محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - فى تفسيره

مسألة إثبات أمية سيدنا رسول الله ﷺ الواردة فى الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف التى تقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (سورة الأعراف)

فقال : ١ - إن الأمية بالنسبة لسيدنا رسول الله ﷺ شرف ؛ لأنه وهو الأمى ، علمه الله - سبحانه وتعالى - علماً عظيماً ، وعلوماً كثيرة ، تفوق بها على كثير من الناس .

ولقد عاصرنا حفَّاظاً للقرآن الكريم حفظوه بالتلقين من أفواه المحفِّظين ، دون أن يتعلموا القراءة والكتابة ، وكانوا أميّين ، بل إنهم رحمهم الله كانوا يحفظونه بأحكام تلاوته وتجويده .

ثم إن من حرم نعمة البصر من طلبة العلم وحفَّاظ القرآن ، وكثير ماهم حفظوه أيضاً بالتَّلقى عن المحفِّظين وحفظوه بأحكامه وتجويده بالقراءات السبع .

ويكفى للتدليل على ذلك ذكر المرحوم الشيخ محمد رفعت .

٢ - إن الذى أنزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ إنما هو الله الذى خلقه واصطفاه نبيًّا ورسولاً ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته فأنزل به جبريل على قلبه ، حيث نقش عليه ، وفاض على ذاكرته القوية ، وذكائه المتوقِّد الذى اعترف به هذا المؤلف ، وغيره من المستشرقين ، فحفظه ووعاه وعلمه لأصحابه وأملاه على كتبة الوحى ، قال الله سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء من الآية ١٩٢ إلى ١٩٩ :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

٣ – إن ما أورده المؤلف فى كتابه بخصوص هذه المسألة ، قال به المنكرون الذين كفروا بما نزل على سيدنا رسول الله ﷺ حسداً من عند أنفسهم وسجل الله سبحانه وتعالي عليهم موقفهم هذا فى سورة النساء فى الآية ٥٤ .

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

(سورة النساء)

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية . .

[يعني بذلك حسدهم النبى ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، وقد منعهم من تصديقهم إياه حسدهم لكونه من العرب ، وليس من بنى إسرائيل] .

٤ – إن الله سبحانه وتعالى أثبت لنبيه ورسوله محمد ﷺ هذه الأمية فى آية من سورة العنكبوت هى الآية رقم ٤٨ فقال تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

أى قد لبثت فى قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمراً ، لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته ﷺ فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم .

وفى هذا ردٌ كاف على كل من يزعم أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يقرأ ويكتب .

ومما يدل على أهمية هذه القضية وخطرها أن ضمير العلماء المسلمين وعوامّهم يحرصون دائماً ، قديماً وعلى مر الزمان ، على إثبات وثبوت أمية سيدنا رسول الله ﷺ ، وعلى أن يجعلوها قضية مسلمة فى وجدان كل مسلم ، ترقى إلى مستوى العقيدة ما حدث مرة من قصة أوردها الإمام ابن كثير فى

تفسيره للآية ٤٨ من سورة العنكبوت ، المذكورة من أحد متأخّرى الفقهاء وهو القاضى أبو الوليد الباجى ، ومن تابعه ، زعموا أن سيدنا رسول الله ﷺ قد كتب يوم الحديبية وعدوا ذلك معجزة من معجزاته - عليه الصلاة والسلام - مستندين إلى رواية عند الإمام البخاري « ثم أخذ فكتب » وهذه محمولة على الرواية الأخرى « ثم أمر فكتب » وعند ذلك اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى وتبرّأوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالاً وخطبوا فى محافلهم . وإنما أراد الرجل - يعنى الباجى - فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا أنه كان يحسن الكتابة] . . إنتهى كلام ابن كثير بتصرف .

هذا ما اعتمدت عليه فى إثبات أمية سيدنا محمد نبى الله ورسوله ﷺ ، وقد أردت بذلك دحض مزاعم هذا الكاتب چورچ بوش ، من أنه ﷺ كان يقرأ ويكتب ليقينى أنه لا يقصد بذلك تمجيداً له - ﷺ - إنما هو يقصد بذلك أن يوهم المتلقّين من قومه أن القرآن من تأليف نبيّنا ﷺ . توصلاً لتكذيبه عليه الصلاة والسلام ، ونفى صفة المعجزة الكبرى عن القرآن الكريم . وبذلك يحقق هذا الكاتب هدفه الذى يقصده من هدم الإسلام من أساسه ، ولكنه لم يستطع ذلك ، ولن يستطيع غيره ممن ينسجون على منواله إلى يوم الدين ، ويكفى أن نقرأ الآية الشريفة رقم ٣٣ من سورة التوبة :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويؤيدنى فى ذلك :

١ - الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى كتابه (القاموس القويم للقرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣) الجزء الأول ص ٣٤) .

* والأمي : من لا يقرأ ولا يكتب . قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة البقرة)

وقال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الجمعة)

الرسول : هو محمد ﷺ بعثه الله فى الأميين : أى فى العرب ؛ لأن معظمهم كان لا يقرأ ولا يكتب .

٢ - الدكتور محمد سالم أبو عاصي الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين - بالقاهرة فى كتابه [أمية الرسول ﷺ ، كما يصورها القرآن الكريم » ص ٥] .

- مدلول الأمية فى لغة العرب - .

(أ) يقول الفيروزأبادى « والأمي والأميان من لا يكتب : أو من علي خلقة أمه ، لم يتعلم الكتابة وهو باق على جبلته (على بداية طفولته طول عمره) .

(ب) المفردات للراغب : والأمي هو الذى لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الجمعة)

قطرب : (الأمية) الغفلة والجهالة . فالأمى منه ، وذلك هو قلة المعرفة ومنه قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة البقرة)

أى إلا أن تتلى عليهم .

قال الفراء : هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (سورة الأعراف)

قيل منسوب إلى الأمة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم . كقولك عامى ؛ لأنه على عادة العامة ، وقيل سمى كذلك ، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة له لاسْتِغْنَائه بحفظه واعتماده على ضمان الله له بقوله :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الأعلى)

وما قاله صاحب القاموس وصاحب اللسان يمثل خلاصة ما تقوله المعاجم اللغوية ، كما يمثل الراغب أدق تفسير للأمى والأمية ؛ لأنه اهتدى فيه بكتاب الله :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

ولأنه بين بعض الاجمال الذى فى كلام اللغويين ؛ لأن عدم الكتابة قد يكون لعائق ، ولا مانع من الكتابة مع علمه بها وبالقراءة .

هذا هو معنى كلمة الأمية فيما تقضى به اللغة العربية ، وذلك هو قول أئمة اللغة فيها ، استقاء من استعمالات مادته فى كلام العرب ، وفى القرآن الكريم ، ومن ثمَّ فإن علماء التفسير لم يسعهم أن يفسروا كلمة « الأمى » بغيره حينما وردت فى كتاب الله عز وجل :

وما زلنا مع الدكتور محمد سالم أبو عاصى :

الآيات الدالة على أمية الرسول ﷺ وأقوال بعض المفسرين لها .

ذكر الدكتور محمد سالم الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف .

وحديث سيدنا رسول الله ﷺ الوارد فى جامع البيان : « إنَّآ أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » .

قال الزجاج : معنى الأمية : الذى هو على صفة أمة العرب ، فإن العرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون ، والنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان كذلك .

قال أهل التحقيق : وكونه أميًّا بهذا التفسير ، كان من جملة معجزاته ، وبيانه من وجوه :

وسرد ما قاله الفخر الرازى ، وقد سبقت الإشارة إليه فيما تقدم .

هذا بعض ما قد فتح الله به على الأستاذ الجليل الدكتور محمد سالم أبو عاصى – أكرمه الله – فى التدليل علي حقيقة أمية سيدنا رسول الله ﷺ وأنه بالحق كان لا يقرأ ولا يكتب ؛ لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة .

وإنى أقول باطمئنان وسكينة : إن سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ كان أمّياً ، بمعنى أنه لم يتعلم القراءة ولا الكتابة طيلة حياته وحجتى فى ذلك ما يأتى :

١ - إن هذا القرآن من عند الله - سبحانه وتعالى - ، وهو يعلم بسابق علمة أن كتابة واحد ؛ لأنه كلامه ووحيه ، سواء فى صحف إدريس ، أو فى صحف إبراهيم ، أو فى التوراة التى أنزلها على موسى ؛ والصحف التى أنزلت عليه أيضاً ، أو فى الإنجيل الذى أنزله على عيسى بن مريم ، أو الزبور الذى أنزله على داود، أو القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليهم جميعاً وسلم تسليماً كثيراً ، ويعلم بسابق علمه أنه ذكر اسم « محمد » رسولاً ونبيًّا خاتماً للمرسلين ، وذكر صفاته وأوصافه ، ومنها أميَّته فى جميع هذه الكتب والصحف ، وذكر مع كل ذلك أوصاف صحابته الكرام - رضى الله عنهم - ، وحيث أنه سبحانه وتعالى وهو الذى أنزل القرآن الكريم علي نبيه محمد بن عبد الله عليه الصلاة وأزكى السلام ، فإنه يعلم بسابق علمه أن النبى الكريم محمد ﷺ يتلقى القرآن ، وفيه أخبار الأنبياء السابقين من آدم - عليه السلام - إلى نبى الله عيسى - عليه السلام ، - وكذلك أخبار أممهم فى أحسن القصص التى تضىء ما بين دفتي القرآن الكريم ، ويعلم بسابق علمه القديم أنه سبحانه وتعالى قد جعل نبيه محمداً ﷺ وأمته شهوداً على الأمم السابقة والأنبياء والرسل السابقين ، وأراد سبحانه وتعالى أن يكون القرآن المعجزة الكبرى لهذا النبى العظيم ، فصرف نبيه محمداً ﷺ عن تعلم القراءة والكتابة ، حتى إذا تلقى العلوم التى يطويها ، وباح بها ليعلمها لأمته ، لا يوعز علمه بها إلى غير القرآن ، وتكون الحجة على من يدَّعى غير ذلك ، وتكون شهادته وشهادة أمته على الأمم السابقة والأنبياء والرسل السابقين ، مستمدة من شهادة الله سبحانه الواردة فى القرآن الكريم ، وحتى يثبت بيقين أنه تعلم من الوحى نفسه ، لا من الكتب التى فى أيدى أهل الكتاب ، وتثبت بذلك المعجزة له عليه الصلاة والسلام .

أما ذكره عليه الصلاة والسلام فى الكتب السابقة من التوراة والصحف والإنجيل ، فثابت فى القرآن الكريم .

١ - الآيتان ٨١ من سورة آل عمران :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

٢ - الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

٣ - الآية ٦ من سورة الصف) :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الصف)

٤ - حديث سيدنا رسول الله ﷺ روى الإمام البخارى - رضى الله عنه - فى صحيحه فى كتاب البيوع : عن عطاء بن يسار قال : (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل . ليس بفظ ولا غليظ ولا سخَّاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً) .

صحيح البخارى طبعة دار الشعب - الجزء من ١ إلى ٣ .

وأما ذكر أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ .

فى التوراة والإنجيل فيتضح من آخر سورة الفتح آخر أية :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الفتح)

والله يعلم بسابق علمه أن أهل الكتاب سيطلعون على هذا القرآن ، ويجدون أخبار الأمم السابقة ، وأخبار الأنبياء والمرسلين ، ويقرأون أوصاف النبى ﷺ ، وأوصاف الصحابة رضوان الله عليهم ، وأهل العلم منهم سيجدون هذه الأوصاف مطابقة تماماً لما ورد فى الكتب المقدسة عندهم فيؤمن منهم من يؤمن . وأما الذين فى قلوبهم زيغ ويؤثرون الإعراض عن النبىّ ﷺ وتكذيبه ، فإنهم كانوا سيستغلون القراءة والكتابة ، لو كانت متوفرة عنده ، ليقولوا إنه اطّلع على كتبهم وألف كتابه ، لذلك فإننا نري أن الله سبحانه وتعالى هو الذى حجب النبى ﷺ عن تعلم القراءة والكتابة ، ليقطع الطريق على المتخرصين المكذبين الضالين المضلين ، فيفشلوا فى نسبة القراءة والكتابة إليه عليه الصلاة والسلام ، وبهذا يفشلون فى نسبة القرآن الكريم إليه .

وهذا يتفق مع مراد الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى اختاره واصطفاه نبيًّاً وخاتماً للمرسلين ، فوفق بين وقائع حياته كلها وبين الرسالة التى يعده لها ، فجعل سياق حياته يؤدى إلى تحمله هذه الرسالة ، وليس سيدنا رسول الله ﷺ بدعاً فى ذلك ، وإنما الذى يقرأ قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام

يجد قدرة الله سبحانه وتعالى هي صانعة أحداث هذه القصة بالتسلسل الذى نلمسه فى القصة (السيناريو) لتظهر نبوته ويباشر دعوته ، ويتبوأ منصبه وزيراً حاكماً لمصر ، ويرفع أبويه على العرش ، كما جاء فى الآية رقم ١٠٠ من سورة يوسف :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وتعتبر كل حادثة مرت به درجة ، صعد عليها لتسلمه للدرجة التى بعدها ، حتى وصل درجة النبوة التي صعد بعدها العرش الذى رفع أبويه عليه . كذلك كانت مهنة رعى الغنم درجة صعد عليها النبى - ﷺ - إلى درجة عدم تعلمه القراءة والكتابة التى صعد عليها إلى التجارة فى مال أم المؤمنين خديجة التي صعد عليها ليصل إلى الزواج منها - رضى الله عنها - التى سلمته إلى حب الخلوة ، والنزوع إلى التعبد الذي سلمه إلى درجة تلقى الوحى ، إلى بعثته نبياً ورسولاً ... إلخ ، وكل هذا من تدبير العزيز الحكيم سبحانه وتعالى . فلو أنه اختلط بأهل الكتاب من طائفتي اليهود والنصارى على كوكب الأرض جميعاً ، ما كان سيتعلم القراءة والكتابة ؛ لأن هذا لم يكن ليقع إلا بمراد الله سبحانه ، وقد أراد له أن يكون أميًّا لا يقرأ ولا يكتب لحكمة اقتضاها ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

٥ -

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٦ -

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

يتبين من الآيات القرآنية السابقة أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب للنبى محمداً ﷺ بالإضافة إلى مقام النبوة ، ومقام الشفاعة ، مقاماً آخر ، هو مقام الشهادة على الأمم السابقة والأنبياء السابقين ، بمقتضاها يشهد على أن أنبياء الله ورسله السابقين قد بلّغوا أقوامهم رسالات الله ، وأنهم أدّوا الأمانة خير أداء ، وعندما ينكر أقوامهم ذلك بطلب شهادة أمة محمد ﷺ فيشهدون أمام الله ، بأن الأنبياء والمرسلين قد بلغوا رسالات ربهم ، فيقول لهم الأقوام كيف تشهدون على شىء لم تروه ؟! فيقول الشهود من أمة محمد ﷺ إن محمداً قرأ علينا القرآن وعلمنا ذلك .

وأنت ترى أن الأمة المحمدية تشهد على الأمم السابقة بثبوت تبليغ أنبيائهم لهم رسالات الله سبحانه وتعالى ، وإن كانوا لم يعايشوهم ، ولم يعاصروهم ، ولكن يوثّقون شهادتهم بالقرآن الكريم .

الله سبحانه وتعالى كان يعلم بسابق علمه هذه الشهادة، ويعلم أن المنكرين لرسالة الإسلام ونبى الإسلام عليه الصلاة والسلام ، سيطلعون على القرآن الكريم ، ويدركون وجود آيات فيه تشبه بعض ما ورد فى الكتب السابقة ، وأن هذه الآيات ستكون تكأة لهم فى محاولة إثبات أن محمداً ﷺ نقلها من الكتب السابقة المتداولة فى أيدى الكهان ، ويعلم بسابق علمه ، أن حياة سيدنا رسول الله ﷺ لن تخلو من اتصال بينه وبين علماء أهل الكتاب ، أو لقاء يجمع بينه وبين أحدهم ، وفى هذه المرحلة من عمره ، يكون الله سبحانه وتعالى قد صرفه تماماً عما هو سائد من عبادة غيره ، من الأوثان والأنصاب ويبغّض ذلك إليه ، حماية له من أن يسجد لغيره ، وأنه عليه الصلاة والسلام مشحون من قبل الله سبحانه وتعالى بعواطف تصله بالله الواحد الأحد ، فساعة يسمع اسم الله يلهج به لسان أى واحد من هؤلاء العلماء ، فإنه سيستمع إليه ، ويحاوره ، ويعلم بسابق علمه أن حاسديه من أهل الكتاب - فى مستقبل أيامه - سيفسرون هذه العلاقات على أنها تلمذة من محمد ﷺ على أيدى هؤلاء العلماء ، وأنه تلقى

منهم أخبار الأمم السابقة التى وردت فى التوراة والإنجيل ، فلو كان نبى الله محمد ﷺ كان قد تعلم القراءة والكتابة ، لوجد حاسدوه الدليل على صدق دعواهم ، لاسيما وإن الملَكات التى حباه الله بها ، والذكاء الذى كان يتمتع به ، والرفض التام من جانبه لعبادة الأوثان ، والتنافر بينه وبين حياة الجاهلية وعاداتها الذميمة ، وميله دائماً إلى العزلة هذا الميل الذى حال بينه وبين تعاطى أى خصلة من خصالها ، أو طقس من طقوسها ، كل ذلك كان رصيداً لحاسديه ، يؤيد حجتهم فى أنه كان يقرأ ويكتب من الكتب السابقة ما ساعده على اختراع دينه الجديد .

فإذا كان ذلك ، وكان الثابت بيقينَ أن الله اصطفاه نبيًّا ورسولاً ، وأنه اختار له أباه واختار له أمه ليكون ابناً لهما ، فإنه سبحانه وتعالى اختار طفولته لتكون طفولة النبى ، واختار صباه ليكون صبا النبى ، واختار شبابه ليكون شباب النبى ، واختار شيخوخته لتكون شيخوخة النبى ، واختار حياته لتكون حياة النبى وميّز كل مرحلة من مراحل عمره عن مراحل عمر غيره ، فزكى مراحل عمره ، وعصمه فيها ، وعلى ذلك فإنه يتضح من هذا بجلاء أن اصطفاء الله له عليه الصلاة والسلام ليكون النبى الخاتم لم يفاجئه ، ولم يفاجئ الناس وهو فى سن الأربعين ، وإنما اصطفاء الله قديم أزلى يظهر فى جميع مراحل وجوده عليه الصلاة وأزكى السلام ، وهذا تفسير لحديثه الشريف الذى رواه الإمام أحمد رضى الله عنه فى مسنده الذى يقول فيه :

(كنت نبيًّا وآدم منجدل فى طينته) ..

وهذا يفسر طهارته ونصاعة سيرته ، وعظمة خلقه ، وحسن سلوكه ، وحلو شمائله ، ونقاء سريرته ، ونبل عواطفه ، وتوقد ذكائه ، وسلامة قلبه ، وعذب حديثه ، وعلو همته ، وفصاحة لسانه ، وسموّ تفوقه ، وبهاء طلعته ، وجمال عشرته ، وصدق حجته ، وروعة حكمته ، وجمال طبعه ، وقوة

شخصيته ، وعفة لسانه ، وطهارة وجدانه ، في جميع مراحل عمره الذى كانت كل لحظة منه ظرفاً لفعل أسعد البشرية كلها ، وأخرجها من الظلمات إلى النور ، فسبحان من عصمه طفلاً صغيراً ، وصبياً منفتّحاً ، وشاباً يافعاً ، وشيخاً وقوراً ، وكان في كل ذلك نافعاً لبنى الإنسان ، رحيماً بالإنسان والحيوان ، وشفوقاً حتى على الجماد ، واستغنى بعناية الله سبحانه وتعالى عن عناية المخلوقين ، ومن هنا تسقط دعوة چورچ بوش أنه كان يقرأ ويكتب التى قال بها چورچ بوش ، وتسقط معها أدلته التى استند إليها فإن عمه أبا طالب لم يكن هو الذى يوجهه أو يربيه أو يعلمه إنما الذى خلقه ووجهه ورباه وبذل له عنايته ، هو الله رب العالمين ، وهو سبحانه الذى اختار له أن يكون أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يحسب لحكمة عنده سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة القصص)

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن لم يكن أبو طالب هو الذي يرعى نبى الله محمداً أو يربيه ، حتى نطالبه بأن يعلمه القراءة والكتابة ، وإنما الذى رعاه ورباه ووجهه وسلك به المسلك الذى أراده له ، إنما هو الله سبحانه وتعالى ، وقد قرر ذلك هو نفسه عليه الصلاة والسلام فقال :

[أدبنى ربى فأحسن تأديبى] ..

وسجل الله سبحانه وتعالى هذا فى القرآن الكريم فى الآية رقم ٤٨ من سورة الطور :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾

إن سيدنا رسول الله ﷺ كان بأعين الله جنيناً مباركاً ، وكان بأعينه طفلاً طاهراً ، وكان بأعينه صبياً يافعاً ، وكان بأعينه شابًّا فتيًّا ، وكان بأعينه شيخاً وقوراً ، وكان بأعينه نبياً ورسولاً ، وبشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

فأين أبو طالب من كل هذا .. حتى نتصور أن نسند إليه شيئًا من هذا .. وخاصة تعلّم القراءة والكتابة . ويكفينا أخيراً قول الحق عز وجل فى الآية ١١٣ من سورة النساء :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

أيُّها القارئ الكريم : سقطت ادعاءات چورچ بوش التى رددها فى كتابه ، من أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يقرأ ويكتب بغية إثبات بشرية القرآن ، وأنه من

تأليف سيدنا محمد ﷺ ، ولعلك تبينت معي هدف هذا الكاتب من هذه الادعاءات .

وإننا نقول مع الشيخ محمد متولى الشعراوى : لقد كانت أمية سيدنا محمد ﷺ شرفاً له ، ودليل ثبوت لمعجزة القرآن الكريم الكبرى . آمنا بالله وبكتابه ونبيه وبالأنبياء والرسل أجمعين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

* * *

الفصل الثانى

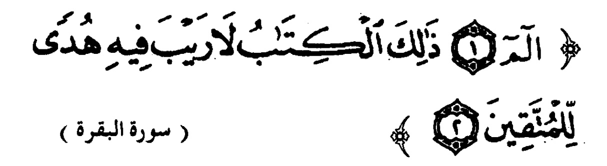
قضية القرآن الكريم

ما هذا القرآن الكريم الذى أثار فى هذا الكاتب كوامن الحقد ، فذهب سادرا في غيّه - يخرج من مخزون عقله الباطن الحيلة بعد الحيلة ليثبت وهو فى حالة إعياء شديد أن محمداً رسول الله ﷺ هو واضع القرآن ومؤلفه ؟

مـا هذا الذى يسطع فى هذا الكتاب الكريم فجعل هذا الرجل يرتجف فى داخله ، ويعلن الحرب على نور الفطرة فى داخله فيتخبط بوصف القرآن الكريم بهذه الأوصاف التى سبق لغيره من المعاندين حين سمعوه فأطلقوا عليه هذه الأوصاف فى داخل كلمات هى نفس الكلمات التى نفثها هذا المؤلف فى سطور كتابه وفيما بين السطور ؟ !

إننا نريد أن نصحب فى طريقنا للرد عليه أساكيب من نور هذا الكتاب الكريم ، تستضئ بها قلوبنا ، وتستنير بها عقولنا ، وترشد بها خطواتنا ، ويصبح القلم مصباحاً تكشف الأضواء الساطعة منه خباياً النفس من هذا المؤلف ، لهذا الكتاب فهيا بنا :

١ -



(سورة البقرة)

- ٢

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

- ٣

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ما أبان الله لخلقه من فرضه على رسوله اتباع ما أوحي إليه وما شهد له به من اتباع ما أمر به ، ومن هُداه وإنه هاد لمن اتبعه .

هذا باب من أبواب كتاب « الرسالة » للإمام محمد بن إدريس الشافعي - رضي الله عنه (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - مكتبة دار التراث ٢٢ شارع الجمهورية بالقاهرة ص ٨٥ وما بعدها بند ٢٨٢ وما بعده . وردت فيه آيات من القرآن ، ولقد نقلتها بترتيبها في الكتاب ؛ لأنها كلها تشهد بأن القرآن الكريم من عند الله وحياً إلى سيدنا محمد ﷺ .

١ -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

٢ -

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

٣ -

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الجاثية)

٤ -

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

٥ -

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشورى)

٦ -

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفى بند ٢٨٨ قال الإمام الشافعى عن - المطلب بن حنطب - أن رسول الله ﷺ قال : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله به ، إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه، إلا وقد نهيتكم عنه » . وإن الآيات التى أوردها الإمام

الشافعي في الرسالة على النحو المبين سابقاً ، كلها يتضح منها بجلاء أن القرآن من عند الله .

وفي هدى هذه الآيات ، وما يذكر من آيات بعد ذلك ، يكون الرد على هذا الكاتب وزملاءه من المستشرقين إن شاء الله تعالى ، لقد مهّد المؤلف لمقولته الفاسدة بتأليف سيدنا رسول الله ﷺ للقرآن الكريم ، بما يعتبره بعض قصار النظر طريقة للبحث العلمي .. بينما هو نوع من الضلال الخادع ، والفساد في الاستدلال .

فهو يتهم الفترة التي بعث فيها سيدنا محمد ﷺ فترة خراب في كل المصادر المتاحة له . ومن ثم فإنه يجهل الظروف التي جعلته عليه الصلاة والسلام يضع خطة أصلية لنشر دينه الجديد (!!) وكأن دين الإسلام مذهب فلسفي اخترعه سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم بدأ يرتب النتيجة التي انتهى إليها على هذا الاعتبار .

ومن ثم انساق مع مسلسل من الأفكار التي لا تمت إلى الحقيقة بأية صلة ، ومن هذه الأفكار – ونسميها الوساوس – أنه عليه الصلاة والسلام كان منهمكا في تأملات دينيّة ، ومن خلال هذه التأملات اكتشف أن العالم قد فسدت عقيدته فأصبح مشركاً بالله ، فانبري من تلقاء نفسه يدعو للتوحيد « توحيد الله » وأخلص في ذلك وحقق نجاحاً انبهر به هو نفسه .

ومن أفكار المؤلف الخاطئة ، أن سيدنا محمداً ﷺ لديه خطة عميقة ومنظمة عمل بدهاء ووعى على تحقيقها ، فتظاهر بأن المَلَكْ يأتيه ويلقّنه سورا من القرآن راح يشيعها باعتبارها وحياً إلهيًّا . واعتمد في ذلك على عبقريته الشخصية ومركز قبيلته المرموق ، ثم أسفاره المتعددة داخل البلاد العربية وغيرها ، مما كان سبباً في اطلاعه على كتب أهل الكتاب .

وأيضاً الأحوال السياسية في ذلك الزمان تدعم مشروعه بالنجاح ، ورتب

على كل هـذه المقدمات الواهنـة نتيجة خاطئـة ، وهي أنه رسم خطة لتحقيق هذه الأهداف بدأها بالاختـلاء فى غار حراء وادعائه (!!!) نزول الملك عليه بالقرآن الكريم .

واطمـأن هذا المؤلف إلى أنه قـد أثبت أن القـرآن الكريم من تأليف سـيدنا محمد ﷺ ، وليس وحياً ، كما يدعى (!!!) . والحقيقة التى لا لبس فيها هى أن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالي ، ونزل به جبريل عليه السلام على سيدنا محمد نبى الله ورسوله ، وهو الذى يبدأ ﴿ بِالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وينتهى بقوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ، وهو المتعبد بتلاوته .

والواقع يقول بصدق : أن شخص سيدنا رسول الله ﷺ والقرآن الكريم لا يفترقان ، فمن صدّق سيدنا رسول الله صدّق القرآن ، ومن صدّق بالقرآن صدق بسيدنا رسول الله ﷺ ، ومن طعن فى واحد منهما ، طعن فى الآخر ، فمن آمن بالقرآن ، آمن بسيدنا رسول الله ﷺ ومن كفر بالقرآن الكريم ، فقد كفر بسيدنا رسول الله ﷺ .

وبمطالعة ما كتبه هذا المؤلف چورچ بوش فى حق القرآن هو نفسه ما قاله فى حق سيدنا محمد ﷺ ، ويقصد بالقولين الإيحاء لقومه بأن محمداً ﷺ لا يزيد عن كونه زعيماً سياسياً ، صاحب مشروع سياسى ، وضع لتنفيذه خطة غلّفها بغلاف الدين الذى استقى علمه ممن الْتقى بهم من أهل الكتاب ، النصارى فى مكة ، واليهود فى المدينة ، الذين استعان بهم فى تدبيج القرآن الكريم الذى بدعوته إلى دينه وبحياته وأفعاله ليس إلا حلقة فى سلسلة الثورات السياسية ، إلا أنها فى حجمها وأهميتها .. لا تقل عن الثورات العظمى التى شهدها التاريخ ، فالثورات يظهر فيها بوضوح العقوق وعدم التقوى ، لدرجة أنها تستعيد كل فكرة عن قضاء الله وقدره ، أو بتعبير آخر تستبعد ما قضى الله به . ص ١٦٥ من الترجمة .

والذى يثير الدهشة .. أن المؤلف عجز تماماً عن تقديم أى دليل على صدق ما يقرره ، وكلما شعر بالعجز شكي من فقر المراجع العلمية ، أو لجأ إلى الشتم والسباب وكلاهما دليل قاطع على جهله ، وحقده اللذين التقيا فولّدا الخداع الذى يظهر فاضحاً مفضوحاً فى كل عباراته التي يتحدث بها عن القرآن الكريم ، وعن شخص سيدنا رسول الله ﷺ ، وما ذلك إلا لمرض فى قلبه ، تظهر أعراضه من خلال كل حرف من كلماته فى هذا الشىء القبيح الذى أسماهُ كتاباً وصدق الله العظيم إذ يقول فى سورة البقرة الآيتين ٩ ، ١٠ :

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠ ﴾

(سورة البقرة)

وبأسلوبه الذى اتبعه هذا الكاتب ، جعلنا نعود إلى إثبات صدق سيدنا رسول الله ﷺ الذى به يثبت أن القرآن كلام الله ، ثم بعد ذلك نقدم من القرآن الكريم نفسه ما يثبت أنه من عند الله ، وأنه لا يتسنى لغيره سبحانه وتعالى أن يأتى بمثله ، وفى هذا كله نستعين بالله سبحانه وتعالى ، فمنه الرجاء وإليه نتوجه بالدعاء أن يلهمنا الرشد والصواب ..

سبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

***

كيف كان بدء الوحى

بهذا السؤال بدأ الإمام البخارى ـ رضى الله عنه ـ يتحدث عن القرآن الكريم ، وعن سيدنا رسول الله ﷺ مخصصاً لذلك باباً من أبواب صحيحه ، الذى طبعته دار الشعب بعد مراجعته وتصحيحه من حشد من العلماء جزاهم الله خيراً .

جاء فى الجزء الأول من المجلد الأول ، طبعة ١٣٧٨ هـ ما يأتى :

عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى ـ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا ـ إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد فى الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء فجاءه الملكُ فقال :

اقرأ ! قال ما أنا بقارئ : قال : فأخذني فغطّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ ! قلت : ما أنا بقارئ ؛ فأخذنى فغطّنى الثانية حتى بلغ مني الجهد ؛ ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ! فقلت : ما أنا بقارئ ؛ فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة العلق)

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فقال : زمّلونى ! فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة :

[كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق] ..

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل ، بن أسد بن عبد العزي ابن عم خديجة ، وكان امْرأً تنصَّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك ! فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ .

فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعاً .. ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك (!) فقال رسول الله ﷺ :

أو مُخْرجِىّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِىَ . وإن يدركنى يومك ، أنصرك نصراً مؤزّراً ، ثم أينشب ورقة أن توفى وَفَتَرَ الوحى.

قال جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال فى حديثه :

« بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملونى » فأنزل الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة المدثر)

إلى قوله تعالى : ﴿ والزجر فاهجر ﴾ .

٢ - عن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام - رضى الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ .

« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ فينفصم عنى ، وقد

وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً ، فيكلمنى فأعى ما يقول .

قالت عائشة - رضى الله عنها - : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . (البخارى - دار الشعب - الجزء الأول ص ٢ ، ٣) .

هذا حديث صحيح قطعى الثبوت وقطعى الدلالة بما أجمعت عليه الأمة من أن صحيح البخارى وصحيح مسلم هما أصحا كتابين بعد القرآن الكريم .

وعندما نقرأ هذا الحديث قراءة التأمل والوعى ، نتأكد تماماً من أن الحدث الذى انطوى عليه ، لم يقع دون مقدمات سبقته ، وساقتنا للتصديق بكل كلمة احتواها .

ذلك أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يكن على وفاق مع ما كان عليه القوم من عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب ، وما يتخذونه من أزلام ، وما يحيونها من حياة مادية يتعاطون فيها الملذات من مصادرها المشبوهة ، ويقهر القوى منهم الضعيف ، ويظلم الغني منهم الفقير .

ويتعاطون الخمور ، ويرتادون الخيام مهد الشيطان ومخادع البغايا ذوات الرايات الحمر ، وباختصار كانوا يزاولون حياة كلها عبث ومجون ، فى الوقت الذى كان كهنة اليهود والنصارى يستفتحون عليهم ، ويتعالون عليهم بدينهم .

وهو عليه الصلاة والسلام فى مرحلة الإعداد الربانى الذى يضئ الله له فيه قلبه ، ويطهر باطنه من رجس الجاهلية ، فتصفو روحه ، وينشغل فؤاده بنور الحق حتى يأتى اليوم الذى يجد نفسه وقد رست سفينة فكره ووجدانه على جودّى النبوة والرسالة .

قطع عليه الصلاة والسلام تلك الفترة فى تأمل أضاء له الطريق إلى غار حراء ، حتى يتخلص من هذا الضجيج الذى حوله ، وتنقى ثيابه من تراب الهم

الذى يعيشه الناس ، ويتحقق له الصفاء الروحى الذى قسمه الله له ، يميّز الصراط المستقيم الذى هداه الله إليه .

إن موقف سيدنا محمد ﷺ من حياة الجاهلية ، كان موقف الرفض الحاسم والتناقض البين ، فلا هو يقبل الانغماس فى هذا الجو العكر ، ولا هو قابل أن يسلك طريق الكهانة ، بل هو ينشد شيئاً آخر اعتمل فى قلبه وأضاء فؤاده ، ولكنه لم يؤذن له بالتصريح به .

وإذن فلابد من الخلوة التى تنضج هذا الذى يدور فى داخله ، وبعد ذلك تسطع شمسه ليصدع بكلمة الحق التى ملأت عليه كيانه ، وتغلغلت أضواؤها فى فؤاده .

أحب الخلوة ، واختار المكان الذى تحقق فيه هذه الخلوة ، ألا وهو غار حراء .

إن الذى دفعه إلى ذلك يأتيه من داخله ، وليس إرادته الذاتية وحدها إنما نوع من وحى الله سبحانه وتعالى فى طور الإلهام ، الذى تبوح به الآية الشريفة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى الآية ١٥ من سورة يوسف :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وفى الآية ٧ من سورة القصص :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

وإذن فالذى جعله يفكر فى الاعتكاف فى غار حراء ، ليس هو ما كان من عادة العرب إذ ذاك ، أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمناً فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة ، كما قال أستاذنا الكبير الدكتور محمد حسين هيكل - عليه رحمة الله - وإنما حسبما أرى - والله أعلم - ! هو دافع من صنع الله سبحانه وتعالى يخص به النبيين والمرسلين وأولهم سيدنا رسول الله ﷺ الذى وضع الله فى روعه أن يذهب إلى الغار كجزء من السياق الذى دفعه الله فيه لتكتمل فى كيانه النبوة ، ويمده بأسباب القوة على حمل أعباء الرسالة ، أى أن وجوده فى الغار مرحلة من مراحل إعداده نبيا ورسولاً خاتماً للأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليه - كتاب : حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل - طبعة ١٩٦٥ مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة ص ١٣٠ ، ولقد كانت فترة خلوته فرصة سانحة له ابتعد فيها عن جو مكة الكئيب فى ذلك الوقت ، وعن هوائها الفاسد الملوث بأدران الشرك ، والظلم ، والانحلال ، ولم تقع عيناه الشريفتان على الأصنام من هبل ، واللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، هذه الأصنام التي أثبتت فى كل لحظة من لحظات وجودها أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا تنطق ، ولا دفعت عن نفسها سوءاً يأتيها من إنسان أو حيوان أو جماد أو حتى عوامل التعرية .

وتهيأ سيدنا رسول الله ﷺ فى هذا الغار لتلقى كلمات الحق - عز وجل - الفاصلة بين الحق والباطل ، والقاطعة بأن الحق الذى ينشده هو الله الملك الحق المبين ، وأن الحقيقة فى هذا الوجود كله هي لا إله إلا الله التى تحوي فى داخل حروفها نور الحق . ونفحة اليقين .

وإن الباطل يتمثل فى عبادة هذه الأصنام والأوثان ، وفى هذه الحياة البهيمية التى يحياها المشركون .

وفى ليلة عظيمة غراء تجلى الحق سبحانه وتعالى عليه صلوات الله وسلامه

عليه ليجعل منها نهاراً يفيض بالنور والبهجة ، ويعم الكون فيه ضياء الحب ودفء السلام ، نظر فوجد أمامه الملك يقرؤه القرآن .

وعندما عاد إلى زوجته البارة أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - وحكي لها ما حدث ، وما ألم بنفسه من رهبة التبليغ ، ردت عليه بعباراتها التى يتدفق منها نور اليقين ، وهى كانت علي انتظار يتكرر كل يوم وهو أن يأتيها فيخبرها بما كانت متحققة منه أنه نبى هذه الأمة .

واقرأ معى هذه الكلمات لتعرف معى أنها كانت على يقين من أن زوجها سيدنا رسول الله ﷺ هو النبى الخاتم حين حدثها بما يجيش فى صدره من خشية المتاعب التى تنتظره فقالت على الفور .

[لا والله : لن يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر !] .

وما كان ذهابها معه إلى ورقة بن نوفل عمها ! .. إلا لتطمئن على فراستها التى أضاءت لها فطلبته زوجاً لنفسها ، وفراستها التى دلتها على أنه نبى الله الخاتم .

فلما ذهبت معه إلى ورقة وصادق ما عندها اطمأنت على نفسها وعليه - رضى الله عنها - وصلى الله وسلم عليه .

وبذلك أسلمت خديجة سيدتنا وسيدة نساء العالمين وأم المؤمنين ، وأسلم معها ورقة بن نوفل الذى رزقه الله الإيمان بسيدنا محمد ﷺ وأراد الله له أن يؤتيه الله أجره مرتين ، لأنه كان نصرانياً على دين نبى الله عيسى عليه السلام ، فلما تبين له الحق من فم سيدنا رسول الله ﷺ ، بادر إلى تصديقه بأن ما يأتيه إنما هو الناموس الذى أتى به موسى نبى الله - عليه السلام - وصمم على تصديقه ونصره عليه الصلاة والسلام نصراً عزيزاً مؤزراً ، وليس أعلى من هذا التقرير من ورقة من إيمان ، لا سيما وأنه كان من العلماء الذين كانوا ينتظرون قدوم سيدنا رسول الله ﷺ ويعلمون المخلصين من أتباعهم ذلك .

ولا أدرى السبب الذى يمنع المؤرخين للسيرة النبوية ، ودعوة الإسلام ، من المبادرة إلى ذكر اسم ورقة بن نوفل فى عداد أول من آمن بسيدنا رسول الله ﷺ عندما يحصونهم .. إن الحديث الشريف الذى يقص علينا « كيف كان بدء الوحى قطعى الثبوت وقطعى الدلالة على إيمان ورقة بن نوفل ، بأن سيدنا رسول الله ﷺ وهو - محمد بن عبد الله - مرسل من ربّه ، وأن القرآن الكريم كتاب الله أنزله الله ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، فما هو المانع أن نذكر ورقة بن نوفل بأنه أول من آمن من علماء النصرانية ، وأن سيدة نساء العالمين وسيدة رجال العالمين أمَّنا وأمّ المؤمنين خديجة هى أول من آمن من النساء ، وأن الإمام خليفة سيدنا رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أول من آمن من رجال قريش ، وأن الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه ، ورضى الله عنه - هو أول من آمن من الصبيان ؟ .

إننى أقول وقلبى مطمئن أن ورقة بن نوفل منذ صدرت منه عبارات التصديق بسيدنا محمد ﷺ وبالقرآن الكريم أصبح في هذه اللحظة مؤمناً ويسجل بحروف من نور فى سجل الصحابة الأبرار ، وأدعو الله أن يجزيه أحسن الجزاء على كلماته المفعمة بالإيمان التى بشّر بها نبينا محمداً ﷺ ، وبشرنا معه بأنه نبى الله الخاتم ورسوله الأكرم ، وعلى ما حملته هذه الكلمات من معانٍ عليا ، ومن دفقان الحب العاطرة التى دلفت إلى قلب سيدنا رسول الله ﷺ فاطمأن ، وإلى قلب أمنا وأم المؤمنين خديجة فاستقر ، وجنت الأمة الإسلامية من هذه الطمأنينة ، ومن هذا الاستقرار أطيب الثمرات .

رضى الله عن ورقة بت نوفل وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ومن حديث بدء الوحى يتضح بجلاء : أن سيدنا محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً وصدقاً ، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله سبحانه وتعالى أوحي به الله

سبحانه وتعالى إلى نبيه ورسوله سيدنا محمد ﷺ ونزل به جبريل عليه السلام على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

وأما ما ردّده هذا الكاتب چورچ بوش فى كتابه من أن القرآن الكريم من وضع النبى ﷺ فهو باطل باطل ، بل هو البطلان بعينه .

ولولا أنى أرى بعيني وأشعر بقلبى بعض خفاف العقول من قومي ممن افتتنوا بمثل هذه الأباطيل الصادرة عن الحاقدين من المستشرقين والجهلاء من المتعلمين فى الغرب ، ما كلفت نفسي عناء الرد على هذه المقولات الهدامة .

لا سيما وأن هؤلاء خفاف العقول يطلقون على تجمعاتهم أسماء ومسميات - وإن كانت براقة - إلا أنها ما أنزل الله بها من سلطان - ومن المؤسف أنهم يتمكنون من عقد اللقاءات والمؤتمرات ويسمحون لأنفسهم بالهجوم على القرآن الكريم ، وعلى نبينا العظيم سيدنا محمد ﷺ ، وينفقون على هذا الهراء الأموال الطائلة التي يحصلون عليها من طرق مشبوهة ، وتتدفق عليهم من منابع مسمومة ، والخوف الذى ينتابنى ، والقلق الذى يساورنى ليس على هؤلاء المارقين ، وإنما هو على النشء الطاهر من أفلاذ أكبادنا ، أن ننقل إليهم هذه العدوي التى هى أخطر فى نظرى من مرض ضعف المناعة (الإيدز) لأن مرض الإيدز يقضى على المناعة فى الجسم فيموت أفراد .

أما هذا (الإيدز الفكرى) فيقضى على روح الأمة والعياذ بالله فتستسلم الأمة لهذا الغزو الفكرى الذى تهب رياحه السموم من الغرب ، وخاصة رياحه المشتعلة التى تهب لافحة من أمريكا التي تزعم لنفسها انفراداً بقيادة العالم فى هذا العصر البئيس ، فراحت تبطش بالشعوب بطش الجبابرة ، وتحرق الأعواد الخضراء على أراضيها ، وهؤلاء المصابون بمرض « الإيدز » الفكرى يرفعون الرايات البيضاء ، ويسيرون أمام جحافلها المسعورة يفسحون لها الطريق ويخلونها من كل معترض أو محتج .

لولا هذه الكارثة الفكرية ما كلفت نفسى الرد على هذا الكاتب ، ولذلك

أرد عليه وأعتبر أن الأدلة والحجج التي أصفع بها هراءه ، هي جرعات علاج للمفتونين من المثقفين على أرض الإسلام ، وفي الوقت نفسه حصانة لأبنائنا وبناتنا الموجودين والقادمين والله سبحانه وتعالى هو المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أولاً : إنه يزعم فى صفحة ١٤٣ وما بعدها من الترجمة ما يأتى .

وعندما كان أبو طالب على وشك الرجوع بقافلته إلى مكة ، يقال إن بحيرى اعتراه - مرة أخرى - هاجسه إزاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فأظهر مرة أخرى اهتمامه بهذا الشاب غير العادى (أى محمد) صلى الله عليه وسلم اهتم بهذا الطفل واحذر عليه من اليهود ، فابن أخيك هذا سيصبح يوماً ذا شأن كبير .

والكتاب المسيحيون الأوائل يقولون كثيراً على هذا اللقاء بين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا الراهب الشامى بوصفه مفتاحاً يفتحون به مغاليق الأصل الحقيقى للقرآن الكريم ، ومدى موتوقيته . فعلى وفق ما يقولون فإن بحيرى هذا أو سرجيوس ، كان مرتداً عن اليهودية أو المسيحية ، وهو الذى درس لمحمد صلى الله عليه وسلم تاريخ الكتاب المقدس « اليهودى والمسيحى » وما به من عقائد وهو - أى بحيري أو سرجيوس - واضع خطة الدين الجديد الذى هو مزاج متنافر من اليهودية والمسيحية - والذى قدر له أن يظهر بعد ذلك بعشرين عاماً ، وبالتالى فإن بحيراً (سرجيوس) هو المسئول أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم عن معظم السور المهمة فى القرآن الكريم ، وهناك كتاب آخرون يعتقدون أن هذا الشاب ابن الثلاث عشرة سنة لابد أن تلقى فكرة مفصلة عن تكوين دين جديد ، وكيفية الدعوة إليه من بحيرى (سرجيوس) فى وقت لاحق من حياته عندما اقترب من العشرين من عمره أثناء رحلته الثانية إلى الشام ، وهو رأى لا يصدق لكننا كما

سنرى بعد ، لا ندرى كيف ساعد آخرون محمداً صلى الله عليه وسلم فى تدبيج القرآن - الكريم- إننا لا نستطيع أن نصل إلى حقيقة هذا الأمر. بشكل مرضى. فى أيامنا هذه إننا لا نستطيع أن نحل هذه المشكلة أو بتعبير آخر لا نستطيع أن نصل فيها إلى نتيجة مرضية .

وفى صفحة ١٦١ يقول :

١ - كانت عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم واضحة وملهمة ، فقد كانت أسرته « عشيرته » قد وصلت قبل بعثته إلى مرتبة عالية شرفاً وقوة فى مكة ، وكان فقده لوالده فى طفولته مجرد سوء حظ ، فكونه أصبح يتيماً هو الذى منعه من الوصول إلى المنزلة نفسها التى وصل إليها أبوه من قبل .

كان مما يتمشى مع الطبيعة البشرية إذن أن يدبّر محمد صلى الله عليه وسلم الأمر الذى أمكنه ذلك ليكون زواجه من خديجة - رضى الله عنها - الذى أتاح له النفوذ والثروة خطوة يحقق بها لنفسه المزيد من الشرف والمكانة ، ليصل بيته إلى الدرجة التى كان عليها من رفعة وسؤدد .

٢ - لقد ارتحل محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً داخل بلاد العرب وخارجها مما أتاح له التعرف على عقائد ومذاهب الأديان المختلفة فى العالم ، خاصة ما يتعلق باليهودية والمسيحية ، وهما الدينان السائدان آنذاك ، وإن كانت المسيحية قد اعتراها الكثير من التحريف ، والانقسام إلى مذاهب عديدة نتيجة الخلافات الداخلية (أى داخل المسيحية نفسها) ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان مراقباً حصيفاً للناس ، فإنه لم يفشل فى إدراك الارتباك الموجود فى الأديان القائمة ، مما جعل بلاد الشرق فى وضع ملائم تماماً للدعوة إلى نظام جديد . لقد كانت شبه الجزيرة العربية فى غالبها غارقة فى الوثنية ، وإن كان فيها

بقايا من عقائد من زمن الآباء الأوائل (يقصد دين إبراهيم الذى عرف أتباعه بالحنفاء) لدرجة أن محمداً صلى الله عليه وسلم راح يأمل فى إحياء هذه العقائد . انتهى كلام چورچ بوش .

هذا ما أصر عليه چورچ بوش على أنه أدلة على وضع القرآن وأنه ثمرة لعمل ذهنى بشرى ، تعلمه سيدنا محمد ﷺ ، وأنه قد تلقاه من بشر .

وهذه الدعوى العارية عن أى دليل ، المجافية للحقيقة ليست جديدة ، وإنما هى مقولة السابقين من كفار مكة الذين لم يشرح الله صدرهم للإسلام ، وتولى الله سبحانه وتعالى بذاته الرد عليهم ، فأفحمهم وأعجزهم وأصبحوا خاسرين ، والقرآن الكريم شاهد على ذلك ـ الآية ١٠٣ من سورة النحل :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النحل)

كيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل . كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟!! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

الآية ٥ من سورة لقمان :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

ورد عليهم الله بذاته فقال فى الآية ٦ من نفس السورة :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾

(سورة لقمان)

وفى الآية ١٠٢ من سورة النحل :

﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢ ﴾

(سورة النحل)

والآية ١٦٦ من سورة النساء :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾

(سورة النساء)

والآيات ١٠٥ - ١٠٩ من سورة الإسراء :

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩ ﴾

(سورة الإسراء)

والآيات ١٩٢ إلى ٢٠١ من سورة الشعراء :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير الآية ١٩٧ :

أى : أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر القرآن فى كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ، ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى عمن أدركه منهم .

الآية ١ ، ٢ من سورة الكهف :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

الآيات من ١ - ٤ من سورة الرحمن :

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ﴾

(سورة الرحمن)

بل وتحداهم أن يأتوا بمثله أو من مثله على ثلاث مرات - ففى المرة الأولى : ذكر القوم بعجز الإنس والجن مجتمعين على الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم ، فقال فى الآية ٨٨ من سورة الإسراء :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾

(سورة الإسراء)

وفى المرة الثانية طلب منهم أن يأتوا بعشرِ سورٍ مقتربات فقال في سورة هود : الآية ١٣ ، ١٤ :

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ ﴾

(سورة هود)

وفى المرة الثالثة تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فقال فى سورة البقرة : فى الآية : ٢٣ والآية ٢٤ :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وفى الآية ٣٨ من سورة يونس يقول سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

ويلاحظ أن هذا التحدى من جانب الله ـ سبحانه وتعالى ـ للقوم من قريش ليس قاصراً عليهم ، بل هو تحد لكل العرب ؛ لأنهم القوم الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، وإنما خاطب القبائل من قريش ؛ لأنهم أفصح العرب ، وأن سيدنا رسول الله ﷺ منهم .

وأما بالنسبة لتحدّيه للعرب فذلك ؛ لأنهم كانوا يتقنون العربية ، وكانت القبائل تتنافس فيما بينها فى إجادة الكلام ، وفصاحة البيان فى جميع أشكاله من الخطابة والشعر .

يقول الإمام الشيخ الجليل المغفور له محمد أبو زهرة فى كتابه « المعجزة الكبرى ـ القرآن الكريم » دار الفكر العربى ص ٦١ :

[وإذا كان العرب فى عصر الرسالة المحمدية كانت منهم بداوة سائدة ، وحضارة قليلة ، فأكثر العرب ، فى الصحراء العربية إن استثنينا اليمن والحيرة ، وما يصاقب الفرس والشام ، وما يصاقب الرومان ـ كانت البداوة منهم غالبة ولكنهم فى بدوهم وحضرهم ، فى مدرهم ووبرهم ، امتازوا من بين معاصريهم بالنزوع إلى الكلام الطيب .

وكانت سيادة الأمية فيهم سبباً فى أن أرهفوا كلمات لغتهم ، وأسلوب خطابهم وملاحظة جرس الكلمات ، وموسيقى العبارات وانسجام الحروف ، ومؤاخاة المعانى للألفاظ ، حتى إن المنطق يدل على المعنى .

وفى مترادف الكلمات ما يدل على أن المعانى كانت ملاحظة فى كل لفظ ؛ فالأسد يقال له : أسد ، وليث ، وغضنفر ، وغير ذلك من المترادفات لمعني السبع .

فكلمة ليث تقال فى حال ثباته ورباطة جأشه ، وهكذا تجد النطق متلاقياً مع المعنى فهما متساويان ، فالمعنى ملاحظ فى النطق ، والنطق لابس فى المعنى ، وكلاهما يحيط بصاحبه ويؤاخيه ولا ينفصل عنه] .

إنتهى كلام أستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة .

ومما يدل على أن العرب قد بلغوا الذروة فى الفصاحة فى الفترة الزمنية التى شهدت نزول القرآن الكريم ، أنهم كانوا يقيمون مسابقات فى الأشهر الحرم يتسابق فيها الخطباء والشعراء فى أسواقٍ سُميت بأسواق عكاظ، وذى المجن وغيرهما .

يقول الإمام الفضيل بن عياض ـ رضى الله عنه ـ فى كتابه الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى ـ الجزء الأول ص ٢١٧ ، ٢١٨ :

[خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يخصّ به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب . ويرتجزون به بين الطعن والضرب .

ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتواصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآلى ، فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ، ويذهبون الأحن ، ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجبان ، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى ، والنزع القوى ، ومنهم الحضرى (أى ساكن المدن) ، ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية]إنتهى كلام الإمام ابن عياض.

هذا بعض ما وصفت به بلاغة العرب ، وفصاحة بيانهم حين نزل القرآن الكريم بلسانهم العربي المبين ، وعلى ذلك فإذا تحداهم هذا القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ، ثم تبين عجزهم عن كل ذلك فى أقصاه وأدناه ، فلم يكن أمامهم إلا التسليم بهذا العجز فمنهم من سلَّم بذلك وأسلم ، ومن سلم بذلك وظل على كفره .

لقد سجل القرآن الكريم مواقف بعض هؤلاء الذين تلقوه فتباينت مواقفهم ، وهم من أهل الفصاحة والبيان والعلم باللغة وآدابها وأشكالها الأدبية ، ونسوق مثالين للقارئ ونعتذر عن عدم الإكثار لضيق المقام .

أولاً ـ موقف الوليد بن المغيرة :

هذا رجل من قريش يتزعم بيتاً من بيوتها هو بيت (بنى مخزوم) وسبب قوى من أسباب تبوّؤه لهذا المقام الرفيع فى قومه ، هذا السبب هو بلاغته وفصاحته وعلمه بأسرار اللغة العربية ، ثم ينضم إليه سبب آخر جعله من أشراف مكة ألا وهو كثرة ما يقتنى من أموال ، وما ولد له من أولاد ، وينضم إليهما سبب آخر وهو كبر سنه ، مما جعله مسموع الكلمة لقدرته على الحكم على الأشياء .

احتكم إليه قومه من قريش وطلبوا منه أن يقول كلمته فى هذا القرآن الذى يتلوه سيدنا رسول الله ﷺ ، ويقرع به آذانهم ، ويغزو به قلوبهم ويهدّد به سيادتهم وزعامتهم ، ويتهم به عقولهم بالضلال وقلوبهم بالشرك .

وسمع من سيدنا أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ القرآن الكريم فخرج على قومه قائلاً :

يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة (سيدنا محمد ﷺ) فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ، ولا يهذى من الجنون وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى .... ثم قال ليرضى قومه : « إن هذا إلا سحر يؤثره عن قومه » .

فأنزل الله سبحانه وتعالى على سيدنا رسول الله ﷺ من سورة المدثر الآيات من ١١ إلى ٣٠ :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المدثر)

تفسير ابن كثير لسورة المدثر :

ملاحظة :

هذه الآيات تنطوي على معجزة لسيدنا رسول الله ﷺ وعلى إعجاز للقرآن الكريم لحديثه عن واقعة وقعت بعد ساعة نزول هذه الآيات لسنوات كثيرة ، ذلك أن إنذار الله سبحانه وتعالى الذى أنذر به الوليد بن المغيرة فى الآية ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ تحقق فعلاً بموته كافراً ، فقد كان من بين قتلى بدر ، وترك الدنيا كافراً مهينا تتلمظ له النار ، يُلْقَى فيها يعانى لظاها ، مع أنه كانت توفرت له فرصة تتمثل فى خمسة عشرة سنة ، كان خلالها يستطيع أن يعلن الإسلام وينضم لصفوف المسلمين لينجو من العذاب ، وليكذب زعم النبى ﷺ بأنه سيدخل النار ولكنه لم يفعل ، فصدق سيدنا رسول الله ﷺ بموته كافراً واستحقاقه للعذاب الأليم الذى توعده الله سبحانه وتعالى به فى الآيات من سورة المدثر .

ثانياً ـ موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ذهب إلى بيت أخته السيدة فاطمة بنت الخطاب للانتقام منها ومن زوجها بسبب إسلامهما وتركهما عبادة الأوثان ، ومن بين وقائع هجومه على بيتها أنه طلب الصحيفة التى كانا ومعهما جمع من المسلمين يقرأون منها القرآن ، فلما تسلمها قرأ ما هو مسطر بها من سورة (طه) الآيات من ١ إلى ١٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

هنالك خشع قلب عمر ، وصار جبله دكًا وخرّت ساجدة لله كل ذرة من كيانه .. بعد أن تجاوبت مع روعة هذا القرآن الذى صعد بروحه المتشوقة لتعاطى الحق والحقيقة ، إلى الملأ الأعلى ، وتجلى فى قلبه الحق نوراً فى قلبه يشرح صدره ، ويحل عقدة لسانه فأشرقت كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) وشهادة الصدق (محمد رسول الله ﷺ) .

وتلألأت على جدار الزمن آية الهدى وانشراح الصدر بالإسلام ، وانظر الآية رقم ١٢٥ من سورة الأنعام .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

لقد باء عمر بالفوز العظيم بما ورد فى صدر هذه الآية الكريمة وباء الوليد ابن المغيرة بالخسران الوارد فى عجزها .

ليتحقق الفرق جليًّا وواضحًا بين السعداء ومنهم أمير المؤمنين سيدنا عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، والأشقياء المحرومين ، ومنهم الوليد بن المغيرة وصدق الله العظيم إذ يقول فى الآية ١٩ من سورة الرعد :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة الرعد)

ثالثاً :

ولا يفوتنا أن نورد هنا موقفاً لبعض الناس ممن أصيبوا بأمراض القلوب ، ومنها المرض العضال « الحسد » والذين ساقهم هذا المرض إلى الانتحار الفكرى .

هؤلاء بعض الذين حاولوا تقليد القرآن زاعمين أنهم يستطيعون الإتيان بمثله ، فأثبتوا انتحارهم الفكرى ، وخواءهم البلاغى ، وتسببوا بذلك فى تحقير أنفسهم واستهتار الناس وسخريتهم منهم .

فمسيلمة الكذاب حاول أن يحارب القرآن الكريم ، فصار محل سخرية من كل العرب ، قال :

١ - (والليل الأطعم * والذئب الأدلم * والجدع الأزلم * ما انتهكت أسيد من أحْرَم) كلمات جوفاء أراد بها الفصل فى نزاع نشأ فى قومه .

٢ - (والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس) فى نفس الموضوع .

٣ - (ضفدع بنت ضفدعين نقّى ما تنقين ، الملاك فى الماء ، وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها) .

وما قصدت من تسجيل هذا الهراء ، إلا إضحاك القارئ فقط ، لأنى على ثقة من فطنته التى لن تقبل أبداً المقارنة بين ما يقوله هذا الأفاك وبين القرآن العظيم .

مما يقطع بعجز جميع البشر عن محاكاة هذا الكتاب العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

من أجل ذلك كان الله سبحانه وتعالى يوالى مؤانسة سيدنا رسول الله ﷺ ، وتثبيته ، ودعمه بتذكية روحه ، وإزالة ما يكدر نفسه ، وإشعاره بأن الله سبحانه وتعالى معه ظاهراً وباطناً ؛ لأنه يعلم حرصه على إقبال الناس كل الناس على هذا الدين الحنيف والقرآن والذكر الحكيم ، ومثال ذلك ما سطعت به الآية الكريمة من سورة الأنعام التى يقول فيها الحق عز وجل :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

* * *

المبحث الثانى
الرد على چورچ بوش ومن سبقه ومن لحقه من المستشرقين

يتبين من هذا الكتاب محل البحث وملحقاته ، أن چورچ بوش هذا كان أستاذاً للغة العبرية فى جامعة بأمريكا ، وكان قسيساً بإحدى الكنائس ، وعلى ذلك فإنه كان يتعين عليه ألا يتعرض للقرآن الكريم إلا من خلال تخصصه فقط ولا يتعدى ذلك ، وكان يجب عليه أن يتحلّى بالصفات التى يجب توفرها فيمن يريد أن يتصدى لدراسة تاريخ ظهور الإسلام ، وتاريخ نبى الإسلام الحقيقى ، ودراسة ظروف نشأته ودراسة شخصيته ، والظروف الاجتماعية المحيطة به ، وكذلك دراسة المجتمعات المحيطة بالمجتمع الذى نشأ فيه ، والأديان التى كانت سائدة فى تلك المجتمعات وأن يتم ذلك كله فى حيدة تامة ، دون أن يتلوّن بحثه بما يكّن هو فى صدره من عواطف سلبية ضد هذا الدين ، وضد الذى يدعو إليه ثم إنه كان ينبغى على مؤلف الكتاب أن يحترم الذين سبقوه من علماء دينه الذى يعتنقه ، ويتعرض للنبوءات التى تركوها متوهجة فى قلوب تلاميذهم ومحبيهم لاسيما وأن منهم من التقى بسيدنا محمد ﷺ وهو يحمل داخل إهابه قلباً مترعاً بالأشواق الروحية للقاء هذا النبى المنتظر ، الذى قرأ أوصافه فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد من التوراة والإنجيل .

لكن من يطلع على ما قيده المؤلف فى مدونات كتابه المبتور يراه فقيراً من ناحية المعلومات ، ضحلاً من جهة العلم ، دائم الشكوى من عدم توفر المراجع التي يمكن الاعتماد عليها فى الكتابة عن هذا النبى ، فلا يملك القارئ إلا أن يسأل : مادام الأمر كذلك قفراً فى المعلومات ، ونضوبا فى العلم ، وجهلاً بالحقائق .. فما الذى حمل هذا الكاتب على تأليف هذا الكتاب عن شخصية

يجهل عنها كل شيء ؟ فلا يجد إجابة شافية فى طيات الكتاب عن هذا السؤال ، إلا أن الكاتب كان مدفوعاً بالتعصب الأعمى ضد الإسلام ، وضد رسول الإسلام ﷺ هو فقط يريد أن يضم نفسه لصف المستشرقين المتعصبين ليشترك معهم فى حجب حقيقة الإسلام وكتاب الإسلام ورسول الإسلام ﷺ ، مكونين الجدار الثانى الذى صدّ جمهرة المثقفين فى الغرب عن التعرف على هذا الدين ، والداعى إليه مشتركين فى ذلك مع الكنيسة ، حرصاً على سلطانها مهما كانت النتيجة من حرمان شعوب الغرب من العلم ، والإحاطة بهذا الدين .

وإذن فليست الكنيسة وحدها هي التى حجبت حقيقة الإسلام عن الإنسان الأوروبى أو الأمريكى ، وإنما المستشرقون المتعصبون معها ، يتحملون هذه المسئولية الثقيلة ؛ إذ أن الكنيسة هى العقيدة والمستشرقين هم الفكر ، أو أن الكنيسة هى وجدان الإنسان الغربى ، والاستشراق هو العقل . وهل الإنسان إلا وجدان وعقل ؟ .

وقد يرى بعض الباحثين أن أمثال چورچ بوش لم يقراءوا القرآن ، وأنا أخالفهم فى الرأى وأبادر إلى تأكيد أن هذا المؤلف وغيره ممن يَلُفُّون لفّه قد قرأوا القرآن قراءة دراسة ، وقراءة علم وتعلم وتعليم ، وأدركوا مزاياه ، وعرفوا خطورته على مسلماتهم ، فعرفوا أنه دين ودولة وأنه علم وإيمان ، وأنه شريعة تنظم سلوك الأفراد فى المجتمع وينظم العلاقة بين الفرد والدولة ، والدولة والحكومة ، وأنه مسجد وميدان ، وأنه يقيم دولته على أساس من العدل والشورى ، والمسئولية السياسية والمسئولية الجنائية ، وأنه ينطوى على كافة القوانين الدستورية والمدنية والجنائية والمالية ، وأنه ينطوى على نظام تربوى لا يعلو عليه نظام آخر ، وأنه منهج حياة يكفل السعادة لمن يسير على نهجه ، وأنه تشريع متكامل يُصلح المجتمعات فى كل زمان ومكان ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه . وأنه جدير بأن يحل معتقداتهم ، فلما علم هو وأمثاله من المستشرقين ، هذا عن القرآن ، كان صدى هذا العلم خوفاً اعتمل فى قلوبهم على سلطانهم الدينى

أو الدنيوى ، إذ أنه سيحرر الإنسان الأوروبى والغربى من هذا السلطان ، ويحرره من الأصر والأغلال التى فى عنقه ، وينظر فيرى نور الصلة المباشرة بينه وبين الله سبحانه وتعالى دون الحاجة لإنسان مثله يجعله واسطة بينه وبين معبوده رب العالمين سبحانه وتعالى .

وهذا شىء أفزع چورچ بوش القسيس لما رآه نوراً قد خطف بصره فى الآية الكريمة رقم ٦٤ التى تسطع فى سورة آل عمران :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

أفزعت هذه الآية رجال الدين من أهل الكتاب المستشرقين ، لما تنطوى عليه من خطر على مراتبهم الدينية التى تكسبهم المهابة والإجلال ، وتجعل رعاياهم يجلسون إليهم وهم مطأطأوا الرءوس منكسرين ، يعترفون أمامهم بخطاياهم ، وهم يهبونهم العفو والمغفرة ، وبذلك يتحقق لرعاياهم الاستقرار القلبى والسلام النفسى مهما كانت خطاياهم تشكل أعظم الكبائر ، فأصحاب المراتب الدينية رأوا رأى العيان فى هذه الآية الكريمة زوال سلطانهم ، وكسر التيجان التى تتلألأ على رءوسهم فى الكنائس مع أن چورچ بوش قد شكى من هذه الظاهرة فى مواضع متفرقة من كتابه المشئوم .

أما بالنسبة للنوع الثانى من المستشرقين فقد لخص توجههم المستشرق النمساوى ليوبولد فايس فى كتابه [الإسلام على مفترق الطرق] الذى نقل إلى العربية ، وهذا المستشرق سعد بإسلامه وسمى نفسه « محمد أسد » وتولى رياسة قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الباكستانية فترة من الزمن .

ينظر كتاب المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق والأستاذ بجامعة الأزهر سابقاً ـ الفكر الإسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى الطبعة الثامنة ص ١٨٧ وما بعدها .

إلا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ولكنه كان قبل كل شىء ، وفى مقدمة كل شىء شراً ثقافياً ـ لقد نشأ تسميم العقل الأوروبى عما شوهه قادته الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومُثُله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب ؟!! فى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوروبيين من أن الإسلام دين شهوانية ، وعنف حيوانى ، وأنه تمسك بفروق شكلية ، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت ؟؟ .

إن من أبرز الحقائق على ذلك الفيلسوف والشاعر الفرنسى فولتير ، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها فى القرن الثامن عشر ـ لكنه كان فى الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام ، انتهى كلام المستشرق النمساوى ليوبولد فايس المنقول فى ص ١٨٧ ، ١٨٨ من كتاب الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

وهذه شهادة حق من عالم يعد من قادة الرأى العام فى الغرب ، وإن كنت أرجو أن يسمح لى بملاحظة بسيطة على اسم الكتاب ، ولست أدرى هل هو الذى سماه بهذا الاسم أم غيره من المترجم أو المراجع أو غيرهما فالكتاب اسمه [الإسلام على مفترق الطرق] والإسلام منذ بزغت شمسه فأنارت المشرقين والمغربين ، وهوعلى أول الطريق الصحيح ، فقد جاء فى محكم التنزيل القرآن العظيم فى الآية رقم ١٠٨ من سورة يوسف :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (سورة يوسف)

وفي سورة الأنعام الآية ١٥٣

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

والآية رقم ١٦١ من نفس سورة الأنعام :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

فكان ينبغى على المؤلف والمترجم أن يسمى الكتاب « الإسلام على الصراط المستقيم » .

ويشترك رجال الدين من المستشرقين ورجال الفكر منهم ، فى تحقيق هدف واحد هو تبغيض الأوروبى والأمريكى فى الإسلام ورسول الإسلام ﷺ هذا البغض الذى ملأ قلوب الفريقين ، منهم جميعاً سواء قساوسة المسيحيين أو علماء اليهود ، ناضلوا وأجهدوا أنفسهم فى ترسيخ الأفكار المريضة والمبتسرة ، والمشوهة عن الإسلام فى وجدان المواطنين فى الغرب سواء فى أمريكا أو فى أوروبا . هذه الأفكار المشوهة التى طفحت بها كتب المستشرقين من الفريقين هى كالآتى :

-(محمد) مصلح دينى أسس ما سماه « الإسلام » وأولى أن يسمى بالمذهب المحمدى . محمد بشر وقرآنه صناعة بشرية يكثر فيها التناقض وعدم الانسجام . (الكفر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) .

-محمد مؤلف القرآن وواضعه وبذلك جاء مضطرباً .

ـ استفاء محمد ﷺ تعاليم دينه من تعاليم اليهودية والمسيحية ، وإن أنكر ألوهية المسيح .

ـ أفكار المسلمين مكملة للقرآن وحجة على الإسلام .

ـ لا يوجد فاصل بين الإسلام ومجتمع المسلمين كل منهما ينتمى للآخر .

ـ مذاهب الإسلام فى الفقه والعقيدة مرآة للقرآن والسنة الصحيحة والإسلام تنصهر فيه هذه المذاهب ، ولا فرق بين رسالة الله وصفة الإنسان .

ـ فتاوى المجتهدين تساوى القرآن .

ـ حجية فتاوى أرباب الوظائف الرسمية لها نفس حجية القرآن .

ـ والإنسان المسلم حجة على الإسلام نفسه فى سلوكه ، وفى حياته وتأديته للعبادة تمثل تعاليم الإسلام فى الأخلاق والعبادة (!!) .

هذه هى أفكار المستشرقين سواء كانوا فرادى أو جماعات .

وإن أفكار چورچ بوش مؤلف هذا الكتاب موضوع البحث لا يزيد عن ذلك شقروفاً .

ولفريقى المستشرقين نقدم لهم ما يوفقنا الله سبحانه وتعالى إليه ، مما يجعل جميع الذين انبهروا بدعواهم يراجعون أنفسهم ، ويصحّحون فكرهم عن الإسلام .

فنتكلم عن :

أولاً ـ إعجاز القرآن البيانى والبلاغى .

ثانياً ـ إعجاز القرآن العلمى .

ونتكلم فى كل موضوع منهما فى الفصل على حدة .

* * *

الفصل الرابع

وجوه الإعجاز البلاغى

١ ـ ألفاظ القرآن وحروفه

يقول الإمام محمد أبو زهرة ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فى كتاب « المعجزة الكبرى » ـ القرآن ـ ص ٩٧ :

« إن العلماء اختلفوا قديماً وامتد خلافهم إلى المتأخرين ، تكلموا واختلفوا فى أساس الفصاحة أو البلاغة ، وهما غير مختلفين فى الصدق ، وإن اختلفوا فى التعريف اللفظى لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة .

ويردد قول عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ « إن اللفظ والحروف ليس لهما أثر فى كون الكلام بليغاً أو غير بليغ ، إنما الأثر فى مجموع ما يدل عليه النظم ، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده إنما تساوق المعانى ، وتلاقى الألفاظ وتآخيها فى تكوين هذا المعنى المؤثر ، وفى كتابه (الجرجانى) دلائل الإعجاز يقول : « ينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف ؛ وقبل أن تصير إلى الصورة التى بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً ، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لا سبيل إلي إفادتها إلا بضم الكلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة ، حتي تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ما هى مرسومة به ، ثم يقول رضى الله عنه (الجرجانى) .

« هل يقع فى وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقفان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ؟ .

أو تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ؟ وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ .

وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافها قلقة ونابية ومستكرهة إلا

وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه ، وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبؤ عن سوء التلاؤم ؟ .

وإن الأولى لم تلتق بالثانية فى معناها وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها .

وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ (سورة العلق)

فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ! .. إنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض ، وإن لم يعرض لها الشرف إلا من حيث لاقت الأولى الثانية والثالثة الرابعة ، وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها . وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها .

إن شككت فتأمل ، هل تري لفظة بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت أدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهى فى مكانها من الآية (ابْلَعِي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، وكذلك اعتبر سائر ما يليها ..

ومعلوم أن مبدأ العظمة فى الآية فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم كان النداء (بـ يا) دون (أى) ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال « ابلعى الماء» .

ويستدل (الجرجانى) على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة فى ذاتها . إن الكلمة تروق فى موضع ولا تروق فى آخر فى كلام الناس ، فلو كانت الكلمة إذ أحسنت كان حسنها من ذاتها لاستحسنت دائماً وما استهجنت أبداً .. وينتهى أستاذنا الجليل شيخ الشيوخ فى عصره الإمام محمد أبو زهرة

إلى أن عبد القاهر الجرجاني يقصد الفصاحة والبلاغة على الأسلوب ، ومجموع العبارات التى تتضافر فى الدلالة على معان متآخية وتتآخى الألفاظ فى الدلالة على هذه المعانى ، هذا هو المعيار الذى يلتزمه عبد القادر الجرجانى فى الحكم على الألفاظ والكلمات بالبلاغة .

علي أن هناك فريقاً يرى أكثر من ذلك ، إذ يرى أن للحروف وللكلمات فصاحة عندما تتلاءم حروفها ولا تتجافى مخارجها ولا يكون فيها تكرار ، فلا فصاحة فى مثل ما رواه الجاحظ :

وقبر حــرب بمـكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وابن الأثير على نفس النسق ، ففى كتابه « المثل السائر » :

يقرر أن فصاحة الكلمات وقبحها يقعان فى رنينها ، وفى تآخى حروفها ، وقرر أن من الكلمات ما له نغمة وأوتار ، ومنها ما له صوت حمار ، ومثال ذلك أن كلمة (سيف) لها مرادف وهو (الخنشليل) فهل هما متماثلتان فى الفصاحة والنغمة الصوتية .

ومثلها كلمة (غصن) لها مرادف هو (عسلوج) بمعنى الغصن ، فهل هما متماثلتان ؟ .

ويخلص الباقلانى إلى أنه يرى أن ألفاظ القرآن غرة فى كل كلام ، وأن لها رونقاً ، وأن لها دخلاً فى إعجازه ، وأن صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتية ؛ لأن ذلك من عند العزيز الحكيم .

انظر كتاب الشيخ محمد أبو زهرة (المعجزة الكبرى) من ٩٧ إلى ١٠٠ ، أما الأستاذ الجليل مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - ، فإن له رأياً قيِّماً يجدر ذكره لما فيه من فائدة عظيمة ، إذ أنه يربط بين لفظ الكلمة القرآنية وبلاغتها الخاصة بأدائها ، بمدها وغنها وبأصواتها الموسيقية وبنغماتها الحلوة ، فلا يمكن التآخى بينها وبين أخواتها فى المعانى فقط ، بل إن التآخى كما هو ثابت فى المعانى ثابت فى الموسيقى .

قال أستاذنا مصطفى صادق الرافعي فى كتابه « إعجاز القرآن » :

لما قرئ عليهم القرآن : رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جمله ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به . وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتي أن من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باب منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها .

ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى الصدمة الأولى للنفس العربية ، إنما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شيء من كلام العرب .

إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع .. إنتهى كلام الرافعي ..

رأى شيخنا الجليل أبو زهرة : ص ١٠١ من كتاب المعجزة الكبرى :

ولا شك أن الكلمة وحدها من غير أن تكون فى مجموعة ، ليس لها بلاغة ولا مؤدى ، فكلمة (شجر) من غير أن تكون فى كلام ليس لها مؤدى ؛ إلا أن تكون فى جملة مفيدة تؤدى معنى ، وتكون بحروفها وقوتها أو لينها متآخية مع إخواتها من الكلام ، ولكن لابد للكلمة من الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية فى لحن القول والمراد منه وتحقيقه فهى وحدها لا تؤدى منفردة ، ولكن يضمها إلى أخري يكون المعنى القوى ،ويكون النغم الجميل ويكون الترتيل الذى يملأ النفوس وتطمئن به ، وتقشعر منه الأبدان إن أنذر ، وتهدأ إن بشر ، وتتفكر العقول إن دعا إلى التأمل .

إعجاز القرآن

عند الدكتور محمد عبد الله دراز

أستاذنا الجليل والإمام الزاهد المغفور له الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز أحد أعلام الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى ، العشرين الميلادى ، وهو الذى وهب حياته للقرآن الكريم وندعوا الله سبحانه وتعالى أن يتغمده بواسع رحمته ، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأوفاه ، وهو من علماء الأزهر الشريف الأفذاذ الذين يجود الله سبحانه وتعالى على المسلمين بهم فى فترة بعد فترة ، وهووشيخنا الجليل محمد أبو زهرة فرسا رهان فى ميدان دعوة الإسلام ، قيضهما الله سبحانه وتعالى لإظهار الدين فى زمن نبحت فيه الكلاب على موكب الإسلام من كل واد ، وفاحت منها رائحة التعصب النّتنة ، فأزكمت الأنوف ، ولوثت بعض الصدور ، وضللت بعض العقول ، فالتزم كل واحد من هذين الفارسين ناحية من بستان الإسلام ذى الأشجار المزدهرة المثمرة ، والغدران الصافية الرائقة ، فجمع كل منهما ما استطاع من الثمار ، وملأ بمائه العذب الفرات ما استطاع من أكواب ، وقدم كلاهما للأجيال هذه الثمار ، وهذا السلسبيل فى الأكواب فطعموا الثمار يانعة طيبة فتغذت أرواحهم ، واحتسوا هذا السلسبيل فارتوت قلوبهم ، وتحصنوا بكل ذلك من ويلات الغزو الفكرى الذى هبت رياحه السموم من الغرب ، تحمل تعصب المستشرقين ولا سيما الكهنة منهم والقساوسة الذين انسلخوا من سماحة الأديان ، وتمسكوا بإرهاب الفكر ، وبطش الإنغلاق ، وطغيان الحقد ، فراحوا يطعنون الإسلام في قرآنه وفى سنة رسوله ﷺ ، فانبري كل منهما ـ رضى الله عنهما ـ يسكب من أكوابه ما يزيل هذه السموم ، ويحصن المسلمين من الإيدز الفكرى ، الذى يحاول هؤلاء المتعصبون الجاهلون أن يزرعوه فى دمائهم .

متابعة الشيخ محمد عبد الله دراز فى نظراته فى القرآن فى كتابه « النبأ العظيم » طبعة ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م (مكتبة دار العروبة) ص ١٠٢ وما بعدها .

القرآن فى قطعة قطعة منه :

لسنا ندرى والله ماذا نقول لك فى أسلوب معجز فى وصفه ، كما هو معجز فى نفسه ؟ غير أننا نقول : هى جملة القول فيه . وفى أنه [تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها] .

* * *

أ - ب

« القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى » :

الذى يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حدّ الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، فإما أن يؤدى لك مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول فى باب المحاجة (صدقوا أو كذبوا) وإمّا أن يذهب فيه إلى شىء من التفصيل .

وربَّ حرف واحد ينقص من الكلام ، يذهب بمائه ورونقه ، والذى يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره ، وإبراز كل دقائقه «بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه الهامه ، لا يجد له بدًّا من أن يمد فى نفسه مدًّا ؛ لأنه لا يجد فى القليل من اللفظ ما يشفى صدره . ويؤدى عن نفسه رسالتها كاملة فالبلغاء مهما يلقوا الجهد لا يبلغ الواحد منهم بجملة غاية أمله وإنما يصل إلى كمال نسبى . سواء كان شعراً أو نثراً » .

أما القرآن فهو كما قال الله تعالى فيه :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾

(سورة هود)

ج . د

خطاب العامة والخاصة :

خصيصة من خصائص القرآن ينفرد بها ولا تتوفر فى أى كلام غيره .

فهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس .

فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب .

ولو أنك خاطبت العامة للمحمة والإشارة التى تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم .

ولكن القرآن هو قرآن واحد يخاطب الفريقين ولا يشكو أحدهما من هذا الخطاب . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة القمر)

هـ - و

(إقناع العقل وإمتاع العاطفة).

فالعقل والعاطفة هما قوتان متوفرتان فى الإنسان ، فالعقل ينقب عن الحق بمعرفته، والعاطفة تسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذّه وألم . ومن صفات البيان التام أن يوفى للإنسان الخاصتين.

وأمّا أن أسلوبًا واحدًا يتجه اتجاها واحدا ، ويجمع فى يديك هذين الطرفين معا كما يحمل الغصن الواحد الشجرة أوراقا وأزهارا وأثمارا معا، أو كما يسرى الروح فى الجسد والماء فى العود الأخضر ؛ فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية ويتساءل شيخنا دراز :

فمن لك إذًا بهذا الكلام الواحد الذى يجئ من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟ ! ذلك رب العالمين فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن. وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا ، وأن يمذج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان. وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت - ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟ أولا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ، يبث ذلك فى مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ..

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة الزمر)

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الطارق)

د ح

البيان والإجمال

عجيبة أخرى نجدها فى القرآن ولا نجدها فى سواه

ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتّسع لتأويل. وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهار أو الإلباس أو إلى اللغو الذى لا يفيد. ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد.

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد فى ألفاظها من الشفوف والسلاسة والأحكام والخلوّ من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كَدّ خاطر ولا استعارة حديث .. ينظر النبأ العظيم ص ١١١ .

ماذا يريد شيخنا وأستاذنا محمد عبد الله دراز من وراء بحثه المتميز ؟

إنه يريد أن يغرس فى وجدان القارئ صدق سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه ، وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض .. فهو (الشيخ دراز) يقول فى ص ٢٥ :

(فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة ، وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا تأملتها صورت لك إنسانًا .. الطهر ملء ثيابه ، والجد حشو إهابه ، يأبى لسانه أن يخوض

فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغى إلى غلو الماد جين له:

تواضع هو حلية العظماء، وصراحة نادرة فى الزعماء، وتثبُّت قلما نجده عند العلماء. فأنى من مثله الختل أو التزوير، أو الغرور أو التغرير ؟ حاش لله.

ويريد أستاذنا أيضا أن يغرس فى وجدان القارئ إرادة الله التى لا تقهر أبدا، ولا يعتريها تغير، أو ضعف ؛ لأنه دائما هو القاهر فوق عباده. هذه الإرادة هى توليه بذاته حفظ القرآن .. فيقول الشيخ الجليل فى صفحة (٢٥) من كتابه النبأ العظيم :

سل التاريخ: كم مرة تنكَّر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجّار على المسلمين، فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أمماً منهم على الكفر؟ وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع هذا القرآن كُلا أو بعضا كما فعل بالكتب قبله، لولا أن يد العناية تحرسه، .فيبقى فى وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه، حافظا آياته وأحكامه.

بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام. بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

وإنى يشرفنى أن أضم صوتى الضعيف لشيخنا الجليل لألقى على مسامع الثراء قول الحق عز وجل الآية الشريفة رقم ٢٨ فى سورة الفتح :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

* * *

الإعجاز فى التصوير الفنى فى القرآن

(الصور البلاغية فى القرآن الكريم)

فى أسلوب ينطوى على الإعجاز ، يصور القرآن الكريم المعانى الذهنية بإخراجها فى صور حسية ، تجسد المعنى بحيث يحفر فى قلب التالى للقرآن أو السامع له فيستقر فى قلبه ، ويوجه سلوكه وحركته الداخلية ذهنًا وقلبًا للمقصود من وراء هذه الكلمات .

ولقد تولى شرح هذا الدرس المستفاد من هذا القرآن المغفور له الأستاذ سيد قطب - رحمه الله رحمة واسعة - فى كتابه [التصوير الفنى فى القرآن طبعة دار الشروق] وقد جاء فى صـ ٣٤ ما يأتى

نبدأ بالمعانى الذهنية التى تخرج فى صور حسية :

١ - يريد (القرآن) أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة إطلاقا ، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل. هذه هى الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعانى المجردة. ولكن أسلوب التصوير يعرضها فى الصورة الآتية :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتُّح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ فى سم الخياط. ويختار من اسماء الحبل الغليظ اسم « الجمل » خاصة فى هذا المقام ، ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر، ليستقر فى النهاية معنى القبول ، ومعنى الاستحالة فى أعماق النفس، وقد ورد إليها عن طريق العين والحس - تخييلا- وعبراً ، إليها من منافذ شتى فى هنية وتؤدة ، من منفذ الذهن وحده، فى سرعة الذهن التجريدية.

٢- ويريد أن يبين أن الله سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن من قبل شيئا، وستضيع إلى غير عودة ، فلا يملكون لها ردا فيقدم هذا المعنى مصورا فى قوله :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾
(سورة الفرقان)

ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور. فتعطيك معنى أوضح وآكد للضياع الحاسم والمؤكد.

٣ - أو يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشئ لهذا المعنى نفسه فى الآية (١٨) من سورة إبراهيم :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾
(سورة إبراهيم)

فتزيد الصورة حركة وحياة كحركة الريح فى يوم عاصف تذروه الرماد وتذهب به بددا إلى حيث لا يتجمع أبدا.

٤ - ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التى تُبذل رياء، والتى يتبعها المنُّ والأذى، لا تثمر شيئا ولا تبقى، فينتقل إليهم هذا المعنى المجرد فى صورة حسية مُتخيلة على النحو التالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويدعهم يتملون هيئة الحجر الصلب المستوى، غطته طبقة خفيفة من التراب، فظنت فيه الخصوبة، فإذا وابل من المطر يصيبه، وبدلاً من أن يهيئه للخصب والنماء - كما هى شيمة الأرض حين تجودها السماء - إذا به - كما هو المنظور - يتركه صلداً وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التى كانت تستره، وتخيل فيه الخير والخصوبة.

٥ - ثم يمضى فى التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء ومعنى الذهاب بالصدقة التى يتبعها المن والأذى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فهنا الوجه الثانى للصورة، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى ، فهذه الصدقات التى تنفق ابتغاء مرضاة الله، هى هذه المرة كالجنة، لا كحفنة من تراب ، وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان ، فالجنة هنا فوق ربوة، وهذا هو الوابل مشتركًا بين الحالتين، ولكنه فى الحالة الأولى يمحو ويمحق وفى الحالة الثانية يربى ويخصب ، فى الحالة الأولى يصيب الصفوان فيكشف عن وجه كالح كالأذى ، وفى الحالة الثانية، يصيب الجنة ، فيمتزج بالتربة ويخرج (أكلا) ولو أن هذا الوابل لم يصبها ، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ .

ولا أريد أن أتعرض هنا لذلك التناسق العجيب فى جو الصورة، وفى تماثل جزئياتها، وفى توزيع هذه الجزيئات على الرقعة فيها، حيث يكون الصفوان تغشيه طبقة خفيفة من التراب، مثلا للنفس المؤذية تغشيها الصدقة تبذل رياء (والرياء ستار رقيق يخفى القلب الغليظ) .

وحيث توضع الجنة فوق ربوة فى مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان.

ثم يعود إلى ذلك المعنى مرة أخرى فيقول :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

فيرسم صورة الحرث تأخذه الريح فيها .. برد يضرب الزرع والثمار فيهلكها، فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه، كالذى ينفق ماله وهو كافر، ويرجو الخير فيما أنفق فيذهب الكفر بما كان يرجوه.

ولا يفوتنا ما فى جرس كلمة « صرّ » من تصوير لمدلولها ، وكأنما هو قذائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه.

٦ - ويريد أن يبرز معنى : أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه، وينيله ما يرجوه، وأن الآلهه التى يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئا، ولا تنيلهم خيراً، ولو كان الخير قريباً، فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وهى صورة تلح على الحس والوجدان وتجتذب إليها الالتفات فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة. وهى من أعجب الصور التى تستطيع أن ترسمها الألفاظ : شخص حى شاخص باسط كفيه إلى الماء والماء منه قريب، يريد أن يبلغ فاه ولكنه لا يستطيع ولو مد يده فربما استطاع .

٧ - ويبين أن الآلهة الذين يعبدون من دون الله ،لا يسمعون ولا يجيبون ؛ لأنهم لا يعون ولا يتبينون، وأن دعاء عبادهم لهم عبث لا طائل وراءه فيختار صورة تبين هذا المعنى وتجسم هذه الحالة، وتلمس الحس والنفس بأقوى مما تلمسها العبارات العادية، عن المعانى الذهنية.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا ينعق الكفار بما لا يسمع، وينادون بما لا يفهم فهؤلاء الآلهة لا يميزون بين الأصوات، ولا يفهمون مراميها، وهذا مثل ، ولكنه صورة شاخصة. صورة جماعة يدعون آلهة تصل إليها أصواتهم مبهمة، فلا تفهم وراءها شيئا. وفيها تتجلى غفلة الداعين وعبث دعوتهم بجانب غفلة المدعوين واستحالة إجابتهم.

٨ - ويريد أن يجسم ضعف هؤلاء الآلهة أو الأولياء من دون الله عامة ووهن الملجأ الذى يلجأ إليه عبادهم حين يحتمون بحمايتهم فيرسم لهذا كله صوره مزدوجة :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

فهم عناكب ضئيلة واهنة ، تأوى من حمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيت العنكبوت أوهن وأضال ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .. ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهية المنظورة فهم يضيفون إلى الضعف والوهن جهلا وغفلة ، حتى ليعجزون عن إدراك البديهى المنظور (!!)

٩ - ويريد أن يبين أن الذى يشرك بالله لا منبت له ولا جذور ، ولا بقاء له ولا استقرار ، فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات عنيفة الحركات .

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (سورة الحج)

هكذا فى ومضة يخر من السماء من حيث لا يدرى أحد فلا يستقر على الأرض لحظة ، إن الطير لتخطفه ، أو إن الريح لتهوى به ، وتهوى به فى مكان سحيق .

حيث لا يدرى أحد كذلك وذلك هو المقصود .

١٠ - ويريد أن يثبت معنى الحرمان والإهمال فى الآخرة لهؤلاء الذين أعطاهم الله الكتاب من قبل الإسلام فأهملوه، وعاهدهم على الإيمان فعاهدوه. ثم أخلفوه ، ابتغاء نفع مادى قليل. شأن من لا عهد له ولا احترام لكلمته فيرسم لهذا الإهمال صورة حسية :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكما يصور المعانى المجردة
يصور الحالات النفسية والمعنوية

١- يريد أن يبرز الحيرة التى تنتاب من يشرك بعد التوحيد ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددين ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيرسم هذه الصورة المجسمة المتخيلة :

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذى استهوته الشياطين فى الأرض (ولفظ الاستهواء لفظ مصور لمدلوله) وياليته يتبع هذا الاستهواء فى اتجاهه، فتكون له راحة ذى القصد الموحد - ولو كان فى طريق الضلال - ولكن هناك من الجانب الآخر إخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه « ائتنا » وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء حيران موزع القلب لا يدرى أى الفريقين يجيب، ولا أى الطريقين يسلك، فهو قائم هناك شاخص متلفت.

٢- ويريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهئ الله لهم المعرفة، فيفرون منها كأن لم تهيأ لهم أبدا، ثم يعيشون بعد ذلك هابطين. تطاردهم أنفسهم وأهواءهم بما عملوا وبما جهلوا فلا هم استراحوا بالغفلة، ولا هم استراحوا بالمعرفة فيرسم لهم هذه الهيئة.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

من الوجهة الفنية صورة شاخصة، فيها الحركة الدائبة، وهى صورة معهودة فهى فى تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى، وهكذا يلتقى الغرض الدينى بالغرض الفنى كالشأن فى جميع الصور التى يرسمها القرآن.

٣- ويريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ، ولا يجعل عقيدته فى

معزل عن ملابسات حياته، بعيدة عن ميزان الربح والخسارة. فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح، وتوشك على الانهيار.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الحج)

إن الخيال ليكاد يجسّم هذا "الحرف" الذى يعبد الله عليه، هذا البعض من الناس، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسى فى وقعتهم، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع ؛ لأنها تنطبع فى الحس، وتتصل منه بالنفس وإنى لأذكر الآن تلك الصورة التى ارتسمت فى خيالى وأنا طفل أقرأ القرآن فى المدرسة الأولية حين وصلت إلى هذه الآية... ترى هل يبعد تصورى الآن كثيراً عن هذه الصورة الساذجة؟ لا أظن، فالاختلاف الذى طرأ هو مجرد إدراكى اليوم أن هذا مثل يُضرب لا حقيقة تُشهد، وذلك إعجاز التعبير الذى تتقارب فى إدراكه شتى المدارك وتتصل فى كل حالة إلى صورة حية مع اختلاف الأفهام.

تلك صور بلاغية حية يرسمها القرآن الكريم للإنسان حين تعاطيه لدعوة الإسلام، نقلتها والكلام عنها كاملة من كتاب [التصوير الفنى فى القرآن الكريم] للأستاذ الجليل المرحوم سيد قطب من صـ٣٤ إلى صـ٤٠ ويعلم الله أنى أستطيع أن أعرض صورا بلاغية كثيرة من هذا الكتاب العزيز، ولكنى عندما وقر فى قلبى أن أكتب هذا البحث ردا على ما جاء بكتاب جورج بوش، وقر فى قلبى فى نفس الوقت أن هذا العمل، ليكون فى صورة مثلى لا يكفى فيه جهد فرد واحد وإنما يجب أن يتوفر له فريق كثير العدد والعدة، ولو كان الأمر بيدى

لأعلنت من أجله التعبئة العامة لرجال الإسلام الغيورين عليه فى كل واد . وما يكون مثلى إلا خادما لأعضاء هذا الفريق من النبلاء الذين لا أتطاول أن أكون واحدا منهم ، وذلك لجسامة هذا الأمر وعظمته التى يستمدها من عظمة القرآن الكريم ، وعظمة من أنزله ، وعظمة من أنزل عليه ، وعظمة من نزل به ، وعظمة الدين الذى يضئ بين دفتيه ولكن . . أما وإنه جهد المقل فإنى لجأت لكل من أتيح لى أن ألجأ إليه من هؤلاء النبلاء الذين تشرفوا بالانشغال بالقرآن الكريم وبسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنهم المغفور له الأستاذ سيد قطب ومن جاء ذكرهم فى هذا الكتاب ، أنقل إلى القارئ ما قالوا نقلا مما وقفهم إليه الله من كلام سطروه فى كتبهم وأبحاثهم لأنهل من علمهم ، وأقدم للقارئ بعض ما جادت به قرائحهم ليستفيد ويعلم أن جنود المعرفة وفرسان العلم وسدنة الحكمة من أساتذتنا الكرام ، كانوا موفين بعهد الله ساهرين على خدمة الدين وتعليم الأجيال والغرض الذى قصدته أيضا أن يكون الكلام فى كل موضوع صادراً من أهل الذكر امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى الذى يضئ فى الآية الكريمة رقم ٤٣ من سورة النحل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سورة النحل)

واتهم الإسلام بالعدوانية والدموية واتهم المسلمين بعملهم بالمبدأ « القرآن أو الموت أو الجزية » وثبت أن هذه المقولة فرية اخترعها هو وأمثاله ، فسقطت لتأخذ مكانها وسط مثيلاتها من الافتراءات والادعاءات الكاذبة التى حاول المستشرقون المتعصبون إلصاقها بالإسلام الحنيف ، زعم الخاصة على إثبات هذه التهمة التى برأ الله الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم منها (انظر صـ٢٧٣ من الترجمة) .

وحاول النيل من شخصية النبى ﷺ فى حكمه العادل بقتل كعب بن الأشرف الذى حاول تعبئة جيش من كفار قريش واليهود والمنافقين معهم ، لقتال المسلمين للقضاء على الإسلام ونبى الإسلام الذى خصه كعب بالهجاء المفزع، وسقطت أرجوفة المؤلف . وبقى عدل النبى ﷺ وحصافته ويقظته فى حراسة أمن الدولة الناشئة ، كل ذلك بات ساطعا يلقم كل معترض الحجر .

وفى الفصل الثانى عشر حاول المؤلف بمكر متعمد وبطريقته المعهوده بقصد التشهير بالنبى والرسول محمد ﷺ واتهامه باضطهاد اليهود .

وسقطت هذه الفرية مع أخواتها المشومات ليكون مصيرها جميعا واحدا . . . حيث السقوط والخذلان وفى الفصل الثالث عشر : مازال المؤلف متأثرا بما يطويه فى قلبه من عواطف سلبية تجاه النبى ﷺ ، مما جعله يقيس أعماله عليه الصلاة والسلام بأعمال الزعماء السياسيين، وهو بهذا يوافق ما هو كامن فى عقله الباطن من رغبته المحمومة فى محو صفة النبوة والرسالة عنه عليه الصلاة والسلام وذلك يظهر فى تفسيره لعزم النبى على فتح مكة ، ولو أن هذا الكاتب تنزه عن هذه الكراهية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقرأ الأحداث قراءة جيدة : لتذكر على الفور ما حدث من عتاب بعض الصحابة عليه ﷺ فى التنازلات التى قدمها هذا النبى العظيم عند اتفاق الحديبية رغبة صادقة منه فى حقن الدماء ونبذ العنف تماما ، لأنه ليس من صفاته ، وترك الفرصة للسلام حتى يزدهر فى مناخه شجرة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولو أن المؤلف تريث فى قراءة ما حدث

عند إبرام إتفاقية الحديبية وما أعقبها من مباركة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذه الإتفاقية من اعتبارها فتحا مبينا فى قوله عز من قائل

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾ (سورة الفتح)

ثم لو كان قد نسى هذا الكاتب هذه العواطف السلبية التى يكنها لهذا النبى العظيم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتذكر على الفور وعد الله له فى نفس سورة الفتح فى الآية ٢٧ :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧ ﴾ (سورة الفتح)

ولو تذكر هذا الكاتب هذا الوعد من الله فى الرؤيا التى رأها هذا النبى العظيم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأطفأ نور هذه الرؤيا نار الضغينة التى يكنها لنبى الإسلام ﷺ .

لكننا نحمد الله سبحانه وتعالى أنه لم ينسى كراهيته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما كتب الفصل الثالث مما كان سببا فى تعرية بحثه من ثوب العلم فأصبح هو وشهادة الذور ضد النبى صلى الله عليه وسلم سرعان ما كشفها العقل فمجها ، ورفضها العلم فأصبحت من نفايات الحقد التى

استقبلتها مستنقعاته المنتنة تزكم أنوف المؤرخين. وسقطت كل ادعاءاته التى غيرت بحثه هذا ، كما سقطت من قبل ذلك فى طول كتابه وعرضه وأصبحت كلمته الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

وأما الفصل الرابع عشر : فقد بدا فيه المؤلف هادئا وخفت حدته قليلا فى خصومته للنبى - عليه الصلاة والسلام - ، واعترف بنبوته فى فلتات كتابه التى تشبه فلتات اللسان ويحتمل أن هذا الاعتراف غير المقصود منه ، قد أجبرته عليه عظمته - صلى الله عليه وسلم - التى تجلت فى كل موقف من مواقفه ، وفى كل حرب خاضها دفاعا عن عقيدته وعن دولة الإسلام الناشئة ، وفى علاقاته التى نشأت بينه وبين أصحابه الكرام وفى معاملته لإعدائه ، هذه العظمة التى انبهر بها الكاتب، ولم يجد أمامه إلا الاعتراف بها، وسجل اعترافه بهذه العظمة التى تجلت عند موته ودفنه فى قبر متواضع ، منتاه فى التواضع، بسيط منتاه فى البساطة، وقد تحقق فيه - عليه الصلاة والسلام - قول الحق - عز وجل - فى سورة آل عمران الآية (١٤٤)

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والآية ٣٤ من سورة الأنبياء :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والآية ٣٠ من سورة الزمر :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة الزمر)

وإننى على يقين أن جورج بوش وهو يكتب هذا الفصل ، قد استدعى فى ذهنه جلائل الأعمال التى قام بها هذا النبى العظيم محمد صلى الله عليه وسلم وتراءت أمامه سيرته ، وتجلّت مسيرته فانهزم وسلم له - عليه الصلاة والسلام - بالسمو والرفعة ، فلم يملك أن ينبس ببنت شفه ، وخرَّ بين يدى الحقيقة راكعا ، وقد انخلع من ذهنه وخياله المريض. وتولى عنه شيطان جدله ، فأمسك عن البذاءة والسباب. ودخل لسان الإفك فمه فابتلعه فى استسلام الكارهين المكرهين .

أدلة أخرى تثبت صدور القرآن

عن الله وحده لا يشاركه أحد فى ذلك

أولا :- فى مكة المكرمة :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة عبس)

إن هذه الآيات البينات تحكى وقائع من قصة الدعوة الإسلامية رسالة ورسولاً ، ومخاطبين بهذه الدعوة الإسلامية القدسية يعلى فيها الله - سبحانه

وتعالى - من شأن الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى، ورفع من شأنه، كاشفاً عنه كل ما يحجب حقيقته، ومزيلا عن فطرته تراب الدنيا، ليجليها للعالمين كوكبا دريا يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، فيملأ نورها السموات والأرضين ؛ لأنها نور الله عز وجل، ويكشف عن عظمة هذه الفطرة التى بها يعظم الله قدر الإنسان، لأنها تعطيه حقيقته التى بها يعلو شأنه وهى أنه (عبداً لله) وليس عبدا لأحد سواه، فإذا اكتملت عبوديته لله فقد جاز التكريم والتعظيم مهما كان أصله وعرقه وجنسه ولونه، فإذا لم تتحقق هذه العبودية لله فيه، فقد اعتباره وفقد تكريم الله له مهما كان أصله وعرقه وجنسه ولونه ومن ثنايا هذه الاشراقة الربانية تكونت عقيدة النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - فهتف فى أسماع الإنسانية قائلا (كلكم لآدم... وآدم من تراب، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى).

ومنذ تلقى أمر الله بمباشرة الرسالة، الذى تنطوى عليه الآية الكريمة برقم (١٥٨) من سورة الاعراف :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

وبمقتضى هذا الأمر الألهى خاطب الناس.. كل الناس الأبيض منهم والأسود، القريشى وغير القريشى، العربى والأعجمى وهو يردد فى صدره :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(سورة الكهف)

إلا أن كفار قريش كانوا يقولون شيئا آخر، ويعتقدون أنهم عنصر متميز فما بال محمد يدعونا لنجالس هؤلاء الفقراء من خدمنا وعبيدنا !!

فلتخصص لنا يوماً تجلس إلينا فيه دون أن يشاركنا أحد من هؤلاء الصفقاء، العبيد والغلمان - وسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حريص على إسلام هؤلاء السادة من قريش، فهو يعلق على إسلامهم أملا فى قوة الصف المسلم، وفى إغراء بقية قبائل الجزيرة العربية بإعتناق هذا الدين الذى يجمع العرب تحت رايته... عباداً لله مسلمين مؤمنين، قد ذهبت عنهم نخوة الجاهلية، وظلمات الشرك، ودعوى العنصرية البغيضة، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فتطيب حياتهم.

إن هذه الآمال كانت تراود ذهن النبى - صلى الله عليه وسلم - فوافق القوم على تخصيص يوم لهم يجلس إليهم ولا يسمح لأحد من هؤلاء الضعفاء بغشيان هذا المجلس والاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبينما هو يتحدث إليهم فى يومهم هذا، فى مجلسهم هذا الذى أتفقوا عليه إذا بالصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم - رضى الله عنه - وكان مكفوف البصر.. يقبل على المجلس متوكئًا على عصاه.. ليتحسس بها الطريق إلى حبيبة محمد - صلى الله عليه وسلم - فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام، لا كراهية له، ولا تأففاً منه ولكن حرصاً على إسلام هؤلاء السادة.. ليعز بهم صف المسلمين ومنهم عبدالله بن أم مكتوم رضى الله عنه.

فانشقت السماء عن جبريل عليه السلام ومعه هذه الآيات الكريمات من القرآن العظيم تتلى على أسماع أهل السموات وأهل الأرض حتى تقوم الساعة لتنزرع فى وجدان الناس وحدانية الله - سبحانه وتعالى - ووحدة النشأة الإنسانية، ووحدة الدين، ووحدة الكتاب، ووحدة النبى، ووحدة التوجه لله رب العالمين.

وليقرأ ويسمع ويرجع كل انسان عتاب الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد

صلى الله عليه وسلم ، فى إيثاره الكفار بيوم يجلس إليهم فيه مميزا إياهم عن الفقراء والضعفاء من المسلمين.

ترى يا أيها القارئ الكريم. لو كان القرآن من إبداع النبى ﷺ ، كان سيظهر هذا العتاب على هذا الإعراض عن عبد الله بن أم مكتوم ؟!!

هذا العتاب الذى يعرف هذا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سطوته وقوته وأثره فى نفسه وفى نفوس أتباعه ؟!.

ـ ٢

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد بلغ تنكر الأغنياء من قريش لحق الفقراء من المسلمين فى اعتناق الإسلام ، وفى حرية العقيدة وفى صحبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبوا منه ما هو أبعد من حقهم فى يوم خاص بهم يلتقى بهم ، عليه الصلاة والسلام فيه ولا يحضر أحد الفقراء مجلسهم، فذهبوا يطلبون منه ترك هؤلاء الفقراء وطردهم من مجالسه واستبعادهم تماما من صف المسلمين. فنزلت هذه الآيات الكريمات تحمل تحذير الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تحقيق رغبة هؤلاء الكفار، آمرا إياه بالصبر على صحبة هؤلاء الفقراء، ونهيه عن مجرد الإنصراف عنهم بعينه، وعليه أن يلاحظهم ويدنيهم منه ويتودد إليهم، ونهيه عن طاعة وساوس هؤلاء الكفار، مذكراً إياه أن ينصرف تماما عن زينة الحياة الدنيا لأنها لا تخدم الإسلام ، وهؤلاء الكفار حكم عليهم الله بالغفلة تغشى قلوبهم ، فلا ينتفعون بالقرآن الكريم، ومن شأنهم والحال كذلك أن يتبعوا هواهم، وهواهم لا يدل على خير هو موصوم بالتفريط فى حق الله، والتردى إلى الهلاك .

ومصيرهم معروف وهو معد لهم من قديم ألا وهو النار التى أعدها الله لهم ، هذه النار التى أحاطت بهم كما يحيط السرادق بالقائمين فيه إحاطة تمنع عنهم الفرج ، وتمكن النار منهم يحترقون بلظاها وبئس المصير . فإذا أحرقتهم ونضجت جلودهم فاستغاثوا ليخرجوا منها ، أغيثوا فعلا ولكن ليس إغاثة سلامه ولكنها بماء الحميم الذى يشوى الوجوه وبئس الشراب ، وساء المرفق .

أما هؤلاء المؤمنون الصابرون على الفقر ، وعذاب الكفار وتعذيبهم ، فالحكم الصادر من الله لصالحهم ، هو النعيم الأبدى فى جنات الخلود... يرفلون فيها بالثياب الحسنة من الحرير والديباج الأخضر السندسى والإستبرق... وهذا هو نعم الثواب وحسن المرتفق .

٣ ـ ويكرر الله نفس الأوامر الربانية التى تلزم النبى صلى الله عليه وسلم

بإحسان صحبة الفقراء والإقبال عليهم، وتعليمهم وتربيتهم، وتعميق الإسلام في قلوبهم، والإعراض التام عن الكفار وصلباتهم العنصرية .

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) ﴾

(سورة الأنعام)

كل هذه المواقف التي عالجتها هذه الآيات تخلص في تقزز الكفار أن يشترك هؤلاء الفقراء معهم في اتباع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يكونوا تحت راية واحدة معهم. وسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلقى من الله التنبيهات والأوامر بالتمسك بهؤلاء الفقراء والتودد إليهم، والحنو عليهم ضاربا عرض الحائط بما يدعى هؤلاء الأغنياء من الكفار ، بل إنه سبحانه وتعالى أمره بأن يحسن استقبال الفقراء إذا أهلوا عليه، وقدموا إليه ويبشرهم ويحييهم بتحية الإسلام وتبشير برضا الله عنهم ، فقال في الآية رقم (٥٤) من سورة الأنعام :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾

وكل هذا يفيد بما لا يدع مجالا للشك ، أن القرآن الكريم كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ وليس مخترعا من عند النبى صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : فى المدينة المنورة :

١ - سورة الأنفال (٦٧)

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

جاء فى كتاب : [أسباب النزول للشيخ جلال الدين السيوطى] .

روى أحمد وغيره عن أنس قال :

(استشار النبى ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر فقال (إن الله أمنكم منهم) فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب اعناقهم . فأعرض عنه ، فقام أبو بكر فقال : نرى أن نعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . فعفا عنهم وقبل الفداء . فنزلتالآية) ومن هذا نرى أن الأمر من الله صدر فى شأن أسرى بدر ، قضى الله سبحانه وتعالى فيه بقضاء يخالف قضاء النبى صلى الله عليه وسلم .

ألا يكفى هذا دليلاً على أن الله هو منزل القرآن على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

٢ - سورة التوبة الآية (٨٤) :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

روى الشيخان (الإمام البخارى والإمام مسلم) عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال:

(لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول ، جاء ابنه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه. فقام ليصلى عليه. فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه وقال: يا رسول الله أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى على المنافقين؟ قال ﷺ : إنما قد خيّرنى الله فقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة..) وسأزيد على السبعين فقال: إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله سبحانه وتعالي :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا .... ﴾

وهذا حكم من الله صدر على خلاف ما رأى النبى ﷺ .

* * *

الفصل الخامس

الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

قال الله سبحانه وتعالى :

١ -

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٢ -

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٣ -

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

٤ -

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

٥ -

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

٦ -

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة فاطر)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة فاطر)

فى الآيات من ٣١ إلى ٣٣ من سورة البقرة حديث عن مسابقة عقدها الله سبحانه وتعالى بين الملائكة جميعا من ناحية ، وآدم أبى البشر وحده من ناحية أخرى. وذلك بعد أن علّم آدم الأسماء كلها ، ففاز آدم فى المسابقة بما منحه الله سبحانه وتعالى من هذا العلم . وبعد أن اعتذرت الملائكة عن الإجابة بقولها :

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (سورة البقرة)

والله إنى فرحت فرحا عظيما لسببين:

السبب الأول :

هو العلم الذى منحه الله لأبينا آدم عليه السلام ، ونزل الأرض وهو مزود بهذا العلم النافع الذى جعله الله - سبحانه وتعالى - عنصرا هاماً وجوهرياً فى شخصيته يرشحه لخلافة الله فى الأرض. يبنى به حياته وينظم به حركة هذه الحياة ويضئ له مسيرته فيها ، وورثه أولاده حتى تقوم الساعة .

السبب الثانى :

أن أول مسابقة عقدها الله بين عُمّار السماء وعُمّار الأرض كانت مسابقة علمية، يتألق فيها العلم، ويبدو قائداً المسيرة الإنسان منذ أول لحظات بدايتها وسرّنى سرورا عظيما أن الذى فاذ فى هذه المسابقة النورانية هو أبى آدم ـ عليه السلام ـ عندما أنبأ الملائكة بالأسماء التى علمه الله إياها ، فكانت نتيجة هذه المسابقة هذا الفوز لنبى الله آدم عليه السلام، وكانت جائزته التى منحها الله سبحانه وتعالى إياه جوهرتين يتيمتين ثمينتين: أولاهما : سجود الملائكة له اعترافا بمكانته عند الله ، وثانيتها : خلافته فى الأرض التى أضفاها الله عليه، وهاتان الجوهرتان تتألقان فى القرآن الكريم فى آيتين كريمتين:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة البقرة)

الآية رقم (٣٠) من سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

هذا شئ جميل يشرح الصدر ويملأ القلب بالتفاؤل والإشراق؛ إذ أن العلم مستشار أمين يهدى صاحبه دائما إلى الخير فى ضوء الدين الذى فطر الله عليه الناس ، وأولهم أبوهم آدم ـ عليه السلام ـ ففى أضواء العقيدة المتوهجة يسير العقل ويضع الخطة وينفذ بنودها محققا السعادة لبنى الإنسان .. أى أن عربة الحياة تسير بحصانين أحدهما الدين ، والثانى هو العلم ، فيضمن الإنسان أن

تكون مسيرته ظافرة ؛ لأنها تتنفس برئتين: الرئة الأولى (الدين) وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها، والرئة الثانية (العلم) وهو إما أن يكون موهوبا من الله .. أو مكتسبا بالخبرة الحياتية للإنسان بالملاحظة والتجربة.

والقرآن الكريم يبارك النوعين:-

يقول المغفور له الدكتور على عزت بوجوفتش فى كتابه القيم (الإسلام بين الشرق والغرب) طبعة مجلة النور بالكويت سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م. الطباعة والتوزيع مؤسسة العلم الحديث - بيروت. والناشران مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات صـ ٣٠٥ (دين يتجه نحو الطبيعة)

[لايحتوى القرآن على حقائق علمية جاهزة، ولكنه يتضمن موقفًا علميا جوهريا. اهتماما بالعالم الخارجى، وهو أمر غير مألوف فى الأديان.

يشير القرآن إلى حقائق كثيرة فى الطبيعة ويدعو الإنسان للإستجابة إليها. الأمر بالعلم (بالقراءة) لا يبدو هنا متعارضا مع فكرة الألوهية ، بل إنه قد صدر باسم الله] :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ (سورة العلق)

والإنسان بمقتضى هذا الأمر لا يلاحظ ويبحث ويفهم (طبيعة خلقت نفسها) ولكن الكون الذى أبدعه الله.

ولذلك فإن الملاحظة ليست بلا هدف أو لا مبالية أو خالية من الشوق. وإنما هى مزيج من العلم وحب الاستطلاع والإعجاب الدينى. وكثير من أوصاف الطبيعة فى القرآن على درجة عالية من الشاعرية. ويصور هذا أحسن تصوير الآيات التالية فلتستمع إليها :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

(سورة البقرة)

وقوله سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام :

﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

(سورة الأنعام)

الآيات الكريمات من سورة النحل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

لقد نقل الأستاذ الدكتور عزت بوجوفتش الآيات من ١-١٤ فى كتابه، ولقد رأيت من الأوفق أن أضيف إليها الآيات من(١٥-١٨) ؛ لأن هذه الآيات تتكامل مع سابقاتها فى إقناع المخاطبين بالألوهية والربوبية فى وقت واحد وبالله التوفيق.

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

الآيتان ٤٥ إلى ٤٦ من سورة الحج :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الحج)

الآيتان ٧-٨ من سورة الشعراء :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

الآية ٩ من سورة الروم :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الروم)

الآيات ٦ إلى ١١ من سورة ق :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة ق)

الآيات ١٧-٢٠ من سورة الغاشية :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

الآيات من ٦٣إلى ٧٤ من سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول المغفور له الدكتور على عزت بوجوفيتش (رئيس جمهورية البوسنة) الراحل. فى صـ ٣٠٨ من كتابه الإسلام بين الشرق والغرب.

[فى هذه الآيات التى اتجهت بكليتها إلى الطبيعة .. نجد فيها تقبلا كاملا للعالم ، ولا أثر فيها لأى نوع من الصراع مع الطبيعة .. فالإنسان يبرز ما فى المادة من جمال ونبل ، كما هو الحال بالنسبة للجسم فى موقف الصلاة ، والممتلكات فى الزكاة ، إن العالم المادى ليس مملكة للشيطان. وليس الجسم

مستودعا للخطيئة - حتى عالم الآخرة وهو غاية آمال الإنسان وأعظمها صورة القرآن مضمون بألوان هذا العالم. ويرى المسيحيون فى هذا حسيَّة تتنافى مع عقيدتهم ولكن الإسلام لا يرى العالم المادى مستغربا فى إطاره الروحى] .

انتهى كلام د. على عزت بيجوفتش ..

ولكنى أضيف إلى ما قاله هذا الأستاذ الجليل والعالم الموسوعى ، أن السبب الذى جعلنى أتلو هذه الآيات وأنقلها بترتيبها الوارد فى كتابه هو أنها أقيم شاهدا على أن الله - سبحانه وتعالى - قد خلق الإنسان واستخلفه فى الأرض وقد زوده بالعقل وعاء العلم .. ثم هو يثير فى هذا العقل قوته الكامنة فيه على التأمل والملاحظة والتجربة وهذه هى السبيل لتحصيل العلم تعلمًا وتعليمًا والتى فى نهايتها اكتشاف قدرة الله - سبحانه وتعالى - التى أبدعت كل هذه العناصر ، وسخَّرتها لمنفعة هذا الخليفة أى : هذا الإنسان الذى عندما يكتشف ذلك ، فإنه سيسلم لهذا الإله العظيم الذى أنعم عليه بهذه النعم التى يعجز تماما عن إحصائها .. فإذا تحقق هذا فى نهاية بحثه الدائب فإنه يكون انتصارا للدين الذى فطر عليه وتتحقق بذلك اللحظة التى يعانق فيها العلم الدين فى قلب الإنسان خليقة الله فى الأرض.

ومن جهة أخرى: فإنى لاحظت فى نهاية بعض الآيات ما يفيد أن الإسلام هو دين الأزل ودين الأبد وأن هذه الدعوة الإسلامية هى الباقية، وأن القرآن الكريم هو الضمانة الأولى فى حفظ هذا الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهو لا يقترن بزمان أو مكان .. إنما هو يخاطب إنسان آخر الزمان بنفس الخطاب الذى خاطب به سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقومه المعاصرين له. بل إنه يحترم الإنسان فى كل العصور حتى تقوم الساعة ويجعل لكل جيل من أجيال الإنسانية دورا خاصا به فى إحقاق هذا الدين والمحافظة عليه ومثال ذلك ما نجده فى الآيات من ٦٥ إلى ٦٩ .. من سورة النحل السابق ذكرها ..

فقد تلقاها القوم فى عصر سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم لم

يكونوا قد وصلوا فى العلم التجريبى إلى ما وصل إليه إنسان عصرنا هذا ولكن القرآن خاطبهم بنفس الخطاب الذى تلقاه إنسان هذا العصر متحفظا بقوله : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

فإن ما تضمنته صدر الآيات من الحقائق العلمية لم يكن فى مقدور أهل الجزيرة العربية أن يستوعبوه. فأشار القرآن إلى أن الذين سيكتشفون هذه الآيات هم قوم يفقهون .. مشيراً إلى القادمين من هؤلاء فى مستقبل الزمان حتى يوم القيامة. ومفاد هذا : أن القرآن الكريم سيظل رائد الإنسان فى العلم والتقدم والحضارة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا غرو فهو كلام الله العليم العلام.

والآن .. إلى بعض هؤلاء الذين هم : قوم يفقهون لنتعلم على أيديهم .. حيث يقدمون لنا بعضا من الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. وأول ما نقدمه هو الإعجاز العلمى فى خلق الإنسان نفسه .

لأن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الذاريات)

فإلى هؤلاء العلماء ... وإلى ما يشهدون به فى نطاق تخصصهم من إعجاز علمى بالقرآن الكريم يشهد أنه من عند الله لا من عند غيره وكفى بالله شهيداً.

* * *

لست متخصصا فى هذا العلم الذى يتناول موضوع تناسل الإنسان، ويشرح تفاصيل تكوينه جنينا ، ولذلك فإنى أتشرف باستئذان عالم جليل من المتخصصين فى هذا الفرع من علوم الطب وهو علم الأجنة .. هذا الأستاذ الجليل والعالم الفاضل هو الدكتور موريس بوكاى فى كتابه الطيب دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. طبعة دار المعارف (الطبعة الرابعة سبتمبر ١٩٧٧) .

لأنقل منه للقراء ما كتبه خاصا (بالتناسل الإنسانى فى القرآن) ابتداء من الثلث الأخير من صـ٢٢٦ إلى ٢٣٤ :

[إن تكوين فكرة عن محتوى القرآن فى هذا الموضوع ليس أمرا يسيراً. وتكمن الصعوبة الأولى فى أن المقولات الخاصة بالتناسل الإنسانى متفرقة فى كل الكتاب مثلما أشرنا ولكن ليست هذه هى الصعوبة الكبرى. فأكثر ما قد يضل الباحث هنا أيضا هو مشكلة المفردات.

فالواقع أن ترجمات وتفسيرات بعض الفقرات التى ما زالت منتشرة فى عصرنا تعطى لرجال العلم الذين يقرأونها فكرة مغلوطة تماما عن الآيات الخاصة بهذا الموضوع : وعلى سبيل المثال .

تقول معظم هذه التفسيرات بتشكّل الإنسان ابتداء من (جلطة دم) أو ابتداء من « التحام » وهذه المقوله لا يقبلها مطلقا العالم المتخصص فى هذا الميدان : فلم يكن أصل الإنسان أبدا شيئا من هذا. وسنرى فى الفقرة التى تعالج تعشيش البويضة فى رحم الأم ، الأسباب التى من أجلها يقع مستعربون بارزون فى مثل تلك الأخطاء لافتقادهم إلى الثقافة العلمية.

مثل هذه الملاحظة تجعلنا نتصور الأهمية الكبرى لاقتراب المعارف اللغوية والمعارف العلمية للوصول إلى إدراك معنى المقولات القرآنية عن التناسل.

يركز القرآن أولا على التحولات المتوالية التى يمر بها الجنين فى رحم الأم حتى نهاية الحمل.

سورة الانفطار الآيات من ٦ إلى ٨ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾

(سورة الانفطار)

الآية ١٤ من سورة نوح :

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة نوح)

وإلى جانب هذه الملاحظة العامة يلفت نص القرآن الانتباه نحو نقاط عدة خاصة بالتناسل البشرى ويمكن تصنيفها كما يأتى :

١- يتم الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً

٢- طبيعة السائل المخصب .

٣- تعشش البيضة المخصبة .

٤- تطور الجنين .

١- تمام الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيل جداً

يكرر القرآن هذه المعلومة (١١) مرة مستخدما التعبير الذى نجده فى سورة النحل آية (٤) خلق الإنسان من نطفة :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

نطفة : تأتى الكلمة من فعل يعنى « سال » ونضّ.

وتستخدم إلى ما يمكن أن يتبقى فى دلو بعد تفريغه. وهى إذن تشير إلى كمية من سائل ضئيل جداً ، ومن هنا كان المعنى الثانى « قطرة ماء » المقصود هنا قطرة من منى. ذلك أن نفس هذه الكلمة تقترن بكلمة منى فى آية أخرى هى الآية ٣٧ من سورة القيامة.

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهناك آية أخرى تشير إلى أن النطفة المقصودة توضع فى « قرار » وهذا القرار كما هو واضح تماماً يدل على الجهاز التناسلى.

سورة المؤمنون الآية ١٣ :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾

وتعبر صفة (مكين) التى يصف بها النص (القرار) عن فكرة مكان متقرر. وعلى أى حال فالمقصود هو المكان الذى ينمو فيه الإنسان فى (جهاز الأم).

ولكن ما يهم التأكيد عليه بوجه خاص هو تلك المعلومة عن الكمية الضئيلة جداً اللازمة للإخصاب وهى تتفق تماما مع ما نعرف اليوم.

٢ - طبيعة السائل المخصب

يذكر القرآن هذا السائل الذى يضمن الإخصاب بصفات تستحق الدراسة.

(أ) « منى » كما حددنا لتونا سورة القيامة الآية (٣٧) .

(ب) ماء دافق :

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الطارق)

(جـ) « ماء مهين » سورة المرسلات الآية ٢٠ وسورة السجدة الآية ٨ ويمكن تفسير صفة مهين فيما يبدو ليس على أنها للسائل نفسه ، وإنما بسبب خروجه من نهاية الجهاز البولى. فهو إذن يتخذ الطريق الذى يخرج منه البول

(د) « أمشاج » أى المخاليط أو ما هو مخلوط :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا ﴾

(سورة الإنسان)

ويرى كثير من المفسرين مثل الأستاذ حميد الله : أن المقصود بهذا المخلوط هو عنصر الذكر وعنصر الأنثى. وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب القدماء إذ لم تكن لديهم أدنى فكرة عن فسيولوجيا الإخصاب ولا عن الإخصاب البيولوجي من ناحية الأنثى وكانوا يعتبرون أن الكلمة تشير لمجرد اجتماع عنصرين.

أما المفسرون المحدثون، مثل صاحب المنتخب الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة فإنهم يعدلون عن هذه الطريقة. ويميزون هنا أن نقطة المنىّ « ذات عناصر شتى » .

ولا يعطى تفسير المنتخب تفصيلات أخرى عن ذلك ، ولكن ملاحظته فى رأيى سديدة تماماً .

ما هى إذن عناصر المنى المختلفة ؟

يتشكل السائل المنوى من إفرازات مختلفة تأتى من الغدد التالية :-

(أ) الخصيتان : (يحتوى إفراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنويَّة. وهى خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل وتسبح فى سائل مصلى) .

(ب) الحويصلان المنوية : تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية ، وتقع على مقربة من البروستاتا وتفرز إفرازاً خاصاً ؛ لكنه لا يحتوى على عناصر مخصبة.

(جـ) البروستاتا : وتفرز سائلا يعطى للسائل المنوى قوامه الغليظ ورائحته الخاصة.

(د) الغدد الملحقة بالمسالك البولية : وهى الغدر المعروفة باسم « كوبر » أوميرى وتفرز سائلاً جارياً وغدد لترى وتفرز المخاطا .

تلك هى أصول هذه المخاليط (الأمشاج) التى يبدو فعلا أن القرآن يتحدث عنها .

بل هناك أكثر من هذا : إذا كان القرآن يتحدث عن سائل مخصب يتكون من عناصر مختلفة فإنه يلفت نظرنا إلى أن نسل الإنسان يستمر بواسطة شئ يمكن استخراجه من هذا السائل وذلك هو معنى الآية ٨ من سورة السجدة :

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

سلاله تدل الكلمة على شئ مستخرج أو خرج من شئ آخر أو هو أحسن جزء من شئ. وأيا كانت طريقة التفسير فالمقصود هو جزء من كل .

إن ما يتسبّب فى إخصاب البويضة ويكفل التناسل : هو خلية شديدة الاستطالة يقاس طولها بمقياس ١ : ١٠٠٠٠ ملم. إن عنصراً واحدا من بين عشرات الملايين الصادرة من رجل فى ظروف عادية يصل إلى الولوج فى البويضة. ويتبقى عدد كبير فى الطريق ، ولا ينجح فى قطع المسافة التى تؤدى من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم والبوق (بوق فالوب) .

إنه إذن جزء متناه فى الصغر .. صادر من السائل معقد التركيب .. هو الذى يحقق نشاطه.

فكيف لا ندهش أمام الاتفاق بين العنصر القرآنى والمعرفة العلمية التى اكتسبناها من هذه الظاهرات.

٣- تعشش البويضة فى جهاز الأنثى التناسلى

تنزل البويضة لتعشش فى التجويف الرحمى بعد أن تخصب ، وذلك ما يسمى بتعشش البويضة ، ويسمى القرآن الرحم الذى تتخذه البويضة مكاناً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾

(سورة الحج)

ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية، وكما لو بذورا تضرب فى الأرض، فإنها تنهل من جدار العضو ما يلزم لنمو الجنين، وهذه

الامتدادات هى التى تجعل البويضة تتعلق بالرحم. ويرجع تاريخ معرفتها إلى العصور الحديثة ويشير القرآن خمس مرات إلى هذا التعلق :

أولا : فى الآيتين ١، ٢ من العلق :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

علق : تشير الكلمة إلى ما يعلق (يتشبَّث) بشئ، ذلك هو المعنى الأول، وجلطة الدم معنى مشتق من هذا المعنى. وكثيرا ما نراه فى التفاسير. غير أن هذا أمر غير صحيح ينبغى التحذير منه. فالإنسان لا يمر مطلقا بمرحلة جلطة الدم. وينطبق نفس الأمر على تفسير آخر وهو (التصاق) تلك لفظة غير صحيحة. والمعنى الأول للكلمة - أى شئ يعلق ويتشبث هو المعنى الذى يستجيب تماما للواقع الثابت اليوم.

ويذكر القرآن تلك المعلومة تقع فى أربع آيات أخرى تتحدث عن التحولات المتوالية ابتداء من قطرة المنىِّ حتى نهاية الحمل :-

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾

(سورة الحج)

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ (سورة المؤمنون)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ (سورة غافر)

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) ﴾

(سورة القيامة)

يصف القرآن العضو الذى يقع الحمل به بكلمة فى العربية تدل اليوم على الرحم كما رأينا ذلك. وفى بعض الآيات يسميه قرارًا الآية ١٣ :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ﴾ (سورة المؤمنون)

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) ﴾ (سورة المرسلات)

ويذكر المؤلف فى حاشية صـ٢٣١ فى هامش آخر الصفحة ما يأتى :

١- نذكر آية أخرى (سورة الأنعام ٦ الآية ٩٨) مكانا يمكث به الإنسان، وتعبر الآية عن هذا المكان بكلمة قريبة جدا من الكلمة السابقة : هى كلمة "مستقر" وهى تشير أيضا إلى رحم الأم ، وأنا شخصيا أعتقد أن هذا هو معنى الآيات ولكن تفسيرها بالتفصيل يستتبع إفاضات لا محل لها فى هذه الدراسة .

والآية التالية تتطلب تفسيرا عسيراً جداً .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الزمر)

هذا ما جاء بهامش صـ ٢٣١ نقلته لما ينطوى عليه من فائدة لى ويفيد المتخصصين من القراء .

٤ - تطور الجنين فى الرحم

تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن ، يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين. ولا يحتوى هذا الوصف على أى مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينفيها : إذ يقول القرآن : إن الجنين بعد مرحلة التشبث - وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة - يمر بمرحلة (المضغة) (أى اللحم الممضوغ) ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم ويعنى لحما نضراً

الآية ١٤ من سورة المؤمنون :

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

المضغة : تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر. ويستحق هذا التمييز الالتفات ؛ إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره ، كتلة صغيرة تبدو فعلا للعين المجردة كلحم ممضوغ . ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة ، وبعد أن تتشكل العظام تتغطى بالعضلات : وعلى العضلات توافق كلمة لحم.

والمعروف أن بعض الأجزاء، فى أثناء مدة تطور الجنين ، تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد فى المستقبل ، على حين تظل أجزاء أخرى منه متناسبة.

ذلك هو معنى كلمة (مخلق) هى تعنى مشكل بنسب ، وقد جاءت فى الآيات ٥ من سورة الحج لتشير إلى هذه الظاهرة.

﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾

ويذكر القرآن أيضا ظهور الحواس والأحشاء سورة السجدة الآية ٩ :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

ويشير أيضا إلى تشكل الجنس- الآيتان ٤٥ ،٤٦ من سورة النجم :

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

وتذكر الآية ١١ من سورة فاطر :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

والآية ٣٩ من سورة القيامة تشكل الجنس أيضا :

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة القيامة)

وكما قلنا فلابد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى ثبتت فى العصر الحديث ، إن توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح. ولكن من المهم أيضا مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع ، والتى كانت سائدة فى عصر تنزيل القرآن ، حتى ندرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل. وليس هناك أدنى شك فى أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم .

ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره ، والواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر .

فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية التى لا تتمتع بأى أساس ، هى قاعدة مختلف المعتقدات فى هذا الموضوع . بأن كل شئ حى

يأتى أولا من بويضة. وأن الجنين يتخلق تدريجيًّا جزءاً بعد جزء. فى هذا العصر كان العلم الوليد قد أفيد كثيراً. فى الموضوع المعنى هنا. باختراع المجهر الذى كان قد تم فى عصر سابق بقليل، وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائرا حول دورى كل من البويضة والحيوان المنوى وكان (بوفون) عالم الطبيعيات الكبير ينتمى إلى اشياع فكرة البويضة. وكان من بينهم أيضا (بونى) الذى كان يدافع عن نظرية اندماج البذور القائلة بأن مبيض حواء، أو الجنس البشرى كان يحتوى على بذور كل الكائنات الإنسانية، متداخلة كل فى الآخر، وقد حظى هذا الفرض ببعض التأييدات فى القرن الثامن عشر.

عرف الناس القرآن بما يربو على ألف عام من قبل هذا العصر الذى كانت المعتقدات الوهمية تسوده.

إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبّر فى ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها.

أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم النبى الأمى الذى أنزل الله عليه القرآن الكريم وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما(!!!).

ولا تعجب أيها القارى الكريم من نطقى بالشهادتين بعد إتمام قراءة هذا البحث الجيد الذى قدمه لنا وللناس فى الغرب عامة وللمثقفين فى بلاده، وطاف بنا جميعا فى ملكوت القرآن الكريم يملأ من رحيقه الكأس بعد الكأس مزاجها اليقين، وسلسبيلها الطمأنينة، وفراتها السكينة، وفيضها المتدفق:

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة المؤمنون)

جزاه الله خيراً ذلك العالم المؤمن الذى جمع الله له الحسنيين، وأتاه أجره مرتين وهو أخونا الحبيب موريس بوكاى كاتب هذا البحث الجيد وهو أستاذ فى كلية طب السوربون والمتخصص فى أمراض النساء وعلم الأجنة.

ولقد فجر هذا الأستاذ العالم فينا نور البصيرة، وشوق الروح وأشعل فى قلوبنا جذوة الإيمان فتلألأت أمامنا شواهد الحق فى الآيات الكريمة من القرآن الكريم التى أذاقنا حلاوة رحيقها فاستدعت رفيقات لها نتعلم منها من علم الكتاب تفضل الله علينا بتدبرها لنرى كرمه لنا أمام ناظرينا، ويبرز حنانه أمامنا بارزا للعيان فى هذه الآيات :

الآية ٧ من سورة السجدة :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

الآية ١٢ إلى ١٤ من سورة المؤمنون :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

الآيات من ١ إلى ٤ من سورة التين :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة التين)

الآية ٥ من سورة الطارق :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾

(سورة الطارق)

فإذا أذعن الإنسان لهذا الأمر الإلهى الذى يكلفه فيه ربُّ العزَّة أن ينظر ، أى يعرف أصل خلقته ، فإنه سيلتفت إلى المادة الأوّلية التى خلقه الله منها فإنه سيجدها الطين ، والطين هو التراب معجونا بالماء ، وإذا تذكر أن هذا التراب إذا علا ثوبه نفضه عنه ، وإذا مزج بالماء فلوث ثوبه أو جسمه سارع إلى التخلص منه وغسل ثوبه وجسمه إذا طال هذا الثوب أو الجسم هذا الطين وإلا احتقره الناس.

وإذا تذكر النطفة أو العلقة أو المضغة تقزز وثارت نفسه وربما تعتوره نضرات عاطفية فى نفسه تتعقد حتى تصل به إلى أن يحتقر نفسه ، لكنه إذا أدركه الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمه وذكر استهلال الآية رقم ٧ من سورة السجدة :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾

(سورة السجدة)

وذكر الآية ٥ من سورة التين:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ (سورة التين)

صاح من قلبه بصوت قوى يردد صداه الكون بأسره يردد آية رقم ١٤ من سورة المؤمنون :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

رؤية عالم مصرى مسلم فى الموضوع :

كتب العالم الجليل الأستاذ الدكتور زغلول النجار تحت عنوان : « الإشارات الكونية فى القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية » فى جريدة الأهرام الصباحية التى تصدر فى القاهرة فى عددها الصادر يوم الإثنين الموافق ١٣ / ١٢ / ٢٠٠٤ فى ص-١٣ برقم ١٥٩ (فى حديثه عن الآية رقم ٩ فى سورة السجدة التى تقول) ما يلى :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً : فى قول ربنا تبارك وتعالى : ثم سواه :

تشمل التسوية هنا مراحل خلق الجنين من لحظة الإخصاب (طور النطفة الأمشاج) إلى مرحلة نفخ الروح (طور المضغة) والتى حددها رسول الله ﷺ **بحديثه الشريف الذى قال فيه (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون بعد ذلك علقة ممثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح) - رواه الشيخان عن ابن مسعود.**

وأكد هذا النبى الخاتم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - تلك الحقيقة فى حديث آخر قال فيه : (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها، وخلق سمعها بصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب. أذكر أم أنثى ؟ . فيقضى ربك ما شاء. ويكتب الملك. (صحيح مسلم عن حذيفة بن أسد.)

وفترة تسوية الجنين البشرى يمكن تلخيصها فى الأطوار التالية :

١ - **طور النطفة الأمشاج :** ويبدأ هذا الطور بمجرد إخصاب نطفة الرجل (الحيمن) لنطفة المرأة (البويضة) عند التقاء ماءيهما المهينين (التناسليين) فقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ التناسل بهذه الطريقة وسيلة لبقاء النوع، وبالتقاء الشفرتين الوراثيتين لكل من الحيمن والبويضة فى النطفة الأمشاج وتتكون الصفات السائدة التى تظهر على الجنين، والتى تميزه عن غيره من بنى الإنسان، كما تتكون الصفات المستترة (المتنحية) والتى تختزن فيه للظهور فى نسله ومن بعده إلى يوم الدين، وتسمى العلوم المكتسبة هذه العملية باسم التنوع فى الوحدة: DIVERSITY INUNIY بما يشير إلى خلق البشرية كلها من أب واحد وأم واحدة هما أبوانا آدم وحواء عليهما من الله السلام، فى ذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويقول عز من قائل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وجاءت هذه الحقيقة فى عدد آخر من آيات القرآن الكريم مثل :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) ﴾

(سورة الأعراف)

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾ (سورة الزمر)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

(سورة الروم)

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾

(سورة فاطر)

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النجم)

ولذلك يسمى القرآن الكريم عملية الإخصاب بما فيها من تحديد الصفات الوراثية للجنين باسم (التقدير) فقال ربنا تبارك اسمه :

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة عبس)

ويقول المصطفى ﷺ « **إن النطفة إذا استقرت فى الرحم . أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم** » أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم .

وهو تقدير حقيقى ؛ لأن الخالق العظيم قد قدر لكل فرد من أفراد خلقه صفات وراثية فحدده حتى لا يتشابه اثنان من المخلوقات تشابها كاملا أبداً ولا حتى التوائم. ولذلك تسمى العلوم المكتسبة عملية الإخصاب باسم «البرمجة الجينية Genetic coding» وهى برمجة حقيقية تتم حسب علم الله المحيط بكل شئ والذى أقر صفات كل فرد من خلقه فى شيفرة وراثية وزعها بين الخلايا التناسلية لكل من الأب والأم ، ثم جمع بينهما بالزواج لتلتقى خلية تناسلية محددة من بلايين الخلايا التى وهبها الله (تعالى) للزوج مع بويضة محددة من بين ما وهب الله للزوجة من البويضات حتى يخلق منهما الجنين المقدرة صفاته الوراثية من علم الله وبعلمه بحكمة بالغة وتقدير دقيق .

وبمجرد تكوّن النطفة الأمشاج (Zygote) تبدأ فى الانقسام المتكرر حتى تتحول إلى ما يعرف باسم التويته (Morula) التى تبدأ بعد حوالى الستة أيام فى الانغراس فى بطانة الرحم ، وتستغرق هذه العملية قرابة الأسبوع حتى تتعلق بالمشيمة البدائية بواسطة ساق تُصبح فيما بعد الحبل السرى ، وتظل تنمو

بالانقسام إلى اليوم الرابع عشر من تاريخ الإخصاب وبذلك يكتمل طور النطفة الأمشاج فتعرف حينئذ باسم (الكيسة الأرومية) الأرومة المتكيسة أو (الكرة الجرثومية) التى يتراوح طول قطرها بين ٥٥ ، من المليمتر إلى ٦٨,٠ من المليمتر.

٢- طور العلقة:

تستمر الكيسة الأرومية أو الكرة الجرثومية ((Blastula) فى النمو وانقسام الخلايا حتى تأخذ شكل دودة العلق هيأة وظيفة فى الفترة من اليوم الخامس والعشرين أى : من بداية الأسبوع الثالث إلى بدايات الأسبوع الرابع، من عمر الجنين الذى يتعلق بطرفيه بجدار الرحم ليتغذى بدم الأم. وتسمى هذه المرحلة بمرحلة العلوق أو الانغراس ومن خلالها تتمايز طبقات اللوح الجنينى إلى ثلاث طبقات ، ويبدأ تخلق الخلايا المتخصصة من الطبقة الوسطى لهذا اللوح الجنينى عبر الشريط الأول (المنظم) الذى يبدأ فى الظهور على سطح الكيسة الأرومية مع بداءة هذا الطور، ولا يكاد طول العلقة يتعدى ربع المليمتر عند انغراسها فى جدار الرحم. ومع استمرار النمو يتزايد طولها إلى ما بين ,٧ من المليمتر و ٣ ملليمتر فى المتوسط عند نهاية هذا الطور حين يبدأ ظهور كل من الشق العصبى (heurdgoze)والعلقات (الكتل) البدنية أو الجسدية (Somites)وتنية الرأس ثم الأنبوب العصبى (Neuratabe)ويأخذ الجنين شكلا منحنيا يشبه دودة العلق وتعطى الدماء فى الأوعية الدموية للعلقة هيئة كتلة من الدم المتخثّر.

٣- طور المضغة :

منذ أواخر الأسبوع الرابع من عمر الجنين (أى فى حدود اليوم السادس والعشرين من نهاية الإخصاب) إلى نهاية الأسبوع السادس (حوالى اليوم الثانى والأربعين) تأخذ الكتلة البدنية فى توالى الظهور بالتدريج من قمة الجنين إلى مؤخرته ويكون طول الجنين قد وصل إلى حوالى ١٣ ملليمترا وتعطيه انبعاجات

الكتل البدنية والمنخفضات الفاصلة بينها شكل قطعة اللحم الممضوغة ومن هنا كانت دقة التسمية القرآنية بتعبير (المضغة) ! !

وفى هذا الطور تظهر براعم الطرفين العلويين ثم الطرفين السفليين ، كما تظهر بالتدريج أزواج من الأقواس الخيشومية ، القلب ، فتحتا الأذن . وحويصلة كل منهما وعدستا العينين وقرصاهما وفتحتا الأنف ، وتكوّن صفحتى اليدين ، ثم صفحتى القدمين ، وظهور أطراف الأصابع ، ويبدأ جذع الجنين فى الاستقامة وتبدأ الحويصلات المخية فى البروز ، ويتكوّن جذع الدماغ الذى يتحكم فى جميع المراكز الحيوية بجسم الجنين ، ويبدأ صوانا الأذن في أخذ شكليهما ، كما تبدأ الأعضاء الداخلية الأساسية فى التمايز ، إلا أن الجنين وحتي نهاية هذا الطور يبقى بدون الملامح البشرية .

وهذه بإيجاز هى مراحل تسوية الجنين البشرى التى يعبّر عنها القرآن بقول ربنا تبارك وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة السجدة)

وهذه التسوية فى ذرية آدم تختلف عن التسوية فى خلقه الأول التى وصفها ربنا سبحانه وتعالى بقوله العزيز :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

يفرق القرآن بين الحياة والروح .

فالحياة بمعنى القدرة على النموّ والتكاثر موجودة فى كل من النبات والحيوان .أما الروح فهى من مبرّرات التكريم الذى اختص الله ـ سبحانه وتعالى ـ به أبانا آدم وبنيه من بعده ، وهى غيب من الغيوب التى استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها فقال عز من قائل :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (سورة الإسراء)

وكل ما نعلمه عن الروح أنها سر من أسرار ربّ العالمين كرم به أبانا آدم عليه السلام ومن ثم أمنا حواء ـ رضى الله عنها ـ ثم ذريتهما إلى يوم الدين .

فبعد أن سواه من طين .نفخ فيه روحه وعلمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له ، ثم خلق زوجته منه وأكرمها بنفخة الروح ، وخلق ذرياتهما بالتناسل ، وأبدع ذلك بعلمه وحكمته وقدرته بالتقاء نطفتى الرجل المعين والمرأة المعينة فتتكون منهما النطفة الأمشاج المحددة التى تنقسم انقسامات عديدة على هيئة الكيسة الجرثومية (الأرومية) التى تنغرس فى جدار الرحم وفى خلال الأسابيع الستة الأولى من تاريخ الإخصاب تمر هذه الكيسة الأرومية بمرحلتى العلقة ثم المضغة . ثم يرسل الله (تعالى) الملك إلى هذا الجنين لينفخ فيه الروح. ومن ثم يأخذ الهيئة الآدمية بالتدريج ويكمل مراحل نموه بخلق العظام وكسوتها لحما .ثم ينشئه الله ـ تعالى ـ خلقا آخر حتى اكتمال نموه ثم ميلاده .

وتأخذ هذه الأطوار حوالى الثمانية والثلاثين أسبوعا ٢٦٦ (يوما) فى المتوسط .

ثالثا: فى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة السجدة)

١ - تَخَلُّق حاسة السمع .

٢ - (تَخلُّق حاسة البصر .

٣ - تَخَلُّق حاسـة الفؤاد .

ليس المقصود بالفؤاد مجرد عضلة القلب وحدها ، ولكن يعبر بالفؤاد عن العلاقة الربانية المحكمة الدقيقة بين العقل والقلب . تلك العلاقة التى تؤثر فى مضغة لحمية صغيرة نابضة بشكل متصل لا تتوقف عن النبض على طول الحياة .

وهذه المضغة عبارة عن عضلة فى حجم قبضة اليد مودعة فى الصدر.

تضخ الدم المؤكسد إلى مختلف أجزاء الجسم .وغير المؤكسد إلى الرئتين لأكسدته ، ولكنها فى نفس الوقت هى مركز الإحساس فى جسم الإنسان الذى يجعله يخفق بشدة عند الفرح ويتثاقل بالهموم عند الحزن وينفعل بكل حادثة بحسب حجمها دون أن يتمكن الإنسان من فهم هذه العلاقة فهماً دقيقاً أو وضع تصور كامل لها.

ويمكن تمييز بروز القلب مع نهاية الأسبوع الرابع من عمر الجنين . وكذلك تمييز الأوعية الدموية فى كل من الجنين والغشاء المشيمى والمعلاق .

ويتصل الأورطيان الظهريان ليكونا شريانا هو الأورطى الظهرى فى

جهة صفيحة القلب الأولية التى تتحول إلى أنبوب ملتوى على هيئة الحرف الإنجليزى S .

ثم بعد ذلك تبدأ غرف القلب فى الظهور مكونة أذنيين متصلين وبطينين متصلين فى بادئ الأمر . وتتم الدورة الدموية بين الجنين والأم عبر المشيمة ، ويتم تخلق الجهاز الدورى بالتدريج حتى يتم اكتمال نمو الجنين .ويتكون جذع الدماغ الذى يتحكم فى أغلب العمليات الحيوية للجسم (مثل التنفس) و الدورة الدموية فى اليوم الثانى والأربعين من عمر الجنين.

أما الاتصال بين المناطق المخية العليا الموجودة فى قشرة الدماغ والمناطق السفلى ، فلا يتم إلا فى نهاية الشهر الرابع من عمر الجنين بعد ١٢٠ يوما من لحظة الإخصاب ولذلك جاء ذكر الفؤاد متأخراً بعد ذكر حاستى السمع والإبصار .

ويُنهى الأستاذ الجليل زغلول النجار بحثه هذا القيم بقوله : **هذه الحقائق العلمية عن تسوية الجنين لم تعرف بواسطة العلوم المكتسبة إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين وورودها فى كتاب أنزل على نبى أمى * فى أمة كان غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل أربعة عشر قرنا أو يزيد مما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله . وحفظه بعهده فى نفس لغة حية (اللغة العربية) على هذا المدى الطويل . وتعهد بذلك الحفظ إلى قيام الساعة . وشاهد بالنبوة والرسالة للنبى والرسول الخاتم الذى تلقاه .**

فالحمد لله الذى أنزل القرآن الكريم بعلمه، وتعهد بحفظه ، فحفظه حفظًا كاملاً .حتى يكون حجة لله (تعالى) على عباده من بعد الرسل . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

إن من يقرأ ما قاله الأخ الحبيب فى الله الأستاذ الدكتور موريس بوكاى، فى نهاية مقولته العلمية، وما سطَّره أخونا الفاضل الحبيب فى الله الأستاذ الدكتور زغلول النجار فى نهاية مقالته العلمية فإنه يسمع الصوت العالى للفطرة الكامنة فى كل إنسان التى فطر الناس عليها، ولهزَّتُهُ جلجلة هذا الصوت القوى هزة بركانية تخرج كل خبيث من الشك من جوفه، وعقله وفؤاده، فينصرف لتوه إلى هذا الكتاب العزيز، والقرآن المجيد حيث سورة الكهف فى أولى كلماتها :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الكهف)

وتردد روح القارئ بكلمة الحق وشهادة الصدق، التى انبعثت أضواؤها من العلم المجرد العادل نشيد الفطرة القدسى الكلمات، الملائكى النغمات :

« لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » تردد هذا النشيد معه أرواح كل المؤمنين من آدم عليه السلام إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها، إن كلمات هذين العالمين الجليلين هى نوع من الحق الذى يقذفه الله على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .فهى إذ تسكب على كلمات جورج بوش ومن قال قوله من المستشرقين والملحدين من بشرية القرآن، ومن تأليف سيدنا

محمد - صلى الله عليه وسلم - له مما سمعه من الذين التقى بهم من البشر من أهل الكتاب، إذا سكبنا كلمات هذين العالمين على هذه الكلمات الصادرة عن هؤلاء الحاقدين لأحرقتها ونسفت رمادها نسفا فلا نرى فى قلوب الحاقدين عوجا ولا أمتا .

إن الحقائق العلمية التى أبرزتها كلمات هذيْن العالميْن الجليليْن فى آيات القرآن الكريم لم تُكتشف إلا فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وفى أوائل القرن العشرين .

بينما نزلت هذه الآيات على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرن السابع الميلادى واستودعها قلوب المؤمنين، فحفظوها وتلوها آناء الليل وأطراف النهار . . حتى جمع القرآن كاملا سورة سورة وآية آية وكلمة كلمة وحرفًا حرفًا حتى وصل إلينا ، وحتى يصل إلى الأجيال من بعدنا ...وكانت أوروبا تغط فى نوم عميق، فى ظلام دامس جعل العلماء والمفكرين يسمون العصر الذى بعث فيه سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لأوروبا بالذات عصر الظلمات .وبالنسبة للجزيرة العربية كانت الفترة التى سبقت بعثته ﷺ فترة جاهلية أى ظلمات أيضا ، فأين البشر الذين توفرت لديهم وسائل الكشف العلمى ، وكانت لديهم ذخائر العلم وقدراته التى كشفت اللثام عن حقيقة ما يجرى داخل الرحم من تكوينات وتَكوُّنات من خلايا النطفة التى تصبح بعد فترة قليلة إنسانا سويا على هذا النحو الذى يرشحه لخلافة الله فى الأرض؟ (!!!) .

هل كان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم - صلى الله عليه وسلم - دارسا لهذا الفرع من فروع العلم الدقيقة ، ولديه من أدوات الكشف ووسائل البحث من الميكروسكوبات ومعامل التحليل ، وكان يعكف عليها ومعه المخبار والبوتقة والميكروببتى ، والسوائل المؤثرة والتى يكون قد ورثها عن أساتذته فى كلية فى جامعة... ؟

إنه عليه - الصلاة والسلام - لو ظل عمره كله يبذل الجهد فى إثبات هذه الحقائق العلمية فى هذا الفرع فقط من فروع العلم لانقضى عمره، ولما يتم كشفه، ولانشغل تماما عن رسالته التى أراد أن يبلغها للناس لسبب بسيط : هو أن البحث سيمنعه تمامًا من الاتصال بهم والانشغال بهمومهم .وسيعكفه ليلا ونهارا على هذا البحث وحده (!!!) .

فإذا علمنا أن ما تضمنه القرآن الكريم من حقائق علمية أخرى، فى علوم كثيرة أخرى يتطلب بحثها ودراستها عمر الإنسانية على الأرض حتى تقوم الساعة ؛ لأيقنّا تمامًا أن القرآن كلام الله - سبحانه - أنزله على سيدنا محمد نبيه ورسوله إلى الناس كافة يتلو عليهم كلماته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنه عزيز حكيم.

وعند ذلك يستقر فى عقولنا وتحفر فى قلوبنا ، وترى أرواحنا أضواء هذه الآية، فى كبد السماء، وفى الآفاق ما بين السماء والأرض.

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٩) ﴾

(سورة ص)

فى الفصل السابق نقلت إلى القارئ من علم موريس بوكاى ومن علم الدكتور زغلول النجار وهما من فيض علم الله - سبحانه وتعالى - علمها إياهما بفضله وهو العليم الحكيم، ما جاء خاصًّا بعلم الأجنة ، وهذا العلم يتناول تكوين الجنين داخل الرحم ، يعنى الإنسان من الناحية العضوية فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف لنرى أن ما ورد فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف خاصا بعلم النفس ، يشهد بأن القرآن كلام الله أنزله على نبيِّه ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

***

الفصل السادس

القرآن الكريم وعلم النفس

والحديث الشريف وعلم النفس

ليس هناك خلاف بين اثنين على أن علم النفس هو أحدث العلوم الإنسانية، لم ينظر ولم توضع قوانينه إلا خلال القرن العشرين، بحيث يكتشف المتعلم أن هذا العلم ولد طفلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، لكنه بدأ يجرى فى الساحة العلمية منذ بداية القرن العشرين ، وحتى يوم الناس هذا ، حيث أصبح علما مستقلا له علماؤه المهتمون به دراسة وتدريسا، وعلما وتعليماً، حتى دخلوا به ساحات النشاط الإنسانى يفسرون به سلوك الإنسان ومواقفه، ويعالجون به ما يصيب الإنسان من أمراض نفسية تحول بينه وبين أدائه فى معترك الحياة .

ونظرا لأن العلماء المحدثين فى الغرب قد تنبهوا إلى نفس الإنسان وكيف تتأثر بما حولها، وإلى نشاطه الذى يتأثر بما يحيط بالإنسان من ظروف، ومن بيئات يتفاعل معها فى حدود ما منحه الله - سبحانه وتعالى - من ملكات وحواس، وما ينطوى عليه كيانه من قدرات وذكاء ، وما يعتمل داخله من أسواق وطموحات يريد أن يحقق بها ذاته على أرض الوجود، فإنهم (أى هؤلاء العلماء) احتضنوا هذا العلم الذى يساعد الإنسان على تحقيق ما يساوره من أهداف يكون بتحقيقها سعيداً مطمئنا، راضيا عن نفسه وراضياً فى الوقت نفسه عما حوله من بيئة وعمن حوله من بشر يكون مسروراً بانتمائه إليهم .

وهؤلاء العلماء الغربيون احتضنوا هذا العلم (علم النفس) على أنه وليدهم وحدهم ونسوا غيرهم، وضنُّوا على العرب بالذات وعلى المسلمين منهم أن يكون لهم دور فى العناية بالنفس الإنسانية أو بالإنسان كوحدة من وحدات الكون تؤثر فيه وتتأثر به .

ضَنَّ علماء الغرب على المسلمين أن يكونوا السابقين فى ميدان هذا العلم ونسبوه لأنفسهم ولحضارتهم فقط .

وتعمدوا تجاهل الحقيقة التاريخية التى تسطع فى تاريخ الحضارة الإنسانية لتقول : إن علماء المسلمين هم أول من قدم النظريات فى ميدان هذا العلم، وكانوا فى وضعهم لهذه النظريات على بصيرة أكسبتهم الدقة والشمول . وكان الذى يهديهم إلى هذه الحقائق، ويحدوهم فى هذا الميدان وحازوا به قصب السبق هو القرآن الكريم، والحديث الشريف .

ولقد انبرى لإثبات هذه الحقيقة، وإثبات أن علماء المسلمين هم الرواد فى هذا المضمار ، علماء أجلاء منهم أستاذنا الجليل الدكتور محمد عثمان نجاتى أستاذ علم النفس فى الوطن العربى والإسلامى بادئا من جامعة القاهرة إلى جامعة الكويت إلى جامعة محمد بن سعود الإسلامية فوضع كتابين أغرين : الكتاب الأول هو (**القرآن وعلم النفس**) والثانى : (**الحديث النبوى وعلم النفس**) و كلا الكتابين من طبعات وتوزيعات دار الشروق (ميدان طلعت حرب - بمدينة القاهرة) وسيكونان مرجعين لهذا البحث ليثبت للقارئ فى يقينه أن القرآن منزّل من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ وهو النبى الأمى .وليثبت أن مؤلف الكتاب الذى نرد على ما جاء به قد تجنّى على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما نسب إليه القرآن الكريم وزعم أنه مؤلفه .ولينفى هذا الزعم من عقول الذين ضلوا من المستشرقين والذين يشايعونهم فى الغرب الآن فى أوروبا وأمريكا، وفى الشرق يمحو من عقول الذين يرددون هذا الزعم، وهذا الافتراء فى تجمعاتهم ومؤتمراتهم المولودة سفاحا من لقاء الحاقدين على الإسلام فى الغرب، والمنهزمين الفارّين أمام الغزو الفكرى الصهيونى فى الأصل الأمريكى فى المظهر .

إن علم النفس هو من أحدث العلوم الإنسانية ، ولم يصبح على صورته الماثلة إلا فى النصف الأول من القرن العشرين ، فإذا ثبت أن القرآن الكريم تحدث عن هذا العلم ؛ فإن هذا الثبوت يلقم المدّعين ببشرية هذا القرآن الحجر . ويخرس فى داخلهم صوت الشيطان .

والذى دفعنى إلى الاقتصار على هذين الكتابين لإستاذنا الجليل الدكتور محمد عثمان نجاتى قوله فى مقدمة كتاب الحديث النبوى وعلم النفس ما يأتى :

[لقد اتجه اهتمامى منذ مدة طويلة إلى دراسة المفاهيم النفسية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، بهدف الوصول إلى فهم دقيق للتصور الإسلامى للإنسان ومعرفة وجهة نظر الإسلام فى العوامل الرئيسية للشخصية السوية والصحة النفسية وأسباب الانحراف والشذوذ ، الرضا النفسى والطرق السليمة لتعديل السلوك والعلاج النفسى ، وأسباب سعادة الإنسان وأسباب شقائه ومنهج الحياة الأمثل للإنسان لكى يعيش عيشة آمنة مطمئنة سعيدة. فهذه المعرفة فى رأيى ضرورية لكى نفهم شخصية الإنسان فهمًا سليمًا ، بحيث نكون أقدر على معرفة أسباب انحرافه وشقائه ومرضه النفسى. وأقدر على توجيهه وإرشاده وعلاجه .

ولا شك أيضا فى أن هذه المعرفة ستمكننا من مراجعة ما وصل إليه علم النفس الحديث من معلومات عن الإنسان وحياته النفسية ، ومعرفة أوجه اتفاقها واختلافها مع التصور الإسلامى للإنسان ، وما أمدَّنا به تراثنا الإسلامى من حقائق عن حياته النفسية] .

وقوله أيضا فى مقدمة كتاب «القرآن وعلم النفس» .

[يرجع اهتمامى بموضوع : القرآن وعلم النفس ، إلى حوالى أربعين سنة مضت وذلك حينما كنت أعد رسالتى للماجستير فى موضوع الإدراك الحسى عند ابن سينا. فى الفترة من ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٢ فقد رأيت أنه من الضرورى لفهم آراء ابن سينا فى علم النفس ، الرجوع إلى جميع ما كان معروفا قبل عصر ابن سينا من مفاهيم وآراء ، ودراسات نفسية مختلفة. ولذلك تعرضت فى مقدمة الرسالة إلى بعض المفاهيم النفسية التى وردت فى القرآن الكريم والحديث الشريف كمصدرين من المصادر التى أثرت فى بعض آراء ابن سينا وخاصة فى موضوع الإدراك الحسِّى واكتساب المعرفة والأحلام والرؤى].

فإذا كانت فكرة اتخاذ القرآن الكريم والحديث الشريف مرجعين فى علم النفس قد راودته منذ أربعين سنة قضاها كلها فى البحث والتدريس والتأليف والإشراف على بحوث تلاميذه. وكلها كما نرى قد ولدت خبرة وإحاطة بهذا العلم قرأ بها القرآن والحديث الشريف وخرج علينا بهذين الكتابين فإننى واثق كل الثقة أن هذين الكتابين قد ضما بين دفتيهما من العلم الذى أعتبره شهادة أقامها هذا العالم الجليل لله سبحانه وتعالى استند إليها فى هذا البحث مطمئنا إلى النتيجة المترتبة عليها والتى أنشدها لتصل إلى القارئ الكريم تدحض افتراءات جورج بوش فى مؤلفه الذى عنيت بالرد عليه .

فهيا إلى هذا الكتاب « القرآن وعلم النفس » نستقى من علمه النافع، ونستنير بحقائقه العلمية المكتشفة فى القرآن الكريم .

ما جاء فى الفصل الأول

(دوافع السلوك الإنسانى)

يقول :

يصنف علماء النفس المحدثون الدوافع إلى قسمين رئيسين : هما :

أولاً : الدوافع الفسيولوجية : وهى الدوافع الفطرية التى ترتبط بحاجات البدن الفسيولوجية ، وما يحدث فى أنسجة البدن من نقص واختلال الاتزان. وهى تقوم بتوجيه سلوك الفرد إلى الأهداف التى تشبع حاجات بدنه الفسيولوجية.

ثانيًا: دوافع نفسية : وهى الدوافع التى تكتسب بالتعلم أثناء التنشئة الاجتماعية للفرد.

الدوافع الفسيولوجية

قسمان: أحدهما ضرورى لبقاء الفرد والآخر لبقاء النوع ، وفكرة الاتزان الحيوى: ذكرها القرآن الكريم من قبل منذ أربعة عشر قرناً وذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة الحجر)

بينما اكتشفها العلماء حديثاً.

وهى- فكرة الاتزان الحيوى: موجودة فى الآيات الآتية:

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرعد)

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (سورة القمر)

أولاً: دوافع حفظ الذات:

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى بعض آيات القرآن الكريم أهم الدوافع الفسيولوجية التى تقوم بحفظ الذات وبقاء الفرد مثل الجوع والعطش، والتعب، والحرارة والبرودة والألم والتنفس.

ولقد خاطب الله ـ تعالى ـ آدم ـ عليه السلام ـ وهو فى الجنة مذكراً له ما هو فيه من نعيم حيث لا يؤذيه الشعور بالجوع والعطش ، وحيث لا يعرّى فيخدش حياؤه، وتؤذيه تقلبات الجو . وحيث لا يشعر بحرارة الشمس ، حيث لا توجد شمس فى الجنة ، ومحذِّراً له من الوقوع فى شرك الشيطان الذى يريد أن يخرجه من الجنة بالهبوط إلى حياة الأرض التى سيشقى فيها هو وأبناؤه بالسعىٌ والعمل المتواصل بالصيد والحرث والزرع لإشباع دافع الجوع، وحفر الآبار والضرب فى الأرض للوصول إلى مجارى الأنهار لإشباع دافع العطش ، وصنع الملابس لاتقاء العرى الذى يعرِّضه لتقلبات الجو ، والالتجاء إلى ظلال الأشجار والكهوف وبناء المساكن لاتقاء حرارة الشمس وبرودة الليل ، قال تعالى :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

ففى هذه الآيات إشـارة إلى ثلاث دوافع هامة من دوافع حفظ الذات وهى دوافع الجوع والعطش وتجنب الحرارة والآيتان من ٨٠-٨١ من سورة النحل نجد هذه الدوافع أيضاً .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة النحل)

ودوافع حفظ الذات موجودة لدى كل من الحيوان والإنسان وتشير الآية التالية من سورة النمل إلى دوافع حفظ الذات عند النحل مما يجعلها تتجنب ما يؤذيها ويلحق بها الضرر ويصيبها بالهلاك والدمار قال تعالي :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

ثانياً - دوافع بقاء النوع :

الدافع الجنسى :

يقوم بوظيفة هامة : هى التناسل لبقاء النوع :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الحجرات)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (سورة النساء)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الروم)

الدوافع النفسية :

الدوافع النفسية هى الدوافع التى لا يمكن إرجاعها مباشرة إلى الحالات الفسيولوجية للبدن الناشئة عن وجود نقص أو حاجات بدنية كما هو فى الدوافع الفسيولوجية كالجوع والعطش والتعب.

ويذهب معظم علماء النفس المحدثين إلى أن الدوافع النفسية هى فى الأغلب مكتسبة على أساس دوافعنا الفسيولوجية أى أنهم يعتبرونها متفرعة أو مشتقة منها نتيجة تفاعلها من خبرات الفرد وعوامل تنشئته الاجتماعية، وبناء على ذلك فهم لا ينكرون وجود عناصر فطرية فيها.

ونحن نحيل إلى (الدكتور محمد عثمان نجاتى) فى هذا الكتاب إلى أن نضم تحت عنوان الدوافع النفسية ، جميع الدوافع النفسية والروحية التى يتميز بها الإنسان عن الحيوان .

دافع التملك

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ (سورة الفجر)

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾

(سورة الحديد)

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴾

(سورة البقرة)

دافع العدوان :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (سورة طه)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (سورة البقرة)

قال الإمام فخر الدين الرازى فى شرحه لهذه الآية :

ولما أوحى الله إلى الملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ومعناه : إذا جمعت بين الشهوة والغضب وبين العقل صار مشتملاً فى الهيئة قضاء الشهوة وامضاء الغضب ، وذلك يوجب وقوع الفساد من الشهوة.

- وإن أول عدوان حصل فى حياة البشر : هو عدوان ابن آدم قابيل على أخيه هابيل حينما تقبل الله تعالى قربان أخيه ، ولم يتقبل قربانه فتملكته الغيرة (الخبيثة) فقتل أخاه.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

دافع التنافس :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

دافع التدين :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الروم)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذاً التدين دافع فطرى وليس مكتسباً. ولكن ما هو مكتسب هو الإلحاد والانحراف عن الدين .

الدوافع اللاشعورية :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

تُسجل هذه الآية على بعض الناس الذين يشعرون أحياناً ببعض الرغبات أو الدوافع غير المقبولة أو المثيرة لقلقهم فيعملون على ابعادها من دائرة وعيهم (بؤرة الشعور) أو كبتها فى اللاشعور ، وفى كثير من الاحيان يقومون بالتعبير عن هذه الرغبات والدوافع بطريقة لاشعورية فى صورة فلتات اللسان وأخطاء الكلام.

السيطرة على الدوافع :

القرآن الكريم سبق نظريات علم النفس فى التعريف بالدوافع الفسيولوجية التى تستهدف المحافظة على الذات والمحافظة على النوع. (حفظ الذات وحفظ النوع) وأنها مغروسة فى فطرة الإنسان. وأن الله - سبحانه وتعالى - شاء ذلك وجعل إشباع هذه الدوافع أمراً ضرورياً تقتضيه هذه الفطرة وليس فى القرآن الكريم ولا فى سنة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى استفزاز هذه الدوافع أو إنكارها أو يدعو إلى كبتها وإنما يدعو القرآن وكذلك تدعو السنة إلى السيطرة على الدوافع والتحكم فيها.

وإشباعها فى الحدود التى يسمح بها الشرع دون إسراف أو تجاوز لهذه الحدود. وذلك لمصلحة الفرد والجماعة.

ونظم ذلك بقواعد شرعية يلتزم بها الناس ما داموا يطلبون السعادة .

والقرآن لا يدعو إلى كبت هذه الدوافع ؛ لأن ويلات هذا الكبت تشوه السلوك الإنسانى ، وإنما يدعو إلى تنظيم إشباعها والتحكم فيها. وتوجيهها توجيها سليما تراعى فيه مصلحة الفرد والجماعة.

ويتبين حكم القرآن بوضوح فى اعترافه بمشروعية إشباع الدوافع الفسيولوجية من الآيات التالية :

١ -

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٢ -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٣ -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

٤ -

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٥ -

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

٦ -

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النور)

٧ -

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

هكذا يضع القرآن الكريم هذا الدستور الرائع ذا القواعد المنظمة لسلوك الإنسان فى إشباع دوافعه الفطرية فى مجال حفظ الذات وحفظ النوع. التى تجنبه ويلات كبت هذه الدوافع ويجنبه الشرور التى تتولد عن هذا الكبت والتى تصيب الفرد وتصيب المجتمع فى وقت واحد .

يقول الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتى فى كتابه القرآن وعلم النفس صـ٥٤ :

يتضح من هذه الآيات التى ذكرناها أن القرآن لا يدعو الإنسان إلى إنكار دوافعه الفطرية وكبتها. وهو بذلك يجنبه الوقوع فى صراع النفس الذى ينشأ من إنكار الإنسان لدافعه الجنسى، وقيامه بكبته مما يؤدى إلى نشوء أعراض اضطرابات السلوك.

ولكن القرآن مع ذلك لا يطلق العنان للإنسان لإشباع دوافعه الفطرية بلا حدود. ولكنه يدعوه إلى تنظيم إشباعها والسيطرة على زمامها.

ولا حرج على الإنسان من التمتع بإشباع دوافعه الفطرية ما دام يشبعها عن الطريق الحلال والمسموح به شرعا.

غير أن القرآن يدعو إلى نوعين من التنظيم فيما يتعلق بإشباع الدوافع الفطرية .

الأول : هو اشباعها فقط عن الطريق الحلال المسموح به شرعا .

والثانى : هو عدم الإسراف فى إشباعها.

فالقرآن ينهانا عن إشباع دوافع الجوع عن طريق الكسب الحرام ، كما ينهانا عن أكل أنواع معينة من المأكولات لما فيها من إضرار بصحة الإنسان..

كما ينهانا عن إشباع الدافع الجنسى عن غير طريق الزواج ، لما فى ذلك من أضرار أيضا كثيرة صحيحة واجتماعية.

وقد نظم الله تعالى للإنسان طريقة إشباع الدافع الجنسى ، ولتحقيق الأمن

والطمأنينة لهما بما تتضمن الحياة الأسرية للإنسان من محبة ومودة وتعاون وإيثار.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النور)

وفى هذا المجال من الحرص على تجنيب الإنسان ويلات الكبت النفسى. نزل القرآن الكريم على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آيات بينات تأمر بتحقيق مجتمع يساعد الإنسان على السيطرة على دافعه الجنسى ولا يعرضه إلى ما من شأنه أن يثير هذا الدافع ويهيجه.

ولذلك طالب القرآن في هذه الآيات المنزلة على سيدنا رسول الله ﷺ بغض النظر ، كما طالب النساء بإخفاء زينتهن ومحاسنهن الخلقية التي قد تفتن الرجال كالشعر والعنق والصدر .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

(سورة النور)

كما وجه القرآن الكريم الناس إلى ضرورة التنبيه على الخدم والأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة البلوغ بعدم الدخول بدون استئذان على أماكن تواجد الرجال والنساء في ثلاثة أوقات من اليوم هي : قبل صلاة الفجر ، ووقت القيلولة في الظهر ، وبعد صلاة العشاء عند الاستعداد للنوم :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النور)

السيطرة على الدوافع النفسية

يعنى القرآن بتوجيه الإنسان إلى السيطرة على دوافعه النفسية أيضاً ، ففى كثير من المواضع يحث القرآن على السيطرة على دافع العدوان ودافع التملك :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

ضبط دافع التملك

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحديد)

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) ﴾

(سورة إبراهيم)

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾

(سورة النازعات)

الخلاصة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعل لنسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والأفئدة .

فتركيبة الإنسان من مادة وروح ، وبهذا يتفرد الإنسان بطبيعته الاثنينية ، والله تبارك وتعالى يعلم ذلك علم الخلاق العليم ، فعندما يضع الله سبحانه وتعالى دستوراً لهذا الإنسان يحكم مسيرته فى الحياة الدنيا يراعى وهو الحكيم التوازن بين أفقى المادة والروح فيشرع له من قواعد هذا الدستور ما يكفل تحقيق هذا الاتزان أو التوازن الذى بدوره يسكن الإنسان إليه ؛ لأنه يراه مقتنعاً بما يراه ، أن يحقق له السعادة التى يبغيها .

وفى النسق القرآني الذى قرأنا متعلقاً بهذا الباب تيقّن من أنه الله ، وهو الحكيم قد شرع القواعد فى تلك الآيات متضافرة لتحقق هذه النتيجة بصياغة

بعد آية فى الإبداع الذى يعجز البشر أن يأتوا بمثله أبداً ، وتتضاءل أمامه جهود العلماء .

فالقرآن الكريم بنظمه البديع وصياغته المحكمة المتفردة التى تأخذ بالألباب ، يأخذ بيد الإنسان إلى الطريقة التى تكفل له حسن الموازنة (بين متطلبات بدنه فى حياته اليومية التى نلح عليه لاشباعها ، ومنطلقات روحه المتشوقة إلى الله تعالى ، والمتعلقة إلى النعيم فى الحياة الآخرة ، فعلى الإنسان أن يلبى حاجاته البدنية ويشبع دوافعه الفطرية ، لكى يعيش ويبقى ، ويعمر الأرض ويؤدى رسالته فى الحياة التى خلقه الله تعالى لها .

ولكن يجب على الإنسان أيضاً أن يلبى متطلباته الروحية من الاعتراف بربوبية الله ، وعبادته واتباع المنهج الذى رسمه الله تعالى له فى الحياة ، لكى ينعم بمغفرته ورضوانه فى الحياة الآخرة .

إن الإنسان مطالب بأن يجد ويجتهد فى تحقيق هذا التوازن بين متطلبات الجسم ومتطلبات الروح) انتهى كلام الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتى .

والذى نستفيده من قراءة هذه الآيات أنها تسوق لنا دليلاً قوياً على عدل الله سبحانه وتعالى المطلق الذى يكمن فى أنه سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وكلفه بخلافته فى الأرض ، وهو يعلم ما توسوس به نفسه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، ويعلم أن حياة الإنسان على كوكب الأرض قصيرة ، وهو مكلف بأن يخضع كل ما هو على الأرض لمراد الله سبحانه وتعالى فيستعمل كل ما يتاح له من حياة ، وما يتاح له من مال ويتبين فيما يرضى الله عز وجل ، فاقتضى عدله ألا يتركه سدى وإنما يشرع له من القواعد ما إن اتبعها لتحققت هذه المعادلة الصعبة التى لا يفلح فى تحقيها إلا من اتبع هداه ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

هذا الهدى سطع فى هذه الآيات فى صورة التوازن والاتزان والموازنة بين متطلبات الجسم ومتطلبات الروح بإعجاز لا تقترب منه أحلام البشر الذى لم يكتشف أهميته إلا فى النصف الأول من القرن العشرين بينما علمه الله لسيدنا محمد ﷺ منذ ألف وأربعمائة وخمسة وعشرين عاماً وعلمه للمؤمنين .

ولا يملك العالم الأريب إلا التسليم لهذا الإعجاز المبهر .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هـذا الإعـجاز الذى يشـهـده كل من له قلب أو ألقى السـمع وهـو شـهـيد البادى في الآيات التى ذكرناها فى هـذا البحث خاصـاً بالدوافع الفسيولوجية للسـلوك الإنسـانى ، وكذلك الدوافع النفسـية ، نراه رأى العيـان فيـما يتعلق بالانفعالات ، والإدراك الحسى ، والتفكير والتعلم والتذكر والنسيان ، والجهاز العصبى والمخ والشخصـية والعلاج النفسى ، وكل أبواب علم النفس ، وذلك عـالجه القـرآن الكريم بما هو مبـهـر من آياته الرائقة السـاطعة بنور علم الله على حـروف كلمـاته بين دفتـيـه قـراءة أو فى صـوت قـارئ له فـيسـتـقـر فى وجـدانه نوراًلآياته الكريمة :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

***

الاعجاز القرآنى

فى التصوير النفسى

قال الله تعالى فى سورة الحج :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾

(سورة الحج)

الخوف هو أحد الانفعالات التى تشكل جزءاً من التكوين النفسى للإنسان ، والإنسان حين يرى خطراً يهدد فى نفسه أو فى أهله أو فى ولده أو فى ماله أو فى أحبابه ينفعل بانفعال الخوف فيأخذ حذره ، ويحتاط لنفسه ، ويحاول الدفاع عن نفسه بالتعامل مع مصدر الخطر ، أو بتجنبه ، وفى الحالتين يضمن السلامة لنفسه ولغيره ممن يحب أو ما يملك ، فإذا كان الخطر جسيماً بجسامة مصدره بأن يكون التصدى لمصدر الخطر فوق طاقته ، وأعظم من قدرته ، فإن انفعال الخوف يسيطر عليه تماماً ، ويعطل عقله ، ويصيبه بالذهول ، ويشتت فكره ، ويفقده الوعى ، ويعدمه الحيلة ، ويشل ذهنه .

وفى هاتين الآيتين أراد الله سبحانه وتعالى تصوير نفسية الإنسان فى حالة مثول الخطر على الوجه الآتى :

أولاً : ذكر الخطر ووصفه بأنه شىء عظيم ، وبمجرد ذكره يثير الخوف

والهلع ، هذا الخطر هو زلزلة الساعة ، ووصفها بأنها شيء عظيم يرينا منها حجم الخطر المحدق ، والمهدد للناس ، وما ورد في أول الآية الثانية يفيد أن هذه الزلزلة حق آت لا ريب ، والباقي منها صور نفسية الناس المتعرضين لهذا الخطر تصويراً دقيقاً .

ثانياً : عندما أراد أن يصور لنا الخوف تصويراً مثاليًا يبرز قوته وتملكه لنفس المنفعل صورة مهيمناً على المرأة مرضعة وحبلى ، فالأولى تصاب بالذهول عن الطفل الرضيع فلا تراه ولا تحسه ، بل ولا تتذكره بمعنى أنه يمحى تماماً من ذاكرتها بسبب سيطرة انفعال الخوف عليها فيتركز اهتمامها على نفسها دون الآخرين حتي لو كان من ضمن هؤلاء الآخرين أعز من تحب ، وهو رضيعها الذى تحيطه بأعلى العواطف ، وأسمى درجات الحب .

وأما الحبلى فإن الخطر الداهم يسبّب الخوف الشديد الذى يسيطر عليها فيصيب أجهزة الجسم منها بعداً بالخلل فيسقط الجنين منها دون أن تشعر ؛ لأن الجنين قد تسرب من بؤرة الشعور بالنسبة لها ودلف إليها هذا الهول الذى سيطر على عقلها ، فاختفى فيه ، وتلاشى معه اهتمامها بالجنين ، فما لها قد ضاعت أمومتها ، وذهب حنانها وانكمشت عواطفها إلا غريزة حفظ الذات .

ولما أراد القرآن أن يصور نفسية الناس كل الناس فإنه جلىّ حقيقتها في صورة السكران ، والسكران يموت شعوره ويظهر اللاشعور ، وتحجب الخمر العقل الظاهر وتبرز على ساحة نفسه العقل الباطن ، الذى تظهره خمر الموقت فيهذى ويقول كلاماً ، ويتصرف تصرفات ويتخذ مواقف تنحدر به إلى مستوى يثير سخرية نفسه وسخرية غيره إذا وجد غير متأثر بهذه المؤثرات التى سميت في الآية زلزلة الساعة .

هذا الوصف للحركة النفسية ، وهذا التصوير للحالة النفسية لمن يبتليهم الله سبحانه وتعالى بهذا الحادث العظيم ، وهو الزلزلة التى تسبق الساعة « يوم القيامة » لا يمكن لإنسان مهما اتسع علمه ، ومهما تنوعت ثقافته ومهما كان

تمكنه من اللغة وفصاحة اللسان أن يأتي بمثل هذه الآية التى يتعاطى الإنسان منها الحقيقة فى أقل القليل من الألفاظ .

تصوير حالة الندم

الندم انفعال يكون عنوانا لموقف الانسان الذى ارتكب خطأ شعر بعده بالذنب لما رأى آثار الفعل الخاطئ الصادر عنه قد ظهرت ؛ فيلوم الإنسان نفسه على الفعل الخاطئ.

وقد عبر القرآن الكريم عن القوة الكامنة فى كيان الإنسان من داخله والتى ترفض الفعل المؤثر وتلوم صاحبها على فعلته فقال :

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾

(سورة القيامة)

ثم صور القرآن الحركة النفسية للمخطئ النادم فقال :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١ ﴾

(سورة المائدة)

ثم جسدها فى صورة محسوسة يستطيع الفنان أن يرسمها بريشته فقال :
الآيات من ٢٧إلى ٢٩ من سورة الفرقان :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (سورة الفرقان)

تصوير حالة الفرح

يفرح الإنسان إذا ما تحقق له نجاح فى حصوله على ما يسعى إليه فى حياته فيفرح بالمال إذ ربحه فى تجارة أو ناله فى صورة جائزة أو اكتشفه مكنوزا فى منزله بواسطة أحد أصوله.

ويفرح أيضا إذا حصل على درجة علمية بتقدير متفوق ويفرح إذا رزقه الله ولدا نجيبا مرضيا عنه من المجتمع، ناجحا فى حياته، سعيدا بعيشه.

ومن الناس من يفرح بدينه وتقواه ويرى هذا الفرح فى وجهه، ومن خلال سلوكه فى المجتمع... وهكذا

وقد صور القرآن الكريم انفعال الفرح فى آيات كثيرة تسطع فيه فى مواقع متعددة، بدا فيه هذا الانفعال مجسدا يراه الإنسان العادى ويحسه الفنان فيرسمه لوحة معبرة بأفصح لسان يخاطب الوجدان :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة الشورى)

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة النمل)

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

سورة آل عمران)

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة هود)

هذا التصوير الدقيق لدخائل النفس البشرية يظهر فيه علم الله الذى ليس كمثله علم بما يعجز علماء النفس مهما نبغوا أن يأتوا بمثله أبدا أو حتى قريبا من مثله مهما تقدم العلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، يقول بكل اللغات : إن الذى أنزل هذا القرآن الكريم هو الله الذى أنزله بعلمه على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون للعالمين نذيراً. وإن العلماء فى كل عصر من العصور لا يأتون بمثله أبدا ولو تحالفوا مع الجن سواء الملائكة منهم أو الجن المعروف. بل يخرون لله سجدا وهم خاشعون وله خاضعون.

يقرأ الإنسان العادى هذه الآيات ويقرأوها العلماء المتخصصون، ويقرأوها المؤمنون فتملؤهم جميعا انفعالات الإعجاب ، وينفرد المؤمنون بشعور الفرحة ويلوحون بالقرآن فى مواجهة غير المؤمنين ويقولون لهم :

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأسراء)

والمؤمنون أيضا فى هذه الأيام يعلون بأصواتهم ، يُسمعون كل الناس على كوكب الأرض يرددون هذه الكلمات ويتلون هذه الآيات بفرح عظيم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

ويُسمعونهم أيضا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

الإعجاز القرآنى

فى علم النفس التربوى

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة لقمان :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة لقمان)

لقد سبقت هذه الآيات فيما قررته من دور العقيدة الصحيحة فى تكوين شخصية الإنسان، وما يترتب على تحلى هذا الإنسان بهذه العقيدة من آثار فى نفسه هو أولا، ثم فى المجتمع الذى يحيا فيه.

وإن النظريات الحديثة التى تبناها علماء التربية، واخترعها أصحاب القمة فى هذا الفرع من فروع العلم الحيوية التى تنشد صلاح أمر الإنسان فى الدنيا والدين أثبتت سبق القرآن الكريم فى هذا المضمار يوم رفع من شأن العقيدة فجعلها الأساس فى بناء شخصية الإنسان فى هذه الآيات الكريمات وفى غيرها من آيات القرآن التى تسطع فى سوره ، وفى صدور الحفاظ والعلماء. ولقد جمع الله سبحانه وتعالى خير هذه الآيات كلها فى كلمة (لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ) لأن نفى الشرك بالله هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى إلها واحداً فرداً صمدا لا إله إلا هو بيده ملكوت كل شئ وهو بكل خلق عليم.

فنفى الربوبية ونفى الألوهية لغير الله .. يعنى إثباتهما لله وحده لا شريك له.

إذن فغرس العقيدة فى قلب المتربى يعتبر عملا مطلوبا من المربى يجاهد فيه حتى يستكمل أسباب النجاح فيه، فإن ظفر بذلك فقد حقق أول ضمانات النجاح فى الوصول بالمتربى إلى أرقى درجات الكمال وأسمى قمة فى الصلاح الذى هو الهدف المنشود الذى يتبعاه المصلحون من أصحاب الدعوات ذوى الضمائر المؤمنة. إذ أنه بالتزام هذا المنهج فى التربية تتحقق ثلاث عمليات قال بها الإمام ابن عطاء الله السكندرى: هى التخلية والتحلية، والتجلية.

فالتخلية فى هذا المضمار . تعنى إخلاء القلب من شوائب الشرك والتحلية هى غرس الإيمان بالله فى قلب المتربى ، والتجلية هى ظهور أنوار الإيمان فى قلبه وهى تفيض على جوارحه خيرا يحقق السلام النفسى والسلام الاجتماعى واقعا يفرض نفسه على أرض الوجود.

ولقد جمع القرآن الكريم كل ذلك فى آيتين تسطع فى سورة الحجرات:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾

(سورة الحجرات)

ولقد تنبه العلماء فى هذا الزمان إلى ما تقوم به العقيدة من دور خطير فى حركة حياة المجتمعات ، فى حالة قوتها وسيطرتها على كيان الإنسان ، وعلى حسن أدائه فى المجتمع . وتأكدوا تماماً من أن العقيدة إذا قويت فإن الأمة تكون قوية متماسكة ويندفع أفرادها فى طريق العمل للهدف المنشود الذى يتفق مع هذه العقيدة . وبذلك رسخ فى فكر الرواد من كل أمة تبغى الخير حقيقة أن العقيدة فى هذه الأحوال تكون هى الطاقة الجبارة التى لا تنفذ ، تستمد منها الأمم العزم والعزيمة ، والصبر والإصرار على تحقيق التقدم المستمر وتحفز إنسان الأمة إلى المعالى ، وتثب به إلى النهوض حيث أنها ستحيل المجتمع كله إلى مجموعات من الخلايا تنتج كل ثمين وتطرد منها كل خبيث .

ولا تحسبن أن التقدم يتحقق نتيجة تفاعل الإنسان مع العناصر المنتجة المحيطة به دون أن يعزى إلى عقيدة قوية تكون هى المؤثر المتميز فى حدوثه ، فإذا توفرت هذه العقيدة قوية جياشة ثابتة راسخة متغلغلة فى كيان صاحبها ، فإنها تأتى بكل عجيبٍ من الآثار الطيبة ، ينمّى الحياة ويرشدها ويضيف إليها ما يجعلها على طريق النجاح والظفر ؛ إذ أنها ستكون حتما على الصراط المستقيم ولعل هذا هو السبب الأول فى تركيز سيدنا رسول الله ﷺ على إنماء العقيدة فى قلوب من اتبعوه من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ طيلة الفترة التى قضاها فى مكة المكرمة إلى أن هاجر منها إلى المدينة المنورة ، يقدرها المؤرخون بعد الثقات من صحابته الكرام بثلاث عشرة سنة مما يسر عليه بناء دولته الشامخة فى المدينة

على قواعد من الشرع الحنيف سرعان ما استجاب لها وأذعن لها المسلمون متأثرين بهذه العقيدة الراسخة المتوهجة التى جعلت من قلتهم كثرة، ومن ضعفهم قوة ، فلم تمر فترة طويلة حتى جابوا بهذه العقيدة أرجاء العالم وصعدوا بها الجبال، وعمروا بها البلاد، واخضرت الأرض تحت أقدامهم، ورفعوا عليها المساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، وأسسوا عليها حضارة تنطق بجميع الألسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

وانطبق عليهم قول الحق فى سورة الأحزاب الآيات :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

العنصر الثانى فى بناء شخصية الإنسان :

تعميق الشعور بالإنتماء :

يلى عبادة الله - سبحانه وتعالى - وتوحيده والإيمان به فى الدرجة من الأهمية فى مجال بناء الشخصية السوية عنصراً أصيل وجوهرى لا تستكمل الشخصية مقوماتها الجوهرية إلا به .

هذا العنصر هو تعميق العلاقة بين الوالدين وبين ولدهما والتي يمكن أن نطلق عليها لفظاً واحداً يدل عليها ألا وهو الشعور بالانتماء الذى يتجلى فى الإحسان إلى الوالدين والبر بهما .

وأساس الأحكام الواردة فى القرآن الكريم فيما يتعلق بهذا العنصر الجوهرى بناء الشخصية ، هو الإعلاء من قدر الوالدين ، والتعظيم القرآنى لشأنهما وقد

جاءت نصوص القرآن الكريم متضافرة على تعميق الشعور بالانتماء المسئول من جانب الولد لوالديه ، مذكرة بدور الوالدين العظيم فى حياة الأولاد ، وقد شحن الوحي الشريف ألفاظ هذه الآيات من القرآن الكريم التي تتحدث عن هذه العلاقة المقدسة بين الأولاد من جهة والآباء والأمهات من جهة أخرى ، بحرارة العواطف السامية الجياشة التى تدفع الأولاد دائماً إلى أحضان الأمومة والأبوة ، ليتعانق الفريقان ويبدوان كتلة نورانية واحدة تشع فى المجتمع أضواء السلام الاجتماعى الذى يكفل دائماً وبصفة مستمرة نجاح مسيرته وبلوغه أهدافه التى تصب كلها فى سعادته الأبدية فى الدنيا والآخرة فاعتراف الولد بحقوق والديه يتكامل تماماً مع اعترافه بوحدانية الله ـ سبحانه وتعالى - وبفضله عليه ، وهذا التكامل لا ينفصم أبداً ، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله ؛ من أجل ذلك يأتى بر الوالدين فى الدرجة التالية مباشرة لعبادة الله سبحانه وتعالى ، وهو الواحد الأحد .

وتسطع هذه الحقيقة فى قوله تعالى جل شأنه :

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

هذا هو الإعجاز العلمي يتجلى في هذه الآيات الكريمات ، والإعجاز الذي أقصده هو الإعجاز في مجال علم النفس التربوي فإن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات جمع الحقائق العلمية في علم النفس التربوي في كلمات قليلة ، من حيث العدد ولكنها تحمل في طياتها أسباب السعادة للإنسان في حياته الدنيا ، وفي الآخرة ، بحيث لا يتصور أي عالم من علماء التربية أن يأتي في هذا العلم بالذات أعلى مما احتوته هذه الآيات الكريمة .

ذلك يبرز عياناً في الآيات ، فأنت تعلم فيها أن الله واحد أحد ، وأنه الخالق عز وجل ، وأنه لم يترك خلقه سدى ، بل هو يربيهم ويشرع لهم من الأحكام ما يحقق لهم السعادة ويجنبهم الشقاء .

وفي الوقت نفسه يذكِّر الناس ، كل الناس بأصل نشأتهم ، وجوهر تاريخهم ، وسبب وجودهم على هذه الأرض ، ويوثِّق لهم صلتهم بهذا السبب ، وهو الوالدان ، ثم يذكرهم بواجبات يفترضها عليهم حينما يلتفتون وراءهم ليتحققوا من هذا التاريخ لنشأتهم ، وفي هذا الوقت يشعرون أنهم خلق لله سبحانه وتعالي وحده ، وأنهم يدينون للوالدين بالفضل فتتعانق في وجدانهم العبودية لله سبحانه وتعالى وحده ، مع الشعور بالانتماء للوالدين فينتج عن هذا التعانق ، كل ما عرف الناس من مكارم الأخلاق ، وحسن العشرة والاعتراف بفضل الله سبحانه وتعالي ، وكذلك الشعور بفضل الله صلة وطيدة بين السبب

والمسبب ، أو قل بين التفاعل والنتيجة ، ويجنى المجتمع من وراء ذلك أطيب الثمرات .

ولقد انتهى علماء التربية إلى ضرورة تأسيس التربية على الأساس الاعتقادى أو الإيمان بالله وبالآخرة وبالجزاء الضرورى على كل عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وإن الإسلام ربط بين العقيدة والسلوك ربطاً محكماً لا انفصام له حتى جعل العمل دليلاً على وجود العقيدة ، وعلى ذلك بنى المسئولية والجزاء وأنه لابد من أن يعرف تلك المبادئ الاعتقادية . ومن يرغب أن يقدم على التربية الإيمانية أولاً .

إن كثيراً من سوء التربية الذى نجده لدي الجيل ليس ناشئاً من إهمال التربية فحسب ، بل ناشئًا أيضاً من الجهل بالتربية السليمة الخاصة بكل جانب من جوانب التربية الإسلامية - يراجع فى ذلك كتاب علم النفس التربوى فى الإسلام تأليف الأستاذين الأجلاء ، وهم الدكتور مقداد بالجن أستاذ التربية الإسلامية بالرياض والأستاذ الدكتور يوسف القاضى (دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع) بالرياض . الطبعة الثانية ١٤١٨ - ١٩٩٧ م .

ثالثاً - العناصر فى التربية :

العلم عنصر من العناصر الجوهرية فى بناء الشخصية:

سبق القرآن كل علماء التربية فى تمجيد العلم ، وتمييز العلماء وشَوَّقَ الإنسان إلى بلوغ أعلى العلوم وأرقاها ، وإلى الحصول على المعارف العلمية فى أى مكان كانت . وحث الإنسان على سلوك الطرق والمفاوز التى توصله إلى هذا العلم ، مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة ، وأن يصبر على ذلك الجهد وتلك المشقة ووضع فى قرارة نفسه أنه إن صبر على طلب العلم فإنه يفوز بالدرجات العلى ، حيث ينعم الله عليه برفقة الأنبياء والمرسلين باعتباره وارثاً لهم . ويكفى للدلالة على تكريم الله سبحانه وتعالى للعلماء ذكر هذه الآيات من القرآن الكريم .

- ١

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقد سبق أن أشرت فى الصفحات السابقة أن هذه الآيات تحكى لنا مشهد المسابقة العلمية التى عقدها الله بين آدم عليه السلام والملائكة ، والتى فاز فيها آدم بجائزتين .

الجائزة الأولى وقتية ، وهى سجود الملائكة له ، وأما الجائزة الثانية فهى خلافة الله فى الأرض .

- ٢

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى هذه الآية يكفى أهل العلم شرفاً أن الله سبحانه وتعالى قد جعلهم من الشاهدين بألوهيته وربوبيته ووحدانيته فيكتبون هذه الشهادة على صفحة الزمان وجدار المكان أزلاً وأبداً حتى يوم الدين .

٣ - ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ (سورة النمل)

وهذه الآية الكريمة هي نهاية لقصة مسابقة عقدها نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام التى هى مسابقة أخرى للعلم تنضم إلي المسابقة العظمى التى عقدها الله سبحانه وتعالى بين أبينا آدم - عليه السلام - والملائكة ، والتى سبق ذكرها بفارق بينهما ، يبدو فى أن الله - سبحانه وتعالى - بذاته هو الذى عقد المسابقة الأولى ، وأما المسابقة الثانية فالذى عقدها هو نبى الله سليمان - عليه السلام - ، والفارق الثانى هو أن المسابقة هذه المرة بين الإنسان والجن وقصتها تبدأ : حيث افتقد نبى الله سليمان عليه السلام الهدهد ، فى مؤتمر له كان قد عقده من أعضاء من البشر ومن أعضاء من الحيوانات بأنواعها ، ومن الطيور ، حيث ملكه الله هذه الأجناس كلها ، ومعها جنس الجن .

فلما افتقد الهدهد سأل عنه وأراد أن يعرف سبب غيابه ، وحيث أنه ملك على كل هذه الكائنات ، فإنه أراد أن يعاقب الهدهد على جريمة غيابه عن المؤتمر ، ولكن لأنه ملك نبى فإنه التزم العدل ففتح التحقيق مع الهدهد حتى يتبين له الحق ، فإن ظهر أن الهدهد مدان فإنه سينزل به العقاب الذى تضمنته الآية ٢١ من سورة النمل .

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾

(سورة النمل)

ولكن الهدهد استطاع أن يفلت من العقاب بذكاء وخفة روح ، فقال بألمعية تحسب له :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النمل)

هذا التقرير الشامل الدقيق الذى صوره حالة هذه الملكة ووصفها وصفاً تبرز حقيقتها من خلال هذه الكلمات المنظومة نظماً مدهشاً بإيجاز ، ولكنه إيجاز يقول كل شيء ، ويركز على ما يهم نبى الله سليمان فى هذه الأوضاع كلها ألا وهو دين هؤلاء القوم وعقيدتهم ، حيث قد اتخذوا الشمس إلهًا يعبدونه ويسجدون له من دون الله ، فاستطاع أن يستفز هذا الملك النبى عليه السلام ويثير فيه حميته الدينية وغضبه على الشرك والمشركين ، ووجه كل عواطفه الانتقامية لهذه المملكة وملكتها لينزل بهما العقاب العادل ، وفى الوقت نفسه كشف الهدهد عن عقيدته هو ، حيث أنه اعترض على ملكة سبأ وشعبها ، وعلى عبادتهم للشمس من دون الله ، ووصف مُلكهم ووصف عرش الملكة ، وكل ذلك فى جرأة وشجاعة تضمها الآية رقم ٢٢ .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة النمل)

ولكن نبى الله سليمان لم يتسرع بإعداد جيش لمحاربة هذه الملكة المشركة وشعبها المشرك ، وإنما أراد أن يتحقق قبل اتخاذ موقفه ، فأمره بالأمر الذى احتوته الآية رقم ٢٨ من سورة النمل :

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبالإيجاز الذى يُوَشّى بالإعجاز ينتقل بنا القرآن إلى مملكة سبأ حيث تجرى الأحداث سريعة فى الآيات من ٢٩ إلى ٤٤ :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

أعرف أن قائلاً سيقول وما صلة هذه الأحداث التى جاءت فى هذه القصة العجيبة بما اشتملت من حوار بين هذا النبى الملك سليمان بن داود عليهما

السلام ، وهذا الطائر الجميل الضئيل الحجم ، الفصيح البيان ، بما نتحدث فيه من علم النفس التربوى ، وسبق القرآن الكريم فى مجاله وإعجازه فى هذا المجال ؟ .

أقول لهذا السائل إن هذه القصة تحتوى على درر فى العلم ، إذا أفلح المتعلم فى اقتنائها فى صدره ، فإن علمه سيزيد بالقدر الذى يؤنسه فى حياته ويدفعه دفعاً إلى الرقى والنهوض ، وإن المتربى الذى يتلقى ويحسن التلقى من القرآن الكريم فإنه سيحصل على كنز من الخبرة يضئ له طريقه فى حركة حياته ، وإن المجتمع الذى يعيش فيه المتربى والمتعلم سيحظى بنوع من التناغم بين أفراده .. يوحد بين مشاعرهم وإدراكاتهم وسلوكهم بما يأخذ بأيديهم إلى السعادة والسلام النفسى والسلام الاجتماعى ، ولا أظن أن أى مجتمع فى العالم يجد هذا السبب من أسباب التوافق بين أفراده ويعرض عن هذه الدرر الغوالي التي ترصع ثوب الإسلام وتاجه الذى يتلألأ على جبين كل مسلم ، فإن كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد يتلقى الدروس الآتية من هذه القصة .

أولاً : سهر الحاكم ويقظته ، وثاقب فكره فى تعامله مع مجتمعه الذى يحكمه ، وقد بدأ هذا فى سؤال نبى الله سليمان عن الهدهد ، وهو كائن ضئيل الجسم لا يترك فراغاً إذا غاب ولا يحتفل به إذا حضر ، لولا ما تمتع به هذا النبى الملك من دقة الملاحظة وعمق البصيرة وحسن استعداده لتحمل المسئولية ، وإدراكه الكامل أن دور كل عنصر من عناصر مملكته مهما ضؤل حجمه ، إنما هو خيط فى نسيج دور المجتمع الكبير ، وإن لكل فرد فى المجتمع دوره الذى لا يستهان به ولا يحتقر ، فإذا غاب نقص عطاء المجتمع بالقدر الذى يؤدبه هذا الفرد عند حضوره .

وفى ضوء هذه المعانى سأل نبى الله سليمان عليه السلام سؤاله عندما افتقد الهدهد :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة النمل)

وقد تجلت هذه الحقائق فى الدور العظيم الذى قام به هذا الهدهد بتكليف من النبى الملك سليمان ـ عليه السلام ـ ، حيث قام بما كلفه به من مأموريات تمخضت عن دخول مملكة بأسرها دين الله ـ عز وجل ـ ، واعتنقت هذه المملكة دين الإسلام ، وحملت هذه البشرى كلمات الملكة :

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

قام هذا الهدهد بهذا الدور العظيم ـ وهو الكائن الضئيل الحجم ـ ولو أداه رجل من رجال المخابرات بهذا النجاح الباهر لمنحته الدولة أرقى الجوائز ولخلعت عليه أعلى الرتب وأسمى الألقاب (!!!) .

إن من مزايا الملك العادل أنه لا يتعجل بإنزال العقاب على رأس المخالف من أفراد المجتمع الذى يحكمه ، بل إنه يتريث ويقوم بالتحقيق مع هذا المخالف حتى يظهر وجه الحق فيعاقبه إن استبان له اقترافه لهذا الذنب على سبيل اليقين وإظهار براءته إذا ما تبين له ذلك بيقين ؛ إذ أن المتهم برئ حتى تثبت إدانته .

وهذا مبدأ لم تعمل به الإنسانية إلا فى القرن العشرين .

إن الحاكم لابد أن يحافظ على هيبة الدولة ، وهذا عنصر جوهرى من عناصر نظام الحكم الرشيد حتى يبتلع كل من تسوّل له نفسه الإنحراف ؛ لأن الوقاية خير من العلاج ، وقد ظهر ذلك بين تهديد نبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ

للهدهد ، فإن هذا التهديد قد أعطى أثره الإيجابى فى نفوس المحيطين به .

وفلاح الحاكم فى تحقيق المعادلة الصعبة بين حريات الأفراد والمحافظة على النظام ، هذا الفلاح هو فى ذاته توفيق من الله ـ عز وجل ـ يخص به من يشاء من عباده ، ومنهم نبى الله سليمان عليه السلام عندما هدد الهدهد فى الآية ٢١ :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النمل)

فإنه قد لوّح بعصا السلطان ولم يستعملها ضد الهدهد عندما تكشفت أمامه حقيقة موقفه .

ولقد تجلت محافظة نبى الله الملك سليمان ـ عليه السلام ـ على هيبة الدولة فى تهديده لمملكة سبأ فى الآية ٣٧ :

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النمل)

ولكن هذه المرة تختلف عن سابقتها ؛ فقد حافظ على هيبة الدولة هذه المرة باعتبارها الحارس للدعوة ، وهي الرسالة المكلف بها ومكلف بالمحافظة عليها ألا وهي الإسلام ، فقد لوّح باستعمال القوة ورَفْع درجة الاستعداد إلى المرحلة القصوى فى هذه الآية ، وترقب صدى ذلك عند الملكة . ثم لجأ إلى الحيلة الحسنة بقصد المسابقة بين أعضاء حاشيته من الإنس والجن أيهم يأتيه بعرش المُلك قبل أن يحضروا إليه مُقتنعين بالإسلام ديناً ؛ ففاز فى المسابقة : الذى عنده علم من الكتاب بقصب السبق .. فأحضر عرش الملكة فى أقل من البرهة ، وأحسَّ النبى الملك بفضل الله عليه ولهج بحمده وشكره والثناء عليه ..

وتلقت الملكة هذا العمل تلقى الملوك عندما قالت : «كأنه هو» بلغة الدبلوماسية . وأعلنت أنها تلقت عرض الإسلام عليها من بين الرسائل التى أرسلها لها نبى الله سليمان قبل حضورها .

والإنسان يتعلم من هذا السياق للأحداث حقائق وفيرة ، ولا يتوفر الجمع بين السعادتين إلا فى الإسلام فقط ؛ إذ هو يتكون من قواعد شرعية تضمن للإنسان المسلم السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم .

وذوو الألباب والبصائر يتبين لهم عند تمسكهم بمنهج الإسلام ، الإعجاز العلمى فى التربية ، وعلم النفس التربوى الواضح وضوح الشمس فى هذه القصة التى يحكيها القرآن الكريم فى سورة النمل ، وفى القصص التى يقصها فى غيرها من السور عن أنباء وأحداث وأشخاص وأقوام مضى عليهم آلاف السنين ، واندثرت آثارهم ، وانقطعت أخبارهم وغابت فى حنايا الزمان معاملتهم ، ونجد أن القرآن الكريم يقصها كما وقعت ، ويعلمنا إياها وكأنها حدثت ساعة نزول الوحى بها ، وكان المتلقى يراها رأى العيان ، حتى إن الذى يقرأوه على مدي الزمن بتدبر وذكاء عقل ، ويقظة ضمير ، وتوهج عقيدة ، وسعة أفق وصفاء وجدان ، وخشوع جوارح ، وصدق إحساس .. يشعر أنه عليه أنزل فيزداد لله خشوعاً ولسيِّدنا محمد ﷺ حبّاً وصدق الله العظم حيث يقول فى سورة الزمر الآية ٢٣ :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة الزمر)

فى القرآن .. القصص تعليم وتعلم وتربية
يعلو فيها علم النفس التربوى

وأقرب مثال يدل على ذلك ما جاء فى القرآن من قصة نبى الله موسى عليه السلام مع عبد الله « الخضر » عليه السلام : إن هذه القصة التى جاءت موجزة لتشبه البحر العميق الذى يحوى فى أعماقه الدّرر .. يستخرجها العالم العارف الذى له قلب ويلقى السمع وهو شهيد ؛ إذ أنه سيجد فيها حزمة ضوئية تشع بالحقائق العلمية .. ينبهر بها علم النفس التربوى ، ويتوج بها العلماء فى ميدانه .

وقد جاءت هذه القصة فى سورة الكهف فى الآيات من ٦٠ إلى ٨٢ ليتلقى منها العلماء فى ميدان علم النفس التربوى ، من الحقائق العلمية ما يسمو على ما يحصلونه من علم بجهدهم ، ويعلو علي ما ينتهون إليه بزكائهم ، بحيث لو بذلوا الجهود تلو الجهود ، واستعملوا الذكاء بقدر ما يستطيعون إلى أن تقوم الساعة ؛ فإنهم سيجدون أنفسهم أمام القرآن الكريم لا يعلمون شيئاً ، وإنما هم دائماً أبداً يتعلمون .

وأن القرآن الكريم دائماً يعلو ، ولا يعلى عليه .

أيها القارئ الكريم :

اقرأ معى بكل خشوع من قلبك ، وكل التأمل من روحك من بدء القصة فى القرآن إلى نهايتها !!

سنجد قوة العزيمة ، وصدق الإصرار على طلب العلم ، يبدو ان من نبى الله موسى عليه السلام ، مهما كلفه ذلك من جهد ، وما ينتظره من تعب ونصب ومهما أنفق من وقته الذى هو حياته :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (سورة الكهف)

وانظر معى كيف أن اهتمامه بطلب العلم شغله تماماً عن غذاء الجسد (الحوت) الذى طلبه مشوياً غداء له ، فتبين أنه وفتاه قد نسياه عند الصخرة ، لكنه لم يغضب ، فرب ضارة نافعة ، خاصة وأنه قد تلقى من الله ما يفيد أنه عند هذه الصخرة سيتحرك هذا الحوت ليعلم من حركته مكان « المعلم » الذى وعده الله سبحانه وتعالى أنه سيتلقى العلم على يديه ووصفه له بقوله فى الآية :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة الكهف)

فانظر معى مشهد اللقاء بين المتعلم والعالم فى الآية ٦٦ :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ (سورة الكهف)

سؤال يفسر بالرجاء الذى يُعْلِى من قدر العالم ، ويعلى من قدر المتعلِّم أيضاً ، فأما الإعلاء من قدر العالم ، فإن هذا السؤال جعل العالم يجلس على كرسىّ العلم السامق الشاهق احتراماً له وتوقيراً ، واعترافاً بفضله وشرفه ، وأما إعلاؤه من قدر المتعلم ، فإنه يدل على تواضع المتعلم الذى يرفعه إلى أرقى درجة فى مكارم الأخلاق ، فيبذل العالم له من ذات علمه ما يرفعه إلى مصاف العلماء ، وقديماً قيل : [من تواضع لله رفعه] ..

وفى الآية ٦٧ تأتى المصارحة المطلوبة بين العالم والمتعلم والاعتزاز بالعلم وإعلاء مكانته :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وتأتى الآية ٦٨ :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ترفع اللّوم عن نبى الله موسى إذا لم يصبر ؛ لأن العلم المطلوب علم من نوع خاص لا يطيق الصبر عليه مثله ، وجميل جداً أن يلتمس الخضر عليه السلام العذر لنبى الله موسى - عليه السلام - ؛ إذا لم يستوعب الدرس فناقشه (!!!) وجاء هذا الاعتذار فى قالب سؤال .

فإذا بنبى الله موسى - عليه السلام - يضرب المثل الأعلى فى التواضع من أجل العلم ، ويضرب المثل الأعلى فى الحرص على الحصول عليه ، والتحلى بدرره وتحمل ذلك كله الآية ٦٩ :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فأصدر الخضر عليه السلام تعليماته لنبى الله موسى أن ينفذ ما أخذه على نفسه من تعهد تضمنته الآية :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وبدأت رحلة العلم والتعليم والتعلم فى الآية من ٧١ : ٨٢ :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

انظر معى أيها القارئ الكريم :

لقد أثار خرق السفينة احتجاج نبى الله موسى الذى نقض أحكام التوراة بمخالفته لأحكامها ، لما ينطوى عليه هذا العمل من خطر على أصحاب هذه السفينة ، وعلى الذين يستخدمونها فى سفرهم فى الوقت الذى حققت لهما هذه السفينة خيراً فينبغى أن يحقق لها ولأصحابها ضرراً .

هذا ما يقضى به علم نبى الله موسى . لكن للخضر علمه الذى يتلقاه من الله عز وجل ، فإن كان هناك خطر فى خرق السفينة ؛ فإنه خطر بسيط ويمكن تفاديه بإصلاحها ، ولكن هناك خطراً أعظم يتمثل فى حرمان أصحابها منها ، وهم المساكين الذين يحصلون على قوتهم من استغلالها .. هذا الخطر الداهم الذى يهدد المساكين ، يتمثل فى حرمان أصحابها منها ، وهم المساكين الذين يحصلون على قوتهم من استغلالها .. هذا الخطر الداهم الذى يهدد المساكين يتمثل فى أن ملك هذا الزمان كان فى حالة حرب ، أعلن فيها التعبئة العامة ، وهي التي تجيز له الاستيلاء على السفينة لاستعمالها فى ساحة القتال ، فحمله هذا على احداث هذا العيب الذى يجعل جنود الملك ينصرفون عنها زهداً فيها لعدم صلاحيتها للغرض الذى يدفعهم إلى الاستيلاء عليها .

وأما الغلام فكان خطراً على والديه ، كما رأى ذلك الخضر فإنه لو عاش لأجبر والديه على الكفر ولعاث فى الأرض فساداً ، وأراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبدلهما ولداً جديداً يساعدهما على طاعة الله ويصلح الأرض ويعلى كلمة الله ويبرهما ، هذا ما رآه بعلم من الله ؛ فخلع شجرة الكفر والفساد المتمثلة فى هذا الغلام .

واجتثها من فوق الأرض حتي لا يكون لها قرار .. لينتظر أبواه شجرة طيبة تتمثل فى الوليد القادم الموعود والواعد بالخير والنماء ، وأما الجدار فإن تحته كنز مخبّأ ينتظر يتيمين كان أبوهما صالحاً ، فأراد الله ـ سبحانه وتعالي ـ أن يكافئ صلاح أبيهما ، بحفظ الكنز لهما فقيض الخضر ليقوم بهذا العمل رحمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأراد الخضر ـ عليه السلام ـ أن يريح صدر نبى الله موسى عليه السلام ، ويقضى على علامات الاستفهام وعلامات التعجب التى تلاطمت أمواجها فى مخه وقلبه فقال :

﴿ ... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

كيف لا يطمئن قلب نبى الله موسى عليه السلام ، وقد تيقن أن هذا العلم الذى تلقاه إنما هو من عند الله ؟!

ولا أجد كلاماً أختتم به كلامى فى هذه القصة أبلغ ولا أحكم من كلام سيدنا رسول الله ﷺ فى ما رواه الإمام البخارى فى باب العلم .

(رحم الله أخي موسى : لو صبر لتعلّمنا من الخضر الكثير) .

ويأتى علم النفس التربوى ، فيضع القواعد التى تكفل للمتعلم أن يتعلم ، وللعالم أن يجد من يعلمه وضمن هذه القواعد ، وجوب التعلم والهجرة فى طلب العلم .

وهذا أول معطيات هذه القصة ، فقد هاجر نبىّ الله موسى ـ عليه السلام ـ فى طلب العلم الذى استثار فيه كل الفضائل ، ومنها حب العلم والتعلم ، وفضيلة الصدق معه ، والصبر على طلبه ، وشحذ الهمة للحصول عليه ، وحسن

الاشتغال به ، وتوفير العلم واحترامه ، وتقبل أوامره بقبول حسن ، والإذعان لتعليماته ، والتزام الصمت حتي يكلم الأستاذ تلميذه ، وقد سأل بعض العلماء واحداً من إخوانهم . [بم نلت العلم ؟] فقال :

بصبر كصبر الحمار ، وبكور كبكور الغراب ، وتملق كتملق الكلب .

وكل الحقائق العلمية فى ميدان علم النفس التربوى ، على ما جاءت بهذه الصفحات تعلمها سيدنا رسول الله ﷺ من القرآن الكريم وبلّغها الأمة إلى أن جاء العصر الحديث ووجد هذه الحقائق موافقة لما جاء به القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً وزيادة ، وهذا دليل قاطع على أن هذا القرآن الكريم نزل من عند الله - سبحانه وتعالى - ، ولم يكن دور لسيدنا رسول الله ﷺ إلا البلاغ .

يقول رجاء جارودى :

(لقد درست الإسلام كدين وحضارة وقارنت بين القرآن الكريم وبين الاكتشافات العلمية الحديثة ، وكلما تعمقت فى الدراسة والمقارنة ازددت ، اقتناعاً بأنه هو الدين الذى أبحث عنه) ، (من كتاب رجاء جارودي ، وحضارة الإسلام) ص ٣٠ .

آيات القرآن التي تتحدث عن الكون

١ - الأرض :

قال الله - سبحانه وتعالى - فى سورة النازعات ٣٠ ، ٣١ :


﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النازعات)

يقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار فى كتابه (المفهوم العلمى للجبال ، وهو الجزء الثالث من كتابه من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم (مكتبة الشروق الدولية) بالقاهرة ، مطابع فاين لاين ص.ب : ٧٨ المعادى ص ١٢ .

[وقد أثبت العلم الحديث أن الثورات البركانية ، وما ألقته حول الأرض من

غازات وأبخرة ، وعلي سطحها من حمم ورماد بركاني ، قد لعبت دوراً أساسياً في بناء اليابسة ، وفى تكون كل من الغلافين الغازى والمائى للأرض ، ولعل ذلك هو المقصود بالدّحو ، وهو فى اللغة العربية : المد والبسط والإلغاء والازاحة (من دحا الشيء أى : بسطه) ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن غالبية ما يتصاعد من فوهات البراكين أثناء ثورانها هو بخار الماء (٧٠ ٪) ويليه فى الكثرة أكسيد الكربون ، وبعض الغازات الأخرى ، وأن بخار الماء المتصاعد من فوهات البراكين سرعان ما يتكثف ؛

ويعود إلى الأرض مطراً ، وقد أدى ذلك إلى إثبات أن جميع الماء على سطح الأرض ، وفى غلافها الغازي ، قد أخرج أصلا من داخلها مع ثوران البراكين ، وهذه حقيقة لم يعرفها الإنسان إلا منذ سنوات قليلة ، كذلك أدرك العلماء أن ثانى أكسيد الكربون يلعب دوراً مهما فى عملية التمثيل الضوئى التى يقوم النبات بها « من أجل تمثيل غذائه وتحويله إلى المواد البانية لخلاياه والمنتجة لثماره وأحشابه وأوراقه » والتي بغيرها لا يمكن للأرض أن تنبت .

فخروج الماء من داخل الأرض هو تعبير عن حقيقة واقعه مؤداها أن كل ماء الأرض على كثرته قد أخرج أصلاً من داخلها ، وأن ثاني أكسيد الكربون اللازم لحياة كل نبات يقوم بعملية التمثيل الضوئى وإنتاج المادة الخضراء فيه (اليخصور) قد أخرج أيضاً من داخل الأرض ص ١٦ -

﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة الطارق)

وأنه بعد الحرب العالمية الثانية ، اتجه العلماء إلى قيعان البحار والمحيطات ، بحثاً عن عدد من الثروات المعدنية التى بدأت احتياطياتها على اليابسة فى التناقص باستمرار فى ظل الحضارة المادية المسرفة التى يعيشها إنسان اليوم ، فوجدوا أن بأواسط البحار والمحيطات سلاسل جبلية عملاقة تفوق فى ارتفاعها أحياناً أعلى القمم فوق اليابسة ، وعند دراسة تلك الحواف البارزة فى أواسط

المحيطات اتضح أنها عبارة عن طفوح بركانية متراكمة فوق بعضها البعض عبر فترات زمنية طويلة ، وأن تلك الطفوح لا تزال تندفع عبر شبكة هائلة من الصدوع التي تمزق الغلاف الصخرى للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ كم و ١٥٠ كم وإنها تمتد لمئات الآلاف من الكيلو مترات فى جميع الاتجاهات (وكأنها صدع واحد) لتحيط بالأرض إحاطة كاملة ، وتمزق غلافها الصخرى ، إلى عدد من الألواح الأرضية المتباينة في مساحاتها ، وفى كتلتها وأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع هى بمثابة صمامات الأمن للأرض ، حيث تنطلق عبرها كميات هائلة من الحرارة الناتجة عن عمليات التحلل الإشعاعى فى الغلاف الصخرى للأرض ، وفى نطاق الضعف الأرضى ، الذى يليه إلى الداخل فى اتجاه مركز الأرض ، ولولا أن قدَّر الله تعالى للأرض تلك الشبكة الهائلة من الصدوع ؛ لانفجرت منذ اللحظة الأولى لتجمد قشرتها ، ومن هنا علمنا أن من صفات أرضنا الأساسية : أنها أرض ذات صدع ، ولم نعلم ذلك بيقين إلا فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين .

ص ١٨ :

﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ (سورة النبأ)

يصف القرآن الكريم الجبال فى تسع وثلاثين آية صريحة ، منها هذه الآية الكريمة التي تصف الجبال بالأوتاد ، وكما أن الوتد أغلبه مدفون فى الأرض وأقله ظاهر على السطح ، ووظيفته التثبيت ؛ فقد اكتشف علماء الأرض مؤخراً أن هكذا الجبال ، فكل نتوء فوق سطح الأرض له امتداد فى داخلها يتراوح طوله بين (١٠ إلى ١٥) ضعف ارتفاعه فوق مستوى البحر ، فكلما كان الارتفاع فوق سطح الأرض كبيراً تضاعف الجزء الغائر فى الأرض امتداداً من داخلها ، ليخترق الغلاف الصخرى للأرض بالكامل ، ويطفو فى نطاق الضعف الأرضى ، وهو نطاق شبه منصهر : المادة فيه لدنة ، عالية الكثافة ، عالية اللزوجة ، تطفو فيها

أوتاد الجبال ، كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات تحكمها في ذلك قوانين الطفو ، فكلَّما بردت عوامل التعرية قمم الجبال ، ارتفعت تلك الجبال إلى أعلى ، حتى تخرج امتداداتها الداخلية من نطاق الضعف الأرضى بالكامل ، وحينئذ تتوقف الجبال عن الحركة حتى يتم بريها ، فيظهر في أعماقها من الثروات الأرضية ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت مثل تلك الظروف الاستثنائية من الضغط والحرارة التى سادت فى أعماق الجبال .

هذا البيان القرآنى المعجز ، الذى يصف كلا من الشكل الخارجى للجبل ، وامتداده الداخلى ، ووظيفته فى كلمة واحدة (أوتاد) يظهر تفوق القرآن الكريم على جميع المعارف الإنسانية التى لا تزال إلى يومنا هذا تورد تعريف الجبل فى أكثر القواميس العلمية واللغوية انتشاراً على أنه نتوء فوق سطح الأرض يختلف العلماء فى تحديد ارتفاعه بأكثر من ٣١٠ أو من ٦١٠ متر فوق سطح الأرض من حوله .

* * *

ص ٩٣ :

الخلاصـــــة :

وصفت الجبال دائماً بأنها أشكال أرضية بارزة فوق سطح الأرض ، تتسم بنتوءاتها التى ترتفع على المناطق المحيطة بها ، وبقممها العالية ، وسفوحها الشديدة الانحدار ، وبوجودها فى مجموعات على هيئة أطواف ، أو منظومات أو سلاسل ، أو أحزمة ، أو مجموعات من تلك الأحزمة الجبلية التى تكون عادة متوازية ، أو قريبة من التوازى مع بعضها البعض ، ولكنها قد تكون موجودة أيضاً على هيئة مرتفعات فردية ، كما هو الحال فى بعض الجبال البركانية ، وعلى الرغم من ذلك فإن القرآن الكريم الذى أنزل قبل أربعة عشر قرناً ، يصف الجبال بأنها رواسى للأرض :

وذلك كي لا تميد أو تهتز بنا ، ويصفها كذلك بأنها أوتاد تثبت سطح الأرض باتجاه الأسفل ، وكما أن الوتد أغلبه مدفون فى الأرض ، وأقله ظاهر فوق السطح ووظيفته التثبيت ، فقد وصف القرآن الكريم بكلمة واحدة كلا من النتوءات الخارجية البارزة من الجبال وامتداداتها الداخلية (فى الغلاف الصخرى) ودورها الحقيقى لحفظ توازن الأرض فى دورانها حول محورها ، وكوسيلة لتثبيت غلافها الخارجى فيما دونه من نُطُق الأرض .

وهذه الحقائق لم يبتدئ الإنسان فى إدراك طرف منها ، إلا فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى (أى بعد حوالى ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم) ، عندما **أدرك جورج إيدن** (١٨٦٥) أن زيادة كتلة الجبال فوق سطح البحر يتم تعويضها بنقص فى الكتلة على شكل جذور سفلية توفر الدعم العائم للجبال وذلك فى محاولة لتعليل الانخفاض فى معدل انحراف الشاقول بالقرب من الكتل الجبلية ، بما يقل عن القيم المحسوبة للتجاذب التثاقلى واقترح (إيدن) أن الجبال ذات الكتل الهائلة لا تدعمها قشرة أرضية قوية صلبة تحتها ، ولكنها (تطفو) فى بحر من الصخور الكثيفة ، وفى مثل هذا « البحر » اللدن من الصخور شبه المنصهرة والكثيفة ، تطفوا الجبال فى الأعماق بما يشبه الطريقة التى تطفوا بها جبال الجليد فى مياه المحيطات ، وذلك بالفرق بين كثافة كل من الجليد والماء المالح ، ذلك الفرق الذى يعمل على طفو الجليد ببروز جزء منه فوق مستوى سطح الماء فى البحر ، وغطس أغلبه فى ماء البحار ، ويتم ذلك بإزاحة قدر من الماء بفعل الكتلة الكبيرة للجليد تحت سطح الماء . وتعتبر كتلة الجبل متوازية من حيث توزيع الضغوط بينه وبين الأوساط الصخرية المحيطة به من نُطُق الأرض المختلفة .

***

هذه المعلومات المكتسبة عن الجبال ، بدأ الإنسان فى جمع أطرافها ببطء شديد منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يتبلور مفهوم صحيح لها إلا فى منتصف الستينات من القرن العشرين ، عندما كان مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخرى للأرض فى مرحلة التبلور النهائى له .

وفى المقابل نجد القرآن العظيم الذى أوحاه الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله عليه وسلم - كآخر وأكمل وأتم صورة من صور الهداية الربانية ، والذى حفظه بصفائه الربانى ، وبلغة وحيه حرفاً حرفاً وكلمة كلمة على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً وإلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، نجد هذا الكتاب يحوى من حقائق الكون ومنها حديثه عن الجبال ما لم يكن متوفراً لأحد فى زمان نزوله ، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك النزول .

هذا السبق العلمى فى كتاب الله ، مما يشهد بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ويشهد لهذا النبى الخاتم بالنبوة والرسالة .

وهذا مثلٌ واحدٌ من آلاف الأمثلة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ، وعلي أن هذا النبى الخاتم ﷺ كان موصولاً بالوحى ، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض ؛ لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم من قبل خالق السموات والأرض ، لأنه لا يمكن لعاقل .

أن يتصور مصدراً لهذا العلم من قبل أربعة عشر قرناً غير الله الخالق - سبحانه وتعالى - ، خاصة وأن الكسب العلمى البشرى لم يدرك تلك الحقائق عن الجبال ، إلا فى منتصف الستينيات من القرن العشرين .

تمدد الكون

لقد وصف القرآن الكريم الذى أنزل قبل أربعة عشر قرناً فى وقت كان فيه علم الفلك فى طوره البدائي ، نظرية تمدد الكون كما يأتى :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وكلمة السماء كما تذكرها الآية مذكورة فى مواطن عدة من القرآن بمعنى الكون والفضاء ، وهنا مرة أخرى ، الكلمة مذكورة بهذا المعنى وبكلمات أخرى ، فإن القرآن الكريم كشف أن الكون يتوسع . أو يتمدد ، وهى نفس النتيجة التى خلص إليها العلم فى أيامنا هذه .

فحتى فجر القرن العشرين كانت النظرية العلمية الوحيدة السائدة فى العالم هي : أن الكون له طبيعة ثابتة وهو موجود منذ الأزل . ولكن الأبحاث والملاحظات والحسابات التى أجريت بواسطة التقنيات الحديثة كشفت أن الكون فى الحقيقة له بداية وأنه يتمدد بانتظام .

ففى بداية القرن العشرين أثبت عالم الفيزياء الروسى والمتخصص بالعلوم الكونية البلچيكى چورچ لوميتر نظرياً بأن الكون فى حركة دائمة وأنه يتمدد .

هذه الحقيقة أثبتت أيضاً من خلال المراقبة فى عام ١٩٢٩ ، فمن خلال مراقبة السماء بالتيلسكوب اكتشف عالم الفلك الأميركى إدوين هابل أن النجوم والمجرات تتحرك بعيداً عن بعضها البعض بشكل دائم ، وهذا يعنى أن الكون يتحرك فيه كل شيء .

انفصال السماء عن الأرض

هناك آية أخرى عن خلق السماوات هي الآتية :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾

(سورة الأنبياء)

وكلمة الرتق يقصد بها الاختلاط والامتزاج ، وتستعمل للدلالة على أجزاء تكون كلاً ، ولفظ « ففتقناهما » من فعل فتق في اللغة العربية ويعني التمزيق أو التدمير ، مما يعني ولادة شيء كنتيجة لتدمير أو تمزيق تركيبة رتقٍ ما .

ومثال ذلك خروج النبات من البذرة المزروعة في التربة .

دعونا نلقي نظرة ثانية على الآية الكريمة آخذين بعين الاعتبار هذه المعلومات : تذْكر الآية أن السماوات والأرض كانتا في حالة الرتق ، ثم تفرقتا بواسطة الفتق حيث خرجت إحداهما من الأخرى ، وتبعاً لذلك عندما نتذكر أولى لحظات الانفجار العظيم ، نرى أنّ نقطة واحدة كانت تتضمن كل مادة الكون .

وبكلمات أخرى كل شيء في « السماوات والأرض » التي لم تكن قد خلقت بعد ، كانت ضمن هذه النقطة في حالة الرتق ، وعندما انفجرت هذه النقطة بقوة سببت فتق المادة ، ومن خلال هذه العملية خلق شكل الكون بأكمله .

عندما نقارن التعبير المستخدم في القرآن الكريم بالاكتشافات العلمية نرى توافقاً بينهما ، ومما يثير الاهتمام .. أن هذه الاكتشافات العلمية لم يتم التوصل إليها إلا في القرن العشرين .

الأفلاك

خلال الحديث عن الشمس والقمر فى القرآن الكريم هناك تأكيد على أن كلا منهما يجرى فى فلك محدد :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (سورة الأنبياء)

وهذا الأمر مذكور فى آية أخرى أيضاً ، حيث يقول تعالى :

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (سورة يس)

هذه الحقائق المذكورة فى القرآن الكريم تم اكتشافها من خلال المراقبة الفلكية فى عصرنا هذا ، ووفقاً لخبراء الفلك فإن الشمس تجرى بسرعة كبيرة تبلغ ٧٢٠,٠٠٠ كيلوا متر فى الساعة باتجاه النجم ؛ فيغافى فلك معين يسمى رأ« رأس الشمس ، وهذا يعنى أن الشمس تقطع تقريباص ١٧,٢٨,٠٠٠ كيلو متر فى اليوم . ومع الشمس تجرى أيضاً كل الكواكب والأقمار الاصطناعية التى تقع فى ضمن نظام الجاذبية الشمسى وتقطع نفس المسافة التي تقطعها الشمس ، وبالإضافة إلى ذلك فإن كل النجوم فى الكون تتحرك بطريقة مشابهة .

وقد ذكر القرآن الكريم أن الكون كله ملئ بالمدارات أو الأفلاك والممرات المشابهة كالتى ذكرناها . وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الذاريات)

كروية الأرض

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ ﴾

(سورة الزمر)

إن العبارات المستخدمة فى القرآن الكريم لوصف الكون ، عبارات مذهلة فى دقتها ، فمثلاً كلمة التكوير المذكورة فى الآية هى من فعل كور . ويقال بالعربية كوَّر العمامة إذا لفها وأدارها ، وكور المتاع إذا وضع بعضها على بعض .

وهذا الوصف المذكور فى القرآن حول تكور الليل على النهار ، وتكور النهار على الليل يتضمن معلومات دقيقة حول شكل العالم ، وهذا الوصف لا يمكن أن يكون صحيحاً إلا إذا كانت الأرض كروية ، وهذا يعني أن كروية الأرض قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم الذى نزل فى القرن السابع الميلادى ، وهنا يجب التذكير بأنه فى ذلك الوقت كانت المفاهيم الفلكية مختلفة تماماً عما هى عليه اليوم . إذ كان يعتقد أن الأرض عبارة عن سطح مستو ، وكل الحسابات والتفسيرات العلمية كانت مبنية على أساس هذا المعتقد .

ومع هذا فإن آيات القرآن تضمنت معلومات لم نستطع الوصول إليها إلا فى القرن الماضى ، كيف لا والقرآن كلام الله الذى جاء بأدق العبارات فى وصف الكون ؟ .

السقف المحفوظ

يلفت الله سبحانه وتعالى من خلال القرآن الكريم انتباهنا إلى خاصية مهمة من خصائص السماء فى قوله :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ ﴾

(سورة الأنبياء)

هذه الخاصية قد أثبتتها الأبحاث العلمية التى أجريت فى القرن العشرين ، فالغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض يؤدى وظائف ضرورية لاستمرارية الحياة فهو حين يدمر الكثير من النيازك الكبيرة والصغيرة ، فإنه يمنعها من السقوط على سطح الأرض وإيذاء الكائنات الحية .

بالإضافة إلى ذلك .. فإن الغلاف الجوى يصفى شعاع الضوء شعاع الآتى من الفضاء المؤذى للكائنات الحية ، والملفت أن الغلاف الجوي لا يسمح إلا للإشعاعات غير الضارة ، مثل الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية وموجات الراديو بالمرور . وكل هذه الإشعاعات أساسيّة للحياة ، فالأشعة فوق البنفسجية التي يسمح بمرورها بشكل جزئى فقط عبر الغلاف الجوى، ضرورية جداً لعملية التمثيل الضوئي فى النباتات ، ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة ، غالبية الإشعاعات فوق البنفسجية المركزة التى تنبعث من الشمس يتم تصفيتها من خلال طبقة الأوزون فى الغلاف الجوى ولا تصل إلا كمية محدودة وضرورية من الطيف فوق البنفسجى إلى الأرض .

هذه الوظيفة الوقائية للغلاف الجوى لا تقف عند هذا الحد . بل إن الغلاف الجوى يحمى الأرض من برد الفضاء المجمد الذى يصل إلى ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر .

والغلاف الجوي لا يسمح إلا بوصول الكمية المطلوبة من الأشعة للحياة على الأرض ، والأشعة فوق البنفسجية على سبيل المثال تصل إلى العالم بشكل جزئى وبالمقدار الأنسب الذى يسمح للنباتات أن تقوم بعملية التركيب الضوئى ، ولكل الكائنات الحية بالبقاء على قيد الحياة .

السماء ذات الرجع

فى الآية الحادية عشر من سورة الطارق : يشير الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى وظيفة من وظائف السماء ، وهى « الرجع » فيقول تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الطارق) .

هذه العبارة يشار إليها فى الترجمات بمعنى الإرجاع ، وتحمل أيضاً إعادة الإرسال .

وكما هو معلوم : فإن الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض مكون من عدة طبقات ، وكل طبقة لها دورها فى إعادة الإشعاعات التي تتعرض لها إلى الفضاء أو إرسالها إلى الأرض . والآن لنعاين من خلال بعض الأمثلة عملية إعادة الإرسال التى تقوم بها الطبقات المختلفة التى تحيط بالأرض .

طبقة [التروبوسفير] (١٣ - ١٥ كيلومتراً فوق الأرض) تمكّن بخار الماء من الصعود من سطح الأرض والتكثُّف ، ثم ترجعه مطراً .

طبقة [الأوزون] التي تقع على ارتفاع ٢٥ كيلو متراً تعكس الإشعاعات الضارة والأشعة فوق البنفسجية الآتية من الفضاء وترجعها إلى الفضاء .

طبقة [الإينوسفير] تعكس موجات الراديو التى تبث من الأرض وترجعها إلى مناطق مختلفة من العالم ، تماماً مثل الأقمار الصناعية . وبذلك فإنها تجعل البث الإذاعى والتلفزيونى والاتصالات اللاسلكية طويلة المسافات أموراً ممكنة .

أما طبقة [الماغنوسفير] فإنها تعيد جزئيات الإشعاعات النووية التى تصدر عن الشمس وغيرها من النجوم إلى الفضاء قبل أن تصل إلى الأرض .

والحقيقة أن هذه الخاصية من خصائص طبقات الغلاف الجوى التى لم تظهر إلا فى الأبحاث المتأخرة قد ذكرت فى القرآن الكريم قبل قرون ، ومرة أخرى ، فإن هذا يثبت بأن القرآن كلام الله .

طبقات الغلاف الجوى

هناك حقيقة أخرى عن الكون مذكورة فى آيات القرآن الكريم ، وهى أن السماء مؤلفة من سبع طبقات :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(سورة البقرة)

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

تملك الأرض كل المقومات الضرورية للحياة ، ومن هذه المقومات الغلاف الجوى الذى يعمل كدرع واق للأحياء . ونعلم اليوم أن الغلاف الجوى مكون من طبقات عديدة مختلفة بعضها فوق بعض ، وعدد طبقات الغلاف الجوى هو سبع طبقات ، كما ورد فى الآية ، وهذا دون ريب معجزة من معجزات القرآن .

نسبية الزمن

لقد ثبت اليوم أن موضوع نسبية الزمن هو حقيقة علمية ، وهذا ما كشفت عنه نظرية اينشتاين حول النسبيّة فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، فحتى ذلك الوقت لم يعرف الناس أن الزمن مفهوم نسبى ، وأنه من الممكن أن يتغير حسب البيئة .. إلا أن ألبرت أينشتاين أثبت هذه الحقيقة بوضوح من خلال النظرية النسبيّة . إذ أثبت أن الزمن يعتمد على الكتلة والسرعة ، ولم يسبق أينشتاين إلى هذا الأمر بهذا الوضوح أحد ، باستثناء القرآن الكريم الذى يتضمن معلومات عن نسبية الزمن . إذ تتحدث بعض الآيات عن هذا الموضوع . اقرأ قوله تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

يتوقف مفهوم الوقت بشكل كامل على طريقة إدراكه من قبل الناس ، ففى حين تبدو فترة معينة من الزمن طويلة جداً عند شخص ما ، قد تبدو قصيرة عند شخص آخر ، ولكى نعرف أى منهما على حق نحتاج إلى مرجع مثل الساعات أو التقويم . فمن دونهما يستحيل تحديد الوقت بشكل صحيح .

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة السجدة)

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وبعض الآيات تشير إلى أن الناس يفهمون الوقت بطرق مختلفة وأنه فى بعض الأحيان يتصور الناس فترة قصيرة من الزمن على أنها طويلة جداً ، وهذا الحوار الذى سيدور بين الناس وخالقهم يوم الحساب .. يعطى مثالاً توضيحيًا جيداً عن هذه الفكرة .

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وكون نسبيّة الزمن مذكورة فى القرآن الذى بدأ بالنزول عام ٦١٠ ميلادى يشكل دليلاً آخر على أنه كتاب مقدس .

نسبة الأمطار

إحدى المعلومات التى يعطينا إياها القرآن الكريم عن المطر : هو أنه ينزل من السماء إلى الأرض بقدر ، وهذه الحقيقة مذكورة فى سورة الزخرف كما يلى :

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

هذه الكمية المحسوبة من المطر اكتشفت مرة أخرى من خلال الأبحاث الحديثة ، وتقدر هذه الأبحاث .. أنه فى الثانية الواحدة يتبخر من الأرض تقريباً ١٦ مليون طن من المياه ، وهذا يعنى أن الكميّة التى تتبخر فى السنة الواحدة تبلغ (٥١٣ تريليون طن من الماء) ، هذا الرقم مساو لكمية المطر التى تنزل على الأرض خلال سنة ، وهذا يعنى أن المياه تدور دورة متوازنة ومحسوبة ، عليها تقوم الحياة على الأرض ، وحتى لو استعمل الناس كل وسائل التكنولوچيا المتوفرة فى العالم فلن يستطيعوا إنتاج هذه الدورة بطريقة صناعية وبمجرد حدوث خلل بسيط فى هذه المعادلة سوف يؤدى ذلك إلى خلل بيئى ينهى الحياة على الأرض ، ولكن ذلك لا يحدث أبداً وفى كل عام تنزل نفس الكمية من الأمطار تماماً كما يذكر القرآن الكريم .

البحران اللذان لا يختلط أحدهما بالآخر

إحدى خصائص البحار التى لم تكتشف إلا أخيراً ذكرت فى القرآن الكريم كما يأتى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

فكون البحار تلتقى مع بعضها دون أن يختلط ماؤها البتة ، حقيقة لم يكتشفها علماء الأوقيانوغرافيا إلا مؤخراً ، وأرجع العلماء ذلك إلى قوة فيزيائية تسمى « الانشداد السطحى » تمنع اختلاط مياه البحار المتجاورة ، حيث

الانشداد السطحي الذى يسبّبه اختلاف كثافة المياه ويمنعها من الاختلاط مع بعضها تمامًا كما لو أن بينها حائطًا رقيقاً .

والجانب المثير للاهتمام فى الأمر كله .. كون القرآن قد ذكر هذه الحقيقة مع أنه كان ينزل فى وقت لم يكن فيه الناس على دراية بالفيزياء والانشداد السطحى ، والأوقيانوغرافيا .

هناك أمواج عاتية وتيارات قوية ، ومد وجزر فى البحر الأبيض المتوسط ، تدخل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى عبر مضيق جبل طارق ، ولكن حراراتها وكثافتها ونسبة ملوحتها لا تتغير ؛ لأن هناك حاجزاً يفصل بينها .

ظلمات البحار

وأمواجها الداخلية

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾

(سورة النور)

يصف كتاب « المحيطات » البيئة العامة فى عنق البحار ، كما يأتى :

« أن الظلمة موجودة على عمق مائتى متر وما دون ، فعند هذا العمق ليس هناك ضوء تقريباً ، أما على مسافة ألف متر فلا يوجد ضوء البتة » .

وقد تسنّى للبشريّة اليوم أن تعرف الكثير عن البيئة العامة للبحار وخصائص الكائنات الحية فيها ، ونسبة ملوحة مياهها ، وكميات المياه الموجودة

فيها ، فالغواصات التى تطورت بفضل التقنيات الحديثة ، خولت العلماء الحصول على مثل هذه المعلومات ، ومن المعروف أن أى إنسان لا يستطيع أن يغوص فى عمق البحر أكثر من أربعين متراً دون وجود معدات خاصة تساعد على ذلك ، ولا يمكن للإنسان أن يبقى على قيد الحياة فى المناطق العميقة والمظلمة التى تصل إلى ٢٠٠ متراً وما دونها دون هذه المعدات .

وغياب المعدات التقنية فى السابق كان السبب فى تأخر العلماء فى اكتشاف هذه التفاصيل عن البحار ، وهذا ما يثبت أن عبارة :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾

التى وردت فى سورة النور منذ (١٤٠٠ عاماً) وكون القرآن يعطى معلومات صحيحة عن البحار فى وقت لم تكن فيه معدات تخول الإنسان الغوص فى الأعماق ، ليس إلا وجهين من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

وبالإضافة إلى ذلك فإن ما ورد فى الآية ٤٠ من سورة النور من قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النور)

يلفت انتباهنا إلى وجه آخر أيضاً من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

المنطقة التى تتحكم بسلوكنا :

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة العلق)

إن تعبير ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ فى الآية مثير للاهتمام ، فقد كشفت الأبحاث التى أجريت مؤخراً أن المنطقة الأمام جبهية (النَاصيَة) ، المسؤولة عن إدارة وظائف معينة فى الدماغ تقع فى جهة الجبهة من الجمجمة ، ولم يكتشف العلماء وظيفة هذه المنطقة إلا فى الستين سنة الأخيرة فى حين أن القرآن الكريم أشار إليها قبل ١٤٠٠ عاماً .

وإذا نظرنا داخل الجمجمة من جهة الجبهة سوف نجد المنطقة الأمامية من المخ ، وفي كتاب بعنوان « أساسيات التشريح والفيزيولوچيا » يتضمن آخر الأبحاث وظيفة هذه المنطقة ، جاء ما يأتى :

« إن تحديد الدوافع والتفكر فى عواقب الأمور والتخيط للمضى فى أمر ما تحدث فى فصوص القسم الأمامى من الجبهة ، أى المنطقة الأمام جبهية ، وهى منطقة الأفكار والخواطر فى القشرة الدماغية » .

ويقول الكتاب أيضاً : أنه فيما يتعلق بكون هذه الجهة مسؤولة عن الدوافع البشرية ؛ فإنه يظن أنها هى المركز الوظيفى للعنف ..

إذن هذه المنطقة من المخ مسؤولة عن التخطيط ، وعن الدوافع والمضى بالأعمال الصالحة أو الخاطئة ومسوولة عن قول الصدق أو الكذب .

ومن الواضح أن عبارة « ناصية كاذبة خاطئة » تتوافق مع الشروح المقدمة أعلاه ، هذه الحقيقة التى لم يستطع العلماء اكتشافها إلا قبل ستين عاماً قد ذكرت فى القرآن الكريم منذ سنوات بعيدة .

طبقات الغلاف الجوى

هناك حقيقة أخرى عن الكون مذكورة فى آيات القرآن الكريم وهي أن السماء مؤلفة من سبع طبقات .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

تملك الأرض كل المقومات الضرورية للحياة ، ومن هذه المقومات الغلاف الجوى الذى يعمل كدرع واق للأحياء ، ونعلم اليوم أن الغلاف الجوي مكون من طبقات عديدة مختلفة بعضها فوق بعض ، وعدد طبقات الغلاف الجوى هو سبع طبقات ، كما ورد فى الآية ، وهذا دون ريب معجزة من معجزات القرآن .

وإن القارئ الكريم يوافقنى على أن ما تقدم من أدلة صدرت عن أهل العلم الثقات كاف تماماً لدحض ما يرجف به چورچ بوش من أن سيدنا محمداً ﷺ هو مؤلف القرآن ، تعالى القرآن عن ذلك علواً كبيراً ، والواقع أن هذا الكاتب لا ينفرد بهذه المقولة الكاذبة ، فقد سقط فيها عدد من زملائه المستشرقين ومنهم المستشرق الإنجليزى « چيب » أستاذ الدراسات العليا العربية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية الذى بنى رأيه فى بشرية القرآن على زعم خاطئ بأن سيدنا محمد قد تأثر بجو مكة بما ينطوى عليه من زعامة اقتصادية وسياسية ودينية ، ثم تأثر أيضاً بقروح اجتماعية ظهرت بثوراً على مجتمع مكة ، انفعل

بها سيدنا محمد ﷺ ليكون صاحب أفكار ثائرة جعلته يشق طريقاً فى الدعوة إلى دين جديد بشّر به .

وقد اندفع فى تخيلاته وتخرصاته ؛ فربط نشأة سيدنا رسول الله فى مكة وبخاصة فى نشر دعوته ، وهو ادعاء فيه شئ من الحقيقة ، ولكنه استغل هذا الشيء القليل مستخدماً إياه لتحقيق غرض مشوّه فى نفسه هذا الغرض القبيح هو نسبة القرآن إلى شخص سيدنا رسول الله ﷺ ، وهذا ما يتصف به دائماً نهج المستشرقين من تسخيرهم لنتاج العلم الذى يصل إليه العقل الإنسانى بذاته لإثبات شيء آخر يعتوره البطلان ، ويعيبه الهوى ، ويدحضه البرهان ، فهو هنا « جيب » أثبت حقيقة علمية ، وهى تأثر الإنسان بالبيئة التى نشأ فيها وهذه حقيقة مسلم بها لا تقبل الجدل ، ولكنه استغلها ليثبت بها وهماً ، وهو أن القرآن هو اختراع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسميه « المذهب المحمدى » لكنه نسى فى غمار فرحته بذكاءه ، ونشوته بعلمه أن محمداً الرسول ليس شخصاً عادياً وإنما هو نبى ورسول ، ونسى أيضاً أنه لم يدَّع القرآن لنفسه وإنما ادعاه لله سبحانه الذي أنزله ولو أن مستر « جيب » قرأ بتجرد أول سورة الكهف :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾
(سورة الكهف)

أو قرأ بنزاهة أول سورة الفرقان :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾
(سورة الفرقان)

أو قرأ بتمعُّن يبغى الحقيقة الآية رقم ٧ من سورة آل عمران :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولو أنه قرأ بذكائه الذى منحه الله إياه ، مستقبلاً ذلك الذكاء المتوقد استغلالاً حسناً بريئاً من التعصب - الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة يونس لفرحت فطرته المركوزة فى قلبه ، وتألق فيها نور الحق المتبلج فى هاتين الآيتين :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة يونس)

لو أن « جيب » قرأ هذا كله بتجرّد ونزاهة وحكمة وذكاء ، لجذبته أنوار الصدق القرآني التي تَنْبجِسُ من حيث هذا الصدق القرآني ، وهو صدق من نوع خاص متفوق متميز ؛ لأنه صدق العليّ الأعلى ، تنفذ أشعته الوضّاءة إلى القلوب فتتلقاها الفطرة المتألقة في تلك القلوب التي تزدهي بها منذ أن كانت في الأزل ذراً من الذر ، إذ خاطب الله بني آدم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ تحكيه الآية الشريفة رقم ١٧٢ والآية رقم ١٧٣ من سورة الأعراف :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

لقد أفلح « جيب » في حجب أنوار الصدق الرباني عن فطرته المركوزة في قلبه ، بأن هال على هذه الفطرة أكواماً من تراب التعصب الموروث ؛ فحرم نفسه من النورين ، نور الصدق القرآني الربّاني الذي هو صدق الله العلي الأعلى ،ونور الفطرة التي ركزها الله في قلبه نوراً من نوره ، فلمّا حرم نفسه من نورهما ضل وأضل فقال فريته التي حدثنا عنها الدكتور محمد البهي في كتابه [الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي] ناقلاً لنا قوله :

[إن محمداً ﷺ ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية عنه ، المحيطة به من جهة ، ثم من جهة أخرى قد شقّ طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه ، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه . وقليل ما هو معروف ـ على سبيل التأكد ـ عن حياته وظروفه المبكرة .

ولكن الشيء الذى يصح أن يبحث ماضيه الاجتماعى « لقد كان أحد سكان (مدينة) غير رئيسية ، وليس هناك ما يصح أن يصوره بأكثر من أنه بدوى شارك فى الفكر والنظرة فى الحياة التى كانت للبدو من الناس .

(أ) ومكة فى ذات الوقت لم تكن خلاء بعيداً عن صخب العالم ، وعن حركته فى التعامل ، بل كانت مدينة ذات ثروة اقتصادية ، ولها حركة دائبة كمركز للتوزيع التجاري بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط .

(ب) و (سكانها) مع احتفاظهم بطابع البساطة العربية الأولية في سلوكهم ومنشآتهم ، اكتسبوا معارف واسعة بالإنسان والموت ، عن طريق تبادلهم الاقتصادى والسياسى مع العرب الرُّحل ، ومع الرسميِّين من رجال الامبراطورية الرومانية .

وهذه التجارب قد كونت فى زعماء مكة ملكات عقلية وضروباً من الفطنة وضبط النفس ، لم تكن موجودة عند كثير من العرب .

(جـ) ثم (إن السِّيادة الروحية) التى اكتسبها المكيُّون من قديم الزمان على العرب الرُّحل ، فزادت قوة ونمواً بفضل الإشراف على عدد من « المقدسات الدينية » التى وجدت داخل مكة وبالقرب منها « وانطباع هذا الماضى الممتاز (لمكَّة) يمكن أن نقف علي أثره واضحاً فى كل أدوار « حياة محمد » ﷺ وبتعبير إنسانى : إن محمد نجح ؛ لأنه كان واحداً من المكيِّين ! !

ويتحدث « جيب » عن وجود فجوات واسعة من الغنى والفقر فى مكة ، وجرائم إنسانية متمثلة فى الأرقَّاء والخدم ، وفى الحواجز الاجتماعية ، ويستنتج من ذلك أن الرسول ﷺ تأثر بذلك فأصبح يكن فى نفسه ثورة داخلية وقال :

(ولكن نواة هذه الثورة النفسية لم تظهر فى صورة (إصلاح اجتماعي) ، بل بدلاً من ذلك دفعته إلى اتجاه دينى أعلنه فى اعتقاد ثابت بأنه رسول من الله ، لينذر أتباعه بإنذار الرسل الساميين القديم (توبوا فجزاء الله حق) .

ويقول أيضاً :

[ومعروف من القرآن نفسه أن فكرة « الوحدانية » كانت معروفة غربي الجزيرة العربية ، ولقد كان وجود الإله الأكبر ، وهو الله ، مبدأ مقبولاً كأصل عام لدي محمد ولدي خصومه على السواء ، والقرآن لم يناقش هذه النقطة أبداً ، وحجته التى كان يقيمها فقط على أن : لا إله إلا الله] .

ويقوّم الأستاذ الدكتور محمد البهى - رحمه الله رحمة واسعة - مقولة مستر « جيب » فيما يأتى :

* إن مكة كانت فيها حضارة وزعامة ، ولم تكن أرضاً جرداء ، ولم يكن سكانها حفاة غلاظاً ، بل كانت لديهم فطنة ، وملكة فى السياسة ، ومعارف واسعة بالناس والمدن على السواء .

* وأن حياة محمد ﷺ كانت حياة (مكيّة) خالصة بما فيها نشأته ودعوته وصراعه، فهي حياة محدودة لظروف الزمان والمكان .

فدعوته عندئذ ليست دعوة عامة ، بل لأناس معينين !!

واختياره طابع الدعوة بأن تكون دينية ، ثم اختياره هذه الدعوة الدينية بأن تكون فى صورة حكومة إلهية ، هو من تحديد عوامل الحياة المكية ، وقد وقع (محمد) ﷺ تحت تأثير ما دار فيها من اتجاهات سياسية واقتصادية ودينية .

* وأن القرآن ليس جديداً كله على العرب (المكيين) وأن ما فيه من مسيحية لا يتعدى المسيحية الشرقية السريانية (وهي مسيحية الزهد ، التي تأثرت بالاتجاه الإشراقي الزهدي) وكذا ما فيه من يهودية لا يتعدى اليهودية المعروفة فى المدينة ، وليست معارضة المكيين له بسبب تمسكهم بالقديم أو بسبب الإيمان ، كما يذكر القرآن مثلا فى قوله تعالى :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ ﴾

(سورة الزخرف)

وإنما جاءت معارضة (مكة) في نظر « جيب » بسبب المنافسة في الزعامة والسياسة والخوف من انهيار حياتهم الاقتصادية !

و القرآن .. كما يريد « جيب » أن يقول : إذن هو من عمل إنسان : إنسان معين هو محمد ﷺ عاش في حياة خاصة هي حياة « المكيّين » وتبلورت حياته الخاصة هذه فيما قاله فيه .

وقبل أن أرد علي ما قاله « مستر جيب » يسرني أن أنبّه القارئ إلى أن هناك علاقة نسب حميمة بين ما يقوله چورچ بوش في كتابه موضوع هذا الكتاب ، وبين ما يقوله « مستر جيب » فالقولان أخوان شقيقان لأب واحد وأم واحدة يدرك القارئ لكلامهما لأول وهلة : أنهما قد صدرا عن عقل واحد وعاطفة واحدة ، لم يفلح الفاصل الزمني بينهما ، حيث ولد « چورچ بوش سنة ١٨٥٩ » وولد السير «هاملتون »جيب » سنة ١٨٩٥ ، ولم يفلح أيضاً الفاصل المكاني ، حيث الأول في أمريكا وولد الثاني في مصر ، لم يفلح هذان الفاصلان في تحقيق اختلاف بين القولين ، بل بدا القولان واحداً لوحدة الفكر ووحدة العقيدة اللذين يربطان بينهما ، ووحدة الباعث الذى حركهما ليقولا هذا الكلام الواحد ، وهذا الباعث هو التعصب المقيت .

وإن القارئ ليشاركني في التعجب مما قاله السير (هاملتون جيب) أشد ما يكون التعجب ، وسبب ذلك أن هذا المستشرق ولد في الأسكندرية في مصر وتتلمذ على يد المستشرق الكبير (توماس أورنولد) وهذا الأستاذ قد كتب في الدعوة الإسلامية منصفاً إياها كتاباً أسماه (الدعوة إلى الإسلام) يتحدّد منه الانصاف تحدّد اللآلئ ، فكان الأستاذ ينتظر من تلميذه جيب شيئاً غير الذى قرأناه من قبل ، وأيضاً مصدر التعجب أنه عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة عند تأسيسه ، وينظر في هذا كتاب « المجمعيون في خمسين عاماً » للمغفور له أستاذنا الجليل الدكتور محمد مهدي علام إصدار مجموعة اللغة العربية سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ ميلادية ص ٩٦ ، كتاب : « الاستشراق في التاريخ الإسلامي للدكتور علي حسني الخربوطلي ، إصدار جمعية الدراسات الإسلامية ص ١٠٦ ، والسبب الثالث لتعجبي هو الثناء العاطر الذى حازه هذا المستشرق من كثير من علمائنا وأساتذتنا الكرام .

وإني أكتفي بالرد على ما جاء في كلامه خاصاً بمخالفة أهل مكة لسيدنا محمد ﷺ وانحصار سبب معارضته إلى أسباب سياسية واقتصادية خوفاً من آثار دعوته التي يؤثر علي ازدهارهم الاقتصادي ، ولم تكن معارضتهم إياه بسبب العقيدة والإيمان ... !!

ولو أن السير هاملتون جيب قرأ القرآن قراءة مبعثها نشدان الحقيقة لتبين له بجلاء أن محور الخلاف بين النبي ﷺ وبين قريش ينحصر في الدين والعقيدة .

١ - ففي سورة ص ، وهي سورة مكية يقول الحق - تبارك وتعالى - في الآيات من ٢ - ٨ :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢
كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤
أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ
مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦
مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ
عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ
۝٨ ﴾

(سورة ص)

٢ - ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩
لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ ﴾

(سورة الأنبياء)

٣ - ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤
لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ۝٧٥
فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ ﴾ (سورة يس)

٤ -

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ
ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ
وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

٥ -

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

٦ -

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

٧ -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٨ -

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الزمر)

٩ - ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

١٠ - ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لو أن السير هاملتون جيب قرأ هذه الآيات الكريمات قراءة جيدة واعية ، كما يقرأ المدقّق الذي يخدم المعرفة وينشد الحقيقة لأدرك أن جوهر الخلاف بين المكيّين والنبى محمد ﷺ ، وحقيقة المعارضة التى أعلنوه بها ، إنما هي اعتراضهم على الدين والدين فقط ، هم متمسكون بعبادة اللات والعزى وهبل ، وهو عليه الصلاة والسلام يزجرهم لينبذوا كل ذلك ويفروا إلى الله يقول لهم :

﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أما ما يزعمه جب من أنهم كانوا يخشون على زعامتهم أو أموالهم ، فإن الثابت من الروايات الثقات أن صناديد الكفر من قريش ويشكلون الزعامات المسمومة كلمتهم : قد حدثوا أبا طالب عم النبى محمد ﷺ عارضين عليه أنه إن كان يبغى من وراء دعوته مالاً ، جمعوا له مالاً يصير به أغناهم ، وإن كان يبغي ملكاً ملّكوه عليهم ، لكنه عليه الصلاة والسلام رفض عرضهم هذا ، وقال كلماته الذهبية الحادة المضيئة ! .

« والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتي يظهره الله أو أهلك دونه » (الدكتور محمد حسين هيكل - حياة محمد ص ١٤٦ .

الشيخ محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين - الجزء الأول :

ومن هذا يتبين أن السير « جيب » لم يطلع على تاريخ هذا النبي العظيم ، ولم يدرس سيرته ، ولم يدرس حقيقة موقف المكيّين منه ، وطبيعة النفس القرشية والعقيدة القرشية . والعجيب أنه مثل چورچ بوش - قد شكى من فقر المعلومات ومُحلّ الأخبار التي يستطيع بها حسن التعرف على هذه الشخصية العظيمة .

ولا أدري كيف لمن يشكو الفقر فى المعلومات ؛ أن يتجرأ بالكتابة عن هذه الشخصية العظيمة ؟!!.

ويبقي الفرق بين الرجلين وهو يكمن فى طريقة معالجة موضوع بشرية القرآن من جانب چورچ بوش ، قد وضحت بكثرة السباب فى حق سيدنا محمد ﷺ ، أمّا « جيب » فظل متوازنًا ، وظلت عباراته خالية تماماً من هذا الكدر .

والعامل المشترك بينهما يكمن فى أن كلاً منهما ضنّ على نفسه ، وعلى مواطنيه بجدية البحث العلمي وثمراته الطيبة فتجنّي على الحقيقة ، وقصّر فى حق نفسه ، وحق العلم . وحق مواطنيه ، ومما يعظم من فداحة الجرم عند

چورج بوش ، أنه كان يكتب التاريخ فى جامعة ، وأما « جيب » فيشفع له التزامه بأدب البحث العلمى وتنزهه عن الفحش والسباب اللذين هبطا ببحث چورج بوش وانحدرا به إلى هوة المغالطة والمهاترة ، وظلمات الضلال والتخبط ، فباء بإثمه المضاعف .

وبقى للمرء أن يسأل عن السبب الذى دفع چورج بوش إلى هذا الاعتداء باللفظ السيء على هذا النبى العظيم الذى لم يسئ إليه ، ولم تجمعه به جلسة أو صحبة فى رحلة ؟؟!! وعندما ثار هذا السؤال فى خاطرى جاءت معه الإجابة فور وروده إذ تذكرت أنه كان قسيسا تحس على جسده ثياب القسيسين ، وفى داخله شعر بمرتبته الكنسية ، وما تضفيه عليه من تميز يؤرثه توقيراً بين قومه خاف عليه من المد الإسلامى ، ويكسبه مجداً وسط مجتمعه يخشى من زواله إذا سطعت على الغرب شمس الإسلام ، وإذا حدث ذلك فسوف تحرر وجدانه ، وتضيء قلوب الناس فيه ، وتعم القارتين أنوار الهدى .. ويستمتع الإنسان الغربى بدفء الإيمان وبمحمد رسول الله ﷺ وبالقرآن كتاب الله الكريم .

فلا يجد هو وزملاؤه من القساوسة المتهنين المحترفين من المستشرقين بضاعة يروجونها ويعيشون عليها فيزول سلطانهم ويزولون معه ، إنه الخوف الذى أثار انفعالاً مخيفاً فى داخل صدره ضباباً حجب عنه ، ونور الفطرة فى قلبه مثلما فعل بهرقل والمقوقس وإمبراطور الروم ، كل منهم حرص على ملكه ومرتبته الدينية ، وعندما تحرر منه النجاشى ملك الحبشة وورقة بن نوفل عالم النصرانية ، وعبد الله بن سلام عالم اليهود ، لحظة واحدة سطعت أمامهم شمس الحق والحقيقة فأسلموا لله رب العالمين .

اللهم إنى أسألك بأسمائك الحسنى وكلماتك التامات وأسألك بحق كل اسم هو لك سميْت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك .. أن تصلي على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وأن تجلى الخوف عن قلوب أهل العلم وأهل الفكر فى الشرق والغرب

حتي ينبلج أمامهم الحق ، فيدخلوا فى دين الإسلام أفواجاً يسعدون به وينتصر بهم هذا الدين و يكونوا لنا إخواناً نحبهم ويحبوننا ، ونلقاك جميعاً مسلمين مؤمنين غير خزايا ، ولا نادمين وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

إثبات النبوة لسيدنا رسول الله ﷺ
القرآن كلام الله سبحانه وتعالى
نزل به جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد ﷺ
والإسلام دين الفطرة وهو رسالة كل نبى
من عهد آدم إلى أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ

يحاول چورچ بوش مؤلف الكتاب محاولة يائسة أن ينفى النبوة عن سيدنا رسول الله سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وينفى حقيقة الإسلام عن دينه .

وينفى عن القرآن الكريم أنه من عند الله ، وإن المرأ ليعجب كل العجب أن يصدر هذا الحكم من رجل يجهل اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم .

ويجهل تماماً سيرة ومسيرة هذا النبى العظيم ﷺ ، ويجهل حقيقة هذا الدين ، وهو الإسلام ؟ !!..

هو دائماً فى جميع فصول كتابه هذا يردد كلمة « أظن » فمتي كان الظن عنوان الحقيقة ؟!

إن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

المبحث الأول

محمد رسول الله ﷺ

لقد بدأ المؤلف من السطر الأول فى كتابه الأثيم حتي السطر الأخير جملة شعواء حمقاء تهدف إلى نفى النبوّة عن سيدنا رسول الله ﷺ .

وقد ظهر هذا تلميحاً فى اسم الكتاب ، وتصريحاً فيما تدفق من داخله على صفحاته من حقد وحسد تزكم رائحتهما الأنوف من خلال كل كلمة يقرأوها

القارئ من كلامه ، فهو قد سمى كتابه [محمد مؤسس الإسلام ومؤسس امبراطورية المسلمين] .

وهو بهذا يصف النبيّ ﷺ بأنه زعيم سياسى ، ومفكر فيلسوف ، ويجعل من دين الإسلام مذهباً سياسيّاً أو مذهباً فلسفيًّا ، أى أنه ليس من عند الله .

وبادئ ذى بدء فإني أوضح الاضطراب النفسى والعقلى وفقدان التوازن ومعاناة الهزيمة التى أحاطت به أمام عظمة هذا النبى الكريم سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، من خلال اعترافاته الدالة على الرَّعْشة الفكرية التي أصابته ، فهتكت الساتر الذى كان يغطي حقيقة مشاعره من الغيظ والحقد والحسد الدفين ، ويظهر كل ذلك فيما يأتى :

ـ فهو ابتداء من الصفحة التاسعة حتي الصفحة ١١٣ . يستعرض حالة المسيحية ، وما أصابها من تحلل وتدهور ، وتخلي الكنيسة عن عقائد الكتاب المقدس وأخلاقياته ، والتحريفات القبيحة والخرافات ، والتى رددها رجال الكنيسة أبان بعثة هذا النبى الكريم ، فهو بقول فى ص ١١٠ من الترجمة :

[لكن التحلل التدريجى طال الكنيسة فلم تعد مزدهرة كازدهارها الأول ، ففي خلال القرن الرابع نجد أن (سر السؤال) الذي كان يمارس منذ زمن بعيد سرًّا في الخفاء ، أصبح يكشف عن نفسه بشكل أكثر وضوحاً ؛ ورغم أن المسيحيين على وفق قانون الإمبراطورية ، لم يعودوا يتعرضون للاضطهاد ؛ إلا أنه منذ هذا الوقت فصاعداً (أى منذ توقف اضطهادهم) زاد انحرافهم وارتدادهم ، وكان يمكن تتبع هذا خلال كل حقبة لاحقة ، حتي وافاهم أخيراً إنسان الخطية فى القرن السابع .

ثم يقول :

لقد استشرت هذه الردة المرعبة وبلغت ذروتها فى حوالى الفترة التي ظهر فيها محمد ﷺ وبلغ الآثمون تمام أمرهم ـ لقد تخلت الكنسية التى تصبح جديرة

باسمها عن عقائد الكتاب المقدس (المسيحى) وأخلاقياته وأساس العبادة الواردة ، فأصبحت على وشك التخلى عن المسيحية .

لقد دخلت التحريفات القبيحة والخرافات فى الكتب وبلغت مبلغاً كبيراً حتي انفصل (لوثر) وغيره من الإصلاحيين عما أسموه مجتمعاً معادياً للمسيح .

فى هذه الفترة ، ساد توقير القديسيين والشهداء وبذا ازدهرت العبادة الوثنية ممثلة فى عبادة الصور والبقايا الأثرية المقدسة ، كما ساد توقير العذراء مريم توقيراً عبادياً ، وساد الاعتقاد فى الأعراف وعبادة الصليب ، وأصبح كل هذا راسخاً مؤثراً ، وبذا اختفى رونق الإنجيل ، وقلّ بهاؤه ، وعانى من كسوف مظلم وضاع جوهر المسيحية فى خضم الطقوس التافهة والخرافية » .

ونفس التشخيص الذى شخصه هذا الرجل للكنيسة الغربية ، ردّده بالنسبة للأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية ، خاصة فى الشام والمناطق المتآخمة لشبه الجزيرة ، بالإضافة لمناطق داخل شبه الجزيرة العربية نفسها ، تفاقمت هذه الشرور بسبب سيادة العديد من المذاهب والهرطقات ، وبسبب الخلافات المستمرة بينها ، ثم يصرح ويقول :

لقد تمزقت الكنيسة إرباً بسبب النزاعات الضارة بين الآريوسببين والسابليان والنساطرة والكوليرديان واليوتشبان ، وقد أدّت نزاعاتهم هذه إلي إرباك العقائد المسيحية العظيمة ، وإغراقها فى دقائق ميتافيزيقية ومصطلحات مدرسية ، فلم تعد (أى المسيحية) نهج حياة ، ولم يعد ينظر لها بوصفها طريقاً وحيداً للخلاص .

فدين الإنجيل ، المصدر المبارك للحب والسلام والوحدة بين البشر ، أصبح بسبب الخلافات المذهبية وما بها من انحراف جمرة تحرق .

وعقد مجمع إثر مجمع ، وصدرت قرارات مجمعية إثر قرارات ، لقد شتت الأساقفة البلاد فى كل اتجاه ، وسعت كل طائفة لتحقيق أغراضها والعمل على

دعم عقائدهم ، وإدانة المخالفين لها فى الرأى وقمعهم، وبلغ النزاع فى الكنائس الأسقفية البروتستنصنية مبلغاً كبيراً ، وخاصة فى الغرب لدرجة أن الفرق المتناحرة لجأت مراراً إلي العنف ، وفي مناسبة لا تنسى تلطَّخت كنيسة مسيحية من الداخل بدماء عدد من أتباع أسقف منافس ، سقطوا ضحايا نزاع عنيف ص ١١١ .

ثم هو - المؤلف - يدعو قارئه إلى مشاركته فى عدم الدهشة والتعجب من أن تشهد هذه الكنائس صراعاً مريراً للوصول إلى المناصب « الدينية » المربحة طمعاً من أناس فسدت نفوسم ، لاسيّما وأن هذه المناصب الدينية كانت تفتح الطريق للثراء الفاحش والرفاهية ، والنفوذ الكنسى .

ويستشهد المؤلف علي ما شرحه من وقائع مخلة بأحكام الدين ، بما قدمه المؤرخون القدماء من إثراء أساقفة تلك الأيام بسبب الهدايا التى قدمها لهم أثرياء ظهرت عليهم أعراض الأبّهة من ركوب العربات التى تجرها الخيول وحملهم فى المحفات ومبالغتهم فى ولائمهم ، ونعيمهم بسخاء الأمراء ، في الوقت الذى ساد فيه أردأ أنواع الجهل بين أمم المملكة المسيحية ، فى الوقت الذى حرم فيه الشرفاء من رجال الدين من مزاولة دفاعهم عن الدين الحقيقى ، والكنيسة الملتزمة بآدابه ، هؤلاء قد تضاءلوا حتى أصبحوا بقايا لا يلتفت لها .

هذا بعض ما شكى منه المؤلف من فساد وإفساد ، قامت عليهما الأدلة الموثقة أصاب من خلالها الكنيسة ورجالها .

وهذه هي الأعراض الطبيعية لإصابة الدين المسيحى والكنيسة بالضعف والوهن .

والمرء يتساءل بعد ذلك .

أو لست يا بوش تعتقد اعتقاداً جازفاً فى أن دين المسيح منزل من قبل الله ؟ .

أو لست وأنت البشر لاحظت هذا الضعف الذى أصاب هذا الدين ؟ .

أو لست ترى أن الصالحين من رجال الدين عجزوا تماماً عن إصلاح ما أفسده المفسدون ؟

لو كنت أنت صاحب الدين والذى اخترعته . أكُنْتَ تسكت عن هذا الفساد ؟ .

لو كنت تملك من أسباب القوة لرد هؤلاء المفسدين عن غوايتهم وضلالهم ، هل كنت ستؤجل ذلك دقيقة واحدة ؟

إذن فإن الله الذى أنزل الإنجيل علي نبيِّه عيسى ـ عليه السلام ـ ، وهو هدي ونور ، قد أرسل رسوله سيدنا محمداً ﷺ ليحفظ دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وليطهره من هذا الدنس الذى أصابه : وهو الذى قال في حقه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إذن فلأن الله سبحانه وتعالي هو منزل الكتاب على نبيه عيسى عليه السلام ، ولأنه أعلم بهذا الكتاب وما يحتويه ؛ ولأنه الأقدر على تنقيته مما علق به ، يكون أعلم أيضاً بمن تتوفر فيه الصِّفات التي تتطلبها هذه المهمة ، وهى إعلاء كلمة الله .

ولم يكن هذا الرجل الموعود والواعد إلا محمداً رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وخاتم النبيين .

فهو الذى تم معناه وصورته   ثم اصطفاه نبيًّا بارى النسم

وإنى أسوق لك يا بوش وللمعاندين من أمثالك هذه . الأدلة التى حفظها التاريخ من شهادات صدرت عن علماء دينكم :

١ - ورد في صحيح البخاري - باب كيف كان بدء الوحي - ما يأتي :

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فآتوه ، - وهم بأيلياء - فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء القوم ، ثم دعاهم بترجمانه فقال :

أيُّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبيّ ؟

فقال أبو سفيان :

فقلت أنا أقربهم نسباً .. فقال :

أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل هـذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه .

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال :

كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ .

قلت لا . قال : فهل كان من آبائه من مَلك ؟ .

قلت لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت ، بل ضعفاؤهم

قال : أيزيدون أو ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ .

قلت لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت لا .

ونحن فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة قال: فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فقال للترجمان :

قل له :

سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا . . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من مَلك ؟ . فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من مَلك ؟ قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فذكرت أن لا : فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ .

فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتي يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل فقرأه ، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدي .

أما بعد . .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام . .

أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

قال أبو سفيان : فلمّا قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات ؛ وأخرجنا فقلت لأصحابى حين أخرجنا : (لقد أَمِرَ أمْرُ بن أبى كبشة ، إنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخله الله على الإسلام) .

وكان ابن الناظور صاحب الياء وهرقل سقفًا على نصارى الشام يحدّث أن هرقل حين قدم إيلياء ، أصبح يوماً خبيث النفس فقال بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك ، قال ابن الناظور : وكان هرقل حزّاء ينظر فى النجوم .

فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ، ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ؛ واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ ، فلما استخبره هرقل ، قال : « اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟

فنظروا إليه ، فحدثوه أنه مختتن ، وسأله عن العرب فقال هم يختتنون ، فقال هرقل :

[هذا ملك هذه الأمة قد ظهر] ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية ، وكان نظيره في العلم ، وسار هرقل إلى حمص ، فلم يرم حمص حتي أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ ، وأنه نبىّ ، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم طلع فقال : يا معشر الروم !!

هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال :

« ردوهم على ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفاً ، أختبر بها شدتكم على دينكم .. فقد رأيت » .

فسجدوا له ، ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل . رواه صالح بن كيسان ويونس ومعمر بن الزهرى .

نقلت هذا الخبر من صحيح البخارى (طبعة دار الشعب - جزء ١ مجلد من ١ - ٣) ، (باب كيف كان بدء الوحى) .

٣- إسلام النجاشى (ملك الحبشة) :

كان إسلام هذا الملك العالم بدينه علم اليقين ، العارف بحق نبى الله عيسى عليه السلام ، والذى اتضح بعد قراءة وقائع إسلامه أنه يدرك تمام الإدراك حقيقة دين الإسلام ، وأنه رسالة جميع الأنبياء والرسل من عهد آدم - عليه السلام - إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ . ويقول : إن إسلام هذا الملك كان ثمرة طيبة لهجرة المسلمين إلى الحبشة ، هذه الهجرة التى تخلص وقائعها فى أن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، لما تأكد من عناد صناديد قريش ، وإصرارهم على الكفر ، واستمرارهم فى أذى المسلمين والتربص بهم ،

ولا يمنع الكفار من هذا الأذي الذي يلحقونه بالمؤمنين شيء ، فهم قد نسوا الرحم والقرابة ، وعموا عن المروءة والشهامة ، ولم يكن لهم فى ذلك مستشار إلا الحقد والحسد والعناد ، ولما وجد سيدنا رسول الله ﷺ ذلك ، أَمَرَ أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة فإن عليها ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد ، ولقد أثبت الواقع صدق إحساس النبى ﷺ ، فإن أرض الحبشة بعيدة عن سطوة قريش ، وأهلها مستقلون بدينهم ، وملكهم العادل يسهر على حمايتهم ، ويقيم العدل بينهم ؛ لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ للمؤمنين :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتي يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

وتنفيذاً لأمره - عليه الصلاة والسلام - سافر المهاجرون إلى أرض الحبشة ، وكان قوامهم ثمانين رجلاً وامرأة ومنهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد أرسل سيدنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى كتاباً يوصيه بهم .

ومن الفائدة أن ننقل هذا الخطاب مما رواه البيهقى - رضى الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة :

سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة ؛ فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه .

وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له . والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفر ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فاقدهم ، ودع التبحر ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى . والسلام على من اتبع الهدى ..

وقد تلقى سيدنا رسول الله ﷺ الرسالة التالية من النجاشي رضى الله عنه :

[بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله ﷺ .. من النجاشي الأصحم بن أبجر :

سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته . لا إله إلا الله هو الذى هدانى إلى الإسلام ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى (عليه السلام) ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا . وقرّبْنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وأرسلت إليك بأريحا بن الآصحم بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك ، أتيتك فقلت : يا رسول الله أشهد أن ما تقول حق] .

لم تهدأ ثائرة قريش عندما أيقنوا أن المسلمين قد حصلوا فى أرض الحبشة على مرفأ حنون ، وحصن حصين يدرأ عنهم أذاها ، ويحميهم من لظاها ، فدبروا أمرهم ليعيدوهم إلى مكة قسراً ليباشروا ضدهم أقسى أنواع العذاب . تلافياً لخطر تناميهم ، وخطر قوة شوكتهم فى المستقبل ، والذى لو تحقق لكان لقريش الذل والهوان ، وكان النصر للإسلام والمسلمين .

دبروا أمرهم فكلفوا سفيرين لهم تم انتقاؤهما من بينهم يجيدان الحيلة ويتمتعان بالدّهاء ، وهما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة ، وحملوهما هدايا ثمينة للنجاشي وبطارقته .

وقد نفّذ عمرو وصاحبه أوامر سادة قريش ، وسلما لكل بطريق هديته وأحاطوهم علماً بأن الذين أووا إليهم إنما هم من سفهاء القوم ، قد تركوا دين قومهم واعتنقوا ديناً غير دينهم ، وهذا الذى جرى منهم فيه احتقار لقومهم ، وهوان لأولى الأمر فيهم ، فعلى البطارقة إقناع ملكهم بأن يسلم هؤلاء السفهاء لهما ليرداهم إلى قومهم ، فهم لأمرهم أعلم ، وبشئونهم أعلى إحاطة ، وقد

ضمن الرجلان بذلك تأييد البطارقة لهما ، واقناعهم لملكهم بوجوب الاستماع إليهما وإجابتهما لما يطلبان .

وعند ذلك طلبا مقابلة الملك الذى سمح لهما بهذا اللقاء ، وبعد أن قدَّما الهدايا للملك قالا له .

[أيها الملك : إنه قد ضوى إلى بلدك منا سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلم بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه] .

فلما فرغ عمرو من هذا الخطاب ، وجد البطارقة الفرصة سانحة لتنفيذ ما تلقوا الرشاوى من أجله : فأيدوا عمرو وصاحبه على سند من القول ، أن قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وطلبوا من الملك تسليمهم لهما وردهم إلي قومهم .

ولكن الفطرة السليمة التى تتألق فى قلب الملك قد سلطت أضواءها على كلام كل من عمرو بن العاص والبطارقة ، فكشفت أمامه جراثيم المؤامرة الدنيئة بين عمرو بن العاص ممثلاً لحقد صناديد قريش والبطارقة المحبين للمال زينة الحياة الدنيا ، فعلى الفور كان ردّ الملك عدلاً يفيض من هذه الكلمات التى نطق بها فقال :

[لا أسلمهم إليهم ، ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتي أدعوهم فأسألهم عما يقول هذا فى أمرهم فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى] .

ولا يخفى على القارئ نور الفطرة السليمة الذى يسطع من كلمات الملك النجاشى ، ولا يغيب عن بصره صولجان العدل البادى للعيان فيما نطق به .

ثم أمر الملك باستدعاء المسلمين المهاجرين ، وكذلك الأساقفة إلى مجلسه وبدأ التحقيق موجهاً السؤال للمسلمين قائلاً :

* ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني (كان حتى هذه اللحظة نصرانيًّا) .

ولا في دين أحد من هذه الملل ؟!!

فجاءه الرد من جعفر بن أبى طالب يسطع نوره من فمه الطاهر ، وتفيح رائحته الزكية من صدره فقال :

- أيها الملك !!

كنا قوماً أهل جاهلية .. نعبد الأصنام ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيئ الجوار ويأكل القوى منّا الضعيف ، فكنّا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا لله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، فعدد عليه أمور الإسلام ، ثم قال : فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حُرم علينا ، وأحْلَلْنا ما أُحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك !!

قال النجاشي : هل معك مما جاء به شيء ؟ .

قال له جعفر : نعم . فقرأ عليه من سورة مريم ..

هذا ما كان فى الجولة الأولى :

أما الجولة الثانية : فقد جرت أحداثها كما يأتي :

شعر عمرو بن العاص بالفشل وخيبة الأمل في وصوله إلى هدفه ، وهو

الحصول على قرار من الملك العادل بتسليم هؤلاء المؤمنين له ، وردّهم إلي قومهم يفعلون ما يشاءون بهم فتفتق ذهنه عن حيلة توعدهم بها أنه عن طريق هذه الحيلة سيستأصل خضرائهم بالرغم من إشفاق صاحبه من تنفيذها .

وهذه الحيلة التى صمَّم عمرو على تنفيذها ، هى إخبار النجاشيّ أن المسلمين يقولون إن عيسى بن مريم عبد .

وبالفعل مثل هو وصاحبه بين يدى الملك قائلاً له :

« أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً فاسألهم عما يقولون فيه .

فما كان من جعفر بن أبى طالب إلا أن قال للملك : نقول فيه ما قاله الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ، فطلب منه تلاوته فقرأ عليه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ ﴾

(سورة مريم)

إلى أن تلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

(سورة مريم)

فما إن فرغ جعفر من تلاوته حتى نطر الدمع يتحدّر على وجنتى الملك حتي تخضل بها لحيته ، وهو ينشج نشيج من هزت مشاعره آيات الله ، مما ينبئ عن أن ينابيع الإيمان فى قلبه قد آتت ما عندها من أشعتها الدافئة ، وسطعت فى جبينه أضواؤها فسبحان من قال :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا توحدت مشاعر النجاشى أسكوباً واحداً من نور الإيمان أضاء قلبه ، وشعشع فى جبينه ، وفاض على لسانه كلمات مضيئة تنير لغيره على مرِّ الزمان طريق الهدى ، حيث قال ضارباً بيده على الأرض ، وآخذاً منها عوداً :

والله ما عدا عيسى بن مريم مما قرأت هذا العود ، ثم انصرف إلى المسلمين من أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ فقال :

[اذهبوا فأنتم الآمنون ، من سبّكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى جبلاً من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم] .

دخل النجاشى الإسلام من بابه الواسع ، باب العلم والحكمة ، وكان بهذا صادقاً مع الله صادقاً مع سيدنا رسول الله ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ وصادقاً مع نفسه حيث أوتى العلم من قبل منتظراً قدوم أشرف الخلق ﷺ بالحق نبيًّا ورسولاً وهادياً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

ولقد قرأت خبراً فى كتاب قيم صادر للدكتور أحمد فؤاد السيد أستاذ التاريخ بكلية آداب عين شمس اسمه :

(تاريخ الدعوة الإسلامية فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين) والناشر

مكتبة الدعوة بالأزهر - ١٠ شارع السيد الدواخلى أمام الباب الرئيسى لجامعة الأزهر الحسين بالقاهرة جاء فى ص ٥١٢ ما يأتى :

[فقد تحول النجاشى أصحمة بعد إشهاره إسلامه رسميًا سنة (٦ هـ) داعية إلى الإسلام : والطريف حقًا - وهو جدير بالاهتمام من ناحية أخرى - .

إن إسلام الصحابى الكبير عمرو بن العاص ، فاتح مصر وأول ولاتها فى الإسلام ، قد تم بأرض الحبشة بعد أن دعاه النجاشى المسلم أصحمة - وكانت تربطه بعمرو بن العاص علاقة صداقة قديمة لكثرة تردد عمرو إلى أرض الحبشة للسفارة بين قريش والنجاشى تارة ، وللتجارة تارة أخرى - فدعا النجاشى عمرو إلي الإسلام ، فأسلم عمرو على يد النجاشى سنة ٦ هـ وعاد إلى أرض الحجاز ، قاصداً المدينة لمبايعة النبى ﷺ على الإسلام ، فبايع النبى على الإسلام سنة ٧ هـ ، وقد حكى ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر وأخبارها ، خبر إسلام عمرو بن العاص بأرض الحبشة على يد النجاشى أصحمة ، وأورد هذا الخبر بطوله بعد أن أخرجه بسنده المتصل عن شيوخه المصريين عن عمرو بن العاص نفسه :

وأنقل هذا الخبر مطولاً من ص ٥١٣ من هذا الكتاب نفسه ، أورده المؤلف فى حاشية الصفحة ١ .

يقول ابن عبد الحكم فى ترجمة عمرو بن العاص التى استهل بها الباب الذى عنونه بـ« ذكر الأحاديث » .

عمرو بن العاص بن وائل السهمى : وهو أول أمير أُمّر على مصر فى الإسلام ولهم [أى أهل مصر] عنه أكثر من عشرين حديثاً منها ... حديث محمد بن إسحق عن يزيد بن أبى حبيب ، عن راشد مولى حبيب بن أوس الثقفى ، أن حبيباً حدثه ، أن عمرو بن العاص حدّثه قال :

لما انصرفنا من الخندق [غزوة الخندق] بين النبى ﷺ وقريش سنة ٤ - ٥ هـ] جمعت نفراً من قريش بينى وبينهم خاصة ، فقلت لهم :

تعلموا والله إني أرى أمر محمد يعلو ما خالفه من الأمور علوًّا منكراً ، فهل لكم في رأى قد رأيته ؟ .

قالوا : وما هو ؟ قال « قلت نلحق بالنجاشي ، فنكون عنده ، حتى ينقضي ما بيننا و بين محمد ، فإن ظهرت قريش رجعنا إليهم ، وإن ظفر محمداً قمنا عنده ، فلأن أكون تحت يد النجاشي أحبُّ إليَّ من أن أكون تحت يدى محمد ، قالوا : أصبت ، قال : قلت أجمعوا له أدما ، فإنه أحب ما يهدى إليه من بلادنا ، قال : ففعلنا ذلك ثم خرجنا ، فبينا نحن قد دنونا منه ، إذ نظرت إلى عمرو بن أمية قد بعثه رسول الله ﷺ إلى النجاشي ، قال :

فقلت والله هذا عمرو بن أمية قد بعثه محمد ، ولو قدمت بهداياى إلى النجاشي ، ثم سألته إياه فأعطانيه فقتلته ، فرأت قريش أنى قد أجزأت حين يقتل رسول محمد قال : فلما دخل عليه عمرو بن أمية وفرغ من حاجته ، دخلت عليه ، فحيّيته بما كنا نحيّيه ، فقال النجاشي :

مرحباً ، ما هديت إليّ يا صديقي .

قال : قلت : أيها الملك إنى قد رأيت ببابك رسول محمد ، وهو لنا عدو أعطنيه أضرب عنقه ، فإنه رسول رجل هو لنا عدو . قال فمدّ يده ، ثم غضب وضرب بها أنفه ضربة ، ظننت أنه قد كسره . قال : فوددت لو أني انشقّت لي الأرض فدخلت فيها فرقاً منه(خوفاً منه) ثم قال : تسألنى رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتي موسى ، أعطيكه لتقتله ؟ قال :

قلت : أيها الملك : إن ذلك لكذلك ؟ إنه يأتيه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى ؟ قال : نعم والذى نفس النجاشي بيده . ويحك يا عمرو !! فأطعني واتبعه .

والذى نفسي بيده ليظهرن هو ومن اتبعه على من سواهم ممن خالفهم ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال : قلت : أفتبايعني على الإسلام ؟ قال : نعم ، قال : فبسط يده فبايعني له ، فخرجت علي أصحابى ، وقد حال رأيي عما

كان عليه معهم . قال فانطلقت تهوي بى راحلتى ، حتي لقيت خالد بن الوليد . قال : أين يا أبا سليمان ؛ قال : أريد والله أن أذهب فأسلم ، فقد والله استقام الشأن ، واستبان الميسم ، قال : فقلت وأنا والله .. قال : فانطلقنا حتى جئنا رسول الله ﷺ ، فدخلنا عليه المسجد فتقدم خالد فبايعه ، ثم تقدمت فبايعت ، فقلت يا رسول الله : أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولم أذكر ما تأخر ، فقال رسول الله بايع يا عمرو ، فإن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان .. قبلها » .حدثنا أسد بن موسى ، وحدثناه ، يحيى بن أبى زائدة عن محمد بن إسحاق ، وحدثناه عبد الملك بن هشام عن زياد عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق ابن عبد الحكم - فتوح مصر ٢٤٨ - ٢٥٣ - وانظر أيضاً ابن هشام - السيرة النبوية ٢ - ٢٧٦ - ٢٧٨ - (فصل السلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد) ، ونصر الدين ابن هشام يطابق نصر بن عبد الحكم .

لقد - والله - فوجئت بهذا النبأ الذى أتي به هذا الأستاذ الجليل الدكتور أحمد فؤاد سيد فى كتابه « تاريخ الدعوة الإسلامية » ص ٥١٢ إلى ص ٥١٤ من أن الملك أصحمة نجاشى الحبشة قد دعا عمرو بن العاص إلى الإسلام ، وتذكرت ما قاله هرقل الروم لأبى سفيان بن حرب فى حواره معه : « وهكذا الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب » .

لقد سكب الله سبحانه وتعالى دفقة إيمان فى قلب هذا الرجل، صيّرته من أوائل المحبين لله ورسوله ﷺ وللإسلام ، مما دل علي أنه كان ينتظر إشراق هذا النبى العظيم وطلوع شمسه على شوق ، مما حصله من علم الكتاب ، مما جعل الأستاذ الدكتور فؤاد سيد يقرر فى كتابه المشار إليه فى ص ٥١٩ أنه - أى النجاشى أصحمة - كان أول وأسبق علماء أهل الكتاب ، زمن البعثة النبوية المحمدية تصديقاً بالقرآن واعترافاً بثبوت دلائل وإعلام النبوة للنبى ﷺ بصفته ونعته ، كما جاء فى الإنجيل .

٤ - المقوقس : حاكم مصر من قبل الدولة الرومانية يشهد بنبوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وتثبت الروايات الموثقة : أن المقوقس هذا قد تلقى كتاباً من سيدنا رسول الله ﷺ حمله إليه الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة ونص هذا الكتاب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ..

أما بعد ..

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة الأنبياء)

تقول الروايات ، فلما قرأه المقوقس أخذه فجعله فى حق من عاج وختم عليه (ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٤٥ - ٤٦) ويبدو من سياق الأحداث فى هذه الروايات أن هذه الرسالة قد فجّرت عند المقوقس معلومات استقاها من الكتب ، ومن أفواه أساتذته من علماء الدين المسيحى ، فلم يشأ أن يتعجلّ الرد على هذا الكتاب بالرفض أو القبول ، وأراد أن يبحث الموضوع بحثاً جيداً يضمن لملكه السلامة ، فتريَّث حتى تهيأ لبحث هذا الأمر مع الصحابى حاطب - رضى

الله عنه - حيث أرسل له في ليلة لم يكن لديه في ديوانه أحد إلا ترجمانه فقال لحاطب :

- ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها ؟ فإني أعلم أن صاحبك قد تخيّرك حين بعثك ، قال حاطب :

لا تسألني عن شيء إلا صدقتك . قال :

إلام يدعو محمد ؟ قال حاطب :

إلى أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، ونخلع ما سواه ويأمرنا بالصلاة ، قال : فكم تصلون ؟ قال :

خمس صلوات في اليوم والليلة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد .

وينهى عن أكل الميتة والدم . قال : من أتباعه ؟ .

قال : الفتيان من قومه وغيرهم .

قال : فهل يقاتل قومه ؟ قال : نعم .

قال : صفه لي . قال : فوصفته بصفة لم آت عليها .

قال بقيت أشياء لم أرك ذكرتها !..

في عينيه حمرة ، قَلَّ ما تفارقه ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزئ بالتمرات والكسر . لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم ، قلت : هذه صفته . قال :

كنت أعلم أن نبياً قد بقي ، وكنت أظن أن مخرجه الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله .. فأراه قد خرج في العرب ، في أرض فقر وبؤس . والقبط لا تطاوعني في اتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك ، وسيظهر على البلاد ، وينزل أصحابه بساحتنا هذه ، حتى يظهروا على ما ها هنا ، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً فارجع إلي صاحبك] .

ثم دعا كاتباً يكتب بالعربية فكتب :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام .

أما بعد :

فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيّا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وأهديت إليك بغلة لتركبها . والسلام » .

٥ - بحير الراهب :

يبشر بنبوة سيدنا محمد ﷺ :

وقصة هذه البشرى أو البشارة ، كما جاء بكتاب خاتم النبيين لشيخ العلماء الإمام محمد أبى زهرة فى الجزء الأول ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، تخلص فى أن بحيرى هذا كان راهباً بمدينة بصرى بالشام ، يعيش فى صومعة . وكان علي علم بالكتاب بالتوراة والإنجيل ، وكان من طبيعته أنه لا يخرج للقاء قوافل التجارة ، ولا يعرف أحوالها ، ولا استضافة من فيها ؛ لأن الرهبنة تطلب منه العزلة ، وهم لا يخرجون عن سنتها ولا يتحروْ بأنفسهم عن أحكامها ، وقوافل العرب تعودت على عدم لقائه هو بالذات .

وفى رحلة سيدنا رسول الله ﷺ مع عمه فى التجارة ، خرج هذا الراهب عن مألوفه ، إذ خرج من صومعته حيث رأى من هذه القافلة وجهاً مضيئًا ، وفتوة بادية عليه بظهرها شبابه ، وهو قد قرأ من كتبهم ما زوده بمعرفة أوصاف نبىّ هذا الزمان الذى بدت فى الأفق أمارات ظهوره .

فخرج من الصومعة ينشد هذا النبى المرتقب ، والرسول المنتظر ، وعندما نزلت القافلة بجوار صومعته بدأت أمارات النبوة تظهر على واحد من أعضاء هذه القافلة ، وهو أحدثهم سنا .

وضمن هذه الأمارات التى قرأها فى الكتب !

أولاً : رأى غمامة تظل القافلة أينما ساروا أو وقفوا .

ثانياً : إذا آووا إلى شجرة فإن فروعها تتجمع لتظل واحداً منهم بالذات .

وعزم على التعرف على ذلك الفتى المتسبب فى هذه الأمارات ، فأقام وليمة يكرم بها أعضاء القافلة ودعاهم إليها فأقبلوا عليها إلا واحداً هو ذلك الشاب الذى رمقه وحرص على أن يحضر الوليمة ؛ لأنه لم يقمها إلا من أجله ليتعرف عليه .

وتم له ما أراد وحضر سيدنا رسول الله ﷺ ! واحتفى بهم بحيرى احتفاء أثار دهشتهم التى عبر عنها أحدهم بقوله :

[والله إن لك يا بحيرى شأنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟.

قال بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وأحببت أن أكرمكم وأصنع لكم ما تأكلون منه كلكم ، فاجتمع القوم إليه ، ولم يتخلف إلا محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ لحداثة سنه ، وعند ذلك تبيّن لبحيرى أن ما يعنيه ، ليس بينهم ، فاستعلم منهم عن الذى تخلف، فقالوا له كلنا اجتمعنا ولم يغب واحد ينبغى له أن يحضر إلا غلام وهو أحدثهم ، وطلب منهم أن يحضروه .

وحضر سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فخصّه بحيرى بعناية فاحتضنه وأجلسه .

واستدعى بحيرى جميع الأوصاف التي جاءت في التوراة والإنجيل التى تسم شخص سيدنا رسول الله صلى الله ـ تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ ، وما تتمتع به شخصيته من مقومات تميزه عن غيره ، وتشهد له بأنه النبىّ الخاتم ورسول الإسلام الداعى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، فقد بادره بسؤاله بحق اللات والعزى أن يخبره عما يسأله ، فتلقى منه ما طمأنه على صدق فراسته وصدق علمه به برجائه عليه ـ الصلاة والسلام ـ ألا يذكر أمامه اسم اللات

والعزى معبِّراً عن بغضه إياهما بغضاً أشد ما يكون البغض ، فلما أقسم بالله سبحانه وتعالى وافقه ووعده بالإجابة عما يسأل ، وتعددت أسئلة بحيرى الفاحصة ، وأعقبتها إجابة سيدنا محمد ﷺ التي وافقت ما يصدره من معلومات استقاها من الكتب ، حتي إذا نظر إلى ظهر سيدنا محمد ﷺ ورأى خاتم النبوّة بين كتفيه أقبل على عمه أبي طالب يسأله عن صلته بهذا الغلام .. فأخبره أنه ابنه فرد عليه بما يفيد أن أباه لا ينبغي أن يكون حيّا ، أخبره أنه ابن أخيه ، فسأله عن أخيه قال إنه مات وأمه حبلى به ، فصدقه بحيرى ، وطلب منه أن يعود بابن أخيه إلى بلده وحذره من اليهود أن ينالوا منه شراً . وسرعان ما نفذ أبو طالب وصية بحيرى الراهب .

ورواية بحيرى ، وغيرها من الروايات التى تناقلها أهل الكتاب يعضد بعضها بعضاً فى إثبات التبشير بالنبىّ محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل ، وجميع أجيال أهل الكتاب قد ترقبوا ظهور هذا النبى الكريم ، كما سبق بيانه فى كلام هرقل الروم وكلام النجاشي وكلام المقوقس ، وغيرهم ، كما سيجئ :

وقد خبّر الله سبحانه وتعالى فى القرآ الكريم ببشرى سيدنا عيسى عليه السلام فى سورة الصف فى الآية ٦ :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الصف)

وما ردّد نبى الله عيسى عليه السلام هذه البشرى السعيدة إلا بعد أن قرأها فى التوراة ذلك الكتاب الذى نزل على نبى الله موسى عليه السلام ، ولذلك وصف نفسه بأنه مصدق لما بين يديه من التوراة ، ومن ضمنه هذه البشرى برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ﷺ .

والدليل على ما جاء فى سورة الأعراف من القرآن الكريم فى الآيتين ١٥٦ و ١٥٧ :

﴿ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومما يدل على أن هذا العهد الذى أخذه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أهل الكتاب أن يؤمنوا بهذا النبى والرسول سيدنا محمد ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ السياق القرآنى الذى يحكى قصة المعصية الكبرى التى اقترفها فريق من بنى إسرائيل باتخاذهم العجل إلها ، والذى تبدأ بالآية ١٤٨ من سورة الأعراف وينتهي بالآية ١٥٦ المذكورة والتي احتوت على بشرى التوراة بسيدنا رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وهذه الآيات تبدأ بوصف الجريمة ، وهى اتخاذهم العجل إلها من

دون الله الآية ١٤٨ ، ثم شعورهم بالذنب وندمهم وحسرتهم فى الآية ١٤٩ وعودة سيدنا موسى عليه السلام من موعده الذى واعده الله به ، وغضبه وأسفه واحتجاجه الشديد علي ما اقترفوه من جريمة وعتابه وحنقه على أخيه نبى الله هارون عليهما السلام ، واعتذار هارون لأخيه الآية ١٥٠ ودعاء نبى الله موسى لله أن يغفر له ولأخيه هارون عليهما السلام ، والوعيد بعذاب من الله ينزله الله عقوبة غلي رءوس الذين اتخذوا العجل ، غضباً من الله عليهم ، وذلة فى الحياة الدنيا يجبه بهما موسى هؤلاء العاصين الآية ١٥٢ وتبشير التائبين بمغفرة من الله ورحمة الآية ١٥٣ والحالة النفسية التى طرأت علي نبى الله موسى من هدوء بعد الغضب وابرازه للألواح فيها الشريعة الرحمانية ١٥٤ ، ثم اختيار سيدنا موسى لسبعين رجلاً ضمهم إليه، ودعوته لله وتسليمه لله وطلب عفوه ورحمته ١٥٥ وأن يكتب الله له ولهؤلاء الذين اختارهم وفى هذه الدنيا حسنة رفى الآخرة أيضاً بسبب عودتهم إلى الله ، وإنذار الله سبحانه وتعالي بعذاب يصيب به من يشاء منهم حكمًا عادلاً ، وأما رحمته فيشير بها ، واسعة تسعُ كلهَ شيء ، ويخص بها الذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياته يؤمنون الآية ١٥٦ والتعريف بهؤلاء الذين خصّهم بهذه الرحمة .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومن هذا يتبين بجلاء بروز هذه الحقائق :

أولا : إن التبشير ببزوغ شمس الهداية الربانية سيدنا محمد ﷺ يحكم على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ورد فى الوثيقتين المقدستين التوراة والإنجيل ، وهما الكتابان اللذان نزلا على نبى الله - موسى عليه السلام - ، وعلى نبى الله عيسى عليه السلام .

ثانيا : إنه عندما دعى نبىّ الله موسى - عليه السلام - ربه طالباً العفو والمغفرة بعد أن أعلن تسليمه لله عز وجل ، وطلب من الله أن يكتب له ولمن اتبعوه حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة أجابه الله - سبحانه ؛ وتعالى - بأن العذاب عدله ، ينزله بمن يشاء وأن العفو رحمته ورحمته وسعت كل شىء وإنه يخص بها الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم يؤمنون بآياته فى التوراة ، وهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأكد الله وعده باعاده بيان أوصاف هؤلاء الفائزين برحمته ، بأنهم الذين آمنوا بهذا النبى وهذا الرسول :

﴿ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

دون من يخالفهم من قومهم .

وكل هذه الأوصاف التى وصف بها الله النبى والرسول الموعود ، تنطبق على سيدنا محمد وهو النبى الأمى المبشّر به فى التوراة والإنجيل صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

ثالثاً : هذا العهد الذى أخذه الله على نبيه موسى - عليه السلام - ، وعلى قومه الذين اختارهم ، هو عهد أبدى - يسرى بوعده ووعيده - على جميع أهل الكتاب من عهد نبى الله موسى إلى يوم القيامة ، فمن نفذ حكم الله بالإيمان بهذا النبىّ صلى الله - تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - نجا ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وبالطبع فهو من الهالكين .

رابعاً : أن هذا العهد الذى أخذه الله على نبيه موسى وقومه يشمل سيدنا عيسى - عليه السلام - ، وقومه ومن اتبعه ؛ فإنه جزء من الميثاق السابق أخذه على جميع النبيين والمرسلين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، وهو الوارد فى سورة آل عمران فى الآيتين (٨١ ، ٨٢) .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك أجد لزاماً عليَّ نقل الآيات من ١٤٨ إلى ١٥٩ من سورة الأعراف حتي تتضح الحقائق فى ذهن القارئ فينصف الحقيقة ، وتتضح الحقيقة فى ذهن المخالف فينصفها من نفسه ليرد معنا على أراجيف چورج بوش مؤلف الكتاب :

يقول تعالى :

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى

نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى
وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟
ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ

فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وفى رأيى أن لقاء سيدنا رسول الله ﷺ بسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام فى ليلة الإسراء والمعراج ؛ إنما كان فرصة لتنفيذهما هذا العهد الذى احتوته هذه الآيات ، وتأكيده ليكون حجة على أهل الكتاب اليهود منهم والنصارى الذين سيتلقون أخبار الإسراء والمعراج ، فيبايعون الرسول النبىّ الأمىّ محمداً ﷺ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل - كما سيأتى في حينه - والله أعلم .

والسبب وراء تمسكى بهذه الشهادة الصادرة عن هؤلاء الذين ذكرتهم ، هو أنهم من علماء أهل الكتاب من النصارى الذين ينتمون إلى دين المسيح الذى يدين به چورچ بوش مؤلف الكتاب ، وأنهم جميعاً عاصروا سيدنا محمداً رسول الله ﷺ وقد توفرت لديهم معلومات كافية يستطيعون عن طريقها الحكم علي دعوي نبى الله ورسوله سيدنا محمد ﷺ وكانوا أقرب عهداً من چورچ بوش بالعلماء الحاملين للوصية ، فهم بذلك يكونون أولي بالتصديق ، ثم إنهم قد اتصل بهم سيدنا رسول الله ﷺ عن طريق الرسائل المتبادلة بينهم وبينه ، وبهذا الاحتكاك يكونون أقدر من چورچ بوش على تقييم الدعوة الإسلامية وعلى التعرف على سيدنا رسول الله - صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه - وسلم لاسيما وأنهم تلقوا المعلومات عن شخص سيدنا محمد ﷺ ودعوته من مصادرها الوثيقة .

أما چورچ بوش نفسه ، فإنه لا يستطيع الحكم على شخص هذا النبى الكريم ودعوته ؛ لأن المعلومات التى وصلته ، إمّا أنها مشّوشة ، أو مفتراه ، بينما

المعلومات الحقيقية قد حجبتها الكنيسة عن جميع المثقفين فى أوروبا حجباً لم يستطع چورچ بوش اختراقه .

وقد شكى هو نفسه من فقر هذه المعلومات وافتقاره لها ، مما جعله يتخبط في بحثه تخبطاً يجعل دحض جميع الأراجيف فى هذا الكتاب أمراً سهلاً ، وحجب الحقيقة المحمدية وحجب حقيقة الإسلام من جانب الكنيسة كان مثار شكوى من كثير من المثقفين فى أوروبا ، أذكر منهم :

أولاً : دكتور موريس بوكيه : أوبوكاى :

يقول هذا العالم فى كتابه :

[القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم الحديث] الذى سماه « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة - ما يأتى :

١ - فى المقدمة قال بالحرف الواحد :

[وهكذا فإن المسيحية قد اعتمدت التوراة العبرية ؛ ولكنها زادت عليها بعض الإضافات ، غير أن المسيحية لم تقبل كل ما انتشر من كتابات تستهدف تعريف الناس برسالة عيسى ، ولذلك قامت الكنيسة - بإجراءات - حذف هامة جداً لعدد كبير من الأسفار التى كتبت لتعريف الناس بحياة المسيح وتعاليمه ؛ وهكذا فإن المسيحية لم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات ، وكان من أهمها الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسيا ، غير أن المسيحية (بدورها) لا تعترف بأى وحي جاء بعد المسيح وحواريّيه ؛ ولذلك فهي تستبعد القرآن .

أما القرآن ، وقد أتي بعد المسيح بقرون ستة ، فإنه يتناول معطيات عديدة جاءت فى التوراة العبرية والأناجيل ، ولذلك فهو يذكر التوراة والإنجيل كثيراً والقرآن يوصي كل مسلم بالإيمان بالكتب السابقة عليه ، انظر سورة النساء الآية ١٣٦ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ (سورة النساء)

وهكذا فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التى يحتلها رسل الله فى تاريخ التنزيل - مثل نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء خاصة المسيح الذى يحتل مكانة بارزة بينهم - والقرآن قبل الأناجيل يقدم ميلاد المسيح كفعل خارق (يفوق الطبيعة) .

ويخص بالذكر أيضاً مريم ويطلق على السورة ١٩ اسمها (سورة مريم) .

والواقع أننا ملزمون بملاحظة أن المعطيات الخاصة بالإسلام مجهولة عموماً فى بلادنا الغربية ، ولا يدهشنا ذلك إذا تذكرنا الطريقة التي اتبعت فى تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان ، وكيف فُرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام .

ونضيف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام ، دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمداً ﷺ قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء .

وزيادة على ذلك فهناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين ، ولقد خبرت هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة فى القرآن والتوراة معا فى موضوع واحد ولاحظت أن هناك رفضاً باتاً للنظر بعين الاعتبار ولو لمجرد

التأمل فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة كان الرجوع فى ذلك إلى القرآن يعنى الاعتماد على الشيطان ..] إنتهى كلام موريس بوكيه .

هذه شهادة رجل من كبار المثقفين فى الغرب ، يسلط الضوء علي موقف الكنيسة فى تلك الفترة ، وتلقى بمسئولية حجب حقيقة الإسلام وحقيقة نبى الإسلام ﷺ عن مثقفى أوروبا طيلة العصور السالفة ومما لا شك فيه أن چورچ بوش مؤلف الكتاب - موضوع هذا النقد - هو رغم أنفه من ضحايا موقف الكنيسة هذا والفرق بينهما أن الفيلسوف موريس بوكاى قد استعمل عقله فاهتدى للإسلام ، وأما چورچ بوش فإنه ركن إلى عاطفته المشوهة ، فهوت به الريح إلى مكان سحيق على صفحات كتابه هذا الذى تحول إلى شهادة زور .

ثانياً : أما العالم الفيلسوف الحكيم رجاء جارودى فهو يقول رأيه فى صراحة ووضوح فى الثقافة الغربية ، حيث نقل عنه كل من الأستاذ الدكتور عبد العزيز شرف والسيدة أمينة الصاوى فى كتابهما « رجاء جارودى وحضارة الإسلام - مكتبة مصر ٣ شارع كامل صدقى - الفجالة - فى ص ٣١ .

إن الثقافة الغربية ثقافة مشوهة مبتورة بعيدة كل البعد عن الواقع الفعلى المُعاش ، والجوهر الأساسى للحياة - وأنها استمدت بعض مقوماتها من الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية والبعض الآخر من الديانتين اليهودية والمسيحية ، وأنها أغلقت أبوابها ونوافذها الفعلية ما يزيد علي الثلاثة عشر قرنا فى وجه الإسلام وبذلك حرمت من نوره الوهاج ، ولو أنها تركت أبواب ونوافذ عقلها مفتوحة لاستنارت واستراحت واستطاعت أن تصل إلى الفهم الصحيح لمعني الوجود الإنسانى ، وإلى معرفة الله الواحد الأحد ، والعمل بمنهاج الحياة السليم - ولا استطاعت بذلك أن تجنب الملايين هذه الحياة التافهة التى يعيشونها بلا معنى ولا هدف].

ثم يقول :

[لا أمل فى إنقاذ الغرب من الانقراض والتلاشى إلا بأن يعى دور الحضارات الأخرى ، ويعترف أنه مدين لها ، ويعمل على تغيير موقفه العنيد المتعنت من الإسلام] .

ويقول :

[الإسلام ليس كفراً كما صوره المغرضون القدامى فى الحروب الصليبية ، وليس إرهاباً كما صوره المغرضون الجدد أثناء حرب تحرير الجزائر ، والإسلام ليس أثراً فنياً يشاهده المستشرق ، ثم يصدر عليه أحكاماً مسبقة وظالمة إنه الدين العالمي العملي الذى يقدم للإنسان نظاماً كاملاً شاملاً لحياة إنسانية كريمة بكل مقوماتها واحتياجاتها ، وليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن دنيا الناس] .

ص ٣١ من الكتاب .

وبهذا يكون رجاء جارودى قد شارك موريس بوكاى الرأى الذى يقول بحق أن الكنيسة أفلحت فى حجب حقيقة الإسلام وحقيقة نبى الإسلام ﷺ عن كل المواطنين بما فيهم المثقفين في أوروبا طيلة العصور السابقة ، ومن هؤلاء المثقفين چورچ بوش الذى لم يحصّل من كنيسته إلا على هذه المعلومات الفاسدة التي طفحت بها صفحات كتابه ـ فجاءت كلماته مقززة ؛ لأنها بنيت على الزيف والتزييف وقلب الحقائق .

ومن السهل أيضاً أن أقدم شهوداً مثل ورقة بن نوفل الذى شاهد هذا النبى الكريم وشهد له بالنبوة بعد أن قرأ عليه ما نزل به جبريل عليه من القرآن وهو الذي يعرف اللغة العبرية ودرس التوراة والإنجيل واعتنق النصرانية النقية ، فلما سمع القرآن منه سرعان ما أقر له بالنبوّة والرسالة لأن ما تلقاه منه هو الناموس الذى أنزل على نبى الله موسى عليه السلام ، بل إنه تنبأ له بما سيلقاه من تعنت قومه وعنادهم ، ورفضهم لدين الإسلام حتي إنهم سيخرجونه من مكة أحب بلاد

الله له ، فلما سأله عما إذا كانوا حقيقة سيطردونه ؟ أخبره أنه ما من نبى أتى قومه بمثل ما جاء قومه إلا أخرجوه (البخارى) .

وأما الوثيقة التي يطمئن إليها كل باحث فهي شهادة السيدة خديجة التى هدأت من روعه بعد نزول الوحى عليه وحين عودته إليها فقالت له كلمات عذبة حلوة : « كلا والله نا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الْكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وعندى هذه الشهادة الصادرة من أمنا أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - تزن فى نظرى شهادة أمة بأسرها ، لأنها زوجة سيدنا رسول الله ﷺ التى عاملته قبل الزواج وبعده واكتشفت فيه ، وعن قرب كنوز أخلاقه الكريمة التي نهلت هى منها ، واختزنت فى فؤادها مواقفه العظيمة ، حتى دخل فى روعها يقين بأنه نبىّ الله ورسوله قبل أن تسمع منه ما سمعت من قصته مع جبريل - عليه السلام - ، وشهادة زوجة فى مثل كرامة هذه السيدة الجليلة لزوجها بتوفر هذه الخصال فيه : تعلو على كل شهادة تصدر من إنسان : آخر فالزوجة تعرف من زوجها ما يكون مجهولاً من الآخرين ، وهذا ما جعلنى اعتبر شهادتها تعدل شهادة أمّة بأسرها - رضى الله عنها وأرضاها - .

ويعلو كل ذلك شهادة الله - سبحانه وتعالى - وهو خير الشاهدين ، وقد تعددت هذه الشهادة السامية فى أكثر من موقع فى القرآن الكريم نذكر منها :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾
(سورة البقرة)

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الفتح)

وإن الثابت من القرآن الكريم لدى المسلمين : أن مصدر الكتب الأربعة واحد فنستطيع أن نقول مطمئنين إ: ن هذه الكتب الأربعة تجتمع فى كتاب واحد هو كتاب الله - سبحانه وتعالى - نزل على نبى الله موسى - عليه السلام - جزء منه باسم التوراة التى تنطوى على شريعة تتفق وظروف نزولها وتعالج المشاكل فى العقيدة والعادات والتقاليد ، وتصلح النفوس وتهدى القوم الذين أنزلت عليهم ، وتتضمن القواعد الكفيلة بإصلاح الدنيا والدين بالقدر الذى يتلاءم مع المرحلة التى يعيشها اليهود فى أبان نزولها .

وأما الإنجيل : فهو جزء من هذا الكتاب يعالج روح الإنسان وينقذه من وطأة تأثير المادة على الأداء الإنسانى بحيث يحرر الروح من الشهوات بقمع هذه الشهوات والإعلاء من قدر الروح ، التي يخرجها من أسرها لتنشر على الأرض أزهار الحب والسلام ، وهذا ما كان يحتاجه الناس إبان نزول الإنجيل .

وأما الجزء الأخير من هذا الكتاب العام الشامل : فهو القرآن الكريم الذى يتضمن جميع الأحكام التى تصلح الإنسان وتصلح دنياه ودينه ، ودنياه وآخرته وتضْمَن السعادة للإنسانية كلها ، ولكل إنسان مهما اختلفت أعراقه وأجناسه ، وألوانه وبيئاته ، فالكل مستهدف من أحكام القرآن بإحداث الصلاح والإصلاح

والسعادة فى الدين والدنيا إلى يوم القيامة : أى أن القرآن آخر أجزاء كتاب الله الشامل الكامل العام وموضوعه الهدى للناس جميعاً ، وللإنسان كافة .

وفى ضوء ما تقدم فإن الإسلام هو دين البشرية كلها من بدء نشأتها إلى نهاية مطافها فالكل مسلمون :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

(سورة آل عمران)

فالناس كل الناس مطالبون أن يسلموا لله رب العالمين .

وفى هذا الشأن تلقى المسلمون آيات القرآن الكريم التى تجمع هذه المبادئ كما يأتى فى سورة النساء :

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا
هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ
هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ
ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ
فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ
بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ
قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن
لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥
وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ
ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ
يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦ وَلۡيَحۡكُمۡ
أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا
عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة المائدة)

وهذه الآيات كلها من سورة النساء ومن سورة المائدة : تؤكد تماماً على المبادئ الآتية التى تزرعها فى وجدان جميع المتدينين من اليهود والنصارى والمسلمين وهذه المباءئ هى :

* وحدانية الله - سبحانه وتعالي - وتفرده بالألوهية والربوبية .

* وحدة الكتاب المنزل من عند الله لهداية البشر ، فهو عند اليهود التوراة والزبور وصحف موسى ، وعند النصارى الإنجيل ، وعند المسلمين القرآن الكريم ، ويجب علي الجميع الإيمان بذلك .

* إن هذا الكتاب فى جميع أجزائه من التوراة والزبور والإنجيل والقرآن منعوت بأنه هدى ونور وموعظة للمتقين ، والدليل على ذلك فى حق التوراة والإنجيل تلك الآيات الواردة فيما سبق وبالنسبة للقرآن الكريم قول الحق - عز وجل - فى سورة البقرة :

أولاً : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾
(سورة البقرة)

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (سورة البقرة)

ثانياً : سورة يونس : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

ثالثاً : سورة الشورى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فوحدة المصدر الكتابى ووحدة الكتاب هما ما جعل كل نبى من هؤلاء النبيين صلوات الله وسلامه عليهم : يصدق ما جاء به الآخر من كتاب .

فنبى الله عيسى - عليه السلام - صدّق ما جاءت به التوراة ونبى الله محمد ﷺ صدق ما جاء فى التوراة والإنجيل والمسلمون صدّقوا ما جاء فى التوراة وما جاء فى الإنجيل مصدقين على نبوّة نبى الله موسى - عليه السلام - ونبوة نبى الله عيسى - عليه السلام - ونبوة نبى الله - محمد عليه الصلاة والسلام - ، وعلى نبوة نبى الله داود - عليه السلام - وعلى نبوة ورسالة جميع الأنبياء والرسل بشهادة التوراة والإنجيل والقرآن . ونبدأ بالقرآن :

سورة البقرة - الآية ٢٨٥ :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

انظر أيها القارئ الكريم : ليس هناك ما هو أفصح من هذا بيانا لوحدة الدين ووحدة المشرِّع لأحكامه ، ووحدة المقصود من ورائه ، وحدة لصف الداعين إليه من لدن نبى الله آدم ـ عليه السلام ـ إلى النبى الخاتم ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً ـ .

وانظر كيف ختم هذه السلسلة النورانية من نسب الإسلام الحنيف بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ آمرا إياه بالاقتداء بهدى هؤلاء الأنبياء الأعلام ، وهؤلاء الرسل الكرام .

وهذه إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى تألقت بها الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة المؤمنون)

والآية ٩٢ من سورة الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

نبّئني بربك أيها القارئ الكريم !!

هل قرأت أو سمعت تعبيراً عن وحدة النبوة والأنبياء والرسالة والرسل فى مستوى هذا المسلسل المتماسك الرّفّاق النابع من كل ما قرأت من هذه الآيات الوضاءة فى هذه السور الكريمة ؟ ليس كمثل هذه الصياغة فى الوجود كله ، وليس هناك ما يعبر عن وحدة صف الأنبياء والرسل ، بمثل هذه الكلمات الفاصلة الدافئة القوية التأثير ، وما إن يتلوها الإنسان حتى يقع تحت سلطانها تقوده إلى ما تريد فينقاد لها السعيد ويجافيها الشقى ، لأنها لا ينقاد لها إلا المؤمن ذو البصيرة المضيئة ولا يعصاها إلا ذلك الشقى ؛ المقلق القلب ، المظلم الوجدان ، إننى عندما تابعت السير على ضوءها واقتربت من لآلئها راعنى أننى رأيت جميع هؤلاء الأنبياء والمرسلين نبيّا واحداً يقول كلاماً واحداً ويقرأ من

كتاب واحد ، وإن تعددت أسماؤهم واختلفت أزمنة وأمكنة رسالتهم ، فكلهم خاطبوا أقوامهم بخطاب واحد فى كلمة واحدة هى التى فى سورة الشعراء :

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾
(سورة الشعراء)

ولعل هذه المعاني قد برقت فى قلب أحد سادتنا العلماء الأبرار ، والأئمة الاعلام وهو الإمام الكريم الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز ، فكشفت له من مظاهر وحدة المصدر ، ووحدة النبوة ، ووحدة الرسالة ، ووحدة الكتاب التي تتجلى في التوراة والقرآن .

وفى الإنجيل والقرآن : فجمع من الآيات من كل منهما ما يجد له تصديقاً فيذالقرآن الكريم ، فى الجدول المبين فى الصفحات التالية ، وقد نقلتها من كتابه : « مدخل إلى القرآن الكريم ، عرض تاريخى وتحليل مقارن (دار القلم) نشر دار آفاق الغد ٢ شارع شريف ـ القاهرة ص ٩٣ وما بعدها :

* * *

وهذه رؤيته تتمثل فى الجداول الآتية

التوراة • القرآن الكريم

القـــرآن الكريم	التـــوراة
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (الإسراء : ٢٣)	(سفر الخروج الفصل العشرين) لا يكن لك آلهة أخرى أمامى
﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ (الحج : ٣٠)	لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة
﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ (البقرة : ٢٢٤)	لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء : ٢٣)	أكرم أباك وأمك
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء : ٢٩)	لا تقتل
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور : ٣٠ ، ٣١)	لا تزن
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة : ٣٨) ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾... (الممتحنة : ١٢)	لا تسرق
﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج : ٣٠)	لا تشهد على قريبك شهادة الزور
﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾	لا تشته بيت قريبك ... ولا شيئاً مما لقريبك

التوراة	القرآن الكريم
لا تقبل خبراً كاذباً (خروج ٢٣ : ١)	إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (النور : ١٩) وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا (الحجرات : ١٢)
لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر (خروج ٢٣ : ٢)	وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (المائدة : ٢)
لا تحاب مع المسكين في دعواه (خروج ٢٣ : ٣)	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا (النساء : ١٣٥)
ساعد غيرك	وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ (المائدة : ٢)
كـــالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم (لاوين ١٩ : ٣٤)	وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (النساء : ٣٦)

التـــوراة	القـــرآن الكريم
افتح يدك لأخيك المسكين والفقير فى أرضك (تثنية ١٥ : ١١)	وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ (المعارج : ٧٠)
لا تضطهد الغريب وتضايقه (خروج ٢٢ : ٢١)	وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (النساء : ٣٦)
لا تسىء إلى أرملة ما ولا يتيم (خروج ٢٢ : ٢٢)	وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ (النساء : ١٢٧)
	فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (الضحى : ٩)
لا ترتكبوا جوْرًا فى القضاء (لاوين ١٩ : ١٥)	وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (النساء : ٥٨)
ابتعد عن كلام الكذب (خروج ٢٣ : ٧)	وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ (النساء : ١٠٧ ، ١٠٨)

القرآن الكريم	التوراة
وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ (آل عمران : ١٣٤)	لا تنتقم (لاوبين ١٩ : ١٨)
وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ (المطففين : ١-٣)	لا ترتكبوا .. لا فى القياس ولا فى الوزن ولا فى الكيل (لاوبين ١٩ : ٣٥)
وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا (الحشر : ١٠)	لا تحقد على أبناء شعبك (لاوبين ١٩ : ١٨)
وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ (آل عمران : ٧٩)	كن قديساً طاهراً
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ (الحشر : ٩)	تحب قريبك كنفسك (لاوبين ١٩ : ١٨)
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ (البقرة : ١٦٥)	فتحب الرب إلهك من كل قلبك (تثنية ٩ : ٥)

التوراة	القرآن الكريم
طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات (متى ٥ : ٣)	زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ (البقرة : ٢١٢)
	زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ (آل عمران : ١٤)
طوبى للحزانى لأنهم يتعزون (متى ٥ : ٤)	وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ (البقرة : ١٥٥)
طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض (متى ٥ : ٥)	وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ (آل عمران : ١٣٣)
طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون (متى ٥ : ٦)	أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ (الجاثية : ٢١) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ (المطففين : ٢٩)

التــوراة	القـــرآن الكـريم
	فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ (المطففين : ٣٠)
طوبى للأنقياء القلب (متى ٥ : ٨)	إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (الشعراء : ٨٩)
	مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ (ق : ٣٣)
طوبى لصانعي السلام (متى ٥ : ٩)	لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ (النساء : ١١٤)
طوبى للمطرودين من أجل البر (متى ٥ : ١٠)	أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ (البقرة : ٢١٤)
	لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ (آل عمران : ١٨٦)

التــوراة	القــرآن الكريم
طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون (متى ٥ : ٧)	ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ (البلد : ١٧ ، ١٨)
ليس فحسب « لا تقتل » وإنما لا تغضب أخيك وتقول له « رقا » . أو « يا أحمق » (متى ٥ : ٢١-٢٢)	وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ (آل عمران : ١٣٤) وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ (الشورى : ٣٧)
فإذا قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك واذهب أولا اصطلح مع أخيك . (متى ٥ : ٢٢-٢٤)	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ (الحجرات : ١٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ (الأنفال : ١)
	وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ (المائدة : ٢٧)
قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . (متى ٥ : ٢٧-٢٨)	قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ (النور : ٣٠ ، ٣١)

التــوراة	القـــرآن الكريم
قـد سـمـعـتـم ... لا تحنث وأمـا أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة . (متى ٥ : ٣٣ ٣٤)	وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَٰنِكُمْ (البقرة : ٢٢٤)
سـمـعـتـم أنه قـيـل تحب قـريبك وتبـغض عـدوك ، وأمـا أنا فـأقـول لكم أحبوا أعداءكم .. (متى ٥ : ٤٤) احسنوا إلى مبغضيكم	هَٰأَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ (آل عمران : ١١٩) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ (الرعد : ٢٢) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (فصلت : ٣٤)
وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم (متى ٥ : ٤٤)	لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ (التوبة : ٢٨)
إن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصعنون (متى ٥ : ٤٧)	وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ (الفرقان : ٦٣)
	لَّا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ (الممتحنة : ٨)

التــوراة	القــرآن الكريم
اعط الذي يطلب منك ، ولا تول ظهرك لمن يريد أن يقترض منك .	لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ (البقرة : ١٧٧) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ (الماعون : ٧)
احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس (متى ٦ : ١)	ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ (الماعون : ٦)
إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي (متى ٦ : ٥)	إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ (النساء : ١٤٩) وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ (النور : ٢٢)
لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض (متى ٦ : ١٩)	وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ (الفجر : ١٩ ، ٢٠)
بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء (متى ٦ : ٢٠)	مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ (الشورى : ٢٠)
لا يقدر أحد أن يخدم سيدين (متى ٦ : ٢٤)	ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا (الزمر : ٢٩)

القــرآن الكريم	التــوراة
وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ (العنكبوت : ٦٠)	لا تهتموا لحياتكم ... انظروا إلى طيــور السـمــاء ... وأبوكم السماوى يقوتها (متى ٦ : ٢٥-٢٦)
لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ (الحجرات : ١١)	لا تدينوا ... ولماذا تنظر إلى القذى الذى فى عين أخيك وإما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها . (متى ٧ : ١-٣)
فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (الأعلى : ٩)	لا تعط القدس للكلاب (متى ٧ : ٦)
وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقرة : ١٨٦)	اسألوا تعطوا (متى ٧ : ٧)
وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ (غافر : ٦٠)	
وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ (البقرة : ٢٦٧)	فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هذا أنتم أيضاً بهم (متى ٧ : ١٢)

التــوراة	القــرآن الكريم
	وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ (النساء : ٩)
ادخلوا من الباب اليق — (متى ٧ : ١٣)	فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (البلد : ١١)
احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (متى ٧ : ١٥)	وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ (البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦)

هذه بعض النصوص التى وردت فى كل من التوراة والإنجيل (العهد القديم والعهد الجديد) وكلها تلتقى مع نصوص القرآن الكريم التقاء مصادقة على أن النبع واحد ، والدين واحد ، وهذه النصوص الواردة فى التوراة والنصوص التى جاءت فى الإنجيل ، لعلها قد نجت من عبث العابثين الذين حرفوا ما شاءت لهم شياطينهم أن يحرفوا من النصوص التى تتعلق بالعقيدة ، وتلك التى تتحدث عن النبى محمد ﷺ ودين الإسلام . بقيت النصوص التى احتوتها هذه الدراسة لحكمة عند الله لعل منها أن تبقى دليلاً ساطعاً على وحدة المصدر ووحدة الكتاب ووحدة الدين الذى دعى إليه جميع الأنبياء والمرسلين الذى تتلألأ به الآية الكريمة رقم ١٨ ، والآية رقم ١٩ من سورة آل عمران :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

لكن رسول الإسلام سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ : أظهره الله على حقيقة الدين وحقيقة النبوة والرسالة ، قال وعلم المؤمنين أن يقولوا بأمر الله :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

فرح سيدنا رسول الله ﷺ ، وفرح المسلمون معه بوحدة المصدر ووحدة الكتاب ووحدة الدين ؛ لأنهم وجدوا فى ذلك سعادة البشرية وخلاصها من آفات التعصب والعنصرية ، وأمراض الفرقة والتمزق ، والالتقاء المحمود على كلمة واحدة تجمع شتات الإنسانية ، وتلم شعث مسيرتها على توجه واحد فى العقيدة ، والشريعة والأخلاق ، وكل ذلك ضمان لسعادتها وحياتها حياه طيبة ، فى سلام وأمن وحبّ ، وبهذا ينجح المجتمع العالمى فى نبذ الصراع ، وطرد شيطانه من دنياه ، ويتفرغ تماماً لعبادة الله - سبحانه وتعالى - ، وفعل الخير ، وكساء الأرض بثوب الجمال ، وحسن محاورته لها لتخرج ما فى باطنها من خيرات ياتحقق الأمن للإنسان فى كل شأن من شئون حياتها ، من طعام وشراب وكساء ونمو نفسي وعاطفى وبدني وباختصار يطعم الإنسان من جوع ويأمن من خوف ، فلا يكون عبداً إلا لله رب العالمين ، فلما أشرقت هذه الآمال من أبراجها فى كلمات القرآن الكريم أمام النبى الكريم الرءوف الرحيم محمد - عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم - تلى على أهل الكتاب الآية الكريمة رقم ٦٤ من سورة آل عمران :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

أنظر معى أيها القارئ الكريم :

سترى معي إشراقة السلام والمسالمة والموادعة والاحترام والتودد ، يأخذ ضوؤها الوديع الهادئ بالأبصار ، من خلال الكلمات الجميلة الودودة و الدفاقة برحيق السلام ، وشهد الأمن وعطر الوفاق :

لا صراع ، لا طغيان ، لا إرهاب ، لا تخويف :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونحن نهتف فى أذن چورچ بوش ، ومعه الحاقدون من المستشرقين والمتعصبين من رجال الأديان قائلين لهم :

﴿ أشهدوا بأنا مسلمون ﴾

حادث الإسراء والمعراج

في الفصل السابع من الكتاب : تعرض الكاتب لحادث عظيم يحتل في مسيرة سيدنا محمد بؤرة من بؤرها النُّورانية التى تهتز لها مشاعر المؤمنين في حياته ﷺ وبعد وفاته ، وإلتحاقه بالرَّفيق الأعلى من الجنة .

وفي تَعَرَّض المؤلف - چورچ بوش - لهذا الحادث الذى يعد مفصلاً قوياً من مفاصل الدعوة الإسلامية ؛ لم يسلك المسلك العلمي الذي تعود عليه العلماء الجادون المجدون في البحث ، وإنما استغل ما اتصف به هذا الحادث بالروعة والغرابة والطرافة والإعجاز الإلهى الذى خرق الله به نواميس الكون ، والقوانين التي يسير عليها من بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فراح يحكى الوقائع حكاية أسطورية تدل - مرة أخرى - على عدم استعداده العلمى ، وتدل على افتقاره للمعلومات التى تعطى بحثه الثراء والخصب وتضفى عليه من الجدية والحيدة والنزاهة ما تجعله مقبولاً لدى المخاطب ، بحيث يكون أهلاً للرد عليه .

وإنى أعزو ، وهذا الخروج عن آداب البحث العلمى الذى تعوَّدنا على معايشته فى هذا الكتاب إلى جهل كاتبه من ناحية ، وإلى عواطفه السلبية تجاه سيدنا محمد ﷺ ودينه الإسلام ، وأعزوه أيضاً إلى تعصبه المتأجج ناراً فى قلبه تحرق أزهار الحق والحقيقة فيه .

ومع يقينى بأن قصد الكاتب ينحصر فى إثارة نزعة التعصب فى قومه ، وإذكاء نار الخصومة بينهم وبين الإسلام ورسول الإسلام ﷺ ، ويشهد بذلك طريقة تقديمه لهذا الحادث العظيم ، ولجوئه إلي نسج خياله المريض بوقائعه .

وأول ما نرد به على هذا المؤلف وببساطة شديدة : هو هذه الآية الشريفة الأولى من سورة الإسراء .

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾

فنبيّنا محمد ﷺ ، لم يسند إلى نفسه القيام بهذه الرحلة المباركة فى ملك الله وملكوته ، وإنما الذى أسند هذا الفعل إليه هو الله - سبحانه وتعالي - وهو على كل شيء قدير ، فهو الذى أسرى بعبده ، وليس عبده هو الذى سرى بذاته والفرق بين التصورين ، هو الفرق بين الفعلين فعل « أسرى » وفعل « سرى » ..

أى الفرق بين قدرة الله - سبحانه وتعالى - المطلقة ، وقدرة « عبده » المحدودة ، وبذلك تيسر للعاقل المؤمن أن يتقبل فعل الله المعجز بقبول حسن لأنه صادر ممن يملك طلاقة القدرة ؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - هو المنفرد بخلق الكون وتسييره بقوانين هو صاحبها ونواميس هو منظمها ، فهو وحده الذي يملك خرق هذه القوانين ، وتعطيل هذه النواميس ، وكل ذلك يصدر عن الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمه ، وهو العزيز الحكيم :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الحديد)

وعلى ذلك يكون الشك والتشكيك فى وقوع حادث الإسراء والمعراج ، يكون شكًّا فى قدرة الله ، ويكون الإيمان به إيماناً بالله - سبحانه وتعالى - وأنه على كل شيء قدير ، أما بالنسبة لسيدنا الله ﷺ فيكون الشك والتشكيك فى

حادث الإسراء والمعراج تكذيباً له ويكون الإيمان به تصديقاً له ﷺ ، وتكذيبه - عليه الصلاة والسلام من جانب أعدائه هو : كفر صريح و ، تصديقه من جانب المؤمنين به هو الإيمان الصحيح .

والآية الأولى من سورة « الإسراء » هى الآية الوحيدة التى أشارت إلى هذا الحادث مع أن السورة سميت باسمه ، ولكن الإشارة إلى وقائع هذا الحادث ، جاءت فى سورة النجم :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ (سورة النجم)

والقارئ للآية الأولى من سورة الإسراء ، وهذه الآيات من سورة النجم يلاحظ ما يأتى :

الآية الأولى من سورة الإسراء جاءت مجرد إشارة إلى وقوع الحادث فقط ، ولم يحك شيئاً عن تفاصيل الرحلة مع أن الرحلة بين المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى الشام تخللها أحداث كثيرة .

الآيات الواردة فى سورة النجم أيضاً وصفت المعراج إلى السماء وصفاً إجمالياً ، مع أن وقائع هذا الحادث أيضاً كثيرة ومثيرة .

وفى هذا إشارة إلى أن الله ـ سبحانه وتعالي ـ ترك لنبيه ﷺ أن يتولى تفصيل الحادثين بما أنطويا عليه من مرائى أطلع الله سيدنا رسول الله عليها ، ومن تجلّيات تجلى الله بها على نبيه خصه فيها بإسرار لم يذعها ، وتجليات بعطايا منحها الله لأمته ، ويكفى الإشارة لواحدة من هذه العطايا تظهر حب الله لمن آمن بالله وكتبه ورسله وأولهم محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ـ ألا وهى الصلاة .

ولعل حكمة الله ـ سبحانه ـ يجعل ذكر حادث الإسراء والمعراج مع خطورته على سبيل الإجمال ـ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن يظهر للعالمين صدق نبيه ﷺ فى البلاغ عنه سبحانه وتعالى وأنه يعلم ذلك منه ؛ إذ أنه هو الذى فطره على الصدق فبعثه بالحق نبيًّا ورسولاً وشاهداً مبشراً ونذيراً ، وجمع له كل ذلك فى الآيات الآتية :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

وأظن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أبقى الحديث والتحديث عن وقائع الإسراء والمعراج بالتفصيل لنبيه ورسوله محمد ﷺ ليقص أنباءه على الناس بقوة الثقة الناشئة عن الرؤية بالبصر ، والسمع بالأذن ، واللمس بالجوارح ، والشم بالأنف والذوق بالفم ، واللقاء بين ذلك كله : بصر وسمع ، وشم وبين البصيرة فيتعاطاها المتلقون ، فأما الذين آمنوا حق الإيمان فيعلمون إنه الحق من ربهم فيثبتون على الإيمان بربهم ، وعلى الإيمان برسولهم وعلى حبهم لدينهم ،

فيـزدادون إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على عقيـدتهم ، أما الضـعاف إيماناً وحبّا فينسلخون من دينهم مستجيبين لشياطينهم ، وأما الذين كفروا فيزدادون كفراً وعناداً ، وهذه مشيئة الله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (سورة محمد)

ونعود إلى مناقشة ما جاء في الفصل من هذا الكتاب الجريح المشوّه الذى نسلط عليه من أنوار الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، وقبل أن يزهق فإنه سيلقى بالشهادة أمام العلم والضمير : أن الذي أملاه على صاحبه ، فسطر كلماته إنما هو حقد أسود ، وإن المداد الذى سطر به هو قيح هذا الحقد وصديده .(!!!)

فهو أولاً : اختار الصياغة التى يصوغ بها هذا الحادث العظيم ؛ فجاء من عنده بعبارات يوحى بها للقارئ أن الحادث أسطورة من الأساطير ، وأكذوبة من الأكاذيب ليزد بذلك ما طفحت به الكلمات ، فجعلت ما بين السطور قنوات يجرى فيها هذا القيح وهذا الصديد الذى يثير الغثيان ، ويحشرج الصدور ، ويقزز النفوس ، معتمداً فى ذلك على إسرائيليات كاذبة مكذوبة مكذّبة .

لكننا نرد عليه بما علمنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلمنا إياه سيدنا محمد نبى الله ورسوله ﷺ ممتثلين لأمر الله عز وجل :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

أولاً : بدء قصته بالجهل ، حيث قرر أن حادث الإسراء وقع فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، وهذا خطأ ؛ لأن الثابت بالروايات الوثيقة أن حادث الإسراء والمعراج قد جاء عقب رحلة سيدنا محمد ﷺ إلى الطائف التى وقعت فى السنة الثالثة من بعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهذا من حيث الزمان .

ثانياً : أما من حيث المكان ، فإنه ذكر أن ملك الوحى جبريل ـ عليه السلام ـ قد جاء له بينما كان مضطجعاً فى سريره مع زوجته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ليخبره أنه سيصحبه إلى رحلة للسماء ، والصحيح الذى يجمع عليه الثقات من علماء التاريخ وشراح السيرة النبوة العطرة ورواة الحديث الشريف وعلماؤه أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يُبن بأم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلا فى المدينة المنورة فى السنة الثالثة عشر للبعثة ، وأول سنة للهجرة الشريفة ، فمن أين جاء أستاذ الجامعة چورچ بوش بهذا التوقيت لبدء رحلة الإسراء والمعراج !!

ويبدو واضحاً بجلاء أن هذا المؤلف يجهل تماماً تاريخ رسول الإسلام محمد ﷺ ، وينبؤنا بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه لم يقصد بما قاله تحرى الصدق ، وتحقيق هذا الحادث تحقيقاً علمياً ، وإنما قصد أن يخترع مناسبة ينفى فيها عن نفسه ، ويكيل فيها السباب والشتائم لسيدنا محمد ﷺ استكباراً منه فى الأرض ، ومكر السئ :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ (سورة فاطر : ٤٣)

ونسى هذا الظالم أن سيدنا محمداً نبى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير .

وهناك هدف آخر تغياه هذا المؤلف من وراء حملته الظالمة على نبينا ﷺ ألا وهو التمهيد لما نواه من حشد قومه يهوداً ونصارى للانتقام من هذا النبى العظيم فى شخص من نفى عن أمته فى مستقبل الزمان ، كما هو حادث الآن فى فلسطين

والعـراق وأفـغـانسـتـان والسـودان ، وكل هذا قـد تم فى ضـوء مـا ورد فى هـذا الكتاب ، وما ورد فى رؤيا حزقيال .

ويؤكـد هذا عندي مـا جاء فى وصـفه لحادث الإسـراء ، وفى تعليـقاته عليـه ، فهو يقول فى ص ٢٣٨ بالحرف الواحد من الترجمة :

(لم يكن أى لسـان بقـادر على التعبيـر عن عـجائب هذه الليلة وأسـرارها لم يكن هناك إلا ظل أجرد ، فما حدث فى هذه الليلة الاعجازية هو أعظم الأحداث وأكثرها إعجازاً منذ خلق الله آدم . إنه حدث لم يحدث لأى من أبناء آدم من قبل ، إنه حدث ليس لـه مثـيل فى أى كتاب من الكتب المقـدسة التى نـزلت ، وليس لـه مثيل فى أية إشارات ، وليس له مثيل مما واجهه الناس)] .

فإذا سلـمنا له بما ردّده فى عـباراته ، من أن ليلة الإسـراء ليلة إعـجازية ، وأن الحادث هو أعظم الأحداث وأكثرها إعجازاً منذ خلق الله آدم . .

فإننا نؤكد أنه بهذا التعليـق على حادث الإسراء والصادر منه . . يكون قد ردَّ على نفسه من نكرانه لمعجزات سيدنا محمد ﷺ ، وما قاله من أنه - عليه الصلاة والسـلام - لم يأت بمعـجزات تُماثل مـعـجـزات النبـيين من قـبله - عـليـهم الصـلاة والسلام - .

وإنما اكتفى بمعجزة القرآن فقط ، أى بعبارة أخرى أنه لم تكن لديه معجزات حسِّية كغيره من الأنبياء .

ففى ص ٢٠٥ من الترجمة قال هذا المؤلف :

(والذى أثر أكثر من أى شىء فى إقلاق « الداعى » (- يقصـد سيدنا محـمداً نبى الله ورسـوله ﷺ -) هـو مطـالبـتـه مـراراً وتكراراً بإثبـات صـدق نبـوّته بالمعجزات . لقد كان المسـتمعون إليه يقولون له : إن موسى وعيسى والأنبياء من قبل على وفق ما يقول دينك ، أتوا بالمعجزات ليثبتوا أنهم رسل الله ، والآن فإن كنت نبيـاً حقـاً وأعظم منهم ، كـما تدعى فهـيا ائتنا بمعجزة فلتحي الموتي ، ولتنطق الأخرس ولتسمع الأصم ، ولتخرج الماء من الأرض ، ولتجر العيون . .) .

هذا قول « چورچ بوش » فى كتابه المشئوم .

ثم يردف هذا الكلام بقوله فى ص ٢٠٦ .

وفى القرآن الكريم ، هذا الطلب الطبيعى والمعقول ، تملص منه محمد ﷺ بطرق شتّى ، كما سجل القرآن فهو يقول لهم إنه ليس إلا بشراً رسولاً .

يبشر المؤمنين بالفردوس ، ويتوعد الكافرين بعذاب النار ، ولنقرأ فى القرآن الكريم .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الرعد)

١ - دينك أتوا بالمعجزات ليثبتوا أنهم رسل الله .....

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ (سورة الرعد)

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة الرعد)

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

هذه الآيات القرآنية البينات ، استدل بها المؤلف على أن سيدنا محمداً لم يأت بمعجزات حسية .

وإنى أسأله أولاً : أو لما أجرى الله - سبحانه وتعالى - حادث الإسراء ، جئت أنت ومن قبلك كفار قريش تكذبونه ؟؟!!

إنه تكريم من الله - سبحانه - لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - ، وهو لم يدعى أنه أسرى بنفسه ، وإنما قال « أسرى بى » . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وإنى قد وعدت أن أقدم للمؤلف حادث الإسراء من واقع كتب العلم التى تقدم للناس كافة المعلومات الحقيقية والتى يفتقدها كتابه ، ويشكو دائماً الفقر إليها .

مقدمة

المناخ الذى حدث فيه الإسراء والمعراج

منذ تلقى سيدنا محمد ﷺ أوامر ربه المتتالية يأمره فيها جميعاً بإبلاغ دعوة الإسلام إلى الناس مبتدئاً بعشيرته الأقربين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾

(سورة المدثر)

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ ﴾ (سورة الشعراء)

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ ﴾ (سورة الحجر)

وسيدنا رسول الله ﷺ يمضى فى تبليغ الدعوة ، غير مبال بتعب أو نصب أو وصب ، فهو يقضى ليله فى عبادة الله - سبحانه وتعالى - راكعًا وساجداً متهجداً ويمضى نهاره فى عرض دعوته على أهله وعشيريته ، وكل من يلقاه ، لا يهمه جهد يبذله ، ولا كلمة جحود يرد بها المعرض عليه ، ويفرح لمن يتلقى دعوته بالقبول الحسن ، كل هذا وأهل مكة منهم من يصد عنه ، ومنهم من يؤذيه ، ومنهم من يشفى غيظه بتعذيب من اتبعوه من الفقراء والخدم والعبيد ، فسياطهم تكوى جلودهم ، وترضع من أجسادهم ، ونيرانهم تأكل من عظامهم ، وعبيدهم بأمرهم يذيقون المسلمين أبشع أنواع العذاب والتعذيب ، ويجرعونهم غسلين الهوان والتهوين ، ويغتالون أشخاصهم وشخصياتهم لا يهجعون عنهم ولا ينصرفون إلا إذا تلقوا من سادتهم أوامر أخرى بالتخفيف من العذاب ، أو تركهم

لعلهم يرجعون ، لقد تحجرت قلوب القوم وأغلقت حتى تمكن منها الكفر والعناد وصارت لعبا فى أيدى الشياطين فصدوا عن السبيل وكفروا بالله وبالرسالة وبالرسول .. وزحف من قلوبهم الظلام فغطى مكة بلفائفه الحالكة السواد .

ورأى سيدنا محمد ﷺ هذا .. فقرر الرحيل إلى بلد آخر يعرض على أهله الإسلام .

وكان هذا البلد هو الطائف ، وهو يبعد عن مكة المكرمة بما يقترب من خمسة وسبعين كيلو متراً ، رحل إليه سيدنا محمد ﷺ آملاً أن يجد صدى لدعوته للإسلام تختلف عما وجده فى مكة من صدود أهلها وتعنُّتهم .

فعرض نفسه على أمرائها الثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، ومعهم ابن عوف بن عقدة بن عوف بن ثقيف ، فلم يلق منهم تقبلا لدعوته ، بل إنه لم يلق منهم ما تعرفه العرب ويعرفه الناس عنهم من كرم الضيافة .

أما أحدهم فقال له ساحر أرسله الله تعالى للنبىّ بقصد نزع ثياب الكعبة ؟!

وقال الثانى : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟!

وقال الثالث : لئن كنت نبياً حقاً ، كما تقول لأنت أعظم خطراً أن أرد عليك ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك !!

فلما وجد منهم هذا النكران ، وهذا الجحود : خاطب مروءتهم طالباً منهم أن يبقوا لقاءه بهم سرًّا يفشونه خشية أن يعلم قومه فيثوروا عليه ، لكنهم لم يكونوا عند ظنه فيهم فظهروا لئاماً ؛ بأن أفشوا أمره وأعلنوا سرّه .

بل إنهم خلعوا ثوب عروبتهم ، وتجردوا من الصفة التى عرفها الناس عنهم ، وهى اكرام الضيف ، وعدم إهانته ، وسيطرت عليهم الخسة والدناءة فأهانوه ؛ بأن سلطوا عليه غلمانهم وأغروا به سفاءهم فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان حتي خضب دمه الذكي الشريف رمل هذه الصحراء المجدبة (!!!)
(البداية والنهاية)

أو يكون هذا الهوان والتهوين محصلة هذا السفر الشاق تحت شمس الصحراء الحارقة ، وفوق رمالها المتلظية ولفح رياحها المتأججة (!!!) .

إن رحمة الله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - لتقول غير هذا ، وتفجر قلبه بحب الله عز وجل وتصاعدت زفراته عطراً يضمّخ الصحراء ، ويزكى الآفاق ، وبهذه الكلمات التى تفتحت لها أبواب السماء تتنافس فى رفعها إلى الله سبحانه وتعالي الذى بعثه بالحق نبيًّا :

• اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتى .. وهواني على الناس !!
يا أرحم الراحمين !! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ .
إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟!
إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى .
أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(البداية والنهاية)

وما فرغ عليه الصلاة والسلام من هذا الدعاء الذى بث فيه شكواه لله رب العالمين ، تحمله هذه الكلمات المفعمة بالحب لله ، والحرص على الإسلام ، والاستسلام لله ، والخضوع لقضائه وقدره .. ما فرغ من هذا الدعاء حتي أنشقت السماء عن جبريل - عليه السلام - ، ومعه ملك الجبال ، وقال له يا رسول الله .. إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم ناداه ملك الجبال ، فسلم عليه ، ثم قال : يا محمد !! ﷺ قد بعثنى الله ، إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك لتأمرني بما شئت . إن شئت فأطبق عليهم الأخشبين (جبلين بمكة المكرمة) فقال رسول الله ﷺ : **(أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله . اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) .**

قال له جبريل عليه السلام « صدق من سماك الروؤف الرحيم » .

ولم تمض لحظات حتي جاءه رجل يقال له « عداس » خادم عتبة وشيبة ولدى ربيعة ـ وقد ثارت فى قلبيهما عاطفة الرحم ـ يحمل له قطفا من العنب ليتبلّغ به ، وكان عداس هذا نصرانيًا ممن بشرهم علماؤهم بقدوم النبى محمد ﷺ وترحل فى شبه الجزيرة العربية ينشد لقاءه والتعرف عليه ، فما إن وضع قطف العنب فى يد النبى ﷺ حتى بدأ تناول حباته بادئاً (بسم الله) فبرق نور الإسلام من فم رسول الله ﷺ تشعه هاتان الكلمتان ، فسأله قائلاً : والله إن هذا الكلام ما يقول به أحد من أهل هذه البلاد ، فسأله النبى محمد ﷺ :

ـ من أى البلاد أنت يا عداس ؟ فرد قائلاً : من نينوى ، قال بلد أخي يونس بن متى الرجل الصالح .

قال وما يدريك ما يونس بن متى : فقال ﷺ : ذلك أخى كان نبياً وأنا نبى.

وهنا اكب عداس بن مالك على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، حيث دخل الإسلام إلى قلبه .

وعاد سيدنا محمد إلى مكة المكرمة وهي على حالها من الصدود عن الإسلام والصد عنه ، وتعذيب الصحابة ومحاربة الدين .

عاد وقد شكى من الهوان على الناس ، ومن ضعف قوته ؛ فأراد الله أن يرى نبيه ﷺ ، ويرى العالمين قدره عنده ، ويرى أعداءه مكانته الرفيعة فيكبتهم فينقلبوا خائبين ، ويرى صحابته الكرام عنايته به ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وأراد بالإضافة إلى ذلك تسليته وإزالة ما تركته رحلة الطائف من غبار أمامه وتقوية عزيمته والربط على قلبه .. فأعد له حفل الإسراء والمعراج ..

وحادث الإسراء والمعراج روته الكتب الصحاح ، وقصّته كتب السيرة النبوية ، وكتب التاريخ ، وإذا كان لى أن أختار فإنى أختار رواية الإمام البخاري ـ رضى الله عنه ـ ، فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك ، عن مالك عن

بن صعصعة أن النبى - صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

بينما أنا فى الحطيم ، وربما قال فى الحجر - مضجعاً إذ أتاني آت وسمعته يقول : فشق ما بين هذه إلى هذه - فقلت (أى الراوى) للجارود وهو إلى جنبى ماذا يعنى به ، قال من نقرة شعره إلى شعرته ، وسمعته يقول من قصة إلى شعرته و فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبى ، ثم حشى ثم أعيد .. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض فقال الجارود :

وهو البراق : قال أنس نعم : يضع خطوة عند أقصى طرفه فحملت عليه ، فانطلق بى جبرائيل ، حتي أتى السماء الدنيا فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال جبرائيل ، قال : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل مرحباً به ، فنعم المجئ جاء . ففتح ، فلما خلصت فإذا آدم فقال هذا أبوك آدم ، فسلم عليه فسلمت عليه، فرد السلام ، فقال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم صعدت إلى السماء الثانية ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال جبرائيل . قيل من معك ؟ قال : محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباص به فنعم المجئ جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى ، وهما أبنا خالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليما فسلمت عليهما ، فردا السلام ، ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال جبرائيل . قيل من معك ؟ قال محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنعم المجئ جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا بيونس ، قيل فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الرابعة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبرائيل . قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل :

مرحباً به فنعم المجئ جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا إدريس قبل فسلم عليه فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الخامسة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبرائيل . قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنعم المجئ جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا بهارون قبل فسلم عليه فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء السادسة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبرائيل . قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنهم المجئ جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا بموسى قبل فسلم عليه فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . فلما تجاوزت بكي فقيل له ما يبكيك قال : أبكى لأن غلاماً ما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتى .

ثم صعد بى إلى السماء السابعة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبرائيل . قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنعم المجئ جاء ، ففتح ، فلما خلصت إذا إبراهيم قال : هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار ، نهران ظاهران ونهران باطنان ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع إلى البيت المعمور ؛ يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، وإناء من عسل ، فأخذت اللبن قال : هى الفطرة التي أنت عليها وأمتك .

ثم فرض علي الصلوات خمسون صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ؛ فقال : بم أمرت ؟ قلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال إن أمتك

لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإنى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك ، فسله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال : مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت ، إلى موسى فقال : مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت ، إلى موسى فقال : مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت . فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، وعددت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ فقلت بخمس صلوات كل يوم ، قال أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، قال : فسألت ربى حتى استحييت ولكنى أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت ناداني مناد أمضيت فرضيت وخففت عن عبادى .

وفى رواية البخارى فى كتاب التوحيد ، أنه بعد أن راجع ربه بمشورة موسى عليه الصلاة والسلام ، وجاء فى مراجعته الخامسة أنه قال لربه :

« يا رب !! إن أمتى ضعفاء ، وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وآذانهم فخفف عنا .

فقال الجبار - تبارك وتعالى - : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك قال : إنه لا يُبدّل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب . قال : بكل حسنة عشراً أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك .

هذا هو حادث الإسراء والمعراج ، كما أثبته الإمام البخارى فى صحيحه ورواه ، وقد أجمعت الأمة على أن صحيح البخارى أصح كتاب بعد القرآن ، وإنى أكتفى به فى إثبات وقوع هذا الحادث العظيم .

ولقد تناول كثير من المؤرخين والمحدثين والأدباء هذا الحادث العظيم بالشرح ، ومن هؤلاء أستاذنا الجليل الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد ص ١٩٠ وما بعدها ، والجدير بالذكر أنه نقل حادث الإسراء عن « در منجم » المستشرق المعروف ، وبعد ذلك أدلى بدلوه فى أمر الإسراء والمعراج :

هل نبى الإسلام ﷺ أسرى به بجسده وروحه ، أم أنه أسرى به بروحه فقط دون الجسد ؟ .

وقبل أن أذكر رد كل فريق على هذا السؤال على حدة : أريد أن أوضح حقيقة هامة أن حادث الإسراء والمعراج قد وقع فعلاً وتوجهت على ضوءه مسيرة سيدنا محمد ﷺ إلى أن لقى ربه - سبحانه وتعالى - ، وخلافهم ينحصر فيما إذا كان إسراؤه ومعراجه كان بالروح أم بالجسد أم بهما معاً .

منهم من قال : إن الإسراء كان بالروح والمعراج أيضاً ، ومن هذا الفريق أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل - رحمه الله - فى كتابه حياة محمد .

ومنهم من قال : إن الإسراء تم بالجسد ، أما المعراج : فإنه تم بالروح فقط ، ومنهم شيخنا وأستاذنا الإمام محمد أبو زهرة - رحمه الله رحمة واسعة - فى كتابه خاتم النبيين بالجزء الأول .

ومنهم من قال : إن الإسراء والمعراج قد كانا كلاهما بالجسد والروح .

وإنى أرى - وبالله التوفيق - أن كلا من الإسراء والمعراج قد وقعا بجسد سيدنا محمد وروحه - صلى الله تبارك وتعالى عليه - جسداً وروحاً ، والدليل عندى :

أولاً - القرآن الكريم :

١ - قول الله - سبحانه وتعالى - فى الآية الأولى من سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١

(سورة الإسراء)

٢ - آيات سورة النجم :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة النجم)

فى الآية الأولى من الإسراء قال الله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ (سيدنا محمد ﷺ) وكلمة ﴿ بعَبْده ﴾ تعنى جسده وروحه ﷺ ، وفى سورة النجم قال : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (جسد وروحاً أيضاً ، ويعنيه جسداً وروحاً فى قوله ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْده مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ أفتمارونه على ما يرى .... ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ والبصر يعنى العين وهو جزء من الجسم .

٣ ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى حق نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾ (سورة النساء)

٤ ـ قوله سبحانه وتعالى فى سورة الزخرف :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ (سورة الزخرف)

إن القارئ لآيات سورة النساء والآيات من سورة الزخرف يجد أنها جميعاً تؤكد على أمرين :

الأمر الأول : رفع الله ـ سبحانه وتعالي ـ عبده ونبيه ورسوله عيسى المسيح بن مريم إليه سبحانه فى الملأ الأعلى ..

الأمر الثانى : إنه منذ رفعه الله إليه بجسده وروحه يحيا الآن فى السموات العلى بجسده وروحه ينتظر الإذن من ـ الله سبحانه ـ لينزل مرة أخرى إلى الأرض يهدى الناس إلى الحق وإلى الصراط المستقيم . كما نزل علي ذلك آيات القرآن وروايات الثقات من رواة الحديث

والجدير بالذكر أن المسلمين يعتقدون اعتقاداً جازماً أن نبى الله عيسى عليه السلام رفعه ـ سبحانه وتعالى ـ إليه ، ونجاه من الظالمين الذين أرادوا قتله وصلبه ، وهو الآن يحيا عند الله جسداً وروحاً ينتظر أمر الله له لينزل إلى الأرض ، يصحح عقيدة النصارى ، ويردهم إلى الله وإلى الإسلام رداً جميلاً ؛ فيعبدون الله وحده إلهاً واحداً فرداً صمداً لا شريك له سبحانه وتعالى ـ هو الواحد الأحد الذى لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وإن علماء الإسلام من رجال التفسير والحديث والفقهاء يجمعون على أن نزول نبى الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ إلى الأرض جزء من عقيدة المسلمين مستندين فى ذلك إلى القرآن الكريم وإلى الحديث الشريف .

وأما علماء النصارى فإنهم يعيشون على هذه العقيدة أيضاً ، ومن هؤلاء ـ جورج بوش ـ مؤلف هذا الكتاب الذى يحاول الرد على ما جاء به من ضلال وتضليل وبذاءات لم يسبق لها مثيل .

أولاً :

نحن المسلمين فى جميع بقاع الأرض ، وفى كل زمان ومكان ، نؤمن إيماناً جازماً ، قوياً لا يعرف الشك ، ولا يعرفه الشك راسخاً لا يتزلزل أبداً بما ورد فى هذه الآيات الكريمات التى تسطع فى سورة المائدة :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴾

(سورة المائدة)

إننى والمسلمين جميعاً فى وقت نزول هذه الآية وبعده ، وحتي تقوم الساعة نؤمن بهذا الحادث الخارق للعادة ، ونصدق تصديقاً ونسلم تسليماً : بأن نبى الله عيسى المسيح بن مريم عبد الله ونبيه ورسوله وروح من الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، ونؤمن ونصدق بأن الحواريين من أتباعه سألوه أن يسأل الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء يأكلون منها ، وتكون لهم عيداً لأولهم وآخرهم (حتى الآن وما بعد الآن ، وحتى تقوم الساعة) ونؤمن ونصدق بأن الله قد استجاب لنبيه عيسى - عليه السلام - وأنزل المائدة ذاخرة بما عليها من طعام شهى وشراب لذيذ وأكلوا منها واطمأنت قلوبهم وعلموا يقيناً : أن المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - نبى الله ورسوله وأنه صادق ، وقد صدقهم وأصبحوا على ذلك من الشاهدين ، وأن النصارى يحتفلون بيوم المائدة كل عام مبتهجين فرحين بدينهم ، وبهذا يتفق المسلمون والنصارى على التصديق بحدوث هذه الواقعة التى تنعش

الإيمان فى قلوبهم بنبوة هذا النبى والرسول الكريم عيسى المسيح عليه السلام .

ويطفو سؤال : كم استغرق من الوقت إنزال الله - سبحانه وتعالى - المائدة .. الرد البديهي أنه لم يستغرق جزءاً من أقل وحدة زمنية ، فإذا كنا نصدق نزول المائدة من السماء فى جزء من الثانية ، فلماذا لا نصدق رحلة نبى الله محمد ﷺ إلى السماء ، والعودة إلى الأرض فى ليلة ؟ مع أن المسافة واحدة ؟

وإذ أنها المسافة بين السماء والأرض ، والحواريون حددوا طلبهم فى أن تكون المائدة من السماء وليست من الأرض .

إن الله - سبحانه وتعالى - عندما تحدث عن الحادثتين ، يتحدث عن قدرته سبحانه وتعالى ، ولم يتحدث عن قدرة سيدنا محمد ﷺ فى الإسراء والمعراج ، ولم يتحدث عن قدرة سيدنا عيسى بن مريم - عليه السلام - . فى إنزال المائدة .

ذلك لأن قدرته سبحانه هى التى تتجلى فى كلتيهما وإن الله على كل شىء قدير ، ونحن نؤمن بقدرته سبحانه فى الحادثتين .

ثانياً : من الحديث الشريف :

روي الإمام البخاري - رضى الله عنه - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقبض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتي تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها .

ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

ورواه الإمام مسلم أيضاً .

وفى هذا الحديث الشريف : دليل على أن نبى الله عيسى - عليه السلام - حى

فى الملأ الأعلى فى ضيافة الرحمن - عز وجل - منذ رفع إلى الله وسيبقى على هذه الحالة حتى ينزل إلى الأرض ليدل الناس على الحق والإسلام.

ثالثاً:

ما بال بعض الناس يؤمن بأن الله رفع نبيه عيسى - عليه السلام - إليه ، وهو الآن حي فى ضيافة الله ، هذا الزمن الطويل بجسده وروحه ، وليس بروحه فقط ، ثم هم يستكثرون على سيدنا رسول الله ﷺ ليلة واحدة أو بعض ليلة قضاها فى ضيافة الرحمن بجسده وروحه ، وأراه فيها المرائي التى جاءت بها الأحاديث الصحيحة مفسرة لآيات القرآن الكريم ؟ !! .

إن سيدنا رسول الله ﷺ عبد الله ورسوله وإن الأرض ملك الله وإن السموات ملكوت الله يملك ذلك كله ، إذ هو خالقه وحاكمه ، فليس بعيداً عليه أن يستضيف أشرف خلقه وأكرم أنبيائه ورسله عليه ليلة يدنيه منه ، ويتجلى عليه ، ليذهب حزنه ، ويجلى قلبه ، ويذهب همه ، ويطمئنه على أمته ، ويحشد لتكريمه الملأ الأعلى ، وأنبياءه ورسله ، وما نعلم من خلقه ، وما لا نعلم ، ويعالج ما تركه حادث الطائف وأمثاله من آثار على نفسيته ، فليس لنا إلا أن نصدق ونسبح بحمد الله هاتفين بذكره تالين لآية الكريمة آخر سورة يس:

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ ﴾

(سورة يس)

وأما ما قاله چورچ بوش فى شأن الإسراء والمعراج ، وما تصاعد من داخله من أبخرة الحقد على رسول الإسلام محمد ﷺ ، وما برز من خلال كلماته وحروفه من فقاعات الغل والحسد ، فإن ذلك كله كشف خبيئة نفسه ، ولؤم قصده ، وكل ما نصبوا إليه : أن يتفهم شبابنا وأهلنا وذوونا فى مشارق الأرض ومغاربها ما يكمن وراء هذا السباب وهذه البذاءة التي تميز صاحب هذا الكتاب عن غيره

من المستشرقين الحاقدين على الإسلام ، وعلي رسول الإسلام وعلى المسلمين ، بأنه لم يقف عند النقاش والجدل ، بل تعدى ذلك إلى إثارة خصوم الإسلام وخصوم نبيّه ، ومحاولة تعبئة الأجيال فى الغرب عامة ، وفى أمريكا خاصة ، وتصفيفهم جنود الفكر المتعصب لحرب ضروس ضد الإسلام والمسلمين .

وهذا المكر السئ ، ليس من أخلاق العلماء الذين ينسب إليهم نفسه .

ولقد أدهشنى ما قرأته في ـ ص (٢٤٢) من الترجمة ـ تأويله حادث الإسراء والمعراج بأنه إرادة النبى محمد أن يتشبه بنبى الله موسى ـ عليه السلام ـ بإدخال أكبر قدر من التفاصيل الموجودة فى اليهودية دون أن يدمر البساطة التي اتسم بها دينه ، ويقرر أن هذا يتمشى مع ميول بنى إسماعيل لتقليد نسل إسحاق (!!) وكلامه هذا يدل دلالة واضحة علي جهله بالإسلام ، وكتاب الإسلام ، ونبى الإسلام ، فإن شخصية النبى الكريم هى قرآن يسعى على الأرض . وإن رسالة هذا النبى الكريم هى رسالة الإسلام الأزلية الأبدية ، وهي الرسالة المثْلى التى تكون رسالات الأنبياء والرسل جميعهم ، ومنهم نبى الله موسى ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ جزء لا يتجزأ من رسالته المثلى هذه التي تلقاها من الله كاملة تامة ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم علم اليقين من علم الله ـ عز وجل ـ أن جميع الأنبياء والرسل ومنهم نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ كانوا مبشرين به برسالته ، حيث كانت رسالاتهم جميعاً مقدمات لرسالته هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وقد خبّره الله بذلك فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة يس)

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الصف)

ومــن هنــا يتبين بجلاء أن النبى محمد طوى مقامات النبيين والمرسلين من قبله ، وأنهم جميعاً ، كان من ضمن وظائفهم أن يبشروا به وأنهم جميعاً تعهدوا لله إن عايشوه أو عاصروه أن ينصروه ويؤيدوه ، ويتبين من ناحية أخرى أنه لم يقم بهذه الرحلة من تلقاء نفسه ، أو بجهده أو بترتيبه ، وإنما الذى أسرى به هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأن حادث الإسراء والمعراج : هو نعمة من الله عليه كاملة ، غير ناقصة ، وليس هو فى حاجة لآخرين يوم يستمد منهم أو يقلدهم فى شىء ، فهو إذن تدبير الله الذى أراد به تكريمه وإعلاء قدره ، والله على كل شىء قدير .

كان ذلك حديثاً عن الإسراء والمعراج ويكفى أن الله أعانني وكشفت الزيف الذى يغشّى كلام هذا المؤلف والنبع الراكد الذى يصدر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصـل الأول

من أخلاق النبى ﷺ

لقد كانت أم المؤمنين سيدتنا عائشة زوج سيدنا رسول الله ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ ملهمة من الله ـ عز وجل ـ عندما سئلت عن خلقه فقالت :

« **كان خلقه القرآن** » ..

فهي أحسنت الإجابة ، وأراحت السامعين ، وحققت الفائدة ، وأصابت الحقيقة ، وأحاطت بالمسئول عنه فى عبارة بليغة جامعة مانعة بهذا التعريف الجامع المانع ، أى : أنها أرادت أن تدخل فى روع الناس نعمة الله سبحانه وتعالى وفضله على حبيبه ومصطفاه أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، من أنه لم يترك صفة من مكارم الأخلاق إلا زوده بها ، ولا سيئة من سيئات الأخلاق إلا نزهه عنها وعصمه منها ، فسلوكه عليه الصلاة والسلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فسبحان من جعل قلبه وعاء للقرآن وجعل جوارحه وسلوكه ترجمان للذكر الحكيم .

والكلام فى أخلاقه ﷺ يقتضى تفصيله فى حال السلم ، وفى حال الحرب ونخصص لكل قسم منهما فصلاً على حدة .

الفصل الأول

بعض أخلاقه فى السلم

الحلم - حلمه ﷺ

قصدت أن أبدأ بهذه الصفة من صفاته ﷺ التى حلاه الله سبحانه وتعالى بها فتحلّى لما لها من فضل كبير فى هداية الضالين وطمأنينة المسيئين له ، وتأكيد الإيمان فى وجدان المؤمنين به ، وتثبيت الإسلام فى قلوب من أيدوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه فكانوا من الفائزين ، وأروع صورة للحلم أبرزها القرآن الكريم وجلّى عناصرها وقلدها لسيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تستطع فى :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

روى عن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم لما نزلت هذه الآية سأل سيدنا جبريل عليه السلام فقال :

* ما هذا يا جبريل ؟

فقال « إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك » .

الفضيل بن عياض الشفاء بتعريف حقوق المصطفى الجزء الأول - وتفسير الإمام بن كثير - تفسير آخر سورة الأعراف .

وهذه الآية ليست الآية الوحيدة التى رسخت معنى الحلم فى وجدان حضرة النبى ﷺ ، ولكن الآيات فى هذا المعني كثيرة ومنها :

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (سورة المؤمنون)

وهذه الآيات الشريفة وما يماثلها من آيات القرآن الكريم يتجمع رضابها فى قلب سيدنا رسول الله ﷺ ، وفي وجدانه ، فتنضح على جوارحه سلوكا يفيح عبيره ليملأ ما بين السماوات والأرض عبيراً يطيب شذاه فتنشرح الصدور ، ويسكن القلق ، ويأمن الخائف ، ويطمئن المذنب ، ويفشو فى المجتمع السلام .

مواطن تجلى فيها هذا العفو

١ - لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف يوم أحد شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا :

« لو دعوت عليهم ، فقال إنى لم أبعث لعّانا ولكنى بعثت داعياً ، ورحمة ، اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

٢ - روى الإمام البخاري رضى الله عنه عن الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود قال :

« لما كان يوم حنين آثر النبى ﷺ إناساً فى القسمة ؛ فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة مثل ذلك ، وأعطى أناسا من أشراف العرب فآثرهم فى القسمة .

قال رجل « والله إن هذه القسمة ما عُدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت : والله لأخبرنّ النبى ﷺ فآتيته فأخبرته فقال : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله رحم الله موسي فقد أوذى بأكثر من هذا .

كتاب فروض الخمس

٣ - شهادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في تأبين سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوم وفاته إذ قال :

« بأبى أنتَ وأميّ يا رسولَ الله لقد دعا نوحُ على قومه فقال :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة نوح)

ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند أخرنا : فلقد وطئ ظهرك ، وأدمي وجهك ، وكُسرَتْ رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

٤ – تصدى له غورث بن الحرث ليفتك به ورسول الله ﷺ منتبذ تحت شجرة وحده ، والناس قائلون في غزاة « يستريحون وقت القيلولة ، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف سلطا فى يده فقال من يمنعك منى ؟ .

فقال : « الله » فسقط السيف من يده فأخذه النبى ﷺ ، وقال : من يمنعك منى ؟ .

قال كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه .

فجاء إلى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس .

٥ – عفوه عن ثقيف ، وقريش يوم الطائف :

يوم صعدت قريش أذاها له ولأصحابه ، وذهب إلى الطائف يدعوها في شخص أميرها ولدى عبد ياليل وأغروا الصبيان ، والسفهاء ؛ فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان ، وتخضبت رمال الصحراء بدمه الذكى ، واكتوت قدماه بالنار التى اشتعلت فى رمال الصحراء من وهج الشمس ، وتحولت إلى جمرات ليفجر منها اللهب ، وأوى إلى كرم عتبة وشيبة ابنى ربيعة ليستظل بظله ، وتوجه إلى الله بهذا الدعاء الذى اخترق السموات السبع ، وزلزل الحجب ، ومثل بين يدى الواحد القهار قال :

« اللهمّ إليكَ أشْكُو ضَعْفَ قُوّتي ، وقلّةَ حيلَتى ، وهَوانى على النّاس ، يَا أرْحَمَ الرّاحمينَ !!! أنْتَ رَبُّ المُستَضْعَفين وأَنْتَ رَبّى إلىّ مَنْ تَكلْنى ؟!! إلَى بَعيد يَتجَهّمُنى ؟ أمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَه أمْرى إنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَىّ غَضَبُ فَلا أُبَالَى ، وَلكنّ عَافيتكَ أوْسَعُ لى . أعوذُ بنُورِ وَجْهكَ الّذى أشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ ، وصَلُحَ عَليه أمْرُ الدُّنياَ والآخرَة ، مَنْ أن تُنْزلَ بى غَضَبَكَ أوْ تُحلّ عَلَىّ سَخَطَكَ لَكَ العُتبَى حَتّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوةَ إلاّ بكَ .

وهذا انشقت السماء عن جبريل عليه السلام وقال له « يا رسول الله : السلام يقرؤك السلام وقد أرسل معي ملك الجبال ، فلو أمرته لأطبق عليهم الأخشبين « يعني الجبلين » فرد سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قائلاً « لا يا أخي يا جبريل ! ما بهذا بعثت لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله .

٦ - وجاءه زيد بن سعنه قبل إسلامه يتقاضاه دينا عليه ، فجبد ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ ، ثم قال : « إنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل ، فانتهره عمر وشدد له فى القول والنبى ﷺ يتبسم ، فقال رسول الله ﷺ : أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرنى بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضى . ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما روعه ، فكان سبب إسلامه .

وقد علل إسلامه بأنه يعلم علامات نبوته وخبرها فيه إلا اثنتين ، هما حلمه عند جهل الجاهل عليه ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً . فاختبره بهذا الذى حدث منه فوجده .

وهكذا نرى أن أم المؤمنين عائشة صدقت كل الصدق فى قولها « ما خير رسول الله ﷺ فى أمرين إلا اختار أيسرهما . ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله منها » .

جميع هذه اللوحات الجميلة التي تضيؤها صفة الحلم التى تحلي بها حبيب الله وصفوته من خلقه سيدنا محمد ﷺ منقولة من كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى الجزء الأول . للإمام الفضيل بن عياض .

ثمرات عفوه وحلمه

فى سلوك أصحابه الكرام

أول من تغذت عواطفه النبيلة من فضيلة الحلم التى تجلت في سيدنا رسول الله - صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - هو سيدنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه وأرضاه - ، حتى تخللت صفة الحلم جميع كيانه لدرجة أن الذى تعامل معه ، أو يقرأ عنه يظن أن فضيلة الحلم هى الصفة الوحيدة التى يتحلى بها هذا الإنسان العظيم . وقد تجلت هذه الصفة بارزة للعيان فى مواقفه الآتية :

١ - عندما استشار سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أصحابه في أمر أسرى غزوة بدر الكبرى قال :

« يا رسول الله !! بأبى أنت وأمى !! قومك منهم الأباء ، والأبناء ، والعمومة ، وبنو العم ، والأخوان ، وأبعدهم منك قريب ، فامنُن عليهم منّ الله عليك ، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين فلعل الله أن يقبل بقلوبهم .

٢ - موقفه مع مسطح بن أثاثة :

ابن خالته ، وقد أساء إليه فى الوقت الذى كان يغمره بفضله وينفق عليه ، ويمده بما يحتاج إليه من مال ، فلما عزم على حرمانه من رواتبه بعد الإساءة التى صدرت منه طعنه أوجعته سمع قول الله عز وجل . فامتثل ، وواصله من جديد ، حيث قال له الحق فى سورة النور :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة النور)

وأما ثاني الصحابة الذين نمت صفة الحلم فيهم بعد أن تغذت من ،معين الحلم عند سيدنا رسول الله ﷺ فهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويتضح ذلك من سياق قصة ملخصها كما جاء في تفسير ابن كثير للآية ١٩٩ من سورة الأعراف :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وما رواه الإمام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

قدم عيينة بن حصن على بن أخيه الحر بن قيس ، وكان قريباً من أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وطلب أن يستأذنه للدخول عليه ، فلما أذن له أمير المؤمنين قال له « هى يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب أمير المؤمنين عمر غضبا شديداً وهم أن يوقع به فقال له الحر :

يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ الآية ١٩٩ سورة الأعراف :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وإن هذا من الجاهلين .

قال الإمام ابن عباس رضى الله عنهما :

« والله ما جاوز عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل .

هذه فضيلة الحلم التى تركزت فى وجدان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وصارت ينبوعاً ثرياً نهل منه صحابته الكرام ، فأصبحت مصدراً لسلوكهم تجاه رعاياهم بعد أن مكّن الله لهم فى الأرض ، فأصبحوا بدورهم أعلاماً يهدون بنى الإنسان فى مسيرتهم حين يقتدون بهم ، ويأخذون بأيدى أولى العثرة حتي يصلوا بهم إلى مرفق النجاة ، سعداء بالإسلام ، وسعداء بأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

رحمته صلى الله عليه وسلم :

قال الله تعالى :

١ - ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ (سورة آل عمران)

٢ - ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

(سورة التوبة)

٣ -

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾

١٢٩ (سورة التوبة)

٤ -

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٧) ﴾ (سورة الأنبياء)

ومن هذه الآيات الشريفة يتبين أن الله سبحانه وتعالى قد صاغ كيان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم من جوهر رحمته ، وأضفى عليه إسمين من أسمائه الحسنى هما الرؤوف والرحيم .

وقال سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم :

١ - إنما مثلى ومثلكم « ومثل الناس » كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن ، فأنا أخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها » .

« البخارى - كتاب الرقاق »

وقد تجلّت هذه الرحمة فى كل مواقفه وكل أفعاله وكل تعاملاته مع من حوله ، وما حوله ، وهاكم بعض هذه التجليات :

١ - روى أن أعرابياً جاء يطلب منه ﷺ فأعطاه ثم قال : أحسنت إليك ؟

قال الأعرابى : لا ولا أجملت ، وقام إليه الصحابة ، إذ غضبوا من نكرانه فأشار إليهم عليه الصلاة والسلام أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئاً ، ثم قال : أحسنت إليك ؟

قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبى ﷺ : إنك قلت ما قلت ، وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشى جاء ، فقال ﷺ إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى كذلك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال ﷺ مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها منكم واعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار .

٢ - جاءه سيدنا جبريل عليه السلام فقال له :

إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداه ملك الجبال ، وسلم عليه ، وقال : مرني بماشئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، قال النبي ﷺ ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً .

وقد علق المغفور له الشيخ الإمام محمد أبو زهرة على هذه المواقف بقوله في كتاب خاتم النبيين الجزء الأول ص ٢١٩ فقال :

« إن ذلك الحديث ينبئ عن حكمة الدعوة ، والإرشاد ، والهداية إلى الحق ، يقرب الشارد ، ولا يعاقبه ، يدنيه إلى الحق ، ولا يهلكه ، وأنه يسوس النفوس ويتجه إلى الجادة من غير عنف .

وفيه الشفقة الكاملة . وإنها علاج النفوس وليس العنف علاجاً ، ولكنه قمع في غلظه ، وقد يؤدى إلى الإصرار على الشر ، والامتناع عن الخروج عن دائرته .

وفي ذلك كمال التبليغ للرسالة الإلهية ، وتعليم الراعي كيف يسوس الرعية ، ويأخذها إلى مواطن الحق وحمايته .

« انتهى كلام شيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله » .

أرأيت الآن أيها القارئ الكريم كيف كان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يستحق عن جدارة أن يتوّجه الله سبحانه وتعالى باسمين من أسماء جماله هما « الرؤوف والرحيم » وهل لمست في تصرفات سيدنا رسول الله ﷺ قدر الرحمة التي اترع بها قلبه ، وجعلته يطلق سراح أسير شكا إليه حاله من الفقر والجهد وكثرة العيال .

٣ - وتتألق هذه الرحمة وتسطع أنوارها متميزة إذا التقت في وجدان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم مع الشعور بالمسئولية بالواجب والعدل ، فالعدل - وهو نبي العدل ورسوله - يطالبه بقرار

يصدر منه يحققه بارزاً للعيان ، والرحمة تعتمل في قلبه ، لتغطى هذا القرار وتلفه فى ثوب الحنان ، وغطاء الشفقة . وقد ظهر هذا التفاعل الطيب بين مشاعره الطيبة وشعور بالواجب والمسئولية عندما نظر فى أمر أسير من أسرى بدر وهو زوج ابنته زينب (.........) ابن أبى العاص .

تمسك عليه الصلاة والسلام بالفداء يدفعه زوج ابنته ، وهذا هو الواجب والمسئولية والعدل ، فرفض أن يفك إساره إلا بفداء .

وهنا أرسلت زوجته زينب بنت سيدنا رسول الله ﷺ حلية ذهبية كانت أمها وأم المؤمنين خديجة قد أهدتها لها ليلة عرسها ، وهى من هى خديجة أم المؤمنين زوجة سيدنا رسول الله ﷺ وأعز نسائه لديه ، وصاحبة التاريخ المضىء فى قلبه ، المؤثر فى حياته المثمر فى دعوته ، النابع من حنانها وعطفها وحبها العظيم لشخصه العظيم .

نافورة من العوطف المتباينة تفجرت فى قلبه الكبير ، ولا يستطيع غيره أن يتغلب على واحدة منها على حساب الأخرى ، فما يجب عليه من عدل يحتم عليه أخذ الفداء ، ليشعر تلاميذه بالمساواة بين الناس التى فرضها الإسلام فرضا ، وحفرتها يداه عليه الصلاة والسلام على هام الزمان ركيزة من ركائز الدين الحنيف ، ورحمة واجبة لابد أن تنهل منها ابنته الحبيبة زينب ، ووفاء يتحرك فى قلبه يدفعه الشجن من ذكرى زوجته الحبيبة خديجة ... ذكريات الفضل ، والفضيلة ، والحنان ، والحب ، والعطف ، وكل ذلك ذاب فى دموع تحدرت على وجنتيه الشريفتين حتى ابتلت لحيتَه ، وتخلص من هذا الانفعال المكثف بقرار حكيم جمع به أصحاب الحق فى الفداء لعرض الموضوع عليهم ، تاركا لهم الخيار فى أخذ الحلية ، أو إعادتها لصاحبتها ابنته الكريمة ، وفى الحالتين يفك أسر زوجها ، وكان الرأى من أصحاب الحق فى الفداء أن يعيدوا الحلية لصاحبتها ، وفك إسار زوجها . وأطلق سراحه ، وفرح المسلمون إذ حققوا لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما قرت به عيناه

وعينا ابنته الحبيبة زينب - رضى الله عنها وأرضاها - .

٤ - مسألة أسرى بدر :

تمخضت غزوة بدر الكبرى عن وجود عدد من الأسرى من قريش ، واستشار سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم صحابته الكرام فى أمرهم ، وأدلى كل منهم برأيه ، فمنهم من رأى فداءهم بالمال مراعاة لصلة القربى والرحم ، ومنهم من تمسك بقتلهم ، وعلى رأس الفريق الأول سيدنا أبو بكر الصديق الذى قال لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم الصلة يا رسول الله !!! بأبى أنت وأمى !!! قومك فيهم الأباء ، والأبناء ، والعمومة ، وبنو العم والأخوان ، وأبعدهم منك قريب . فامنن عليهم مَن الله عليك . أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار . فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين . فلعل الله أن يقبل بقلوبهم .

وجاء سيدنا عمر مجلس فجلس وقال :

يا رسول الله ، هم أعداء الله . كذبوك ، وقاتلوك ، وأخرجوك ، أضرب رقابهم ، هم رءوس الكفر ، وأئمة الضلالة ، يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك .

فأخذ سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم برأى أبى بكر وقبل فداء الأسرى ، وان كان الوحى قد جاء بتأييد رأى عمر رضى الله عنه فى قوله عز من قائل :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

٥ - رحمته بسبطه ابن سيدتنا زينب ابنته :

هذا الغلام يحتضر ، وعرفت والدته في وجهه صفرة الموت ، وفي صوته حشرجته ، فاستنقذت بابيها نبي الرحمة ، ورسول الأمة ﷺ أن يحضر لشاركها ما بها من أحزان ، ويساعدها في هذه المحنة ، وسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يعتذر لها لفرط ما أودع الله سبحانه وتعالى في قلبه من الرحمة ، فهو لا يريد أن يرى هذا الصغير وهو يعالج سكرات الموت ، شفقة منه ويجمل لها في القول « **إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى فلنحتسب لنعتبر** » .

ولكن ابنته الكريمة المحببة إليه صممت على طلبها أن يحضر أبوها معها هذا المشهد المحزن ، وهي تلتمس بذلك المعونة النفسية ، التي تساعدها على اجتياز محنتها الصعبة فأقسمت عليه ، فلبى طلبها وقام ومعه كوكبة من صحابته الكرام ، ووضع غلامها المحتضر في حجره ، وعيناه تذرفان دموعاً فاض بها الحنان ، وركزت فيها الرحمة ، فقال له خاله سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « ما هذا يا رسول الله ؟ ! سؤال تعجب واستفسار إذ أنه نبي الله ورسوله والهادي إلى الخير والصراط المستقيم . فرد على سؤاله ليطمئنه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذه رحمة ، وضعها الله في قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء » .

(صحيح البخاري عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما -)

درس من دروسه التي تنفع الناس ، وتغذي فيهم مكارم الأخلاق ، وتبعث فيهم أواصر المحبة ، وتثري القيم والمثل الرفيعة ، وتربط بين قلوبهم برباط الرحمة والحنان .

٦ - وإليكم هذه اللوحة التي برزت فيها خصيصة من الخصائص التي يتميز بها رسولنا الكريم الحبيب المصطفى ﷺ ، وتفيح من بين ثناياها عطور العاطفة النبيلة ، والخلق الكريم ، وتسطع على جبينه أضواء الحكمة الهادية إلى الحق ،

وإلى الصراط المستقيم ، والمشيرة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى واستحقاقه وحده بالعبادة والتقديس دون سواه ، وتفرده عز وجل بالجلال والسلطان ... والعزة والجبروت صورة لم تستطع المحنة أن تمنعه وهو فى معمعتها أن يشير بإصبعه الشريف - لأصحابه الكرام - إلى الحقيقة الأزلية الأبدية « لا إله إلا الله » وليس الناس إلا عبيداً له سبحانه وتعالى مهما ارتفعت درجاتهم ، أو علت أقدارهم ومهما كانوا من المقربين :

وهذا جزء من العقيدة الإسلامية التى جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وأمره الله عز وجل بتبليغها للناس أجمعين .

فإذا التقى الشعور بمسئولية أداء هذا الواجب مع مشاعره الإنسانية التى تمس شغاف قلبه الطاهر الزكى ، فإن الغلبة تكون لهذا الواجب يؤديه على أكمل وجه .

بَدَا ذلك واضحاً وجلياً عند موت نجله الكريم إبراهيم عليه السلام ، وهو الذى وهبه الله إياه عند الكبر ، وبموته يكون الله سبحانه وتعالى قد استرد وديعته . فى هذه اللحظة انشغل وجدانه عليه الصلاة والسلام بهذا الحادث الجلل ، واعتراه حزن لم ير فى مثله قط ، من حيث حزن الأبوة ، إذ بكى بكاء هز عواطف جميع من حوله ، لما أحس به أسامة بن زيد صرخ ، إذ لم يستطع أن فيتحمل رؤيته لسيدنا رسول الله ﷺ وهو على هذه الحالة ، فوجه إليه حديثه كلمات حاسمة قاطعة : « يا أسامة !! البكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان بينما كان يقول فى بكائه :

« الموت حق ، وان القلب ليحزن ، وان العين لتدمع ، ولكننا لا نقول ما يغضب الله ، والله يا إبراهيم إننا عليك لمحزونون .

وتوافق فى يوم موت إبراهيم أن كسفت الشمس فقال المحبون : إن الشمس كسفت من أجل إبراهيم ، وهنا تحقق انتصار الشعور بالمسئولية وأداء الواجب ، على الشعور بالحزن لوفاة نجله ، فألقى على مسامع الحاضرين

درسا عرف طريقه إلى قلوبهم ، وعقولهم فى كلمات قليلة حملت نور اليقين وسلامة العقيدة .

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ، ولا لحياة أحد » .

وأمّ الناس وصلّى بهم صلاة الكسوف .

وهكذا نرى فى مواقف حضرة النبى ﷺ الخيط النورانى الدقيق الذى يميز بين عواطفه ويجمعها منظومة متكاملة ، ينسق بينها إلهام الله له لتجتمع كلها على خدمة هذا الدين الحنيف عقيدة ، وشريعة ، وسلوكاً ، فسبحان من وهبه هذا الكمال وهذا التكامل ، وصدق هذا النبى الكريم عندما قال :

« **أدبنى ربى فأحسن تأديبى** » .

والحمد لله الذى جعلنا من أتباعه .

٨ - وقف مع امرأة مصابة بخلل فى قواها العقلية ، ينفر منها الناس ، وانتحى بها جانباً من الطريق ، واستمع إليها ، وقضى لها حاجتها فى رحمة وشفقة غمرها بهما فى إغداق أدخل على قلبها الطمأنينة .

٩ - وجد صبية فى الطريق تبكى وتشتد فى البكاء وسألها عن حالها وما يبكيها ، وعرف أن مخدوميها كلفوها بشراء دقيق لهم ، فضاع منها ثمن الدقيق ، فهى تبكى خشية العقوبة التى ينزلها عليها مخدومها إذا عادت إليه بغير دقيق بسبب ضياع الثمن ، فلما وقف على سبب بكائها سار معها النبى ﷺ إلى مخدومها وشفع لها ومنعه من ضربها .

١٠ - كان ﷺ يصلى فى منزله ، وكان الإمام الحسين سبطه يركب ظهره وهو ساجد فيطيل النبى الكريم الرؤوف الرحيم السجود خشية أن يزعج ابنه الطفل ، ويظل راكبا متمتعاً بارتحال ظهر جده الشريف .

ثمرات هذا الخلق فى سلوك المتلقين عنه

تلقى الصحابة رضوان الله عليهم حصاد هذه المواقف وهذه الأفعال والأقوال الصادرة عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فدخلت فى تشكيل وجدانهم ، وسيطرت على عواطفهم وأصبحت مصدراً ثرياً لسلوكهم ، فسعدوا وسعد بهم الناس ، وتحقق فى أرجاء الدولة الإسلامية الحب والسلام النفسى والسلام الاجتماعى .

١ - إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد تشبع بهدى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فكان لا يولى أمر الناس إلا من يتبين تصرفاته أنه يرحم الناس ويرفق بهم .

ولما دخل عليه واحد من الصحابة كان قد عزم على أن يوليه ولاية فوجده يقبل بعض ولده فسأله : أو تقبل أولادك يا أمير المؤمنين ؟

قال نعم . وأنت ألا تقبل ولدك ؟

قال : لا .

فقال الفاروق : وأنا لا أوليك ، من لا يرحم ولده لا يرحم رعيته .

صدقه وأمانته

الصدق يدخل فى تكوين هذه الشخصية الفذة ، شخصية سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، بحيث يظن من يقرأ سيرته العطرة ، ويشم عبير أقواله ، ويتذوق حلاوة مواقفه وأفعاله بسيطرة هذا الخلق النبيل على كل شمائله ، وبهيمنته على كل تصرفاته وكأنه عليه الصلاة والسلام قد خلقه الله سبحانه منها وصاغه من جوهرها ، بحيث أصبحت هذه الصفة ينبوع جميع أخلاقه ومنها الأمانة ، فالصدق والأمانة وجهان لحقيقة واحدة لا ينفصل أحدهما عن الآخر وكل منهما فى حقيقة واحدة .

والحديث عن صدق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه

وسلم وأمانته يعد من نافلة القول ، يشهد بذلك تاريخه قبل أن يبعث للعالمين نبياً ورسولاً ورحمة وهدى عليه الصلاة والسلام .

١ - ما ردَّدته أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها عندما أحبت أن تدخل عليه الطمأنينة بعد ما تلقى الوحى الشريف ولمست فيه خوفاً على نفسه فاستعرضت له صفاته التى استخرجتها من كنزه الثمين من الأخلاق أثناء عشرتها له فقالت « .. وإنك لتصدق الحديث » .

٢ - إن قريشاً بأجمعها كانوا يستودعونه أماناتهم قبل البعثة ، فلما بعثه الله سبحانه نبياً ورسولاً ، وأصبحوا له مخالفين جاحدين يناصبونه العداء ، كان هؤلاء يستودعونه أماناتهم ، بالرغم من هذا العداء ؛ لأنهم لا يجدون من بينهم من يتفوق عليه فى هاتين الصفتين المجتمعتين فى صفة واحدة وهى الأمانة فكانوا قبل أن يبعث يسمونه بالصادق الأمين .

ويشهد بذلك ما كان منه فى ليلة الهجرة عندما امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى بالانتقال إلى يثرب لمباشرة دعوته إلى الله من هناك ، أمر سيدنا علياً بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه أن يؤدى الأمانات التى كانت لديه لأصحابها بعد أن بين له هذه الأمانات بتفصيل عرفه بها وعرفه بأصحابها بكل دقة .

٣ - كان أبو سفيان بن حرب فى رحلة تجارية فى الشام على رأس قافلة من قريش ، وصادف ذلك وصول رسالة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى هرقل حاكماً يدعوه النبى إلى الإسلام ، فأحب أن يجمع معلومات عن هذا النبى الكريم ، فأمر حجّابه أن يأتوا له بأناس من العرب يسألهم عنه ، فتوافق ذلك فى شخص أبى سفيان ومن معه فأمر بإدخالهم عليه ، وأمرهم أن يختاروا منهم من يوجه إليه أسئلته ، فوافقوا على أبى سفيان ، فعندما سأله عن توافر الصدق فيه ، وعن بعده عن الكذب قال :

هو فينا صادق . ولم نجرب عليه كذباً . مع أن أبا سفيان كان على عداء

شديد مع سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فلم يستطع أن يسلبه صفة الصدق ، ولم يستطع أن يسند إليه كذبة واحدة وعلى ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام هو الصادق الأمين . قبل البعثة وبعدها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليهما ، وهما جناحا رسالته اللذان طارت بهما فغمرت برحمتها أرض الوجود .

الفضل ما شهدت به الأعداء :

روى أن الأخنس بن شريق لقى أبا جهل يوم بدر فقال له :

يا أبا الحكم !! ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا !!. تخبرنى عن محمد صادق هو أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، وفى هذه الواقعة تصديق لقول الحق عز وجل .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

ولا غرو فهو القائل :

« عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وان البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » .

ولقد كان لهذين الخلقين المتوفرين فى شخص سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أعمق الأثر فى نشر الإسلام ، وذيوع مبادئه ومثله العليا فى أرجاء الأرض على أيدى أصحابه الذين اقتدوا واقتفوا آثره وتخلقوا بأخلاقه فسعدت بهم الحياة .

وفــاؤه :

إن صاحب الشخصية المتكاملة يحتفظ دائماً لكل إنسان يتعامل معه برصيده من المعروف والعشرة الطيبة ، والمعاملة الحسنة ، وكلما مضى الزمن

يزيد هو فى الحرص على أن يوفى لصاحبه حقه فى صيانة الجميل ، والمحافظة على المعروف ويظهر ذلك فى سلوكه تجاه هذا الإنسان من ذكره بأطيب الطيب من الكلام ، والذكى من الأفعال ، حتى يشعر أنه فعلاً قد وفاه حقه ، ويطمئن إلى أنه أدى له واجبه نحوه .

وليس هناك من بنى الإنسان من يصل إلى مقام سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فى هذا الخلق النبيل ؛ لأنه ليس هناك من هو أولى منه بهذه الصفة النبيلة ، وهذا الخلق الرفيع .

وخلق الوفاء يتجلى متألقاً فى مواقفه عليه الصلاة والسلام .

١ - وفاؤه لأم المؤمنين
السيدة خديجة رضوان الله عليه

لقد أجمل عشرتها ، وأحسن صحبتها ، وأعزها إعزازاً لم تتطلع إليه كل امرأة فى التاريخ ، فلم يتزوج عليها فى حياتها ، فلما انتقلت إلى الرفيق الأعلى من الجنة حزن عليها ، وسمّى العام الذى ماتت فيه « عام الحزن » .

وقضى حياته كلها يكرم من كانت لهم صلة بها ، سواء فى ذلك أولادها من غيره أو ذوو قرابتها ، أو من كانوا يخدمونها وكثيراً ما كان يقول :

« اكرموا مثواها ؛ فإنها كانت تأتينا أيام خديجة » .

وبلغ تكريمه لذكراها وذكر مآثرها أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وكانت أثيرة عنده عليه الصلاة والسلام يحبها ويحترم عقلها ، ويخصها بعاطفة نبيلة - إنها كانت تغار كلما جاء ذكر أم المؤمنين خديجة وصرحت رضى الله عنها بذلك وقالت :

« ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها النبى إلى خلائلها ، استأذنت عليه أختها فارتاح إليها ، ودخلت عليه امرأة فبش لها ، وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة » .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يكرم أولادها من غيره ويصب عليهم الحنان صباً فيحيى فى قلوبهم زهور الوفاء يانعة .

حدث فى بعض الحوار بينه وبين زوجته الحبيبة لديه الأثيرة عنده أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها أ ن قالت عن أم المؤمنين خديجة :

« هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ؟ !

فرد عليها صلوات الله وسلامه عليه فقال :

« لا والله ما أبدلنى خيراً منها .. آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

هذه الكلمات التى تفيض بالعواطف النبيلة ، يعبق شذاها أرجاء الوجود ، ويستقبلها اللوح المحفوظ لتسطر فى صفحته كنزاً مركزاً لأم المؤمنين خديجة ، يتعطر منه ومن عبقه وجه الزمان ، فينعش المثل العليا ، ويبعث فى الصدور مكارم الأخلاق ، ويطمئن أهل الله ، أهل الفضل ، أهل الخلق العظيم فى كل زمان إلى رحمة الله ، وهم يسيرون على درب الحياة ... إنهم بطيب الفعال يذكرون ، وبالصالحات يكافأون ، ولقانون الله يطمئنون :

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (سورة الرحمن)

فإذا كان يوم القيامة ، ونصب الميزان ، ونشر كتاب أم المؤمنين خديجة ، وجدت ووجد أهل الفضل معها تلك الكلمات المفعمة بالحب ، المعطرة بالوفاء ، والصادرة عن نبى الوفاء ورسول السلام نقلت من اللوح المحفوظ إلى كتاب أم المؤمنين خديجة ، وهى تقرؤه قريرة العين ، فتعلم ويعلم الناس حصاد الوفاء .. ويعرف الناس أن هذه الكلمات كانت وفاءاً لكلمات قالتها له فى موقف كان يخشى على نفسه منه : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة » .

فهذه الكلمات ، وكلمات سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم التى حملت إلى أم المؤمنين عائشة ، وإلى كل مسلم مشاعره الطيبة تجاه أم المؤمنين خديجة ، كلها تصدر عن مشكاة واحدة .. هى خلق الوفاء نعم ما تمتعتم به من خلق كريم يا أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

٢ - وفاؤه للسيدة الجليلة
فاطمة بنت أسد زوج عمه أبى طالب رضى الله عنها :

جاء فى كتاب سير أعلام النبلاء للذهبى جزء ٢ ص ١١٨ تحت بند ١٧ :

« لما ماتت فاطمة أم على ألبسها النبى ﷺ قميصه ، واضطجع فى قبرها فقالوا : ما رأيناك يا رسول الله صنعت هذا !! فقال :

« إنه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبر بى منها ، إنما ألبستها قميصى لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهوّن عليها » .

ولقد قرأت فى كتاب « زاد الميعاد » لابن القيم أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعد وضعها فى قبرها دعى الله بهذا الدعاء .

« اللهم إنك تعلم أن أمتك هذه قد جاعت لأشبع ، وتعرت لأكسى ، وسهرت لأنام ، وتعبت لأستريح ، اللهم إنى أسألك بحق نبيك ورسولك محمد وبحق الأنبياء من قبله أن تغفر لها ، وأن ترينى مكانها فى الجنة ، ولم يخرج من القبر حتى اطمأن عليها وأراه الله مكانها فى الجنة » .

ولقد فعل ذلك سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم مع هذه السيدة الجليلة وفاء لها حيث كانت زوجة عمه أبى طالب الذى كان قد ضمه لأولاده بعد وفاة جده عبد المطلب ، فكانت تخصه بعناية فائقة فى مأكله وملبسه ، وتمعن فى الإحسان إليه ، فهو قد أراد أن يرد إليها صنيعها به فى أيام صباه والذى نقش على قلبه الشريف ذخيرة لها نفعها بشىء عظيم فى لحظة كانت هى أحوج ما تكون إليه إلا وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

نعم ما فزت به أيتها السيدة الجليلة جزاء من ربك عطائاً حساباً ، على ما زرعت فى تربة فؤاد نبينا الخصبة من فعال طيبة ، وصنائع جميلة ألحقتك بأم المؤمنين خديجة رضى الله عنها .. هناك فى الرفيق الأعلى من الجنة بدفعة نبوية محمدية ، دفعك بها أشرف الخلق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

٣ - وفاؤه لأمه فى الرضاع
حليمة السعدية وأولادها وزوجها

فقد كان يبسط لهم رداءه عند استقباله لهم ، فقد روى عن عمر بن السائب أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام فأجلسه بين يديه . وأكرم الشيماء أخته فى الرضاعة عندما جاءته أسيرة فى أسرى قبيلة هوازن ومتعها وأرسلها إلى قومها .

٤ - معاملته لوفد النجاشى ملك الحبشة

فى أبهى صورة للوفاء ، وأوضح سلوك يدل عليه ، تبدى فيه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم كوكباً مضيئاً من كواكب الخلق السامى ، يوم جاء إلى المدينة وفد النجاشى ملك الحبشة فى ضيافة الرسول الأكرم والنبى الأعظم عليه الصلاة والسلام .

والنجاشى ، هو الذى أحسن معاملة المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، حيث أحسن استقبالهم وأكرمهم وأمنهم من بطش قريش ومن أذاها .

فعندما حضر وفده ضيوفاً على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، أكرم وفادتهم ، وقام بنفسه يخدمهم ، فقال له بعض الصحابة : نكفيك يا رسول الله خدمتهم ، فقال لهم الوفى الأمين ﷺ :

« إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأحب أن أكافئهم » .

تواضعه صلى الله عليه وسلم

التواضع خلق جميل ، إذا تحلّى به المرء زانه ، وجمع الناس حوله ، وأوجد السلام الاجتماعى بين الأفراد ، فإذا تزين به من يملك أسباب القوة والقهر ، يحول المجتمع إلى بستان وتصبح الأرض حدائق ذات بهجة تغرد فيها البلابل ، وتزدهر فيها الورود ، وتطيب على أشجارها الثمرات .

ولم يتحقق التواضع كاملاً محققاً لكل الناس السعادة ، إلا فى شخص واحد هو المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة ، وهو أشرف الخلق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، صدرت عن هذا الخلق الرفيع أقواله ، ونبعت منه أفعاله ؛ فطيب بها قلوباً كثيرة ، ورفع به قيمة نفوس ضعيفة ، وحبّب الضعفاء فى الحياة إذ أدناهم منه ، وقربهم إليه ، وسمع حديثهم ، وتحدث إليهم ، فتفتحت على جوارحهم أزهار الإنسانية الرفيعة ، فسعدوا بالحياة عندما سعدوا بصحبته الغنية الثرية بكل ما عرف الناس عنه من فضل وفضيلة ، قال لهم ولكل الناس :

« لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله !!

روى الإمام الفضيل بن عياض : « كتاب الشفاء » عن أبى إمامة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا فقال : « لا تقوموا كما تقوم

الأعاجم يعظّم بعضهم بعضاً ؛ إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » .

* كان ﷺ يركب الحمار ، ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيث انتهى به المجلس جلس .

* جاءته امرأة فى عقلها بعض الخلل (إعاقة ذهنية) فقالت : إن لى إليك حاجة : قال : اجلسى يا أم فلان ، فى أى طرق المدينة شئت اجلسى ، أجلس إليك حتى أقضى حاجتك . قال : فجلست ، فجلس النبى ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها .

* حج ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة ، ما تساوى أربعة دراهم فقال : « اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة » .

* كان فى بيته فى مهنة أهله : يحلب الشاة ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ويخدم نفسه ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

* دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال : « هون عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

* عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

« دخلت السوق مع النبى ﷺ فاشترى سراويل . وقال للوزان : زِنْ وارجح وذكر القصة ، فوثب إلى يد النبى ﷺ يقبلها فجذب يده وقال :

هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال : صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله .

وقد انطبع هذا الخلق العظيم على قلوب صحابة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، فلم يغادرهم التواضع ، ولم يتخلفوا عنه ، ولم يتخلف عنهم ، مهما قويت سطوتهم ، وعظم سلطانهم ، فقد ملكوا الأرض

مشارقها ومغاربها ، وهوت تحت أقدامهم تيجان الملوك ، وتدحرجت رؤوس الطغاة والمتجبرين أمامهم في ميادين القتال ، وسلسل لهم مردة القادة الجبارين العتاة ، وأقبلت عليهم الدنيا فحشدوا فيها ما أنجزته حضارات من قبلهم من أسباب الثراء ، وعوامل العز ، والكبرياء ، والغرور . وما زادهم هذا كله إلا تواضعاً ، وما صرفهم ذلك عن أخلاقهم التي طبعها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم على جدران قلوبهم ، والتي تسطع من حروف القرآن الكريم في قوله عز من قائل في الآية :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة القصص)

اللهم زدنا من هذا الزاد الذى نتلقاه من سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وأسعدنا به كما أسعدت به أصحابه يا رب العالمين .

عفته صلى الله عليهم وسلم

وأما عفته ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ فحدث عنها ولا حرج .

فهذه العفة والتعالى على زخرف الدنيا وزينتها ، ولعبها ، ولهوها ، وشغلها لعقول الناس ، فإنها صحبته منذ طفولته وصباه إلى أن لحق بالرفيق الأعلى من الجنة .

١ - عفته ﷺ مغروسة فى كيانه جزءاً منه ؛ لأن العفة مجمع لما بقى من أخلاق ، وهى لازمة له لزوم الشيء للشيء ؛ لأنه نبى ورسول يدعو إلى الله ، ويأخذ بيد الإنسان إلى مراتب الكمال ، ولذلك فهى كانت حفاظاً من الله سبحانه وتعالى وصيانة له من اللهو ؛ ولأن اللهو هو متنفس الشهوات والعواطف السلبية ، فقد نزه الله نبيه ورسوله محمد صلى الله تعالى عليه وعلى

آله وصحبه وسلم عنه منذ طفولته الطاهرة ، وحكمته فى ذلك أنه يعده ليكون المثل الأعلى للإنسان فى كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٢ - وهو صبى وجد فى نفسه رغبة فى مشاهدة عرس فيه لهو ، فأنعم الله عليه بنوم أصابه براحة ، ولم يستيقظ حتى الصباح ، وعندما أيقظته الشمس عند الضحى وكان السامر قد انقضى .

٣ - قد وهبه الله سبحانه وتعالى قدرة على السيطرة على نفسه مكنته من العزوف عن اللهو ، فهو قد منح العصمة التى يتمتع بها الأنبياء باعتبار العصمة هى حصن الأخلاق الحصين ، فسبحان من منحه إياها حفظت له منظومة أخلاقه السامية ، ونزهته ونزهت نفسه وخلقه عن الهوى ، فواصل القول العفيف والفعل العفيف طوال حياته فما ينطق عن الهوى ، سجل هو بنفسه واقعتين تؤرخان لهذه العفة الموهوبة له فى الحادثة المذكورة ، فقال فيما يرويه الإمام الفضيل بن عياض فى الجزء الأول من كتاب الشفا فقال :

« قلت ليلة لغلام كان يرعى معى ، لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فاسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست أنظر فضرب على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت ولم أقض شيئاً . ثم عرانى مثل ذلك ، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء .

شجاعته صلى الله عليه وسلم

الشجاعة وسط عدل بين التهور والجبن ، وكلاهما رذيلة ، وهى خلق ذوى الهمة والعزم من الرجال ، أو هى كما قال الإمام الفضيل بن عياض : هي فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل ، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف ، وقد تميزت أقوال سيدنا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وأفعاله ومواقفه بشجاعة لا تظهر بغيره ولا يظهر بها غيره ، ومن مواقفه الدالة على ذلك ما يأتى :

١ - رده على عمه أبى طالب يوم جاءت قريش تساومه فى أمره

مشى إلى أبى طالب نفر من عظماء قريش أزعجهم ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم من دعوة لعبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام ، والأوثان ، وأحضروا معهم عمارة ابن الوليد بن المغيرة الذى كان أقوى فتى فى قريش ، وكان أجمل أقرانه ، وعرضه القوم على أبى طالب أن يتخذ عمارة ولداً فى مقابل تسليمه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم لهم ، ومبدين استياءهم من شتم آلهتهم وسبها وقالوا :

« أنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فلما رأى أبو طالب الغدر فى أعينهم ، وظهر له إصرارهم على ما هم فيه من ضلال قال أبو طالب لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم : « فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

وهنا ... سكت سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قليلاً وقال : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » .

لقد تدفقت أنوار هذه الكلمات الحاسمة من معين الشجاعة التى أوتيها أشرف الخلق سيدنا محمد بن عبد الله نبى الله ، وحبيبه ، ومصطفاه ، ففرح بها الزمان والمكان ، ومعهما الملأ الأعلى ، وموكب الأنبياء ، والمرسلين ، بل فرح بها كل ما خلق الله سبحانه وتعالى من عوالم ، حتى الوحوش فى القفار ، والحيتان فى البحار ، والأسماك فى الأنهار ، والطيور فى الأوكار ، وغنت بها البلابل فوق الأشجار ، وَرَدَّدَت كل هذه الكائنات لحن التوحيد العظيم ... لا إله إلا الله .... محمد رسول الله .

وكيف لا ؟ وقد انقطع بذلك حبل الأمل عند أهل الضلال فى بقاء ظلام الشرك مخيماً على أرض الوجود ، وأذن مؤذن الفجر ينشر أضواءه تمحو خيمة

ذلك الظلام .. وتشق السماء عن شمس الإسلام بأشعتها المتوهجة تسرى فى عروق الإنسان حياة مضيئة ، حارة ، متدفقة تسوق أمامها جحافل الظلام إلى مقبرة التاريخ تاركة المكان لمواكب النور تسطع وتهدر بأنشودة المجد لله المجيد .

الله أكبر ... الله أكبر ... أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن محمداً رسول الله !!!

لقد انبهر أبو طالب بشجاعة ابن أخيه ، وأخذ بهذه الكلمات التى أقرت فى وجدانه ثبات هذا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ورباطة جأشه ، وقوة إيمانه ، وعمق الصلة بينه وبين ما يدعوا إليه ، وأيقن أن قوة قريش مهما عظمت فلن توقف هدير الإيمان فى قلب محمد عليه الصلاة والسلام . وأن محمداً يمثل كلمة الله ، وقضاءه وقدره سبحانه وتعالى ... وكلمة الله هى العليا ، وقضاؤه حتمى النفاذ .

فلما وجد ابن أخيه يغادر المكان مصمماً على المضى فى الدعوة إلى الله ناداه وقال : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً » .

ومضى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فى طريقه داعياً ومجاهداً ، إلى أن وصل بالإنسانية إلى ربها ورب الوجود .

٢ - يوم حنين

سأل رجل البراء بن عازب أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ ؟ قال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر . ثم قال لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان ابن الحارث أخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول : أنا النبى لا كذب !!! أنا ابن عبد المطلب !!! .

وحتى نعرف هذا الموقف الذى ظهرت فيه شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وثباته ، علينا أن نلقى نظرة على أرض المعركة لنرى جيشاً كثيفاً جيّشه مالك بن عوف من ثقيف ، وهوازن ، ونصر ،

وجشم ، وهى قبائل تمرست فى الحرب وعرفت أساليبها ، ومارست من قبل خططها ، فتكونت عندها خبرة تكفل لها النصر .

وأفراد هذا الجيش العرمرم كلهم مقتنعون بما عزموا عليه من كسر شوكة المسلمين الذين فتح الله لهم مكة ، وأتم لهم النصر ، ومكنهم من تحطيم الأصنام ، ورفع لواء الإسلام ، وبسطه على ربوع مكة كلها ، وأذن بلال بالمسجد الحرام وعلا صوته مدوياً فى أرجاء الوجود إلى الأبد . . .

– أشهد أن لا إله إلا الله . . . أشهد أن محمداً رسول الله . . .

فزعت هذه القبائل وخافت أن يحيق بها ما حاق بأهل الكفر من قريش ، وخشيت سطوة المسلمين ، فاستعدت بقيادة مالك بن عوف النضرى لحرب وقائية يكسرون بها شوكة المسلمين ، والتزموا أعالى الجبال ، ليتمكنوا من الانقضاض على المسلمين إذا نزلوا الوادى انقضاضة تخلخل صفوفهم ، وتزلزل أقدامهم ، وتسودهم الفوضى ، فيتحقق لهذه القبائل نصر يكون له فخراً فى بلاد العرب .

وأما المسلمون ، فما زال انتصارهم فى مكة يملأ أنفسهم نشوة ، ويغمر قلوبهم سرور ملأ عليهم الدنيا ، فرحا بالنصر من جهة وبكثرتهم من ناحية .

فأقبلوا فى حشد هائل من الجنود لم تسمع به العرب من قبل ، ولا شهدت مثله الجزيرة العربية ، فأفضوا بالتغنى بكثرتهم ، وتفشى فيهم الشعور بأنهم لن يغلبوا فى هذا اليوم من قلة .

ونزل جنود الإسلام إلى الوادى ، فبادرت قوات القبائل بقيادة مالك بن عوف ونفذوا فيهم خطتهم فاضطربت صفوفهم ، واختلط الحابل بالنابل ، وآثر بعضهم الفرار حيًّا . . . حتى ظن أبو سفيان أنهم لن يكون لهم خلاص إلا البحر . . . وواتت الحاقدين فرصة ينفسون فيها عن حقدهم بعبارات تقطر شماته ، ولما رأى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه عم سيدنا رسول الله ﷺ ما آل إليه حال المسلمين من فرار من الميدان طلباً للنجاة من إراقة دمائهم ، وتراجع صفوفهم عن

سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم : صاح فيهم بصوته الجهورى ينادى كل فريق بمزاياه من أنصار ، وأصحاب بيعة العقبة ، والمهاجرين ، فذكر كل منهم مواقف سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وثباته عند النزال ، فثابوا إلي المعركة من جديد ، وواجهوا أعداءهم بقلوب مفعمة بالإيمان ، وأعملوا السيوف والرماح في نحور الأعداء .

وسيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يشد من أزرهم وهو يصيح فى الجيمع :

أنا النبى لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب ، فسرت في المسلمين روح غير عادية جعلتهم لا يخشون الموت ... فتصايحوا بالأسماء وبالقبائل حتى تحقق النصر ولاذت فلول الأعداء بالفرار .

وأنجز الله وعده .. ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وكان أول أسباب النصر : شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وثباته الذى لولاه لانفرط العقد ، ولا أفلح هذا العدد فى تحقيق هزيمة فى صف المسلمين ولكن الله الذى يحب سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم حقق النصر الذى لا يطفأ نوره إلى الأبد .

٣ - يــوم أحد

تحقق نصر المسلمين فى صباح يوم أحد عندما امتثلوا لأوامر سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يكفى في وصفه ما اجمع عليه المؤرخون أنه معجزة من معجزات الحرب ، وذلك بفضل الله سبحانه علي نبيه ومصطفاه محمد ﷺ الذى تجلت مهارته الحربية فى وضعه الرماة فى شعب « جبل أحد » يصدون عن المسلمين الفرسان من أهل الكفر والضلال ، وكان هذا ضمانة من ضمانات النصر ، وقد كان للإيمان دوره المتألق فى هذه المعركة ؛ إذ أن جنود الإسلام فى هذا اليوم ستمائة بينما الذين هاجموهم من أهل الكفر ثلاثة

آلاف يتفوقون على عدد المسلمين عدة وعتاداً ، فالإيمان بالله وبرسوله وهب المسلمين قوة عزيمة ، وجمال صبر ، وثبات أفئدة ، فأقبلوا على القتال يتعجلون النصر أو الجنة ، وقد نفخ فيهم سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم من روحه ، فمزقوا صفوف أعداء الله وأعداء الإسلام ، واعملوا فيهم القتل ، وأوشكو أن يأسروا نساءهم لولا فرارهم فتابعوهم وقد تركوا من خلفهم غنائم وأسلاب بلغت من الكثرة أن أغرت العديد من جند المسلمين أن ينتهبوها .

وهنا حدثت غلطة كبرى كان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يحذرهم ويحذر منها ، فقد لعبت الغنائم بعقول البعض من الرماة الذين ألزمهم شعاب الجبل ؛ فجعلتهم يغادرون أماكنهم لجمع هذه الغنائم وهذه الأسلاب ، وحيازتها لأنفسهم مما حدا بجند الأعداء أن يكروا عليهم وعلى إخوانهم .. فأعملوا فيهم السلاح ؛ يقودهم خالد بن الوليد .. فأحدث فيهم كارثة كان حصادها الأرواح ، وانقلب الحال فبعد أن كان المسلمون يحاربون بالإيمان للنصر أصبحوا يقاتلون للنجاة ، فتمزقت صفوفهم ، وسادت الفوضى ، وانفرط العقد وعمت الرؤية ، وليس بعيداً أن يقتل المسلم ، وطارت القوم فى إشاعة بموت سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وطرب لها الكفار ، وحرص كل منهم على أن يكون له نصيب فى قتله ، أو على الأقل يراه بعينه ميتاً ..

أما المسلمون فقد تحلقوا حول نبيهم عليه الصلاة والسلام يفدونه بأرواحهم التى جادوا بها غير هيامين ولا خائفين ، وسرى فى دمائهم حب الموت فتولدت فى قلوبهم الاستماتة فى الدفاع عنه ، وبالرغم من ذلك فقد وصله أذى الكفار فأصيب بجراح سخينة ، شج فى وجهه وسقطت رباعيته ، وجرحت شفته ، ودخل مغفره الذي يستر به وجهة في وجنتيه وسال دمه الزكى .

وبرزت في هذه الفوضى أم عمارة الأنصارية تستل سيفاً تدفع به الشر عن

سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وهو عليه الصلاة وأزكى السلام يرمى بالنبل ليدفع عن أصحابه ويلات هذه الحرب الضروس ثابتاً لا يتزعزع ، قويا لا يضعف ، شديداً لا يلين ، فقد صاح فى القوم كعب بن مالك قائلاً« يا قوم أبشروا فإن رسول الله ﷺ حى لم يمت.» .

فنبهت هذه الصيحة بعض كفار قريش ومنهم أبىّ بن خلف لعنه الله حيث أصر على قتل سيدنا رسول الله ﷺ فناجزه الرسول ﷺ بطعنة نافذة سلمته للموت وهو فى الطريق إلى مكة ، بل إلى جهنم وبئس المصير .

وتجلت فى هذا اليوم شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وثباته وهما متولدان عن ثقته بربه العلى الأعلى ، وتوثقه من ظهور هذا الدين الحنيف على الدين كله ، فإذا تعرض لبلاء يغيب النصر عنه هذه المرة ، بعد أن انفلت بعض أصحابه الكرام من أوامره ، فإن الله سبحانه وتعالى كفيل بأن يعوضه عن ذلك بنصر قريب ، وما ذلك على الله بعزيز ، وسرعان ما انتقلت هذه المشاعر إلى أصحابه فانقادوا له يطاردون عدو الله وعدوهم ، فعادت الثقة إلى جيش الإسلام .

فزع أهل المدينة ذات ليلة متأثرين بصوت غير عادى كأنه ينذر بخطر ، فانطلقوا وكل يريد أن يقف على هذا الصوت مصدر هذا الخطر المحتمل ، فتلقاهم سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم راجعا بعد أن سبقهم جميعاً إلى مصدر الصوت وطمأنهم قائلاً : « لا تراعوا » .

قتله لأبى بن خلف لعنه الله :

عندما أسر أبى بن خلف يوم بدر ، وكان من ألد أعداء سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وقدم الفداء الذى فك به أسره ، وأعتق من القتل ، توعد سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بقتله زاعماً أن عنده فرسا يعلفها كل يوم فرقا من ذرة يقتله عليها فأنذره النبى ﷺ بأنه هو الذى يقتله إن شاء الله .

فلما رأى هذا الملعون سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - يوم أحد - شد على فرسه عليه فاعترضه جنوده فأمرهم أن يخلوا له الطريق وتناول عليه الصلاة والسلام حربة انتفض بها انتفاضة أبعدت الناس عنه ، فطعن أبي بن خلف طعنة دكت عظامه قبل تمزق لحمه ، فعاد إلى قريش صائحاً :

« لقد قتلني محمد » وهم يواسونه ، لكنه كان واثقاً من أنه قتل وقال : « لو كان ما بي في جميع الناس لقتلهم . أليس قد قال : « أنا أقتلك ؟! والله لو بصق على لقتلني » .

ومات بمكان اسمه سرف أثناء عودتهم إلى مكة .

وشيعوه إلى جهنم وبئس المصير . إنه عدو الله ، وعدو رسوله ، وعدو الإسلام والمسلمين .

وهكذا برزت شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم في ساعة المحنة والبلاء ، ودماء الشهداء تغطي رمال الوادي في أحد ، كما سطعت في كل مكان وزمان .

حياؤه صلى الله عليه وسلم

عرف الإمام الفضل بن عياض الحياء فقال :

« الحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته ، أو ما يكون تركه خيراً من فعله » .

وبهذه المثابة كان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أشد الناس حياء ، وفي المأثور عن أصحابه رضي الله عنهم :

« كان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها » وفي الصحيح عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها : « لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، ولا سخّاباً

بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة . ولكن يعفو ويصفح ، وكان لا يثبت بصره فى وجه أحد .

وقد شهد الله له عليه الصلاة والسلام بتغلب هذا الخلق عليه فى أقواله وأفعاله ومواقفه ، فقال فى الآية من سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ولا يوجد علي الأرض من هو أولى من سيدنا رسول الله ـ صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ بهذا الخلق الذى تحتشد فيه جميع مكارم الأخلاق ، وتجتمع فيه كل الفضائل ، وتتراجع بواسطته جميع الرذائل ، وعن طريقه يتفجر الخير فى المجتمع ، وتغيض منابع الشر ويتحقق على الأرض السلام .

* * *

الفصـل الثانى

أخلاق سيدنا رسول الله ﷺ

فى الحرب

الحرب عند سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم استثناء يرد على قاعدة عامة : هى الحب والسلام والإخاء بين أفراد بنى الإنسان وضرورة عن طريق الآخذ بها ، والحكم على مقتضاها يستقيم المُعوجّ ويعود إلى الفطرة التى فطر الله الناس عليها من الحق والعدل .

والاستثناء كما يقال لا يتوسع فى تفسيره ، والضرورة تقدر بقدرها ، ولن يخدمان حقيقة من حقائق الإسلام التى أرساها الله سبحانه وتعالي فى وجدان نبيه ورسوله ومصطفاه من خلقه سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم . والتى تسطع سورة الأنعام :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وإذن فالحرب شرعت فى الإسلام لتقويم نفوس اعوجت فظلمت ، وعميت فضلت ، وقويت فطغت ، وملكت فبغت ، وبصّرت بالحق فاعتدت ، وللباطل انتصرت ودافعت ، وعلى العدوان أصرت ، وللقتال دبرت وأعدت ، وللخراب سعت وهاجمت ، فكان لابد لها أن تفيق من هذا الغرور ، وكان لابد للحق أن يعلوا ولا يعلى عليه ، وكان لأهل الحق أن يتيقنوا أنهم على الحق وأن الله وهو الحق على نصرهم لقدير :

أى أن هدف الحرب فى الإسلام تقليم أظافر المعتدى الغاشم ، والقصاص منه وان بدت فيه قسوة على هذا الظالم ؛ ففيه رحمة بالمظلوم ، واجبة له ، ليشعر بالأمن والطأنينة وعلى ذلك فإن نبى الله ورسوله لم يحارب للحرب ذاتها ولم يخرج في حياته لحرب عدوانية ، وإنما حارب لرد اعتداء المعتدين ، ودفع ظلم الظالمين ، على هدى من آيات الله وأحكامه التى جاءت بالقرآن الكريم .

١ - ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة الحج)

٢ - ﴿ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (سورة النساء)

٣ -

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٤ -

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

٥ -

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٦ -

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

(سورة التوبة)

٧ -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

٨ - ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

٩ -

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

١٠ -

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

١١ -

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

١٢ - ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحديد)

١٣ -

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

١٤ - ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفتح)

١٥ -

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

١٦ -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

١٧ -

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الصف)

١٨ -

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

١٩ -

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة التوبة)

٢٠ -

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٢١ -

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

٢٢ -

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٢٣ -

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

٢٤ -

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

٢٥ -

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾

(سورة النحل)

٢٦ -

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ
وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾

(سورة الأنفال)

٢٧ -

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ
وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) ﴾

(سورة الحج)

صدق الله العظيم

لقد تعمدت أن أدوّن جميع آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الحرب ، باعتبارها جهاداً فى سبيل الله ، وتتضمن دستورها وتحدد طبيعتها ، وترسم قواعدها وأحكامها التى يلتزم بها مجتمع المسلمين ، وتتقيد بها دولتهم ، وحتى تتم الفائدة فلابد من بيان هذه الأحكام وهذه القواعد التى يتعين الالتزام بها ، وعدم تجاوزها ، فلابد من اللجوء إلى السُّنة النبوية الشريفة ، لنقف على معالم هذه الحرب ، وعلى هَدْى سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. فهيا إليه لنتعلم !!

١ - عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أى ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أى .

قال : الجهاد فى سبيل الله . (مُتَّفَقٌ عَلَيْه)

٢ - وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، وجبت له الجنة » ، فعجب لها أبو سعيد . فقال : أعدها على يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال :

وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله ، الجهاد فى سبيل الله » .

٣ - عن أبى موسى رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ! الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه . فمن فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

(متفق عليه)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

٤ - وعن عقبة بن عامر الجنى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى » .

(رواه مسلم)

الأن وبعد أن اطلعنا على جميع الآيات القرآنية التى ورد بها ذكر الحرب والجهاد ، وبعض الأحاديث الشريفة المروية عن الثقات ، والتى تبين طبيعة الجهاد فى سبيل الله والتعريف به ، وبأحكامه فإننا نتكلم عن مشروعية الحرب فى الإسلام وبواعثها والأهداف التى ترمى إليها ، وعن الأخلاق التى يتحلى بها المجتمع الإسلامى ممثلاً فى جيشه ، قادة كانوا أم جنود .

* * *

مشروعية الحرب

الحرب دفاع عن الإسلام وعن المسلمين :

الأصل أن الإسلام دين ؛ ومعنى أنه دين إنه ، دعوة ورسالة تتضمن حكم الله سبحانه وتعالى عقيدة وشريعة وأخلاقاً ، وعلى هذا فإن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعث نبياً ورسولاً وداعياً إلى الله بإذنه قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

وقد كان ﷺ أشد الناس تواضعاً وأعدمهم كبراً ويكفى أنه خير بين أن يكون نبيا ملكاً ، أو نبياً عبداً ، فاختار أن يكون نبيا عبداً فهو فى جوهره رحمة الله للعباد ، وإنه بالدعوة وصل الإسلام إلى كثير من عباد الله الصالحين ، وليس فى حاجة إلى سيف يبلغ به هذا الدين ، ولا إلى رمح يعلم الناس آدابه وأحكامه . وإنه ظل على عهده بالتجمل بالصبر ، والتحلى بالعفو ، والسعى بالرحمة سنوات الدعوة كلها ولم يرفع فى وجه أحد سيفاً ، ولم يلوّح أمامه برمح .. حتى وهو وأصحابه الكرام يعانون فى مكة أوجع التعذيب ، ويقاسون الهوان والتهوين .

والثابت بيقين من تاريخه الجميل ، ومن تتبع مشيرته أنه لم يكره أحداً على اعتناق هذا الدين الحنيف ، بل ظل يدعو إليه ممتثلاً لأمر الله عز وجل فى سورة النحل :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا هو الأصل فى دين الإسلام ؛ وعلى ذلك فإن السلام هو الأصل ، والحرب هى الاستثناء ، ومن هنا فإن للحرب دواعيها وأسبابها التي لا تمثل القواعد العامة فى التعامل مع الإنسان ؛ وإنما هي تشريع استثنائى اقتضته ضرورة لحماية الدين الحنيف ، وحماية المؤمنين به فى حالة الاعتداء على أى منهما ، وفيه تتمثل العدالة فى أبهى صورها وأكمل معانيها .

وفى هذه الحالة - حالة العدوان من الغير - تكون الحرب هى العلاج الوحيد - والطريقة الوحيدة للقضاء على العدوان وحفظ الحقوق المهددة بالضياع ، وحفظ النفوس المهددة بالعدم ، وحفظ القيم الرفيعة المهددة بالزوال ، وحفظ الحياة المهددة بالفناء ، فإذا ما تقاعس القائد لجيش الدين الذي هو الحق عن خوض هذه الحرب ؛ فإنه يكون قد قصّر فى أداء واجب شرعه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ويسأل عنه يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ ذلك لأنه قد اشترك مع المعتدى فى الظلم بخضوعه له ، والسكوت عن مقاومته ، ويكون مثلاً سيئاً لأمته حيث يجبرها على تقبل الذل والهوان .

وفى ضوء ما تقدم يتبين بجلاء أن دستور الحرب فى الإسلام يقوم على القواعد الآتية :

أولاً - الباعث عليها :

هو رد العدوان ومقاومة الظلم :

١ - قال الله تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾

(سورة البقرة)

٢ -

﴿ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾

(سورة النساء)

من هذه النصوص القرآنية يتضح أن الحرب شرعت لحماية هذا الدين بالدفاع عنه إذا ما سولت لأى فرد نفسه أو حدثت أى مجتمع نفسه الاعتداء عليه ، أو محاولة النيل منه ؛ وكذلك إذا حاول فرد أو مجتمع مهاجمة الناس فى المجتمع الإسلامي ، أو الاقتراب من الضعفاء من الناس بسحقهم أو اكتساحهم وهضم حقوقهم ، بإذلالهم أو قهرهم ، فيجأرون بالشكوى من الظلم والبغي والفساد ؛ فيكون السكوت على ما يعانونه من الخسف والتنكيل ، نوعاً بشعاً من الظلم وتكون المبادرة إلى نصرتهم وتمكينهم من حقوقهم ، عملاً نبيلاً ، وسلوكاً فاضلاً مهما صحبه من استعمال للقوة الرادعة التى تقطع يد الطغيان ، وتحطم كيان الظلم .. وإذن فالحرب هنا فضل وفضيلة .

ثانياً - تأمين الدعوة الإسلامية :

عندما تنبه أعداء العدالة الإلهية إلي حقيقة الدعوة الإسلامية ، وأنها تحمل للإنسانية التحرر من عبادة الأوثان والاقتصار على عبادة الله وحده واجد الوجود والمستحق للعبادة دون سواه .

وما تنطوى عليه من المساواة بين الناس ، وأنه لا فضل لعربى علي أعجمى إلا بالتقوى ، وأن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان سبة يتعين أن تختفى ، وأنه لا سبق للإنسان فى مضمار الحياة ، إلا بعمله الصالح ، يقدمه مساهمة فى مسيرة المجتمع يبتغى به وجه الله ، وأن العدل هو أساس الملك ، فالقوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له فالكل أمام الشريعة سواء . وباختصار عندما أحس الطغاة أفول نجم مجتمع الطغيان ، وزوال عهد الأنانية والتسلط ، وبزوغ فجر الحضارة الذى سطر بأضوائه حقوق الإنسان على هامة الزمان .

عندما أزعجهم وهج شمس الإسلام تُحوِّل ليل الصحراء إلى نهار ، كشف ما عندهم من رخيص الزاد ومن أتفه المتاع .. تجمعت فلولهم ، وتوحدت آراؤهم على وأد هذا الدين ، فنظموا أنفسهم حرباً عليه ، واستعانوا على ذلك بتكوين الأحزاب والأحلاف ، مع اختلاف انتماءاتهم ، ومذاهبهم ومللهم ونحلهم التي

يناقض بعضها بعضاً ولم تلتقى إلا على هدف واحد ، هو التخلص من هذا الدين ، بالقضاء على نبيه ﷺ وعلى المؤمنين به .

فكان لابدمن التصدى لهؤلاء الحاقدين أعداء الله ، وأعداء الدين ، أعداء الحياة تأمينا للمسيرة الظافرة التى تحمل في أيديها الخير كل الخير للإنسان على مدى الدهر حتى يقوم الناس لرب العالمين .

ثالثاً- حكمة سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وتريثه عند لقاء العدو :

فإنه كان يتذرع بالصبر ، ويلتزم بالأناة ، ولا يعاجل عدوه بالضرب . حتى تظهر قوته ويقوم بقتل أحد جنود الإسلام ، وكان يقول لجنوده .

- لا تقاتلوهم حتى تدعوهم . فإن أبو ، فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم فإن بدأوكم ، فلا يقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ، ثم أروهم ذلك . وقولوا لهم هل إلي خير من هذا سبيل ؟! فلأن يهدى الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت .

كل هذا فى وصية سيدنا رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ، وقد أرسله إلى اليمن قائداً . إن سيدنا رسول الله ﷺ نبي ورسول صاحب دعوة ورسالة وهمّه الأول هو تبليغ هذه الرسالة وغرس مبادئها فى النفوس ، وتزيين القلوب بعقيدتها ، وتزكية الوجدانات بشريعتها ، وتعطير الجوارح بأخلاقها ، هذا هو همه ، وهذا هو هدفه ، وهو يعلم أن العقل هو الوعاء الحقيقى لعلم هذه الرسالة ، وأن القلب هو البوتقة التى تتلقى رحيقها . فإذا استطاع أن يصل إليهما ، ونجح فى نقشها على هذا العقل ، وأفلح فى صب رحيقها فى القلب ، فإنه يكون فى غنى عن استعمال السلاح ، وإذا أصر العدو على غلق عقله ، وإحكام الحجاب على قلبه ، ولم يعد يقبل المسالمة وأصر على العدوان ، وبرزت نيته السيئة فى عمل ظاهر للعيان بقتل أحد الجنود فى الصف المسلم ، عند ذلك لم يبق إلا السيف حكماً بينه وبين العدو المتربص به ، المصر على إلحاق الضرر به ، وبالدين ، وبالمؤمنين .

رابعاً ـ الالتزام بالرفق :

إذا حمى وطيس الحرب ، واشتد أوار المعركة ، وثار النقع ، وتصايح الفرسان ، واشتد الغضب وعلت الأصوات بالنذر ، وظن المراقب للمعركة أن شبح الموت يصول ويجول ، يرى بقلبه وناظريه ملك الرفق يضئ بوجهه سماء المعركة ، وتفتر أسنانه عن ابتسامة تبعث الأمل في النفوس ، لأن الرفق والرحمة هما جوهر هذا النبى وهما فى ذاته المعدن والأساس ، فهو القائل « أنا نبى المرحمة .. وأنا نبى الملحمة » .

ودائماً ترى سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم متفائلاً تفاؤل مشرق القلب ، وقوى الإيمان ، بإدخال الهدى قلوب الآخرين ، وتأليف هذه القلوب ، حتى وإن تقاطعت السيوف ، واشتجرت الرماح ، وصال شبح الموت وجال فى المعركة ، وعن هذا التفاؤل ، ومن مشكاة هذا الإشراق خرجت للعالمين أنوار هذه الوصية ، ومن وصاياه التى كان يزود بها أصحابه فى وقت التحامهم بجند العدو .

* « تألفوا الناس ، وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتي تدعوهم ، فما على الأرض من أهل مدر أو وبر ، أن تأتونى بهم مسلمين ، أحب إلىَّ من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » .

حقًّا إنه نبي ورسول ، وليس مقاتلاً من أجل المال ، وليس متعطشاً للدم ، ولا راغباً فى الانتقام ، كما يقول أصحاب النفوس الحاقدة ، والأقلام المأجورة ، والعقول الآسنة فى الشرق ، والغرب .

خامساً ـ حرصه ﷺ على تنمية الحياة وازدهار المسيرة الإنسانية :

كانت وصاياه المتكررة لجنود الإسلام بالمحافظة على الأنفس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وينهاهم فى حزم عن إتلاف الزرع ، وعن قطع الأشجار ، وينهاهم كذلك عن قتل الضعاف من الذرية والنساء ، والرجال الذين ليس لهم رأى فى الحرب ، ولم يشتركوا فيها ... ومن ذلك قوله فى إحدي وصاياه لهم .

« انطلقوا باسم الله تعالى وعلى بركة الله :

لا تقتلوا شيخاً فانيا ، ولا طفلاً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا .. وضموا غنائكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ».

وفى وصية أخرى يقول عليه الصلاة والسلام :

- سيروا باسم الله ، فى سبيل الله تعالى ، وقاتلوا أعداء الله ، ولا تغلوا ولا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » .

ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد :

« لا تقتل ذرية ولا عسيفاً » (عاملا) يلاحظ ما يرمى إليه من المحافظة على العمال ؛ لأنهم جيش التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية .

وقد وصل إليه بيان ظهر منه قتل بعض الأطفال فى معركة فقام خطيباً فى جنوده قائلاً :

« ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتي قتلوا الذرية ؟!

ألا لا تقتلوا الذرية .. ألا لا تقتلوا الذرية » .

اسمع معى أيها القارئ الكريم هذا الدعاء الذى كان يفتتح به سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم المعركة :

« اللهم إنّا عبادك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اهزمهم وانصرنا عليهم » إنه يطلب من الله سبحانه وتعالي نصراً له ولجنوده ؛ لأنهم مسالمون لا يبغون الشر وأعداؤهم ما جاءوهم إلا قاصدين الشر وباغين للفساد ، ومن هذه الوصايا النبوية المتكررة يتبين أن الحرب المحمدية ، حرب طاهرة زكية يستعمل فيها السلاح ، كما يستعمل الطبيب النطاسى المبضع يستأصل به أم القيح من الجرح ليطهر الجسد من الصديد ، ويخلصه من الأورام الخبيثة والأمراض المستعصية والداء العضال ، ويتمكن من تجريع صاحبه الدواء الناجع لتعود إليه صحته وسلامته ، وينعم بحياة مطمئنة فيها الرغد وفيها الهناء والسعادة ، فالحرب ضد العدوان قصاص من المعتدين المصممين على العدوان ،

والمصرين على الغدر ، والعازمين عزماً أكيداً على الفساد فى الأرض وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى الْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (سورة البقرة)

ولهذا فهو يشدد فى النهى عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ ؛ لأنهم لم يقترفوا ذنوب الحرب ، وليس لديهم إصرار على إلحاق الضرر بالمسلمين :

حدثوني بربكم هل قرأتم أو سمعتم أو عرفتم حرباً على هذا القدر من النظافة والطهارة والسمو ؟!!

سادساً ـ التمسك بالفضيلة وإن جافاها العدو :

يتمسك سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بالفضيلة تصدر عنها كل أقواله ، وأفعاله ، ومواقفه فى الحرب ، وتُحلى جميع معاملاته للعدو كالآتى :

١ - فهو لا يقاتل إلا من حمل السيف فقط ، ويأمر جنوده بالعفة التى لا يحدها حد .. والعفة التى ترقى بصاحبها إلى مستوى الملائكة ، فلا يعرف الجندى المسلم الإسفاف أو التردى إلى حضيض الحيوانية ، ولا يقبل أن يكون وحشا ضارياً إنما هو يمارس الحرب هادياً مهديا ، متأسياً بنبيه ورسوله الهادى إلى صراط مستقيم ، حتى إذا مات ذهب إلى الله راضياً مرضيًّا . إن حرب سيدنا محمد ﷺ حرب نبوة وليست حرب غشامة أو طغيان ، تعمل فيها أحكام الفضيلة ، فلا تستباح النفس إذا ظهر ما يؤول على أنه جنوح إلى السلم والموادعة ولا ينتهك عرض ، ولا تهتك فضيلة .

٢ - إن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بُعث معلماً ، قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت معلماً » وعلمه وتعليمه ليسا قاصرين على السلم فقط ، وإنما هو معلم للناس فى الحرب ، كما هو معلم

فى السلم ، وعلى ذلك فإن له هديا فى الحرب يعلمه للناس ، كما أن له هديا فى السلم يعلمه للناس أيضاً .

فهو فى حروبه التى خاضها كان يعلم الناس سلوكيات الحرب العفيفة حيث يتقيد حضرته بمثلها الرفيعة .

وهذا ينسجم مع طبيعة الحرب التى يشنها خاتم الأنبياء والمرسلين ، تقع بدافع دعم الفضيلة ودفع الرذيلة ، وعلى ذلك فليس من المعقول أن يكون هذا النوع من الحروب باعثه الدفاع عن الفضيلة ثم تنتهك فيها الحرمات وتؤتى فيها وبه المنكرات !!.

وسيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم متمسك بالفضيلة ، يتحلى بها هو وجنوده الأبرار ، وإن بدى من العدو أنه لا يقيم لهذه الفضيلة وزنا ولا يعمل لها حسابا . فكثيراً ما تنكر العدو للأخلاق فى معاملة الجندي المسلم سواء فى حالة قتله أو فى حالة أسره .

ففى حالة قتله كان يمثل به ويشوه جسده ببتر أعضاء منه ، بينما معلم الناس الفضيلة ﷺ ينهى جنوده عن التمثيل بالعدو فى قوله :

« إياكم والمثلة » ..

وحدث أن قتل أعداؤه عمه الحمزة بن عبد المطلب وهو من هو فى قرابته منه كشقيق لوالده ، وأخ له فى الرضاع ، لكنه لم يمثل بأحد منهم انتقاماً ، ولم يحدث بعد ذلك أن فعل بالرغم من أنه انفعل بغضب شديد عندما رأى عمه على هذه الصورة ، وقد مثل به الكفار التمثيل البشع ببقر بطنه ، ونزع كبده التى لاكتها هند بنت عتبة .

وفى معاملة الأسرى تتجلّى أخلاق النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فبينما نرى الأعداء يقتلونهم أو يتركونهم يموتون جوعاً ؛ فإن أدب نبى الله محمد ﷺ يسوقه إلي إطعام الأسير ، وحسن معاملته ، تنفيذاً للآية الشريفة .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (سورة الإنسان)

ألم أقل لكم إن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يعلم الناس السلوك الحسن فى السلم والحرب ؟!!

إن العالم الذى يدعى التحضر ، لم يعرف كيف يتعامل حضاريًا مع الأسير إلا فى النصف الأول من القرن العشرين فى معاهدة جنيف التى تضمنت حقوق الأسرى وأحكام معاملاتهم ، ومع ذلك لم تصل هذه القواعد إلى مستوى ما شرعه سيدنا رسول الله ﷺ من قواعد معاملة أسرى الحرب ، ومن العجيب أن هذه المعاملة التى تعددت مخالفة أحكامها ، ومن هذه المخالفات فى عمق أوروبا فى التسعينات من القرن العشرين فى البوسنة والهرسك أثناء الحرب العرقية التى شهدت العمليات الإجرامية التى قام بها مجرموا الحرب من الصرب ، وهى تعد سبة فى جبين الإنسان المعاصر ، وبقعة سوداء على ثوب الحضارة الغربية مهما حاولوا إزالتها بمحاكمة مرتكبيها أمام محكمة العدل الدولية كمجرمى حرب .

وتلاها فى بداية القرن الواحد والعشرين ما يشهده العالم من حرب فاجرة تشنها الصهيونية باتفاق وتنسيق بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق كل من المجرم شارون رئيس وزراء إسرائيل ، وجورج بوش رئيس الولايات المتحدة من قتل النساء والأطفال والشيوخ والتمثيل بهم ، مع هدم المنازل ونسف البنية التحتية والفوقية على أرض فلسطين العربية ، والتنكر لكل قواعد وأحكام القانون الدولى ، ونقض جميع الاتفاقات بين الكيان الصهيونى والقيادة الفلسطينية .

وكل هذه الجرائم البشعة يرتكبها شارون بعصابة لصوص لا تصدق عليها كلمة جيش على مرأى العالم ومسمعه ، هذا العالم الذى يخشى بطش وسطوة الولايات المتحدة الأمريكية التى بلغت جرأتها أن قامت بتصنيف العالم إلى إرهابيين ودول مساعدة للإرهابيين ودول تحارب الإرهاب ، وهى تعد العقوبة الرادعة لكل من يتعاون مع الإرهاب ، وتهدده بالويل والثبور وسوء المصير ،

وكل هذه التقسيمات تستقل هي بها وهي وحدها التي تعرّف الإرهاب على هواها .

وبالمعايير التي تخترعها هي وحدها تقيس سلوك الشعوب ، ومن هذا المنطلق فإنها أعطت لدولة إسرائيل دولة الإرهاب الحق فى إبادة الشعب الفلسطيني وجنود المقاومة الفلسطينية ؛ لأن المقاومة الفلسطينية فى نظرها منظمات إرهابية ، وراحت الولايات المتحدة ومعها الصهاينة الخبثاء والحاقدون على الإسلام من حكام الغرب ومفكريه ، يصفون الإسلام بأنه يصنع الإرهابيين ، ويصف القتلى منهم بأنهم شهداء ، ويكفى فى الرد عليهم ما سبق من عرض لأنباء سيدنا رسول الله ﷺ ، ونضيف إلى ذلك ما يأتى :

إن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يأخذ بيد بنى الإنسان ليعلمهم كيف يكونون بشراً أسوياء ، فيحررهم من شهوات الانتقام ، ويشرع لهم قواعد أخلاقية تميزهم عن الوحوش الضارية ، وتسمو بهم فوق البهيمية الحمقاء ؛ فيهديهم بسلوكه مع الأسرى لمكارم الأخلاق . بالسيطرة على نوازعهم السلبية ، وهى فى لحظة لا يكون هناك نشاط فى الكيان الإنسانى لغيرها .. هي لحظة القتال التي لا ينصت الإنسان إلا لها ، ولا يذعن المشورة غير مشورتها ؛ إلا وهى القسوة كل القسوة ، والغلظة كل الغلظة فى معاملة من هو مصر على قتله ، ومصمم على إزهاق روحه ، فى هذه اللحظة ، يوقظ سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما هو كامن مختبئ من نبيل الخلق ، وجميل الخصال . وأسماها الرحمة .. فيجعلها الملكة ، ويوليها السيطرة على هذا الكيان الغاضب الثائر ؛ فتنساب برداً وسلاماً على الأسير لتنام فيه سورة الوحش وتستيقظ فيه قيمة الإنسان ، فسبحان من علم رسول الإنسانية قيمة الإنسان ، اللهم صلى وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

روى أبو داود فى كتاب الأدب ـ الحذر من الناس رقم ٤٢١٩ والإمام أحمد

٢١٤٥٤ ، أنه فى أيام صلح الحديبية الذى كان بين سيدنا رسول الله ﷺ والمشركين ، أصابت قريشاً ضائقة وأزمة طاحنة ، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى أبى سفيان بن حرب زعيم المشركين فى أبان ذلك خمسمائة دينار ليشترى قمحاً يستطيع به أن يفرج عنهم هذه الأزمة .

وبذلك يكون سيدنا رسول الله ﷺ قد سد حاجتهم ، وأطعم المعوذين منهم وهم مشركون ، وكان بعض المسلمين يمتنع عن إعانة الفقراء من المشركين ومن أهل الكتاب إذا ما تعرضوا لظروف تجعلهم فى حاجة شديدة إلى المال ، وذلك معاملة منهم لهم بالمثل ومحتجين أيضاً بأن فقراء المسلمين أولى منهم بهذه المعونة وكذلك لحملهم على الدخول فى الإسلام على اعتبار أنه دين العزة والكرامة .

وكان سيدنا رسول الله ﷺ ينهى عن التصدُّق إلا على أهل الإسلام فقط دون غيرهم فنزلت الآية :

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وبهذا أصبحت الصدقة واجبا إذا أوجد سببها ، ووجدت الحاجة إلى العطاء من غير نظر إلى الموضع الذى يستحقها ، فإنك تكرم إنسانيته لا يهوديته ولا نصرانيته ولا إشراكه أى : أن الصدقة تسوغ على غير المسلم ، بل تجب إذا كان غير المسلم فى حاجة شديدة ويخشى عليه إن لم يقدم له العطاء الذى ينقذه .

وهذا ما قرره فضيلة الإمام محمد أبو زهرة فى تفسيره للآية .

فسبحان من علم رسول الإنسانية قيمة الإنسان .. اللهم صلى وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سابعاً - المحافظة على حقوق الإنسان وكرامته :

إن مما تتميز به حرب أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم هو مراعاته لإنسانية الإنسان ، ومحافظته على كرامته حياً كان أو ميتاً ، بل إن هذه العناية تتجلى مضيئة فى معاملة الموتى من جنود العدو وإنه ليسمو ويسمو فوق المشاعر التي تحرك الإنسان العادى ليتربع على قمة تخلع الرقاب ولا تصل إليها ، وتعجز الأبصار عن متابعتها :

لقد مدحه الإمام البوصيرى ، ذاكراً ما وصل إليه من منزل أنزله الله فى ليلة الإسراء فقال :

ما زلت ترقى إلى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

ومدحه شوقى فى نهج البردة فى نفس المقام فقال :

حتى بلغت سماء لا يطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبى عند رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاستلم

وعن أبى إبراهيم عبد الله بن أَبى أوفى رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس قام فيهم فقال :

« يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموه فاثبتوا » فاصبروا « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال النبى ﷺ : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب . أهزمهم وانصرنا عليهم » (متفق عليه) .

وفى هذا المقام - معاملته للحربيين من أعدائه - بأى عبارة ثناء يستطيع من يتابعه أن يقدر هذه المعاملة قدرها ؟! فمهما أتيح له تملك ناصية البيان ، والإمساك بإمام اللغة ، لن يستطيع أن يوفيه حقه إلا أن يسعفه إيمانه فيلجأ إلى الله عز وجل ليسعفه بكلمات يلقيها بين يديه عليه الصلاة والسلام ، تحمل هذا

التقدير الذى افتقد مكنة التعبير عنه ويمده بالعبارة التى تمتلئ حروفها برحيق الثناء فيجد وجدانه يعتمل بقول الحق عز وجل :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (سورة القلم)

يردد هذه الآية بين يديه عليه الصلاة والسلام وهو متربع على هذه القمة الأخلاقية السامية كل من يتابعه وهو يتعامل مع الحربيين من جنود الأعداء أحياء كانوا أو قتلى ، وهو يشعر أن الله عز وجل قد تولى بذاته الثناء على حبيبه ومصطفاه أشرف الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فتحمل عنه ما لم يستطع حمله ويعود إلى نفسه قائلاً مع الشاعر :

شخصية مدح الرحمن صاحبها   أظنها فى غنى عن مدح إنسان

لقد بدأت معاملته ﷺ للحربيين تظهر فى احترام إنسانيتهم ، والمحافظة على كرامتهم ، ودستوره فى ذلك قول الحق عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ (سورة الإسراء)

وإن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعامل الحربى من جنود أعدائه يجرده من كل ميوله ونزعاته ، ولا يبقى على شىء سوى كرامته يحفظها عليه حيًّا كان أو ميتاً ويتم ذلك على الوجه التالى :

١ - الجريح :

كان ﷺ ينهى عن الإجهاز على الجريح ، ويأمر بعلاجه ، وتخليصه من آلام جراحه ، والرحمة به والشفقة عليه ، إذ أضعفه الجرح وفقد المقاومة ، وذلك لأن

الحكمة وراء القتال ليس إلا إضعاف القوة وكسر المقاومة ، وليست الانتقام والتشفى ؛ فالإسلام ينزه المسلم عن هاتين الخصلتين .

٢ - معاملة الأسرى :

تجلت مكارم الأخلاق المحمدية فى معاملته عليه الصلاة والسلام للأسرى ، فالسيطرة والسلطان فى هذه المعاملة لحرصه على تبليغ الدعوة الإسلامية ، وتأدية الرسالة التى بعثه الله بها رحمة للعالمين ، فهو لا يسعى إلى تحقيق أمجاد عسكرية براقة ، أو بناء ملك جائر ظالم يبنى عرشه بجماجم الموتي وأشلاء القتلى ، إنما سعيه كله محض تحقيق آداب النبوة وإعلاء كلمة الدين فى النفوس ، وفى جنبات القلوب وحنايا الصدور ، لتكون واقعاً ملموساً على ظهر الأرض منارات تهتدى بها المسيرة الإنسانية من ضلال ، وتكثر من قلة ، وتغنى بها من فقر ، وتسعد بها من شقاء ، وتحيا بها حياة السعادة والهناء ، فقد كان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بأسرى الحرب من أعدائه ، يحسن معاملتهم ، ويأسو جراحهم ، ويحض الصحابة على المحافظة على كرامتهم ، ويشعرهم دائماً بأنهم ينعمون بالعدالة الإسلامية والرحمة المحمدية .

وقد ظهرت هذه الروح المحمدية فى معاملته لأسرى بدر؛ فأنزلهم بيوت الأنصار ، ولم يخصص لهم معسكراً يقذف بهم فيه ، يلقون المعاملة الخشنة من الحراس ، فأصبحوا وكأنهم ضيوف فى بيوت ضيافة وليسوا أسرى فى زنزانات الأسر المظلمة ، وتلقوا فى بيوت الضيافة ما يتلقاه الضيوف من حفاوة وتكريم ، ينفذ فيهم الأنصار الكرام وصية حبيب الله عليه الصلاة والسلام التى قالها لهم .

« استوصوا بالأسرى خيراً » فكان هؤلاء القوم من الأنصار على عادتهم يؤثرون هؤلاء الأسرى على أنفسهم وعلى أولادهم بطيب الطعام طلباً لرضاه عليه الصلاة والسلام الذى هو من رضا الله . وهذا السمو الأخلاقى من جانب سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم والذى نجح

فى طبعه على وجدان أصحابه وجنوده ، ثمرة للجهاد الأكبر الذى نوه عنه وعلمه لهم عندما قال لهم :

« رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وعلمهم أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس بضبطها على مكارم الأخلاق ، وسنى الخصال .

فبانتهاء الحرب تنتهي ثورة الغضب وتنطفئ جذوته المستعرة ويحل محلها برد وسلام الحلم والدعة وسلسبيل العفو والمرحمة . وهو عليه الصلاة والسلام نبى الملحمة ونبى المرحمة .

فمعاملة الأسرى تتم فى إطار رسمه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم كالآتى :

١ - إن جيش الإسلام لايتسنى له أن يأسر أحداً من جنود لعدو إلا بشرط أوضحه القرآن الكريم هو : أن يثخن فى الأرض ويعمل السلاح فى أجساد الجنود ويحدث بها من الجراح ما يثقلها ويفقدها القدرة علي مواصلة القتال ، فإن تم له ذلك فبها وإلا واصل القتال حتى يحقق هذه النتيجة وعندئذ يأسر من جند العدو كما يشاء قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

٢ - الأسير فى الإسلام تنحصر معاملته في وجهين اثنين :

الأول : المن : وهو إطلاق سراحه بغير فداء .

الثانى : الفداء : وذلك بإطلاق سراحه بمقابل مالى ، وهذا ما يحكم به الله عز وجل فى سورة محمد :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٤) ﴾

(سورة محمد)

والفداء يتم فى صورتين :

١ - إما أن يكون بالمال يقدمه الأسير فداء لنفسه .

٢ - وإما أن يكون أسير بأسير .

أما إذا كان فقيراً ، ولا مال له : فإن الإسلام يأمر بتسريحه من باب العفو والصفح اللذين تحلى بهما سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وحلى بهما المسلمين من بعده .

وهما قلادتان مستخرجتان من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ (سورة الحجر)

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) ﴾

(سورة الأعراف)

٣- العفو فى يوم الفتح والنصر المبين :

العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ٩ هجرية ، تكن فى أحشائها ليلة القدر بما يستودعها الله سبحانه وتعالي من أسرار وأنوار وإشراقات ، وبما تعد به العوالم كلها الظاهر فيها والباطن من سلام وبركات ، وبما تحمل أيامها المباركة لكل الناس من روح وريحان ، ومن تجليات الرحيم الرحمن ، وأشرف الخلق سيدنا

محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يتقدم موكب الفتح بالكتيبة الخضراء ووجهه الشريف يسطع بالنور ، يتغلب على ضوء الشمس بالنهار ، وعلى نور القمر بالليل ، لا يرى فيهما إلا راكعاً ساجداً يسبح بحمد الله أو داعياً لله سبحانه أن يعلى شأن هذا الدين ، وأن يهدى به الناس أجمعين .

هذا هو الحبيب قد ظهرت على جبينه مقدمات أنوار العفو الشامل عندما حدثته أم المؤمنين أم سلمة عن قدوم رجلين من ذوى قرابته القريبة هما : أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمته وصهره ، واستأذنت لهما فى الدخول عليه فأبى قائلاً : أما ابن عمي فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فقد قال ما قال بمكة .

« كان قد قال له « والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله تعالى أرسلك .

وأصر سيدنا رسول الله ﷺ على عدم الإذن لهما فلما علما بذلك . قال أبو سفيان مهدد إياه عليه الصلاة والسلام بما لا يرضاه لمن هو أكثر عداوته له منه إذ هدده قائلاً :

« والله ليأذنن لى أو لأخذن بيد بنىّ هذا ثم لنذهبن فى الأرض ؟ ثم نموت عطشا وجوعاً » .

عند ذلك مس كلامه شغاف قلبى النبى الكريم الرؤوف الرحيم فرق له وأذن له .

وواصل نبى الرحمة السير إلى مكة المكرمة ليفتحها باسم الله وعلى بركة الله تستقبل موكب الإيمان إلى الأبد لا يعبد فيها غير الله سبحانه وتعالى .

دخوله ﷺ مكة المكرمة :

دخل سيدنا رسول الله ﷺ مكة وكأنه يؤدى شعائر الحج فلم تبد عليه آية أمارة على أنه يغزوها ، وإنما الذى بدى عليه واضحاً خشوع جلل وجهه الشريف بالأنوار ، وتبتل لله سبحانه وتعالى يفيح شذاه من بين شفتيه وسكينة تملأ قلبه ،

وتنتقل منه إلى جنوده المؤمنين ، وينتقل معها الخشوع لله ، والخضوع لأوامر قائدهم الحبيب أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ وهم على هذه الحالة الروحانية المتجلية بالأمن والسلام قال الصحابي الجليل سعد بن عبادة قائد كتيبة الأنصار : « اليوم يوم الملحمة !! اليوم تستحل الحرمات » .

وهمهم الصحابة من قريش باحتجاج مؤدب بثوه للنبى ﷺ فقال :

- بل اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه الكعبة الشريفة اليوم يوم « أعز الله فيه قريشا » ، وأمر بنزع الراية من سعد بن عبادة وتسليمها لابنه قيس بن سعد .

استقبل نهر العفو النبوى ، في هذا اليوم رجلين كانا من ألد أعداء سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ثم صار بهذا العفو من أخلص المحبين له عليه الصلاة والسلام .

هذا الرجلان اللذان نعما بعفوه عليه الصلاة والسلام هما صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل : أصرا على المقاومة فاشتبكا مع خالد بن الوليد وصحبه وأمطراهم بوابل من النبل . فلما تأكدا من هزيمتهما قررا الفرار قاصدين البحر تخلصا من الإقامة بمكة تحت سلطان نبى الله ورسوله ﷺ !!.

لكن هيهات . هيهات !! لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ..

وقد رحمهم الله فعلا ..

أما صفوان فإن له صديقاً من الصحابة هو عمير بن وهب قال : يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً ليقذف نفسه فى البحر ، فقال له سيدنا رسول الله ﷺ : هو آمن » ، قال بن وهب يا رسول فأعطنى آية يعرف بها أمانك . فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل بها مكة المكرمة ، فلما أدرك عمير صفوان بشَّره بأمان سيدنا رسول الله ﷺ له فلم يصدق حتي مثل بين يديه عليه الصلاة والسلام فأمنه فطلب منه مهلة شهرين ليعلن إسلامه فأعطاه مهلة أربعة أشهر .

وأما عكرمة بن أبى جهل فمن المعلوم أنه يحمل رصيداً من العداوة بين

ضلوعه لسيدنا رسول الله ﷺ ، هذا الرصيد الذى أوصله إلى يأس تام من عفوه عنه ففر إلي اليمن فجاءت أم حكيم زوجته إلى سيدنا رسول الله ﷺ فأسلمت وطلبت الأمان لعكرمة ، فمنحه الأمان ، فلحقت به في اليمن وأخبرته بأمان رسول الله ﷺ له ، فجاء إلى مكة ومثل بين يديه وأسلم ، هذا الفيض من العفو الذي شمل هذين الرجلين لا أحد يستطعيه إلا أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ ، ذلك لأن هذين الرجلين تمسكا بالعناد ولجّا في الخصومة لآخر لحظة ، وموصوفان بالأنفة ، ولا يخلوان من كراهية موروثة لسيدنا رسول الله ﷺ فيكفى أن عكرمة هو ابن أبى جهل عمرو بن هشام الذى ناصبه العداء حتى قتل يوم بدر ، وأن الاثنين صفوان وعكرمة ظلا يضربان جنود الإسلام بالنبال لآخر لحظة ، فيكون من الصعب معاملتهما معاملة حسنة . لكنه رسول الله !!! رحمة الله للعالمين ... وهو الذى قال فى حق المعاندين من قريش في يوم الطائف .. لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وها هو خالد بن الوليد .. إنه ابن الوليد المغيرة ألد أعداءه عليه الصلاة والسلام وهو الآن يقود كتيبة لينتصر هذا الدين ويمكن له .

وها هو الأفق ينشق عن عكرمة بن أبى جهل ، يرق قلبه للإسلام لتكتمل إجابة الله سبحانه وتعالى لدعوته عليه الصلاة والسلام ... فكأنه في يوم الطائف قد انطوى له الزمان فرأى ما يراه الآن من هذه الإجابة فى شخص كل من خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل ، الذى ستثبت الأيام صدق إسلامه فى مواقع مشهورة على أرض الشام وفارس وكسبت صفوف المسلمين بعفوه (أى بأخلاقه) أكثر ما كسبت بالسيف ... وهذا ما لخصه الرسول فى قوله :

« أمرت باللين والسيف فوجدت اللين أقطع من السيف » .

العفو الشامل والأمان الأبدى :

قلب سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فى يوم الفتح أصبح معيناً صافياً يتدفق منه العفو ، ليغسل قلوب الذين أخطأوا

في حقه من الخوف والوجل ، ويهيئ هذه القلوب لتلقى نور الإيمان فينخرطون فى صفوف المسلمين .

نظر إلى الواقفين أمامه في صفوف مطأطأى الرؤوس ، قلوبهم واجفة ، وأبصارهم خاشعة ، يذلهم أمامه شعور بالذنب ، من أثر ما فعلوا به حيث عذبوا أصحابه ، وأهانوه ، وطردوه من مكة وطنه الحبيب وأحب بلاد الله إليه، وقطعوا رحمه ، وحاصروه مع بنى هاشم فى شعب أبى طالب ، ومنعوا البيع لهم والشراء منهم حتى مات أطفالهم جوعاً . . . وأغروا به السفاء والغلمان فى يوم الطائف ، وحاولوا منعه من دخول مكة يوم عاد إليها من رحلة الطائف ، وألقوا عليه فرث الناقة ، وصبوا أمامه نار أحقادهم ، وسخروا منه ، ومن أصحابه ، وآذوه فى نفسه وفى أتباعه ، واتهموه بالجنون والكذب وهو فيهم الصادق الأمين . . فلما هاجر إلي المدينة لم يتركوه ، بل حاربوه وحاولوا قتله ، وكسروا رباعيته ، وأسالوا دمه ، ووقفوا أمام دعوته بالمرصاد . كل هذا وهو يحمل لهم فى قلبه حرصاً على هداهم وتمسكاً بقرابتهم ، وعلى يديه الهدى والنور وأسباب السعادة فى الدارين .

واليوم قد عاد إلى مكة يحيط به رجال يتنافسون على تنفيذ أوامره ، وفرسان يفرحون بتحقيق رغبة له تبدو إشارة منه بطلبها ، السيوف والرماح والسهام ، والخيل والركاب كل ذلك قوة فى لمح البصر تسحقهم لو أنه أشار بإصبع واحدة لرجاله أن يفعلوا .

كل ذلك جعلهم يطرقون فى وجوم ، وذهول ينتظرون ما هو مقدر لهم من مصير .

وإذا بسيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يقطع عليهم صمتهم ويخرجهم من هذا الوجوم ، وهذا الاضطراب النفسى فينبهون على سؤال أصدره لهم :

« ما تظنون أنى فاعل بكم ؟؟؟ » .

فردوا جميعاً بإجابة واحدة وكأنهم كانوا قد أعدوها سويا قالوا :

- أخ كريم وابن أخ كريم ..

فقال لهم وكأنه يعد هذا الكلام عن سابق علم بهذا الموقف :

« إنى أقول لكم كما قال يوسف لأخوته :

لا تثـريب عليـكم

اليوم يغفـر الله لكم

اذهبوا فأنتم الطلقاء

ونقـشت هذه الكلمـات على هام الزمان تتناقلهـا الأجيـال تلو الأجيـال ، وسُطِّرت على جبين الأبد ، لتتلقى الإنسانيـة منها دروس النبـوة والرسالة تحيا بها المثل العليا ، والقيم الرفيعة ، وتعرف من حكمتها طريق السعادة ، وتفوز بها بالفلاح والنجاح على مدى الزمن .

وليس هذا فى مكنة أحد من البشر غير محمد بن عبد الله أشرف من وطئت قدماه الأرض ، وأعلى من تجاوزت هامته السماوات السبع ، وهو الذى فرح به الملأ الأعلى واحتفل به الله ذو الجلال والإكرام .

لقد أحيا نفوس قـومه بهذا العفـو بعد أن ماتوا ، وأسـعدهم بعد أن عشش فى قلوبهم الشقاء وفتح على أعضائهم زهورهذا الدين فما لبثوا أن انتشروا فى الأرض ونشـروا مـعـهم أريج هذه الزهور ، ودخل الناس فى دين الله أفـواجـا .. وعاشت الإنسـانية أيام أمجادها .. وسـنوات رفعتها .. وسمعت جموعهم كلمة الله الأزلية الأبدية التى تحمل أجمل البشريات ، وأضواء الآمال ... وأسعد الحياة .

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾

(سورة المائدة)

معاملته لقتلى الحربيين :

١ - المعلوم عن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أنه يكرم الإنسان حياً وميتاً . الإنسان مكرم فى موته ، كما هو مكرم فى حياته ؛ لأنه الإنسان .

وموقف النبى ﷺ هذا : نابع من القرآن الكريم الذى هو خُلقه العظيم والذى جاء تكريمه فى آية من آياته فى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الإسراء)

وهناك واقعة من وقائع حياة سيدنا رسول الله ﷺ تحكى أنه كان جالساً مع أصحابه فرأوا جنازة محمولة على أكتاف الناس ، فقام سيدنا رسول الله ﷺ تحية لها ، فقال الصحابة « إنه يهودى !.. يا رسول الله .. فرد عليهم قائلاً « أو ليس إنساناً » ؟!.

وعن نفس المعنى صدر أمره للمسلمين يوم بدر بحفر القليب ، ودفن قتلى الكفار فيه تكريماً لإنسانيتهم ، وحتى لا تتعرض جثثهم لنهش الوحوش والنسور .

والغريب العجيب !! أنه بعد أن دفن قتلى بدر من المشركين وقف على القليب ، وناداهم أسماً اسماً .

- يا عقبة ابن أبى معيط ، يا شيبة بن ربيعة ، يا عتبة بن ربيعة يا أبا جهل - عمرو بن هشام - هل وجدتم ما وعدكم ربى حقاً ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا ، فقال له عمر بن الخطاب يا رسول الله أتخاطب جثثا قد تجيفت ، فقال له ﷺ : « والله إنهم لأسمع بى منكم ، ولكنهم لا يتكلمون » .

٢ - وهذا بيان من رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أعلنه على الناس يوم الفتح الأكبر نقلته من كتاب « حياة محمد » للأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله رحمة واسعة » الطبعة التاسعة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ » قال الدكتور هيكل ص ٤٢٥ .

« وفى غداة يوم الفتح عشر خزاعة على رجل من هذيل » خزاعة وهذيل قبيلتان من قبائل العرب كانتا فى حالة حرب » فقتلوه وهو مشرك : فغضب النبى ﷺ ، وقام فى الناس خطيباً فقال :

« أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام ، إلى يوم القيامة ، لا يحل لأسرى يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد فيها شجراً ، لم تحلل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحلل لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها ، فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ، ولم يحلها لكم يا معشر خزاعة !!

ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر إن نفع . لقد قتلتم قتيلاً لأدينه « أى يدفع الدية لولى الدم » فمن قُتل بعد مقالى هذا فأهله بخير النظريين : إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله « أى ديته » .

وبهذا الخطاب الجليل أعلن على الناس بكلماته القاطعة وعباراته الحاسمة ما يأتى :

١ - حرمة مكة البلد الحرام إلى يوم القيامة لا يسفك فيها دم ، ولا يقوم على أرضها قتال ، ولا تقلع شجرة .

٢ - انه نبى الرحمة ونبى السلام وإن اضطر إلى الحرب دفاعاً عن الدين والنفس إذا ما اعتدى عليهما ؛ فإن ذلك هو القتال يقع طبقاً لقواعد وضوابط

مستقاة من القرآن الكريم ، تتضافر كلها على احترام حقوق الإنسان وكرامته ، حتى وإن كان مشركاً أو كافراً ، أو على غير دين الإسلام .

٣ - من حق المخالفين للدين أن يحيوا أمنين على أنفسهم فى المجتمع الإسلامى ماداموا مسالمين ، لا يقع منهم عدوان على الدين ، أو الأنفس أو الأموال .

٤ - المساواة التامة بين الناس أمام القانون فقد أوجب للمشرك حقه فى القصاص أو الدِّية فى حالة الاعتداء عليه بالقتل .

٣ - موقفه مما فعل خالد بن الوليد بجذيمة : « الدكتور هيكل » :

كان خالد بن الوليد رضى الله عنه قد خرج إلى نخلة ليهدم « العزى » ذلك الصنم الذى كان يعبده بنو شيبان فى الجاهلية ، فلما هدمه توجه إلى قبيلة جذيمة ، فلما رآه القوم حملوا السلاح ، فأمرهم خالد أن يضعوا السلاح ؛ لأن الناس قد أسلموا ، ونصحهم واحد منهم بعدم تنفيذ أمر خالد ؛ لأن نتيجة ذلك لن تكون إلا الأسر والقتل .

واعترض القوم عليه قائلين « أتريد أن تسفك دماءنا » إن الناس قد أسلموا . ووضعت الحرب وأمن الناس ، ومازالوا به حتى وضع سلاحه » .

عند ذلك أمر بهم خالد فغللوا . . . ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم .

فلما انتهى الخبر إلى النبى رفع يديه إلى السماء وقال :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

ثم بعث إليهم على بن أبى طالب وقال له :

« اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم . واجعل الجاهلية تحت قدميك . وخرج علىٌّ ومعه ما أعطاه النبى إياه . فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء ، وما أصيب من أموال ، حتى إذا لم يبق شىء من دم أو مال إلا وأداه وأعطاهم بقية المال الذى بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم .

« الدكتور هيكل »

حصاد الخلق العظيم :

إن الروح الطيبة التى صدرت عنها أقوال سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أيام الفتح المبين فى مكة المكرمة ، من عفو شامل غير مسبوق ، وغير مكرر فى التاريخ كله ، ولا يناظره عفو حتى تقوم الساعة ، أن جنى المجتمع الإسلامى هذه الثمرات الطيبة .

١ - نظر أهل مكة فى هذا اليوم المضيئ ، الذى أضاءه الخُلق الجميل الذى تحلى به أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ؛ بهذا العفو الشامل الذى ظهرت بأنواره كنوز هذه الشخصية الفذة العظيمة ، وأول هذه الكنوز التى اكتشفها أهل مكة أنه عليه الصلاة والسلام لا يضمر لهم شراً ، ولا يهدف إلى انتقام ، وإنما يريد بهم الخير ، وأنه ما دعاهم إلا إلى ما يسعدهم فى الدنيا والآخرة ، وإنه يكن لهم فى قلبه الكبير الرحمة ، والبر ، وصلة الرحم ، والمودة فى القربى ، ومن جهة أخرى فهو يعرف لمكة البلد الحرام مكانتها وقدسيتها ، وأنها أحب بلاد الله إليه ، فلا يقر أن يسفك فيها دم ، ولا أن تقلع شجرة ، وان أهلها أهل الحرم لا يفزّعون ، ولا يؤذون ، ولا تقطع لهم رحم ، ونظروا فوجدوا أنفسهم فى هذا اليوم فى قبضة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم . ولو كان بشراً عاديًا تحركه شهوة الانتقام ، وذكر ما فعلوا فيه وفى أصحابه لمزّقهم بدداً ولم يبق منهم أحداً .. لكنهم تلقوا منه هذا العفو الشامل والرحمة الواسعة . فاطمأنوا ، ومنحتهم الطمأنينة ، النور الذى أزال عن أبصارهم وبصائرهم غشاوة الجاهلية ، فأقبلوا على نبى الله ﷺ زرافات ووحدانا يعلنون إسلامهم فرحين بالدين الحنيف وبعودتهم إلى شخصه ﷺ يحدوهم الأمل فى تعويض ما فاتهم من بر الله ورحمة رسوله ﷺ وما فاتهم من حظ الجهاد لنصرة هذا الدين ، الذى هداهم الله إليه وحبّبهم فيه ما ظهر أمامهم من خلق النبى الكريم فدخلوا فى دين الله أفواجاً ..

٢ - دخول عكرمة بن أبى جهل وصــفوان بن أميــة الإسلام :

إن من يتتبع الأحداث السابقة ليوم الفتح ، وما تركت من آثار على قلبى هاذين الشخصين ، من العناد والكفر ، ومن الأذى الذى تعرض له سيدنا رسول الله ﷺ من أبى جهل فرعون الأمة عليه لعنة الله ، وأمية بن خلف الفرعون الثانى ، لا يمكن أن يتصور أن يدخل شعاع واحد من أشعة الإسلام قلب واحد منهما .

ولكن هذا العفو الذى بدى من سيدنا محمد ﷺ عنهما ومنحه لهما الأمان ، قد كسرت أشعته الصخرتين الصماءتين اللتين سدتا قلبيهما ومنعتا نور الهدى أن يدخلهما .

أما عكرمة فهو ابن أبى جهل لعنه الله وهو الذى عاش عدوا لله ولرسوله ﷺ وكيده لهذا الدين وكيده لسيدنا رسول الله ﷺ معروف لا ينكر ، وبنفس البشاعة كيد أمية بن خلف ، فهما من ألد أعداء سيدنا رسول الله ، ومع ذلك أصبح كل من عكرمة وصــفوان من كرام الصحابة وأدى كل منهما للإسلام ما شهد له بقوة الإيمان ، وحب سيدنا رسول الله ﷺ ، وهما يعتبران من المشمولين بدعاء سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوم الطائف فى قوله :

« لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ » وسجل التاريخ اسم عكرمة بن أبى جهل قائداً من قواد المسلمين الذين عز بهم الإسلام فى حرب الشام . وكذلك سجّل اسم صفوان بن أمية . وشهدت بذلك معركة اليرموك وأجنادين وغيرها .

٣ - قويت شوكة المسلمين وعز الإسلام ، وتطهرت مكة وما حولها من الأصنام ، ولبست مكة ثوب الإسلام الأخضر ، وزاد جيش الإسلام ، وتزود بما مكّن له من الغلبة على المشــركين من قبائل هوازن وثقيف وجُشم ، ونصر فى

معركة حنين ، واكتمل النصر بدخول الطائف وإسلام مالك بن عوف النضرى وفى ذلك نزل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة التوبة)

ولقد تضمنت هذه الآيات من المكاسب الروحية والعسكرية والسياسية والدينية ما يحمد الله عليها أناء الليل وأطراف النهار حتى تقوم الساعة :

(أ) النصر من عند الله ، لأن الدين دينه ، والرسول رسوله ، والمؤمنون عباده ، فهم ينصرون بفضل الله لا بكثرتهم ولا بعتادهم .

(ب) ألا تأخذ المسلمين نشوة النصر ؛ فيركنوا إلى ذلك ، ويتركوا أنفسهم للتنّعم وحياة الدعة ، والتمتع بالحياة ناسين الرسالة التى يحملونها للبشرية تحمل لها سعادة الدنيا والآخرة .

(جـ) أصبح المجتمع الإسلامي طاهراً من عناصر الشرك فتحرر من العلاقات كلها ، إلا رابطة الدين وأخوة الروح ، وإتسم المجتمع بسمة الفضيلة ، وتميز بمكارم الأخلاق وتسيد الولاء للدين الحنيف قلوب المجتمع الإسلامي الواعي .

(د) تحررت الكعبة وتطهرت تماماً ، ونفت خبث الجاهلية ورجس الشرك ، وأغلقت إلى الأبد في وجه المشركين ، وأصبحت كالجنة محرمة على الكافرين ، فلا حج لكافر أو مشرك ، ولا حج لغير المسلمين .

انظر معي إلى هذه الآثار الطيبة التي نتجت عن خلق واحد من أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهو العفو الحربي ، عامل به أعداءه ساعة واحدة من نهار في معركة فاصلة قطعت الصلة ما بين الجاهلية وعنجهيتها ، وظلماتها ، وبين عصره عليه الصلاة والسلام ... عصر مكارم الأخلاق !!

لقد ربط سيدنا رسول الله ﷺ على مكة رداء العفو فآمن ألد أعدائه خصومة ، وأشدهم ضراوة وعناداً ، وتجمع الكبير منهم والصغير ، والقوى منهم والضعيف ، والمرأة والرجل ، والشاب فيهم والأطفال ، تحت هذا الرداء الحنون يحتمون به من برد الخوف ، ويتقون به بطش الحرب ، وينعمون به بنعمة السلام والإسلام ، وخرجوا من تحت هذا الرداء صفًّا واحداً يؤذن مع سيدنا بلال بن رباح « الله أكبر .. الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله » ..

يا له من آذان أيقظ الإنسانية من سباتها العميق على ضوء الفجر الصادق فجر الإسلام !!

كلمة ختامية لهذا الفصل

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف كان خلق سيدنا رسول الله فى الحرب ؟

وعلمت معنا الإجابة الشافية التى رددتها أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها على سؤال من سألها : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟! فقالت رضى الله عنها .

« كان خلقه القرآن » ؟!

لقد قالت أم المؤمنين حقًّا .. ونطقت صدقاً .. وجمعت فى هذه العبارة لسيدنا رسول الله ﷺ جميع مكارم الأخلاق ، ونزهته تماماً عن كل مساوئ الأخلاق .. هكذا ألهمها الله فأصابت الحق والحقيقة .

والآن وبعد أن استعرضنا بعض وقائع الحرب التى خاضها سيدنا رسول الله ﷺ ، وتبدّت فيها مكارم أخلاقه كالشمس وضحاها تخلص إلى النتائج الآتية :

أولاً :

إن سيدنا رسولَ الله ﷺ بعث نبياً ورسولاً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وهذه السورة مدنية وهذه الآيات تحدد موقف سيدنا رسول الله ﷺ من الكفار ومن المنافقين .

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

ثانياً :

إن الرسول ﷺ يدعو إلى الله فى السلم ، ويدعو إلى الله فى الحرب ، أى : أنه مبلغ للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً فى السلم وفى الحرب ، وكل ذلك لا يتصرف فيه من تلقاء نفسه ، وإنما هو فى كل ذلك يتصرف بإذن الله عز وجل .

ثالثاً :

إن دستور الحرب فى الإسلام تلقاه سيدنا رسول الله ﷺ وحياً فى القرآن الكريم .

والدليل على ذلك : أنه ظل داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة طيلة حياته ؛ ذلك لأن الدعوة تقوم على الحوار وسلاحها الكلمة وهدفها الإقناع وتوليد الإيمان فى القلوب ؛ والرشد فى العقول ، ليتعرف الإنسان على ربه ورب السماوات والأرض ومن فيهن ، فيقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .. ويعزف على الأرض لحن السلام ، وظل سيدنا رسول الله ﷺ يدعو الناس فى مكة المكرمة وعلى رأسه ترفرف أجنحة السلام ، ويحمل فى يديه كئوساً مترعة بشراب السلام صافياً حلو المذاق ، ويتحمل أذى قومه الذى كان يتلقاه منهم ، مر المذاق قبيح المنظر ، فى شخصه بسيطاً ، وفى أصحابه مضاعفاً ، وهو كلما مر على نفر منهم يصلَون على يدى قومه أشد العذاب وقد واساهم قائلاً :

« بشراكم آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

ولم يرفع للحرب عصا فى وجه قريش ، ولم يشعل لها عوداً من القش ، بل ظل صابراً ثلاثة عشر سنة كانت طويلة شديدة الوطأة عليه وعلى أتباعه ، حتى تمادى الكفار فى العناد ... وأخرجوه وأصحابه من مكة إلي المدينة ، وصادروا أموال المؤمنين واستولوا على دورهم ...

رابعاً :

أن الحرب وقعت منه عليه الصلاة والسلام بإذن الله مثل الدعوة تماماً لقوله تبارك وتعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة الحج)

والجميل فى هذا الموضوع أن هذه الآية مسبوقة بآية رقم ٣٨ يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

وعلى ذلك فحرب سيدنا رسول الله ﷺ وحرب أمته حربَ دفاع وليست حرب عدوان . والدليل القوى على ذلك يسطع فى الآية :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الله لا يحب العدوان حتى من المؤمنين به ، المحبين له الذين يحبهم ويؤثرهم بفضله .

خامساً : التفرقة بين الجهاد والقتال :

فالجهاد أوسع دائرة من القتال ، وهو من الجهد الذى يأخذ صور كثيرة ، منها الجهد بالكلمة ، ويتم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالموقف ، وجهاد النفس والتصدى لمن يحمل السيف من أهل الظلم والطغيان ليقاتل الصف المؤمن ، ويقهر الضعفاء ، ويقتل النساء ، والأطفال ويستولى عنوة على مال المسلمين ، وعلى ذلك يكون القتال بالسيف صورة من صور الجهاد ، والجهاد يكون فى السلم والحرب ، ولا يكون القتال إلا في الحرب ، فالجهاد يكون بالكلمة ، ويكون بالمال ، ويكون بالجاه والسلطان ، ولا يكون القتال إلا بألة الحرب ، ، وفى هذا يقول الحق عز وجل :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وإذن فلا ينبغى الخلط بين الجهاد والقتال ، كذلك قد يكون ميدان الجهاد فى داخل كيان الإنسان نفسه ، وهو ما روى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه سمَّاه بالجهاد الأكبر وهو جهاد النفس ، وفيه يحاول الإنسان الذى ينشد الكمال التصدى لعواطفه السلبية ، وقمع شهواته ، وضبط هواه ، ليكون موافقاً لما جاء به سيدنا رسول الله ﷺ ، امتثالاً لتوجيهه الشريف « لا يأمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

فهو يتولى نفسه بالتهذيب ، والتأديب ، وبسياستها للإذعان لتعليم الدين الحنيف ، ويزكيها بالقرآن والذكر الحكيم ، ويصقلها بطاعة الله وطاعة سيدنا رسول الله ﷺ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الشمس)

وفى ذلك يقول الحق عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (سورة المائدة)

قال البوصيرى فى بردة المديح :

وخالف النفس والشيطان واعصمها	وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تُطع منهما خصماً ولا حكماً	فأنت تعرف كيد الخصم .. والحكم
كم حسَّنَتْ لذة للمرء قاتلةً	من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
فخالف هواها وحاذر أن توليه	إن الهوى ما تولَّ يصم أو يصم

وقد يكون ميدان الجهاد بيت المرأ وأسرته :

يأخذ بأيدى أهله وولده إلى طاعة الله ، ويبرُّهم ويبصرُّهم فى أمور دينهم ، ويحضهم على التحلى بمكارم الأخلاق ، وهو يستطيع أن يصل إلى غايته منهم إذا كان قدوة لهم .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (سورة طـه)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة التحريم)

وقد يكون الميدان هو المجتمع كله :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أما القتال فله ميدان واحد حيث يلتقى فيه المؤمن بالكافر الباغى الظالم الذى تعمد استخدام ألة القتال لقتله وقهر الضعفاء من النساء والولدان والشيوخ وتغيير صورة المجتمع ونشر الخوف والإرهاب ، وباختصار الإعتداء على السلام ، ولم يثنه عن ذلك محاولات المؤمن نزع السلاح والجلوس على مائدة المفاوضات للصلح ففى حالة إصرار العدو على القتال يكون قتله وقتاله فرض عين ، أى : يكون عبادة لله .. شأنه شأن الصلاة ، لأن العدو فى هذه الحالة يمارس نشاطاً إجرامياً عدوانياً قاصداً بذلك قتل المسلمين ، وحرمانهم من حق الحياة ، وسلبهم حقوقهم المشروعة فأصبحت مقاومة هذا العدوان فريضة على المسلمين ، يقاتلون عدو الله وعدوهم حتى يتحقق الأمن لهم والسلام للعالم . وبهذه المثابة يمكن فهم أية القتال :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وبهذا يتأكد فى ضمير المسلم : أن القتال هنا هو نوع من أنواع الجهاد ، أو فرع من فروعه ، باعثه ردّ عدوان المعتدى ، وتحقيق الأمن والسلام ، إذ هما ضروريان لإقامة مجتمع السعادة والرفاهية لكل الناس ، فإذا جاء باغ يحرم الناس من هذا الأمن أو هذا السلام ، فقتاله يكون فضيلة من أرقى الفضائل ، ويكون

التسليم له بأفعاله الزميمة ، وعدوانه الآثم رذيلة من أقبح الرذائل ، ويكون حصاد المقاتل المسلم محصوراً فى ثمرتين كل منهما حلوة المذاق .. النصر أو الشهادة .

وقد أوجز كل هذا المغفور له الإمام محمد أبو زهرة فى كتابه خاتم النبيين « الجزء الثانى » تحت بند ٣٦٣ ص ٥٩٦ فى هذه الكلمات :

كان لابد قبل أن نخوض فى حروب النبى ﷺ وأدوارها ، والمعارك التى خاضها ، من أن نسبق بالقول فى أوصاف حرب النبى ﷺ ، فإن ذكر الحرب قد يفرع ، ويرهب ؛ فكان من الضرورى أن نعرف القارئين بأنها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظفْر والناب وإنها حرب نبوة ، تدفع إليها الفضائل الإنسانية ، ويظلّها الحق ، والخلق الكريم فى الباعث عليها ، وفى ابتدائها ، وفى سيرها ، وفى الانتهاء منها ، وفى معاملة المغلوبين ، ليتميز الخبيث من الطيب ، ولكى لا يتطاول ملحد فى دين الله على مقام الرسالة ، ومكان الهداية ، ويقع فى القوم بغير الحق ، ويفترى بالباطل ، فنضع الحقائق بين يديه فإن شاء استنار بها ، وإن طمس الله تعالى على بصيرته فماله من هاد ويكون كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

« انتهى كلام الشيخ أبو زهرة »

وبهذا يتضح للقارئ ، ولأصدقاء الإسلام ، ولأعدائه : أن القتال فى الإسلام رد لعدوان ، وصد لبغى ، ودرء لفساد ، وصيانة لفضائل ، ومقاومة لظلم ، وتثبيت للقلوب والعقول بالقول الثابت فى الحياة الدنيا ، وحماية للضعفاء من النساء والأطفال ، وذود عن القيم والفضائل والحرمات ، ومحافظة على الحياة من أعداء الحياة ، ونشر للواء السلام .

وإذن فالحرب فى الإسلام حرب تمليها ضرورة ، ويفرضها واقع سيئ يتعين

التخلص منه إلى واقع مطلوب لنمو الحياة الزاهرة السعيدة للإنسان كل الإنسان ، وكذلك لإحياء الفضيلة ومكارم الأخلاق .

وإذن فالحرب التى رفع لواءها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، هى مرآة تتجلى عليها مكارم الأخلاق ، التى يعلو بها الحق ، وتزدهر بها الحياة ، ويتحقق بها الاستقرار ، وتشرق بها السعادة ، ويسود بها الأمن ، ويحب الناس بها الحياة .

وبذلك الذى سردناه فى هذا الباب نكون قد رسخنا فكرة أعطيناها للقارئ عن كنز الأخلاق النبوية فى السلم والحرب ، هذا الكنز الذى ورثه المسلمون كل على قدر نصيبه الذى أتاحه الله له ، ووفقه إليه ، فأصبح به مصدر سعادة لمن تعامل معهم ، وعندما امتزج بأنصبة الآخرين من إخوانه المحبين لسيدنا رسول الله ﷺ ، كون معها بحيرة نورانيَّة يتجلجل فيها سلسبيل الأخلاق عذباً فراتاً ، فارتوت به أشجار السلام ، تداعب أغصانها السماء بزهورها الفياحة ، تعطر بها الآفاق ، وبثماره الطيبة تغذى بها الأرواح ، وبجمالها الأخاذ يأسر القلوب ، ويشرح الصدر ، ويطلق الألسنة بذكر الله .. تهليلاً وتسبيحاً وتحميداً وتقديساً ، ويردد هذا الموكب الربانى الجميل السادى فى السماوات والأرض :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ (١٨) ﴾

(سورة الحج)

أيضاً فى سورة غافر :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة غافر)

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أسجل على هذه الصفحات رأى أحد أعلامنا الرُّواد ، وعلمائنا الأفذاذ وهو المغفور له الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ، وهو الرأى الذى انطوت عليه رسالة دكتوراه الدولة « دستور الأخلاق فى القرآن » فى المدخل إلى القرآن الكريم » ترجمة محمد عبد العظيم على ، ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى - نشر دار القرآن بالكويت - دار آفاق الغد ٢ شارع شريف بالقاهرة - الفصل الثالث صفحة ٥٦ وما بعدها ، حيث يؤسس فكرة الحرب فى الإسلام والباعث إلى هذه الحرب فيقول ما نصه « يستحيل علينا - نظراً للأحكام العديدة النزيهة التى اتفق المستشرقون عليها - أن ننسب الباعث « على الحرب » إلى نفسية الرسول ، فالإجراءات الحربية فى الحقيقة ليست من طبعه ولا من عادته ، بل العكس هو الصحيح ، إذ كثيراً ما جلب عليه تسامحه وعفوه عن المشركين لوماً من القرآن :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (سورة التوبة)

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فقد نقل إلينا الأثر كثيراً من عفوه ومغفرته تجاه جرائم ارتُكبت ضد شخصه أو ضد ذويه .

ولقد حاول البعض أن يعلل هذا الاتجاه الجديد (اتجاه الحرب الدفاعية) بضغط جماعة المسلمين عليه ، وهم من هذا الشعب الذى يتميز بالروح الحربية كطبع أصيل فيه . ولكن العلماء الذين تعمقوا فى دراسة الغريزة العربية ، لا يؤيدون مثل هذا الافتراض ، بل إنهم أثبتوا أن الدماء تثير الفزع فى نفوس العرب ، ولا سيما أعراب الصحراء ، ويؤكدون أن البدو لا يحرصون على الحروب ، ولكنها عندما تفرض نفسها عليهم يقبلونها بدلاً من تحمل الذل والعار ، وحتى بالنسبة لعمليات الغزو التى كانت تقوم بها بعض ، القبائل على بعض فإن القبائل الرحل كانت تحرص دائماً على عدم سفك الدماء .

فلا يمكن إذن تفسير هذا التحول الجديد (التعامل بالقتال) عن طريق تحليل نفسية الشعب ولا بتحليل نفسية الرسول ، وإنما يتعين البحث عن دوافعه فى حدث تاريخى ، ولابد أن شىء ما قد حدث فى تلك الفترة فأدى إلى هذا الموقف الجديد .

والواقع أن القرآن يجسد أمامنا مشهداً مثيراً للغاية .

والرجوع إلى النص القرآنى يوضح لنا الموضوع ، والهدف ، والحدود التى يستهدفها التشريع القرآنى من وراء القتال فيقول :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة النساء)

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الممتحنة)

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلا نجد فى أى مكان إذناً بالبدء بالقتال ، وإنما الأمر هنا محدد بموقف الخصم العدوانى ، والأكثر من ذلك أنه حتى بالنسبة للمشركين الذين لا يرتبطون مع المسلمين بعهود ومواثيق ويطلبون حمايتهم ، نجد القرآن يطالب الرسول بأن يبلغهم مقصدهم فى أمان .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فكل مسئولية الحرب إذن تقع على عاتق البادئ بها ، ولكن إلى أى مدى تمتد هذه المسئوليات ؟ هل مسئوليات جماعية ؟ لقد أثبتنا فى مكان آخر المبدأ القرآنى الذى يتضمن أن المسئولية الجنائية والأخلاقية هى مسئولية فردية ، وأن المسئولية المدنية تميل إلى الاقتراب من نفس هذه الفكرة ، وشأنها شأن المسئولية العسكرية ، فعندما يقول القرآن :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنما يقصد بذلك الذين يقاتلون قتالاً فعلياً ويحملون السلاح ...

ما هو إذن الهدف من هذا التشريع ؟ نعتقد أنه قد وضح الآن : وهو إبعاد الخطر ؛ فالإسلام يُدين روح التدمير وروح السيطرة

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة القصص)

بل إنه لا يريد فرض « أيديولوجية عالمية :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

وحتى مع افتراض أنه قد يكون هناك من يريد ذلك فإنه لا يستطيعه . لأن الرسول ذاته لم يكن ليركن إلى إمكانيته البشرية ويعول عليها ، بعد أن أوضح له القرآن الأبعاد والحدود .... لقد كان بعيداً عن أن يُكره الضمائر ويعوق حرية العقيدة . لا إكراه فى الدين .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالإسلام يقف فى وجه من يعترض طريق الحرية ويعرض الناس للفتنة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (سورة البقرة)

وتحطيم هذه العوائق هو الهدف التحررى الذى يجب أن يلهم المقاتلين المسلمين .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

« انتهى كلام الدكتور محمد عبد الله دراز »

هذا هو الفهم الصحيح لطبيعة القتال ومشروعيته فى الإسلام ، فهو تشريع استثنائى يقتضيه دفع الضرر عن المجتمع ورد عدوان المعتدين على الأنفس والأموال والدين .

وهذا أبلغ رد على المقولة الزائفة التى ذاعت فى الفكر الغربى الحديث والتى تقول بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف .

الآن تسقط هذه المقولة إلى الأبد .

وفى الآونة الأخيرة ترددت نغمة مغرضة لوثت فكر الغرب ، يدعى قائلوها : أن الإسلام هو الدين الذى يصنع الإرهاب ، ويجعل من معتنقيه إرهابيين صناعتهم التدمير ، والتخريب ، وهدم الحضارة ، وإجبار الناس للعودة إلى الوراء ، وبلغ جهل هؤلاء بحقيقة الإسلام أن قسموا العالم إلى قسمين : قسم مع الإرهاب وقسم ضد الإرهاب ، وبلغ الغرور بزعيم من زعماء الغرب أنه نصّب من نفسه ومن شعبه قائداً لحرب ضد الإرهاب ، وهدد الشعوب الإسلامية بحرب مدمرة زاعماً أنها هى التربة التى نبت فيها الإرهاب ، والرد على ذلك فى منتهى البساطة وتحتويه مصادر الإسلام من القرآن والسنة والتى تنطق كلها بسماحة الإسلام ونصاعته ، ودعوته البيضاء للسلام والأمن ، والاستقرار ، والوئام بين الشعوب وقد سبق إيضاح كل هذا بالتفصيل فى الصفحات السابقة التى يظهر منها حرص النبى ﷺ علي المحافظة على كرامة الإنسان حيًا وميتاً فى حالتى السلم والحرب ، هذه الكرامة التى لم تشهد مهانة واحتقاراً على مر التاريخ مثلما عانت منه على أيدى أدعياء الحضارة فى شعوب الغرب ، ويشهد بذلك ما حدث فى البوسنة والهرسك ، وكوسوفو ، والصومال ، والشيشان ، وما يحدث الآن على أرض فلسطين ، مما يعد سبة فى جبين قادة الشعب الأمريكى الذين يناصرون العنصرية الفاجرة المسيطرة على مقدّرات الشعب الفلسطينى عن طريق الكيان الصهيونى المسمى بإسرائيل ، والسكوت الجبان من المجتمع الأوروبى ، وهذا الذى سيعلّق بقعة دامية على ثوب الحضارة الغربية المدّعاة إلى أن تقوم الساعة ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، وينسبون إلى الإسلام ما ليس فيه وهم به متصفون ، فهم يسندون إلى الإسلام الإرهاب ، وهم بالإرهاب موصومون ، وهم له صانعون ، وسيبقى سؤال على فم الزمان يُزدّده جيلاً بعد

جيل ، من الذى قتل الأطفال ، والنساء ، وكبار السن ، والشباب ، ودمر المنشآت ، وخرّب البيوت ، وسمم الزروع ، وقتل الحياة ، وذبح السلام على أرض فلسطين فى شهرى مارس وإبريل سنة ٢٠٠٢ ؟؟!! وسيتلقى الإجابة كما يأتى : إنهما شارون رأس العنصرية الفاجرة ، وشريكه جورج بوش الثانى إمبراطور الإرهاب وصانعه قائد الولايات المتحدة الأمريكية .

وأما السؤال الثانى : الذى يردده الزمان ، فهو الذى حفظ للإنسان كرامته حيًّا وميّتاً ، عدواً وصديقاً ، ومحارباً ومسالماً ، طفلاً وشيخاً ، امرأة ورجلاً ، حضارة ومدنية ؟ وسيتلقى الإجابة ، إنه محمد بن عبد الله نبى الله ورسول الله وصفى الله الذى وصفه بقوله :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

تم الجـزء الأول ويليه الجـزء الثانى

الفصل الرابع

معاملة النبى ﷺ

لليهود فى المدينة المنورة

إن الذى يتتبع خطوات سيدنا رسول الله ﷺ عند هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، ويحاول على نور الإخلاص والتجرد لله ، والولاء للحقيقة ، أن يقرأ شيئاً مما هو مكنون فى نفسه عليه الصلاة والسلام يهتدى إلى أنه لم يقطع هذه الفيافى والقفار ، وهو يتوقى لهيب الحر ، ويتحمل وعثاء السفر من أجل الحصول على ثروة أو مجد سياسى من الملك أو الزعامة ، وإنما كان كل ما ينشده ويحرص عليه هو تحقيق الأمن والأمان لدعوته التى يدعو الناس إليها ، وهى دعاية الإسلام ، والأمن والأمان لأصحابه الذين اتبعوه واتبعوا النور الذى أنزل معه ليعبدوا الله سبحانه وتعالى ، عبادة لا يرفقها خوف ولا يهددها عدوان ، وأن يواصل مسيرته الطاهرة الظافرة لإنقاذ الناس من سطوة الظلم والظالمين ، وتمكين الناس من عبادة الله على أساس من حرية العقيدة ، التى لا يطفئها طغيان ، ولا يزعجها سلطان .

إنه عليه الصلاة والسلام وجد نفسه ، ووجد المؤمنين معه فى حاجة إلى مظلة أمن تظلهم ، وتعفيهم من هذا الصراع الذى صدر لهيبه من طرف واحد ، من جانب كفار قريش الذين كانوا قد وصل بهم العناد أن مكروا به يريدون قتله ، ووصل بهم أيضاً إلى أنهم كانوا يواصلون تعذيب أصحابه وتعذيبهم إلى حد القتل والتنكيل بهم ، دون رحمة أو شفقة أو مراعاة قرابة أو رحم ، وأنهم ظلُّوا على عدوانهم الغاشم ثلاث عشرة سنة ، يُصْلُون المسلمين جحيم العذاب ، والمسلمون على أوامر الله لهم بالدفاع عن أنفسهم والانتصار للحق والقرآن

والإسلام ، وأما أهل المدينة المنورة فكانوا أيضاً يبحثون عن الأمن والأمان بعد حرب أتت على كل شيء ، وحطمت كل شيء ، وأكلت الأخضر واليابس ، وعصفت بصلة القربى وقطعت الأرحام ، ألا وهي حرب بعاث ، وعاشت المدينة (يثرب) في هذا الظلام الدامس في ليل الحرب الحالك .

وكانوا يتدبرون أمرهم ، لتحقيق الأمن والأمان ويحاولون التخلص من الأوهام والفزع وأشباح هذا الليل البهيم ، واجتمع بعضهم على اختيار رجل تكتمل فيه عناصر الشهامة والمروءة والذكاء ليجمع كلمتهم ، ويوحد صفوفهم ، وكانوا قد اتفقوا على أن يجعلوه ملكاً عليهم يكون رمزاً لمجتمعهم وفعلاً قد اختاروا عبد الله بن أبي بن سلول .

ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى كانت قد سبقتهم بأن يكون هذا الرجل الذي تتوفر فيه كل عناصر العظمة ، ومنها الخصال التي تحقق آمالهم هو محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ﷺ ، فلا عجب أن يكون هذا « البدر » الذي تطلعوا إليه يبدد ظلمة الليل الذي شكوه ، ويضئ ليل القطيعة الحالك ، هو أحمد الخير عليه الصلاة والسلام ، فلا عجب أن يشدو بالنشيد الذي أفعم قلوبهم حين رأوا أشعة النور ساطعة في جبينه وتشرق من ثنيات الوداع فأنشدوا :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعى لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحباً يا خير داع

* * *

نعم إنهم أهل المدينة .. كانوا في حاجة إلى الأمن أيضاً يعيشون حياتهم في مظلته فيزرعون الأرض ، وينثرون الحدائق والبساتين ، فطل عليهم التمر والعنب والرمان ويزاولون حياتهم في أمن وأمان .

فها هو المؤتمن لتحقيق ذلك قد جاء يعيش في الأرض ، ومعه أصحابه

يشاركونهم السَّرَّاء والضَّرَّاء ، وينعمون معهم بالمحبة والإخاء .. ليتحقق لأول مرة على وجه الأرض مجتمع الحب فى الله والأخوة فى الإيمان .

وأما اليهود فإنهم فى البداية فرحوا بمقدم هذا النبى العظيم بعد أن تأكدوا من نبوته ورسالته ؛ لأن فى هذا تصديقاً لما كانوا يستفتحون به على الناس من أنه النبى الموعود الذى يهاجر إلى يثرب ، ويأمر الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة الأصنام والأوثان .

والنبى محمد ﷺ استقبلهم استقبالاً حافلاً واشترك معهم فى صيام يوم عاشوراء ، وفتح قلبه لهم ، وصلى متوجِّهاً إلى بيت المقدس قبلتهم التى كانوا عليها وأراهم منه عليه الصلاة والسلام كل الصفات الجميلة التى حلاه الله بها ، والأفعال الجميلة التى كانت هى بعض شأنه ، وحسن تواضعه ، ونبل عواطفه ، وسمو وفاءه ، وكامل بره ، وواسع حلمه ، ووضاءة تسامحه ، وشمول عفوه ، وحرارة عطفه على الفقراء والمساكين منهم ، كل هذه الكنوز حباهم بها عليه الصلاة والسلام عن طواعية وحب للخير وتحقيق لحرية العقيدة التى ظلت أساساً متيناً من أسس دعوته عليه الصلاة والسلام ولا تزال من مقومات هذا الدين الذى أسسها على كلمتين اثنتين تظلان تملأن الوجدان بأنوارهما تؤنس الوحيد وتقوى الفريد ، وتعين الضعيف وتؤمن الخائف ، وتقلم أظفار الطغيان ، وتطفئ نار العدوان حتي يقوم الناس رب العالمين ، وهم يهتفون بها :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (سورة البقرة)

ضمها القرآن بين آياته ، وضمها سيدنا رسول الله ﷺ بين حناياه وبثها إرسالاً دافئاً ينفذ إلى أعماق المصلحين ، ولم تظهر فى دساتير العالم إلا بعد مئات السنين ، بثها هذا النبى الكريم لتبشير أهل الكتاب بما أنبأتهم به الآيات البينات التى تسطع فى سورة القصص من ٥١ إلى ٥٥ :

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة القصص)

وبهذه الطائفة تكتمل عناصر سكان المدينة ومن حولها :

أولاً : المسلمون من المهاجرين والأنصار .

ثانياً : المشركون من سكان المدينة من الأوس والخزرج .

ثالثاً : اليهود ، وهم قسمان : قسم يعيش داخل المدينة ، وقسم يعيش حول المدينة ، فأما الذين يعيشون داخل المدينة فهم بنو قينقاع ، وأما الذين يعيشون حولها ، فهم بنو قريظة فى فدك ، وبنو النضير على مقربة .

ولما كان النبى محمد ﷺ يريد أن يجعل من هذه الأعراق أمة واحدة يعيشون فى ظل دولة واحدة ، طلع عليهم ، وعلى العالم بأول إعلان دستورى ي تاريخ البشرية ، هذا الإعلان الذى حقق المعادلة الصعبة التى نشأت بها دولة على أساس من الدين والأخلاق تحقق السعادة لكل الذين يعيشون فى ظلها ، ورعايتها تختلف أعراقهم وأديانهم وثقافاتهم .

ولكنهم يقولون كلمة واحدة يتفقون عليها ويجتمعون على النطق بها والتخلق بها وتأصيلها فى النفوس معانى فى مصلحة الأمة وضد من يعتدى

عليها ، وبذلك يكون قد أفلح هذا النبىّ نجاحاً باهراً فيما فشل فيه غيره من العلمانيين أبدا الدهر .

وأحببت أن أنقل للقارئ هذه الوثيقة الدولية التى أصدرها هذا النبىّ الكريم بينما كانت أوروبا ، وغيرها من القارات تائهة فى الظلمات فى عصر الظلمات ..

إليك أيها القارئ هذه الوثيقة النبوية المحمدية الكريمة التى أنصفت الإنسانية وحفظت لها كرامتها إلى أبد الآبدين :

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم :

بأنهم أمة واحدة من دون الناس ..

المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحالة التى عليها يتعاقلون) أى يدفعون ربأنهم بعضهم مع بعض .

وهم يفدون عانيهم « الأسير » بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط من المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى .

وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو هاشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو البيتا على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى .

وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وإن المؤمنين لا يتركون مفرجاً (المثقل بالدين وكثره العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه (ألا يتخذ مؤمن وليًا يخص مؤمناً آخر) .

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى وسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن فى كافر ، ولا ينصر كافر على مسلم .

وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصرين عليهم .

وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً بعضاً

وإن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال وباءهم فى سبيل الله تعالى .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك ما لا ولا لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

وأنه من اعتبط مؤمناً قتلا (أى قتله بغير سبب) عن بينة ، فإنه قود (قصاص) إلا أن يرضى ولى المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه به ، وأن من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن ردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ .

عهد النبى ﷺ على اليهود :

إن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، ومواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه ، وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف وإن ليهودبنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته .

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

وإن ليهود الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم .

وإنه لا يخرج منهم أحد إلاباإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأرجرح ، وأن من فتك بنفسه فتك بأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أيد هذا (أى على الرضابة) .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وإن يثرب حرام صد لأهـل هـذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار وآثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ وإن الله تعالى على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا مثل ذلك ، فإنه مهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين وعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذين قبلهم .

وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله تعالى على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه إنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن إلا من ظلم أو إثم وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ .

هذه الوثيقة الطاهرة المطهرة ، لو سارت الإنسانية مسيرتها على هديها لصعدت إلى درجة الكمال ، وحازت كل عناصر الجمال ، ولعاش الناس كل الناس على الأرض سعداء حائزين لصلاحيتهم للنهوض بخلافة الله في الأرض ، إن سيدنا رسول الله ﷺ بهذا الإعلان الدستورى الذى يسمو إلى درجة يكون بها أصدق وثيقة دولية تفرض نفسها بنفسها أسسًا وقواعد للقانون الدولى سواء منه الخاص أو العام ، فلا يشكو فيها المواطن ظلماً ، ولا يشكو شعب من شعوب العالم غبنا أو قهراً يقع عليه من ظالم أو غاشم قد ضمن لمسيرته التفوق والازدهار ، واحترام كامل يتلألأ على حروف كلماتها ، وعدل شامل يسطع من بين فقراتها ، احترام للحريات ، ولا سيما حرية العقيدة وعدل شامل في توزيع الحقوق والواجبات بين كل من الدولة ورعاياها .. يتجلى كل ذلك ليلقم كل طاغية الحجر ، وليقلم أظافر كل ظالم ، وليقطع الطريق على كل باغ يظهر في

الأرض الفساد . إنها دستور دولى ليت هيئة الأمم تعلنه نظاماً عالميًا فى مواثيقها الدولية ، إذن لخسر المبطلون وسعد بها المصلحون .

يقول أستاذنا الجليل المرحوم محمد حسين هيكل فى كتابه (حياة محمد ﷺ) ص ٢٢٧ معلقاً على هذه الوثيقة ..

[هذه هى الوثيقة السياسية التى وصفها محمد منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة والتى تقرر حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة ، وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يؤمن هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد ، وتعبث فيه يد الظلم والسفاد] .. انتهى كلام الدكتور هيكل .

وما يهمنى هذا فى هذه الدراسة هو ما جاء فيها متعلقاً باليهود حتى نكون على بينة من الأمر ، وحتى نصل معاً إلى حقيقة أن النبى ﷺ قد أعطاهم حقهم كاملاً غير منقوص وأنهم فى كل مرة حاربهم ، كانوا باستمرارهم الذين يعتدون عليه ، وعلى المسلمين بعكس ما أراد چورچ بوش أن يدسه على القراء بقوله : بأن الإسلام دموى ومحمد عليه الصلاة والسلام معتد عليهم .

أنت أيها القارئ قرأت معى الوثيقة ، هل رأيت فيها من النبى عليه الصلاة والسلام غطرسة أو كبر أو نكرانًا لحقوق الإنسان فى الحريات وأولها حرية العقيدة ؟.

إن الوثيقة احترمت وضمنت لليهود حرية العقيدة ، ولم تقترب منها بأى احتجاج عليها أو تحذير .

وهذا يتفق تماماً مع أحكام القرآن الكريم الذى تدور تصرفات النبى محمد ﷺ فى فلكه ، ولا تخرج عنه ، فقد جاءت بنور الوثيقة تنفيذاً لأحكامه فى قول الله سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت فى الآيات من ٤٦ إلى ٥٢ :

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

أيها القارئ الكريم : هذا هدى القرآن وأحكامه والتى ينفذها النبى الكريم محمد ﷺ حرفيًا بالتزام أمين صادق حريص ، فنبّئنى بربك هل وجدت فى هذه الأحكام تحريضاً له على قتال أحد من اليهود لا يعتنق الإسلام ولا يترك عقيدته ؟

هل وجدت فيه كلمة واحدة تحض على الصراع أو المصارعة ؟.. هل شممت منها رائحة التعصب أو الإكراه أو الإجبار أو الطغيان ؟!!

هل وقع نظرك على غير الحوار الدافئ بالحرص على إجلاء الحقيقة ، وبيان الحق والهدى ؟

هل وقع نظرك على أقل القليل من احتقار لعقيدة اليهود أو تنفير منها ؟ أو تقبيح لها ؟.

هل تضمنت تحذيراً لهم من استعمال القوة ضدهم إذا استمروا على عقيدتهم أو رفضوا عقيدة المسلمين ؟

انظر معى أيها القارئ ، وتابع معى هذا الجمال فى أدب الاختلاف :

إنه ينهى عن الجدال بصفة أصلية ، ويبيحه بشرط أن يكتمل فيه الحسن والإحسان باللفظ جمالاً ، وبالاستعداد بالاحترام كمالاً بالتى هى أحسن وأجمل من الحجج والبراهين ، وحسن الخطاب وجمال الأسلوب وحسن العرض وجمال البيان .

تجلية مواطن الاتفاق وبسطها فى أسلوب مبهر [وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون] إنه إغراء للمخاطب الآخر بمواصلة الحوار الهادئ ، وهذا الإغراء يكشف عن الثقة العظمى فيما يدعو إليه والثقة العظمى فى الفطرة التى فطر الله الناس عليها وأسكنها فى قلوبهم ، فهى ترقب الهدى وتنتظره على شوق ، فإذا بدرت بادرته إليها تقبلته بقبول حسن ، فالفطرة السليمة تعشق الهدى وتنفر من الضلال .

وعودة إلى دعم الثقة وتركيزها فى هذا القرآن ، وفى إحقاقه للحق وإبطاله للباطل ، وفى إنه وحى الله سبحانه وتعالى وتنزيله والذكر الحكيم ، وبعث الثقة يفجر على أرض الحوار حقائقه الأزلية الأبدية الراسخة فى قلوب المؤمنين ، الهادرة بالحكمة وفصل الخطاب ، وقوة البراهين ، وسطوع الأدلة الموقظة للضمير ، الحاقدة للاقناع والاقتناع بالمسلمات من أنوار الحق وصدق اليقين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

لقد نبه التعليق الذى ختمت به الآية إلى أن نكران الحقيقة البارزة فى آيات الله لا يأتى إلا من صنف واحد من البشر ، وهم الكافرون .

يعنى بذلك إخبار أهل الكتاب أنهم ليسوا بكافرين ، حتى يجحدوا الإسلام ، بل هم أهل كتاب آمنوا بهذا الكتاب من قبل ، وبينهم من يؤمن به وهو يحيا بينهم مؤمنا به .. مقتدياً بهديه ، وهو بهذا يوقظ جذوة الإيمان فى قلب الآخر ويستدعيها لتضئ له الطريق فيصل إلى حقيقة الإيمان والإسلام .

ثم هو يعبئ قلب النبى ﷺ الداعى إلى الإسلام والحق المبين بالثقة والاستيثاق بالحق الذى يدعو إليه واضعاً فى يده ، وفى قلبه وأمامه الدليل على صدقه ، وعلى نبوته ورسالته :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)

فهو يدفعه إلى إبراز ما فى دعوته من جمال وكمال وحق وحقيقة ، وهدى ، وإنقاذ للعقل من ظلمات الغواية وإنقاذ للقلب من ظلمات الشرك ، وما فيه من تركيز الإيمان فى القلب ، هذا الإيمان الذى يحقق الأمن الفكرى والسلام النفسى ، يتواكب ذلك كله مع العلم فى صدور أهل العلم ، فتنشرح ، وفى عقولهم فتستضئ ، وفى وجدانهم فتسكن إليه وتتعلق به ، أما الظالمون فهم

دائماً ينكرون الآيات ومعها الحق وبالباطل هم يؤمنون ، فلا تكترث بهم ولا تخش منهم شيئاً ، فهم لأنفسهم ظالمون .

وأثناء الحوار يرى الآخر نفسه محاصراً بالأدلة والبراهين مع احترام القرآن له ولعقله ولعواطفه ، وكذلك حرص النبى ﷺ على تجلية فطرته بنفض تراب التعصب عنها باللين فى القول ، والحكمة فى الحجة ، فيتراجع القهقرى ليطلب المعجزات الحسّية الموقوتة التأثير فيخبره النبى ﷺ أن الله وحده هو الذى يملك خرق القوانين والعادات ، وأن مهمته ﷺ تنحصر فى البلاغ فقط فإنما هو نذير مبين .

وتطرح الآية (٥١) سؤالا يحمل فى طياته معانى متعددة ولكنها كلها تلتقى فى تصديق النبى محمد ﷺ وتصديق القرآن ، وأن النبى محمداً هو رسول الله ﷺ ، وأن القرآن الكريم كتاب الله ، وأن النبى ﷺ رحمة الله للناس والقرآن كذلك رحمة لهم ، وكلاهما يذكران أهل الكتاب بدينهم وبكتبهم وبأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام .. وأن كل هذا يصب فى الإسلام دين الله الأزلى الأبدى لا تبديل لكلمات الله .

ثم تأتى الآية رقم (٥٢) لتحسم النقاش والحوار بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وتفويض الأمر إليه والاكتفاء بشهادته لأنه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض بعلمه المحيط ، ويحق الحق بكلماته ، وهو الذى أنزل القرآن ، وبعث محمداً نبيًّا ورسولاً وشاهداً وشهيداً ، ومبشراً ونذيراً ، وهو الذى جمع له ذلك فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

لقد اكتفى النبى ﷺ بشهادة الله على صدقه ، ولم ينذر أهل الكتاب بحرب وهو يدعوهم للإيمان ، بل دعاه بالحكمة والموعظة الحسنة وسلاح الدعوة هو الدليل وذخيرتها البرهان ، وطريقها الحكمة والموعظة الحسنة والحمد لله رب العالمين .

وتظهر فى هذه الآيات الكريمات أولى وأرقى خصائص دعوة الإسلام ، التى تمثل القاعدة الأساسية فى دستور الدعوة إلى الله ، وهي الالتزام بالحكمة والموعظة الحسنة ، فالحكمة تصف نفسها ، إذ أن مصدرها العقل ، فليست فى حاجة إلى صفة تحدد معالمها ، أما الموعظة فقد وصفها الله بصفة الحسن ، لأنها قد تصدر عن عاطفة يغلب عليها انفعال الغضب الذى يحمّيها بناره فتصبح جمرة تسئ إلى عواطف الآخر بما تحتويه من غلظة فى القول أو العقل فتفقد التأثير الطيب ، ويبغضها إلى نفسه فتصبح سيئة بسبب ما تتركه من أثر سيئ ، لذلك أراد الله أن يوضح صفتها ويحدد نوعها بأنها الموعظة الحسنة .

وبهذا الجمال فى الخطاب ، وبهذا اللين فى الكلام ، وبهذه الثقة فى الدعوة ، وبالتذرع بالحكمة ، وبالتسلح بالموعظة الحسنة تحلّى نبينا ﷺ عند دعوته لأهل الكتاب ، ومنهم اليهود إلى الدخول فى الإسلام ، والإيمان بالقرآن ، وفى هذا المجال ، مجال الدعوة - أظهر لهم كل ما حباه الله به من رحمة ، وحلم ، وعلم ، وحكمة وخلق كريم فسبحان من كمَّله وجمَّله ، وقال له :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (سورة الأنبياء)

هذا الهدى الذى احتوته هذه الآيات هو ما صدرت عنه هذه الوثيقة الطاهرة .

وظاهر منها أن بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة لم يحضروا هذه الاتفاقية ، ولكن أستاذنا الدكتور هيكل قال في كتابه (حياة محمد ﷺ) ص ٢٢٨ إنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبى ﷺ صحفاً مثلها .

إذن فماذا حدث ، وكان له الأثر البالغ فى نشوب الحرب بينهم وبين النبى ﷺ ؟.. وهذه الحرب التي أثارت عواطف المستشرقين ، ومنهم چورچ بوش الذى انفعل ووصف ، توجه النبى فى حرب أهل الكتاب من اليهود هذا الوصف الذى جاء بالصفحة (٣١٧) من كتابه :

[لقد عاقب محمد ﷺ قبائل بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير التى كانت تقيم بالقرب من المدينة (المنورة) فوقعوا فريسة سهلة فى يد جيوشه فتعرضوا للسلب والنهب والموت علي وفق درجة رفضهم لنبوته وتصديهم لقواته].

وقوله فى نفس الصفحة :

[إن القلب يأسى أن يجد النبى رسول الله ينتقل من مشهد دموى إلي مشهد دموى آخر ، ومن مذبحة إلى أخرى جاعلاً دعاوى الدين عباءة يغطى بها طموحاته التى لا حد لها ، ومباهجه الحسية التافهة ، إن المرأ المتأمل هنا يدرك المعني العميق لطهارة دين يسوع المسيح وجنوحه للمسالمة ، فهذا المعني يزداد تألقاً إذا ما قارناه ببريق الانتصارات (الحربية) التي حققها النبي الغازي ، تلك الانتصارات التي تفتقد الهدف الدينى ، إن الشخص الذى يشعر بقوة المبادئ المسيحية لن يرتاح ـ أو يعجب ـ بهذه المعارك الضارية التى انتصر فيها مؤسس الإسلام وأمثاله من الغزاة بحصارهم الناجح ولا بالمدن التى نهبوها أو أخضعوها وإن فاق المسلمون غيرهم فى هذا] .

إن القارئ لهذا الكلام الصادر عن چورچ بوش الجد .. يدرك على الفور أنه يتجنّى على نبينا محمد ﷺ وعلى الإسلام ، إذ يصوره عليه الصلاة والسلام بصورة الغزاة الذى ليس لهم ديدن إلا تخريب البلاد ، وقتل العباد وأن يظهروا فى الأرض الفساد ، أو بهؤلاء الذين يستهويهم الطمع والجشع فذهبوا يقهرون الشعوب ، ويقتلون النساء والأطفال ، من أجل السيطرة علي أراضيهم ، ونهب الثروات والاستيلاء على الأموال عنوة واغتصاباً .

هذا الذي دار في خلد هذا المؤلف نابعاً من قلبه المريض الذى أزعجه هذا النور الذي بزغ فجره بجوار بيت الله الحرام يوم ولد النبى محمد ﷺ ، وزاد لينتشر من مسجده بالمدينة المنورة ، ليأخذ بأبصار الأوربيين فى الأندلس (أسبانيا) وليقول لها .. كفاك نعاساً .. واستيقظى يا أوروبا وهبى فحطمى فى يديك ورجليك القيود والأغلال وثورى على الطغيان والاستبداد ، فقد ظهر فى الشرق رجل يوقظك على قول الله عز جل :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ (سورة الإسراء)

إن الحرب التى زاولها هذا النبى الكريم ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ليست من هذا النوع الذى أراد أن يلصقه فيه ، إنما هي متميزة لا شرقية ولا غربية ؛ إنما حرب فوقية تستمد قدسيتها وطهارتها من الملأ الأعلى ، حيث أن الآمر بها والذى كتبها وفرضها عليه وعلى أصحابه هو الله عز وجل ، شرعها سبحانه وتعالي ليقلم بها أظافر الطغاة والمتحيرين ، غلاظ القلوب الذين يعيثون فى الأرض فساداً ويثيرون فى الناس الرعب والفزع ، ويحرقون على الأرض روضات السلام ، شرعها سبحانه وتعالى ليخلص البشر من أعداء البشر أعداء الحياة ، وليحقق على الأرض الأمن والسلام ، بالحرية ينتزعها جنوده البررة من مخالب الطغاة والظالمين ، فلم محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ﷺ يتقدم جنوده بالبسالة والشجاعة مبتدئاً بحرب يفاجئ بها شعباً غير شعبه مهدداً إياه بالموت والخراب وفارضاً عليه حلاً من ثلاثة حلول ـ الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، التى هى الذبح والتدمير والخراب .

هذه أكذوبة ردتموها وروضتم لها أيها المستشرقون الظلمة في غير حياء ،

وأردتم من شعوبكم أن يصدقوها ، إما عن علم أو جهل ، وفى كلتا الحالتين حسابكم على الله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فإن كنتم فعلتم ذلك عن علم ، فهو المكر الخبيث والكيد للإسلام والمسلمين ، والحقد الذى حرّق قلوبكم ، وأحرق كل أمل فى إصلاح ما فسد من قلوبكم وضمائركم ونترككم ونفوض الأمر فيكم لله يحكم بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين .

وإن كانت هذه الأكذوبة قد خرجت منكم عن جهل فإننا نُعلمكم مما علمنا الله سبحانه وتعالي من علم الكتاب ، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يهدينا وإياكم لما فيه صلاح ديننا ودنيانا إنه سميع عليم .

وهدفنا من ذلك أن نوصل لكم ما هدانا الله إليه من حق ، هو أساس هذا الدين ، ومن حقيقة هي النبراس الذى أضاء لمسيرة الإسلام الظافرة الطريق ، إن سيدنا رسول الله فى حربه لم يكن يسير خبط عشواء ، وإنما كان يخوض هذه الحرب وفق أحكام دستور لها ، وقواعد هذا الدستور من صياغة الله وحده لا شريك له .

دستور الحرب فى الإسلام

الحرب عند سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم استثناء يرد على قاعدة عامة هي الحب والسلام ، والإخاء بين أفراد بنى الإنسان وضرورة عن طريق الأخذ بها ، والحكم علي مقتضاها يستقيم المُعوج ويعود إلى الفطرة التى فطر الله الناس عليها من الحق والعدل .

والاستثناء ، كما يقال لا يتوسع فى تفسيره والضرورة تقدر بقدرها ، والتى يخدمان حقيقة من حقائق الإسلام التى أرساها الله سبحانه وتعالى فى وجدان نبيه ورسوله ومصطفاه من خلقه سيدنا محمد رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، والتى تسطع فى سورة الأنعام :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وإذن فالحرب شرعت فى الإسلام لتقويم نفوس اعوجت فظلمت ، وعميت فضلت ، وقويت فطغت ، وملكت فبغت ، وبصّرت بالحق فاعتدت ، وللباطل انتصرت ودافعت ، وعلى العدوان أصرت ، وللقتال دبرت وأعدت ، وللخراب سعت وهاجمت ، فكان لابد لها أن تفيق من هذا الغرور ، وكان لابد للحق أن يعلو ولا يعلى عليه ، وكان لأهل الحق أن يتيقنوا أنهم على الحق ، وأن الله وهو الحق على نصرهم لقدير .

أى أن هدف الحرب في الإسلام تقليم أظافر المعتدى الغاشم والقصاص منه وإن بدت فيه قسوة على هذا الظالم ففيه رحمة بالمظلوم ، وواجبة له ، ليشعر بالأمن والطمأنينة ، وعلى ذلك فإن نبى الله ورسوله لم يحارب للحرب ذاتها ، فلم يخرج في حياته لحرب عدوانية ، وإنما حارب لرد اعتداء المعتدين ، ودفع ظلم الظالمين ، على هدى من آيات الله وأحكامه التى جاءت بالقرآن الكريم :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الممتحنة)

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (سورة الحديد)

﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ (سورة النساء)

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة الفتح)

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الصف)

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة التوبة)

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (سورة الأنفال)

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (سورة الحج)

(صدق الله العظيم)

لقد تعمدت أن أدون جميع آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الحرب باعتبارها جهاداً فى سبيل الله وتتضمن دستورها وتحدد طبيعتها ، وترسم قواعدها وأحكامها التى يلتزم بها مجتمع المسلمين ، وتتقيد بها دولتهم وحتى تتم الفائدة فلابد من بيان هذه الأحكام وهذه القواعد التى يتعين الالتزام بها ، وعدم تجاوزها ، فلابد من اللجوء إلى السنة النبوية الشريفة لنقف على معالم هذه الحرب ، وعلى هدى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .. فهيا إليه لنتعلم !!

١ - عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أى ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أى .

قال : الجهاد فى سبيل الله . . (متفق عليه)

٢ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من رضى بالله رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً ، وجبت له الجنة ، فعجب لها أبو سعيد . فقال : أعدها علىَّ يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال :

« وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله ، الجهاد فى سبيل الله .

رواه مسلم .

٣ - عن أبى موسى رضى الله عنه أن أعرابيًا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ! الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . (متفق عليه)

٤ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

٥ - وعن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : إلا أن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » . (رواه مسلم)

الآن وبعد أن اطلعنا على جميع الآيات القرآنية التى ورد بها ذكر الحرب والجهاد ، وبعض الأحاديث الشريفة المروية عن الثقات والتى تبين طبيعة الجهاد فى سبيل الله والتعريف به ، وبأحكامه ، فإننا نتكلم عن مشروعية الحرب فى الإسلام وبواعثها والأهداف التى ترمى إليها ، وعن الأخلاق التى يتحلّى بها المجتمع الإسلامي ممثلاً فى جيشه قادة كانوا أم جنود :

مشروعية الحرب :

الحرب دفاع عن الإسلام وعن المسلمين :

الأصل أن الإسلام دين ؛ ومعنى أنه دين أنه دعوة ورسالة تتضمن حكم الله سبحانه وتعالى عقيدة وشريعة وأخلاقاً . وعلى هذا فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعث نبيًّا ورسولاً وداعياً إلى الله بإذنه ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

وقد كان ﷺ أشد الناس تواضعاً ، وأعدمهم كبراً ، ويكفى أنه خُيِّرَ بين أن يكون نبيًّا ملكاً أو نبيًّا عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً ، فهو فى جوهره رحمة الله للعباد ، وإنه بالدعوة وصل الإسلام إلى كثير من عباد الله الصالحين ، وليس فى حاجة إلى سيف يبلغ به هذا الدين ، ولا إلى رمح يعلم الناس آدابه وأحكامه ، وإنه ظل على عهده بالتجمل بالصبر ، والتحلّى بالعفو ، والسعى بالرحمة سنوات الدعوة كلها ، لم يرفع فى وجه أحد سيفاً ولم يلوح أمامه برمح .. حتى وهو وأصحابه الكرام يعانون فى مكة أوجع التعذيب ، ويقاسون الهوان والتهوين .

والثابت بيقين من تاريخه الجميل ، ومن تتبع مسيرته أنه لم يكره أحداً على

اعتناق هذا الدين الحنيف ، بل ظل يدعو إليه ممتثلاً لأمر الله - عز وجل - فى سورة النحل :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا هو الأصل فى دين الإسلام ؛ وعلى ذلك فإن السلام هو الأصل ، والحرب هى الاستثناء ، ومن هنا فإن للحرب دواعيها وأسبابها التى لا تمثل القواعد العامة فى التعامل مع الإنسان ، وإنما هى تشريع استثنائى اقتضته ضرورة لحماية الدين الحنيف وحماية المؤمنين به فى حالة الاعتداء على أى منهما ، وفيه تتمثل العدالة فى أبهى صورها وأكمل معانيها .

وفى هذه الحالة - حالة العدوان من الغير - تكون الحرب هى العلاج الوحيد ، والطريقة الوحيدة للقضاء على العدوان وحفظ الحقوق المهددة بالضياع ، وحفظ النفوس المهددة بالعدم ، وحفظ القيم الرفيعة المهددة بالزوال ، وحفظ الحياة المهددة بالفناء ، فإذا ما تقاعس القائد لجيش الدين الذى هو الحق عن خوض هذه الحرب ؛ فإنه يكون قد قصر فى أداء واجب شرعه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ويسأل عنه

يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ ذلك لأنه قد اشترك مع المعتدى فى الظلم بخضوعه له والسكوت عن مقاومته ، ويكون مثلاً سيئاً لأمته حيث يجبرها على تقبل الذل والهوان .

وفى ضوء ما تقدم يتبين بجلاء أن دستور الحرب فى الإسلام يقوم على القواعد الآتية :

أولا - الباعث عليها : هو رد العدوان ومقاومة الظلم :

١ - قال الله تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٢ -

﴿ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

من هذه النصوص القرآنية يتضح أن الحرب شرعت لحماية هذا الدين بالدفاع عنه إذا ما سولت لأى فرد نفسه أو حدثت أى مجتمع نفسه الاعتداء عليه أو محاولة النيل منه .

وكذلك إذا حاول فرد أو مجتمع مهاجمة الناس فى المجتمع الإسلامى أو الاقتراب من الضعفاء من الناس بسحقهم أو اكتساحهم وهضم حقوقهم ، بإذلالهم أو قهرهم ، فيجأرون بالشكوى من الظلم والبغى والفساد ، فيكون السكوت على ما يعانونه من الخسف ، والتنكيل نوعاً بشعا من الظلم وتكون المبادرة إلى نصرتهم وتمكينهم من حقوقهم عملاً نبيلاً وسلوكاً فاضلاً مهما صحبه من استعمال للقوة الرادعة التى تقطع يد الطغيان وتحطم كيان الظلم .. وإذن فالحرب هنا فضل وفضيلة .

ثانياً ـ تأمين الدعوة الإسلامية :

عندما تنبه أعداء العدالة الإلهية إلى حقيقة الدعوة الإسلامية ، وأنها تحمل للإنسانية التحرر من عبادة الأوثان ، والاقتصار على عبادة الله وحده واجب الوجود والمستحق للعبادة دون سواه .

وما تنطوى عليه من المساواة بين الناس ، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وأن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان سبة يتعين أن تختفى ، وأنه لا سبق للإنسان فى مضمار الحياة إلا بعمله الصالح يقدمه مساهمة فى مسيرة المجتمع يبتغى به وجه الله ، وأن العدل هو أساس الملك ، فالقوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له ، فالكل أمام الشريعة سواء . وباختصار عندما أحس الطغاة أفول نجم مجتمع الطغيان ، وزوال عهد الأنانية والتسلط ، وبزوغ فجر الحضارة الذى سطر بأضوائه حقوق الإنسان على هامة الزمان .

عندما أزعجهم وهج شمس الإسلام تحول ليل الصحراء إلى نهار كشف ما عندهم من رخيص الزاد ، ومن أتفه المتاع .. تجمعت فلولهم ، وتوحدت آراؤهم

على وأد هذا الدين ، فنظموا أنفسهم حرباً عليه واستعانوا على ذلك بتكوين الأحزاب والأحلاف ، مع اختلاف انتماءاتهم ، ومذاهبهم ومللهم ونحلهم التى يناقض بعضها بعضاً ، ولم تلتقى إلا على هدف واحد هو التخلص من هذا الدين ، بالقضاء على نبيه ﷺ وعلى المؤمنين به .

فكان لابد من التصدى لهؤلاء الحاقدين أعداء الله وأعداء الدين ، أعداء الحياة تأميناً للمسيرة الظافرة التى تحمل فى أيديها الخير كل الخير للإنسان على مدى الدهر حتى يقوم الناس لرب العالمين .

ثالثاً ـ حكمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وتريثه عند لقاء العدو :

فإنه كان يتذرع بالصبر ، ويلتزم بالأناة ، ولا يعاجل عدوه بالضرب ، حتى تظهر قوته ويقوم بقتل أحد جنود الإسلام ، وكان يقول لجنوده .

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم . فإن أبوْا ، فلا تقاتلوهم حتى يبدؤكم فإن بدءوكم ، فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ، ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم هل إلى خير من هذا سبيل ؟ ! « فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » » .

كل هذه وصية سيدنا رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ، وقد أرسله إلى اليمن قائداً ، إن سيدنا رسول الله ﷺ نبى ورسول صاحب دعوة ورسالة وهمه الأول هو تبليغ هذه الرسالة وغرس مبادئها فى النفوس ، وتزيين القلوب بعقيدتها ، وتزكية الوجدانات بشريعتها ، وتعطير الجوارح بأخلاقها ، هذا هو همه ، وهذا هو هدفه ، وهو يعلم أن العقل هو الوعاء الحقيقى لعلم هذه الرسالة ، وأن القلب هو البوتقة التى تتلقى رحيقها ، فإذا استطاع أن يصل إليهما ، ونجح فى نقشها على هذا العقل ، وأفلح فى صب رحيقها فى القلب ، فإنه يكون فى غنى عن استعمال السلاح ، وإذا أصر العدو على غلق عقله ، وإحكام الحجاب على قلبه ،

ولم يعد يقبل المسالمة وأصر على العدوان ، وبرزت نيته السيئة في عمل ظاهر للعيان بقتل أحد الجنود في الصف المسلم ، عند ذلك لم يبق إلا السيف حكماً بينه وبين العدو المتربص به المصر على إلحاق الضرر به وبالدين وبالمؤمنين .

رابعاً ـ الالتزام بالرفق :

إذا حمي وطيس الحرب ، واشتد أوار المعركة وثار النقع ، وتصايح الفرسان ، واشتد الغضب ، وعلت الأصوات بالنذر ، وظن المراقب للمعركة أن شبح الموت يصول ويجول ، يرى بقلبه وناظريه ملك الرفق يضئ بوجهه سماء المعركة ، وتفتر أسنانه عن ابتسامة تبعث الأمل في النفوس ؛ لأن الرفق والرحمة هما جوهر هذا النبي ، وهما في ذاته المعدن والأساس . فهو القائل : « أنا نبي المرحمة .. وأنا نبي الملحمة » .

ودائماً ترى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم متفائلاً تفاؤل مشرق القلب ، وقوى الإيمان ، بإدخال الهدى قلوب الآخرين ، وتأليف هذه القلوب ، حتى وإن تقاطعت السيوف ، واشتجرت الرماح ، وصال شبح الموت وجال في المعركة ، وعن هذا التفاؤل ومن مشكاة هذا الإشراق خرجت للعالمين أنوار هذه الوصية من وصاياه التي كان يزود بها أصحابه في وقت التحامهم بجند العدو .

« تألفوا الناس ، وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل مدر أو وبر ، أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » .

حقاً إنه نبي ورسول وليس مقاتلاً من أجل المال وليس متعطشاً للدم ، ولا راغباً في الانتقام ، كما يقول أصحاب النفوس الحاقدة ، والأقلام المأجورة ، والعقول الآسنة في الشرق ، والغرب .

خامساً ـ حرصه صلى الله عليه وسلم على تنمية الحياة وازدهار المسيرة الإنسانية :

كانت وصاياه المتكررة لجنود الإسلام بالمحافظة على الأنفس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وينهاهم فى حزم عن إتلاف الزروع ، وعن قطع الأشجار ، وينهاهم كذلك عن قتل الضعاف من الذرية والنساء ، والرجال الذين ليس لهم رأى فى الحرب ولم يشتركوا فيها . . . ومن ذلك قوله فى إحدى وصاياه لهم :

* انطلقوا باسم الله تعالى وعلى بركة الله :

« لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا . . وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

وفى وصية أخرى يقول عليه الصلاة والسلام :

« سيروا باسم الله ، فى سبيل الله تعالى وقاتلوا أعداء الله ، ولا تغلوا ولا تحزنوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » .

ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد :

لا تقتل ذرية ولا عسيفاً (عاملاً) يلاحظ ما يرمى إليه من المحافظة على العمال ؛ لأنهم جيش التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية » .

وقد وصل إليه بيان ، ظهر منه قتل بعض الأطفال فى معركة ، فقام خطيباً فى جنوده قائلاً :

« ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ؟!

ألا لا تقتلوا الذرية . . ألا لا تقتلوا الذرية » .

اسمع معى أيها القارئ الكريم هذا الدعاء الذى كان يفتتح به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم المعركة :

« اللهم إنا عبادك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك اهزمهم وانصرنا عليهم » إنه يطلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ نصراً له ولجنوده : لأنهم مسالمون

لا يبغون الشر وأعداؤهم ما جاءوهم إلا قاصدين الشر وباغين للفساد ، ومن هذه الوصايا النبوية المتكررة يتبين أن الحرب المحمدية ، حرب طاهرة زكية يستعمل فيها السلاح ، كما يستعمل الطبيب النطاس المبضع يستأصل به أم القيح من الجرح ليطهر الجسد من الصديد ، ويخلصه من الأورام الخبيثة والأمراض المستعصية والداء العضال ، ويتمكن من تجريع صاحبه الدواء الناجح لتعود إليه صحته وسلامته ، وينعم بحياة مطمئنة فيها الرغد وفيها الهناء والسعادة ، فالحرب ضد العدوان قصاص من المعتدين المصممين على العدوان ، والمصرين على الغدر ، والعازمين عزماً أكيداً على الفساد فى الأرض وصدق الله العظيم ، حيث يقول :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (سورة البقرة)

ولهذا فهو شدد فى النهى عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ لأنهم لم يقترفوا ذنوب الحرب ، وليس لديهم إصرار على إلحاق الضرر بالمسلمين .

حدثونى بربكم هل قرأتم أو سمعتم حرباً على هذا القدر من النظافة والطهارة والسمو ؟!!

سادساً ـ التمسك بالفضيلة وإن جافاها العدو :

يتمسك سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بالفضيلة تصدر عنها كل أقواله ، وأفعاله ، ومواقفه فى الحرب ، وتُحلى جميع معاملاته للعدو كالآتى :

١ - فهو لا يقاتل إلا من حمل السيف فقط ، ويأمر جنوده بالعفة التى لا يحدها حد .. والعفة التى ترقى بصاحبها إلى مستوى الملائكة فلا يعرف الجندى المسلم الإسفاف أو التردى إلى حضيض الحيوانية ، ولا يقبل أن يكون وحشاً ضارياً ، إنما هو يمارس الحرب هادياً مهدياً ، متأسياً بنبيه ورسوله الهادى إلى

صراط مستقيم ، حتى إذا مات ذهب إلى الله راضياً مرضياً ، إن حرب سيدنا محمد ﷺ حرب نبوة ، وليست حرب غشامة أو طغيان ، تعمل فيها أحكام الفضيلة ، فلا تستباح النفس إذا ظهر ما يؤول على أنه جنوح إلى السلم والموادعة ولا ينتهك عرض ، ولا تهتك فضيلة .

٢ - إن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعث معلماً ، قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت معلماً » وعلمه وتعليمه ليسا قاصرين على السلم فقط ، وإنما هو معلم للناس فى الحرب ، كما هو معلم في السلم .

وعلى ذلك فإن له هدياً فى الحرب يعلمه للناس ، كما أن له هدياً فى السلم يعلمه للناس أيضاً .

فهو فى حروبه التى خاضها كان يعلم الناس سلوكيات الحرب العفيفة ، حيث يتقيد حضرته بمُثُلها الرفيعة .

وهذا ينسجم مع طبيعة الحرب التى يشنها خاتم الأنبياء والمرسلين ، تقع بدافع دعم الفضيلة ، ودفع الرذيلة ، وعلى ذلك فليس من المعقول أن يكون هذا النوع من الحروب باعثه الدفاع عن الفضيلة ، ثم تنتهك فيها الحرمات وتؤتى فيها وبه المنكرات !!.

وسيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم متمسك بالفضيلة يتحلى بها هو وجنوده الأبرار ، وإن بدى من العدو أنه لا يقيم لهذه الفضيلة وزناً ولا يعمل لها حساباً ، فكثيراً ما تنكّر العدو للأخلاق فى معاملة الجندى المسلم سواء فى حالة قتله أو فى حالة أسره .

ففى حالة قتله كان يمثل به ويشوه جسده ، يبتر أعضاء منه ، بينما معلم الناس الفضيلة ﷺ ينهى جنوده عن التمثيل بالعدو فى قوله :

« إياكم والمثلة » ..

وحدث أن قتل أعداؤه عمه الحمزة بن عبد المطلب ، وهو من هو فى قرابته

منه كشقيق لوالده وأخ له فى الرضاع ، لكنه لم يمثل بأحد منهم انتقاماً ولم يحدث بعد ذلك أن فعل ، بالرغم من أنه انفعل بغضب شديد عندما رأى عمه على هذه الصورة ، وقد مثل به الكفار التمثيل البشع ببقر بطنه ونزع كبده التى لاكتها هند بنت عتبة .

وفى معاملة الأسرى تتجلَّى أخلاق النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فبينما نرى الأعداء يقتلونهم أو يتركونهم يموتون جوعاً ، فإن أدب نبى الله محمد ﷺ يسوقه إلى إطعام الأسير ، وحسن معاملته ، تنفيذاً للآية الشريفة :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

ألم أقل لكم إن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يعلم الناس السلوك الحسن فى السلم والحرب ؟!!

إن العالم يدعى التحضر ، لم يعرف كيف يتعامل حضارياً مع الأسير إلا فى النصف الأول من القرن العشرين فى معاهدة جنيف التي تضمنت حقوق الأسرى وأحكام معاملاتهم ، ومع ذلك لم تصل هذه القواعد إلى مستوى ما شرعه سيدنا رسول الله ﷺ من قواعد معاملة أسرى الحرب ، ومن العجيب أن هذه المعاهدة التى تعددت مخالفة أحكامها ، ومن هذه المخلفات فى عمق أوروبا فى التسعينات من القرن العشرين فى البوسنة والهرسك أثناء الحرب العرقية التى شهدت العمليات الإجرامية التى قام بها مجرموا الحرب فى الصرب ، وهي تعد سبة فى جبين الإنسان المعاصر ،وبقعة سوداء على ثوب الحضارة الغربية مهما حاولوا إزالتها بمحاكمة مرتكبيها أمام محكمة العدل الدولية كمجرمى حرب .

وتلاها فى بداية القرن الواحد والعشرون ما يشهده العالم من حرب فاجرة ، تشنها الصهيونية باتفاق وتنسيق بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية عن

طريق كل من المجرم شارون رئيس وزراء إسرائيل ، وجورج بوش رئيس الولايات المتحدة ، من قتل النساء والأطفال والشيوخ والتمثيل بهم مع هدم المنازل ونسف البنية التحتية والفوقية على أرض فلسطين العربية ، والتنكر لكل قواعد وأحكام القانون الدولى ، ونقض جميع الإتفاقات بين الكيان الصهيونى والقيادة الفلسطينية .

وكل هذه الجرائم البشعة يرتكبها شارون بعصابة لصوص لا تصدق عليها كلمة جيش على مرآى العالم ومسمعه . هذا العالم الذى يخشى بطش وسطوة الولايات المتحدة الأمريكية التى بلغت جرأتها أن قامت بتصنيف العالم إلي إرهابيين ، ودول مساعدة للإرهابيين ، ودول تحارب الإرهاب ، وهي تعد العقوبة الرادعة لكل من يتعاون مع الإرهاب وتهدده بالويل والثبور وسوء المصير ، وكل هذه التقسيمات تستقل هى بها ، وهى وحدها التى تعرف الإرهاب على هواها .

وبالمعايير التى تخترعها هى وحدها تقيس سلوك الشعوب ، ومن هذا المنطلق فإنها أعطت لدولة إسرائيل دولة الإرهاب ، الحق فى إبادة الشعب الفلسطينى وجنود المقاومة الفلسطينية ؛ لأن المقاومة الفلسطينية فى نظرها منظمات إرهابية وراحت الولايات المتحدة ، ومعها الصهاينة الخبثاء والحاقدون على الإسلام من حكام الغرب ومفكريه ، يصفون الإسلام بأنه يصنع الإرهابيين ويصف القتلي منهم بأنهم شهداء ، ويكفى فى الرد عليهم ما سبق من عرض لأنباء سيدنا رسول الله ﷺ ونضيف إلى ذلك ما يأتى :

إن سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يأخذ بيد بنى الإنسان ليعلمهم كيف يكونون بشراً أسوياء فيحررهم من شهوات الانتقام ويشرع لهم قواعد أخلاقية تميزهم عن الوحوش الضارية وتسمو بهم فوق البهيمية الحمقاء فيهديهم بسلوكه مع الأسرى لمكارم الأخلاق ، بالسيطرة على نوازعهم السلبية ، وهى فى لحظة لا يكون هناك نشاط فى الكيان الإنسانى لغيرها .. هي لحظة القتال التى لا ينصت الإنسان إلا لها ، ولا يذعن

لمشورة غير مشورتها ، إلا وهى القسوة كل القسوة ، والغلظة ، كل الغلظة فى معاملة من هو مصر على قتله ، ومصمم على إزهاق روحه ، فى هذه اللحظة ، يوقظ سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما هو كامن مختبئ من نبيل الخلق ، وجميل الخصال ، وأسماها الرحمة .. فيجعلها الملكة ، ويوليها السيطرة على هذا الكيان الغاضب الثائر ، فتنساب برداً وسلاماً على الأسير لتنام فيه سورة الوحش ، وتستيقظ فيه قيمة الإنسان ، فسبحان من علم رسول الإنسانية قيمة الإنسان اللهم صلى وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

روى أبو داود فى كتاب الأدب ـ الحذر من الناس رقم (٤٢١٩) والإمام أحمد ٢١٤٥٤ ، أنه فى أيام صلح الحديبية الذى كان بين سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم والمشركين / أصابت قريشاً ضائقة وأزمة طاحنة ، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى أبى سفيان بن حرب زعيم المشركين فى أبان ذلك خمسمائة دينار ليشترى قمحاً يستطيع به أن يفرج عنهم هذه الأزمة .

وبذلك يكون سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد سد حاجتهم ، وأطعم المعوزين منهم ، وهم مشركون ، وكان بعض المسلمين يمتنع عن إعانة الفقراء من المشركين ، ومن أهل الكتاب ، إذا ما تعرضوا لظروف تجعلهم فى حاجة شديدة إلى المال ، وذلك معاملة منهم لهم بالمثل ومحتجين أيضاً بأن فقراء المسلمين أولى منهم بهذه المعونة ، وكذلك لحملهم على الدخول فى الإسلام على اعتبار أنه دين العزة والكرامة .

وكان سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ينهى عن التصدق إلا على أهل الإسلام فقط دون غيرهم فنزلت الآية :

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

وبهذا أصبحت الصدقة واجبة إذا أوجد سببها ، ووجدت الحاجة إلى العطاء من غير نظر إلى الموضع الذى يستحقها ، فإنك تكرم إنسانيته لا يهوديته ولا نصرانيته ولا إشراكه، أى أن الصدقة تسوغ على غير المسلم ، بل تجب إذا كان غير المسلم فى حاجة شديدة ، ويخشى عليه إن لم يقدم له العطاء الذى ينقذه .

وهذا ما قرره فضيلة الإمام محمد أبو زهرة فى تفسيره للآية .

فسبحان من علم رسول الإنسانية قيمة الإنسان .. اللهم صلى وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سابعاً ـ المحافظة على حقوق الإنسان وكرامته :

إن مما تتميز به حرب أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم هو مراعاته لإنسانية الإنسان ، ومحافظته على كرامته حيًّا كان أو ميتاً ، بل إن هذه العناية تتجلّى مضيئة فى معاملة الموتي من جنود العدو وإنه ليسمو ويسمو فوق المشاعر التى تحرك الإنسان العادى ليتربع على قمة تخلع الرقاب ولا تصل إليها ، وتعجز الأبصار عن متابعتها :

لقد مدحه الإمام البوصيرى ، ذاكراً ما وصل إليه من منزل أنزله الله فى ليلة الإسراء فقال :

مازلت ترقى إلى أن نلت منزلة   من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

ومدحه شوقى فى نهج البردة فى نفس المقام فقال :

حتى بلغت سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبى عند رتبته ريا محمد هذا العرش فاستلم

وعن أبى إبراهيم عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس قام فيهم فقال :

« يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموه فاثبتوا ، فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم قال النبي ﷺ « اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب . اهزمهم وانصرنا عليهم » .

(متفق عليه)

وفى هذا المقام - معاملته للحربيين من أعدائه - بأى عبارة ثناء يستطيع من يتابعه أن يقدر هذه المعاملة قدرها ؟! فمهما أتيح له تملك ناصية البيان ، والإمساك بزمام اللغة ، لن يستطيع أن يوفيه حقه ، إلا أن يسعفه إيمانه فيلجأ إلى الله عز وجل ليسعفه بكلمات يلقيها بين يديه عليه الصلاة والسلام ، تحمل هذا التقدير الذى أفتقد مكنة التعبير عنه ، ويمده بالعبارة التى تمتلئ حروفها برحيق الثناء فيجد وجدانه يعتمل بقول الحق عز وجل :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة القلم)

يردد هذه الآية بين يديه عليه الصلاة والسلام ، وهو متربع على هذه القمة الأخلاقية السامية ، كل من يتابعه ، وهو يتعامل مع الحربيين من جنود الأعداء أحياء كانوا أو قتلى وهو يشعر أن الله عز وجل قد تولى بذاته الثناء على حبيبه ومصطفاه أشرف الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فتحمل عنه ما لم يستطع حمله ويعود إلى نفسه قائلاً مع الشاعر :

شخصية مدح الرحمن صاحبها أظنها فى غنى عن مدح إنسان

لقد بدأت معاملته ﷺ للحربيين تظهر فى احترام إنسانيتهم والمحافظة على كرامتهم ودستوره فى ذلك قول الحق عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الإسراء)

وإن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعامل الحربى من جنود أعدائه يجرده من كل ميوله ونزعاته ، ولا يبقى على شيء سوى كرامته يحفظها عليه حيًّا ، كان أو ميتاً ويتم ذلك على الوجه التالى :

١- الجريح :

كان ﷺ ينهى عن الإجهاز على الجريح ، ويأمر بعلاجه ، وتخليصه من آلام جراحه ، والرحمة به ، والشفقة عليه ، إذ أضعفه الجرح وفقد المقاومة ؛ وذلك لأن الحكمة وراء القتال ليس إلا إضعاف القوة وكسر المقاومة ، وليست الانتقام والتشفى ، فالإسلام ينزه المسلم عن هاتين الخصلتين .

٢- معاملة الأسرى :

تجلت مكارم الأخلاق المحمدية فى معاملته عليه الصلاة والسلام للأسري ، فالسيطرة والسلطان فى هذه المعاملة هى لحرصه على تبليغ الدعوة الإسلامية وتأدية الرسالة التى بعثه الله با رحمة للعالمين فهو لا يسعى إلى تحقيق أمجاد عسكرية براقة ، أو بناء ملك جائر ظالم يبني عرشه بجماجم الموتى وأشلاء القتلى ، إنما سعيه كله محض تحقيق آداب النبوة وإعلاء كلمة الدين فى النفوس ، وفى جنبات القلوب وحنايا الصدور ، لتكون واقعاً ملموساً على ظهر الأرض

ومنارات تهتدى بها المسيرة الإنسانية من ضلال ، وتكثر من قلة ، وتغنى بها من فقر ، وتسعد بها من شقاء ، وتحيا بها حياة السعادة والهناء ، فقد كان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بأسرى الحرب من أعدائه يحسن معاملتهم ، ويأسو جراحهم ، ويحض الصحابة على المحافظة على كرامتهم ، ويشعرهم دائماً بأنهم ينعمون بالعدالة الإسلامية والرحمة المحمدية .

وقد ظهرت هذه الروح المحمدية فى معاملته لأسرى بدر فأنزلهم بيوت الأنصار ، ولم يخصص لهم معسكراً يقذف بهم فيه يلقون المعاملة الخشنة من الحراس ، فأصبحوا وكأنهم ضيوف فى بيوت ضيافة وليسوا أسرى فى زنزانات الأسر المظلمة ، وتلقوا في بيوت الضيافة ما يتلقاه الضيوف من حفاوة وتكريم . ينفذ فيهم الأنصار الكرام وصية حبيب الله عليه الصلاة والسلام التى قالها لهم : « استوصوا بالأسرى خيراً » ، فكان هؤلاء القوم من الأنصار على عاداتهم يؤثرون هؤلاء الأسري على أنفسهم ، وعلي أولادهم بطيب الطعام طلباً لرضاء عليه الصلاة والسلام ، الذى هو من رضا الله . وهذا السمو الأخلاقى من جانب سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم والذى نجح فى طبعه على وجدان أصحابه وجنوده ، ثمرة للجهاد الأكبر الذى نوه عنه وعلمه لهم عندما قال لهم :

« رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وعلمهم أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس بضبطها على مكارم الأخلاق ، وسنى الخصال .

فبانتهاء الحرب تنتهى ثورة الغضب وتنطفئ جذوته المستعرة ويحل محلها برد وسلام الحلم والدعة وسلسبيل العفو والمرحمة ، وهو عليه الصلاة والسلام نبى الملحمة ونبى المرحمة .

فمعاملة الأسرى تتم فى إطار رسمه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم كالآتى :

١ - إن جيش الإسلام لا يتنسى له أن يأسر أحداً من جنود العدو إلا بشرط

أوضحه القرآن الكريم هو أن يثخن فى الأرض ، ويعمل السلاح فى أجساد الجنود ويحدث بها من الجراح ما يشغلها ويفقدها القدرة على مواصلة القتال . فإن تم له ذلك فبها وإلا واصل القتال حتي يحقق هذه النتيجة وعندئذ يأسر من جند العدو كما يشاء ، قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

٢ - الأسير فى الإسلام تنحصر معاملته فى وجهين اثنين .

الأول ـ المن : وهو إطلاق سراحه بغير فداء .

الثانى ـ الفداء : وذلك بإطلاق سراحه بمقابل مالى ، وهذا ما يحكم به الله عز وجل فى سورة محمد :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾

والفداء يتم فى صورتين :

١ - إما أن يكون بالمال يقدمه الأسير فداء لنفسه .

٢ - وإما أن يكون أسير بأسير .

أما إذا كان فقيراً ، ولا مال له : فإن الإسلام يأمر بتسريحه من باب العفو والصفح اللذين تحلّى بهما سيدنا رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله

وصحبه وسلم وحلى بهما المسلمين من بعده .

وهما قلادتان مستخرجتان من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ (سورة الحجر)

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) ﴾

(سورة الأعراف)

٣ - العفو فى يوم الفتح والنصر المبين :

العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ٩ هجرية ، تكن فى أحشائها ليلة القدر بما يستودعها الله سبحانه وتعالى من أسرار وأنوار وإشرافات ، وبماتعد به العوالم كلها الظاهر فيها والباطن من سلام وبركات ، وبما تحمل أيامها المباركة لكل الناس من روح وريحان ، ومن تجليات الرحيم الرحمن . وأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يتقدم موكب الفتح بالكتيبة الخضراء ووجهه الشريف يسطع بالنور ، يتغلب على ضوء الشمس بالنهار ، وعلى نور القمر بالليل ، لا يري فيهما إلا راكعاً ساجداً يسبح بحمد الله ، أو داعياً لله سبحانه أن يُعلى شأن هذا الدين ، وأن يهدى به الناس أجمعين .

هذا هو دستور الحرب فى الاسلام

فإذا أنزلنا هذه القواعد والأحكام على الحرب التى نشبت بين النبى والرسول محمد بن عبد الله ﷺ وبين اليهود، فإننا سنتبين الحقيقة التى قصدنا إظهارها أمام القارئ ، وأنها لم تكن عدوانا من الرسول عليه الصلاة والسلام وإنما كانت الحقيقة ردًسا لعدوان بدأ منهم ونفذ معه الصبر ، فلم يكن هناك بد من التصدى له تحقيقا لأمن الدين والدولة والمجتمع فى حاضر كل ذلك ومستقبله

وأننا نسوق أخبار كل حرب خاضها معهم على الوجه التالى:

حرب بنى قينقاع :

فى كتابه (محمد واليهود) للدكتور بركات أحمد ترجمة (محمود على مراد) طبعة الهيئة العامة للكتاب صـ ١٠١ أورد الكاتب مقال مكسيم (ودنسفى) أنقلها كما جاءت فى صدر الصفحة .

[لقد أظهر أتباع محمد من جانبهم علاوة على أخذهم بالأفكار الاساسية لليهود ، وبتعاليم نوح ، استعداداً كاملاً لاتباع عدد من الطقوس اليهودية - لذلك لم يكن هناك نظريا سبب يحول دون تعايش المجتمعين فى سلام ، غير أن القبائل اليهودية فى المدينة فيما هو محتمل لم تعدل عن فكرة ممارسة نفوذ سياسى كبير فى الواحة ككل .وكان من الواضح جدا لديها ربما قبل مرور وقت طويل أن سلوك محمد وما كان بسبيل اكتسابه من أهمية ، قد يؤثران على هذا الهدف] انظر ص ١٠١ من الكتاب المذكور .

ويقول الدكتور بركات فى نفس الصفحة .

إن الأمة كما كان يراها الرسول صلى الله عليه وسلم وكما جاء وصفها رسميا فى الصحيفة . ما كان يمكن أن تسير أمورها سيراً طبيعيًّا إلا بالتعاون الصادق بين مختلف مكوناتها أى المهاجرين والأنصار واليهود ، ويبدو أن السنوات الخمس الأولى من حياة الرسول ﷺ فى المدينة انقضت فى محاولة تحقيق هذا التعاون . وقد نكل فريق من الأنصار سموا بالمنافقين وثلاث قبائل من يهود المدينة ، هم بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، عن هذا التعاون الذى ما كان يمكن بدونه أن تنهض الأمة بأى دور فعال. وكان رأس المنافقين هو عبد الله بن أبى بن سلول الذى كان زعيما بارزا من زعماء المدينة وكان يناوئ الرسول ﷺ .أما المعارضة اليهودية الأساسية فكان يمثلها زعماء بنى النضير .

وإن بنى قينقاع قد أسهموا بجهد مكثف فى هذه المعارضة وشنُّوا حملة دعائية شعواء على سيدنا رسول الله ﷺ والأنصار ظهرت فيما يأتى:

١ ـ أمر أحدهم واسمه شاس بن قليس أحد شباب اليهود ، بإنشاد بعض الأشعار التى نظمت بمناسبة حرب بعاث لفريق من المسلمين فيهم من الأوس وفيهم من الخزرج ونحن نعلم ما للشعر من تأثير على وجدان العربى فى ذلك الوقت باعتباره الشكل الأمثل من الإعلام لدرجة أن بيتا واحدا من هذا الشعر يلقيه شاعر قد يرفع من قدر القبيلة وقد يخفض من قدرها.

فقام هذا الشاب وأنشد ما قيل من شعر فى يوم بعاث الذى شهد حربا ضروسا بين الأوس والخزرج فهاج الفريقان وتهيأ للحرب، وتطايرت السيوف شرراً يتعطش للدماء ، لولا صيحة صدرت من النبى والرسول محمد صلى الله عليه وسلم نزلت على نار الحرب فأطفأتها حيث قال :

« يا معشر المسلمين الله الله !!أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بين قلوبكم» ؟ .

جاء فى كتاب أسباب النزول للامام (أبى الحسن على بدر أحمد الواحدى النيسايورى) طبعة المكتبة الثقافية بيروت لبنان أسباب النزول صـ٦٦ فنزلت الآيات: من ١٠٠ إلى ١٠٥ من سورة آل عمران ويراجع تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير وغيره:

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

لقد كان بنوا الأوس وبنوا الخزرج قد جمعتهم وحدة سداها الايمان ولحمتها الحب، واجتمعوا فى هذا المكان فرحين مستبشرين حول نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم، يتبادلون حديثا فيه شهد الاسلام، وعذوبة الحب، وعرف الايمان .فعز على هذا اليهودى من بنى قينقاع أن يرى بعينى رأسه هذه الصحبة تتحلق حول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتنافس فى طاعة أوامره وتنفيذ رغباته بحب لم يحلم به ملوك الزمان وملوك كل زمان .

أوليس فى هذا تهديد لمنزلة يهود فى العرب وفى هذه المدينة خاصة؟

وإذن فقد فُرض اختراق هذه الصفوف بنار تأكل كل ما يقدم لها من رجال ونساء وصبيان ومال!!!

فما كان من هذا اليهودى من بنى قينقاع شاس بن قليس الذى يبغض الاسلام والمسلمين بغضا شديدا إلا أن حرض هذا الفتى على أن ينشد شعر يوم بعاث فأشعل الفتنة التى حاصرها النبى الكريم محمد ﷺ بكلماته المدعمة بكلمات الله سبحانه وتعالى فانطفأت وخابت مساعى شاس :

أيها القارئ الكريم :

أليس هذا الفعل الذى فعله شاس شيخ بنى قينقاع عدوانا على المسلمين؟ إنه عدوان مقصود به أمران : الأمر الأول : أنه أراد أن يكرس نعرتهم التى يحاولون أن يقنعوا الناس بها ، ألا وهى أنهم (شعب الله المختار) الأمر الثانى: : إضعاف الصف المسلم تمهيدا للانقضاض على المسلمين انقضاضة تأتى على الاسلام ونبى الاسلام ﷺ وتقضى على المسلمين .

٢ـ حادث سوق بنى قينقاع :

تخلص وقائع هذا الحادث فى : أن امرأة عربية من الأنصار قصدت سوق بنى قينقاع ومعها حلية أرادت التعامل عليها مع صائغ منهم، فأراد منها كشف وجهها فأبت ذلك إباء العربية الحرة، فاحتال أحد اليهود منهم حيلة تحقق لهم ما أرادوا بأن يثبت ربط طرف ثوبها بشوكة خلف ظهرها، فلما أرادت الانصراف قامت ، وعندئذ كشفت عورتها فصرخت .. فاستجاب لصرختها عربى هجم على الصائغ فقتله، فحاصرت اليهود المسلم فقتلوه إلى هنا والحادث يعتبر فرديا يمكن السيطرة عليه حتى طلب النبى محمد ﷺ منهم الالتزام بالعهد والميثاق. وترك الشغب، والمحافظة على ما نصت عليه العهود بينهم من موادعة وتبادل للأمن والأمان، وحذرهم من مصير كالذى حاق بقريش يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ببدر، فرفضوا التحذير وردوا عليه بإنذار يحمل معنى إعلان الحرب قائلين : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة .إنا والله لئن حار بيناك لتعلمن أننا نحن الناس) .

وأمام هذا الإنذار البادى منهم، أو إن شئت فقل أمام هذا الإعلان بالحرب لم

يكن أمام نبى الله ورسوله ، إلا أن ينبذ إليهم وقاية للمسلمين من شرورهم ؛ ولأنه شم من كلامهم رائحة دخان الحرب التى لو سكت عنها لضاع مستقبل المسلمين الذين يفقدون ساعتها الأمن والأمان .

وكيف لا يحدث ذلك !! واليهود الذين كانوا يحيطون بالمدينة بلغ عددهم (٣٦٠٠٠ أو ٤٢٣٠٠) وكانوا يشكلون غالبية السكان ، (انظر كتاب محمد واليهود صـ١٠٧) لقد كانوا إذن أضعاف سكان المدينة ، وهذا ينطوى على خطر محقق يهدد مجتمع المسلمين ، وحرمة المدينة ودولة الإسلام الناشئة ، وهنا تصبح الحرب واجبًا من واجبات الحاكم وهو هنا النبى محمد ﷺ الذى نشط للقيام بواجبه هذا.

حاصر المسلمون بنى قينقاع فى بيوتهم (خمسة عشر يوماً) سلموا لهم ونزلوا على حكم النبى ﷺ الذى استشار كبار الصحابة فقرروا إعدام جميع بنى قينقاع وهنا تدخل عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق وبعد إلحاح منه سلم ووهبه إياهم أى : عفا عنهم بعد حوار ساخن بينه وبين سيدنا رسول الله ﷺ ، بدأ عبد الله بن أبى قائلاً :يا محمد .. أحسن فى موالى فأبطأ عليه النبى ﷺفكرر الطلب ، فأعرض النبى عنه ، فأدخل يده فى جبت درع النبى ﷺ ، فتغير وجهه صلى الله عليه وسلم ، وقال لابن أبى . أرسلنى ويحك قال ابن أبى: لا والله لا أسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة جاسر ، وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى عداه واحدة !! إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فرأى النبى ﷺأن يجيب هذا الرجل إلى طلبه بعد أن سمع تعزيزاً له ورد من عبادة بن الصامت ، فاشترط لهذه الإجابة كى تتم أن يجلوا بنو قينقاع عن المدينة ، وحاول ابن أبى أن يثنى الرسول عن عزمه هذا ، فلم يفلح ، إذ تصدى له أحد الصحابة ، ومنعه من الوصول إلى النبى ﷺ فاشتجرا فشج الصحابى ابن أبى فقالت بنو قينقاع (والله لا نقيم ببلد تشج يا ابن أبى ولا

نستطيع عنه دفاعا) وصحبهم عبادة بن الصامت حتى بلغوا وادى القرى حيث استقروا بها قليلاً ، وانتقلوا إلى الشام وبها أقاموا.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يريح نبيه صلى الله عليه وسلم من النزاعات الطائفية التى على صخرتها تتفتت الوحدة الوطنية التى يتمناها لأمته، كما أراد سبحانه وتعالى أن يطمئنه على حرمة المدينة ، وسلامة البنية الاجتماعية للمجتمع الناشئ الواعد والموعود بتحقيق العدل والرخاء معا خاليا من نزعات الاستعلاء والكبر، والتنافر والتباعد، ويحل محل ذلك كله تناغم وتآلف يربط بين أفراد هذا المجتمع ويلد هذا التآلف والتكافل الاجتماعى المنشود ، والذى يعتبر المناخ الصالح لتحقيق الازدهار والتقدم، والحضارة القادمة مع شمس الغد ترتدى أبهى الحلل، وأجمل الثياب ، وتتحلى بحلى الايمان والمحبة والسلام .

نعم : إن مغادرة بنى قينقاع للمدينة كانت إيذانا بالفتح المبين الذى وعد الله به نبيه ومصطفاه، عليه الصلاة وأذكى السلام.فقد تطهر جو المدينة من التلوث الفكرى الذى كان ينفث المؤامرات والدسائس التى تهدد مجتمع المدينة بالتفكيك والهدم والخراب، وانفسح المجال أمام حضرة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، ليواصل بناء هذا المجتمع ليكون ركيزة يقوم عليها بناء الحضارة الإسلامية ، وليكون دعامة متينة يقوم عليها المستقبل المنشود.

قد يقول قائل إن حادثة سوق بنى قينقاع كانت بسيطة ويمكن إنهائها بضبط النفس ، لا سيما وأنها انتهت بقتل اثنين أحدهما مسلم والآخر يهودى ، ولكن الذى يقول بذلك يتغافل عن أمرين :الأمر الأول : هو حمية العربى المؤمن عندما ينتهك عرضه ، أو يمس بأقل سوء ، وأدنى شر ، عند ذلك ينفجر كالبركان لا يطول شيئا إلا نسفه ، وقارئ التاريخ العربى يجد شاهدا على ما نقول ؛ فقد قامت حرب ضروس بين المسلمين والروم بسبب حادث مشابه لهذا الحادث فى عهد المعتصم الخليفة العباسى ، عندما حاول بعض جنود الروم أن يسيئوا إلى امرأة مسلمة فى السوق فصرخت قائلة « ومعتصماه » فوصلت

الاستغاثة إلى المعتصم الذى لباها بقوله [نصرت يا أختاه] وجر جيشاً حارب به الروم وانتصر عليهم وفك أسر هذه السيدة التى استغاثت به وبلغت إليه الاستغاثة وهو فى مجلس ملكه.

وأما الأمر الثانى :فإن بغض اليهود للإسلام والمسلمين ولرسول الإسلام ﷺ كان فى ذلك الوقت نارا تحت الرماد، وكان هذا الحادث كالثقب البسيط الذى يخرج منه الدخان أو الشرر البسيط، وإن العاقل سرعان ما يتكشف له جحيم هذه النار ولظاها .وهل كان حادث السوق إلا كذلك دليلاً مادياً ملموساً على حجم الضغينة التى تستعر فى حافظة اليهودى للإسلام ورسول الإسلام ﷺ والتى سجلها عليهم القرآن الكريم شهادة يدينهم الله بها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟

قول الله عز وجل فى سورة المائدة الآية ٨٢ :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

والتعبير بلفظ «عداوة » له دلالة على أنها موقف يخص اليهود وحدهم أى أن العدواة تأتى من جهتهم فقط ، ولا تأتى من جهة المسلمين ، والدليل على ذلك قول الله عز وجل فى الآية ١١٨ إلى ١٢٠ من سورة آل عمران :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠ ﴾ (سورة آل عمران)

نبئونى أيها السادة أو من كانت أحوالهم هذه ، هل ينتظر منهم خير ؟ وهل يستبعد عنهم شر ؟.

العداوة تشتعل فى قلوبهم ، وتخرج ألسنتها على جوارحهم فى مقابلة حب يضمره المسلمون لهم (!!!) .

وازدواج الشخصية فاضح البيان فى سلوكهم تجاه المسلمين إذا لقوهم قالوا آمنا وإذا خلوا إلى أنفسهم عضّوا أصابعهم من الغيظ الذى يخبئونه فى حنايا قلوبهم للمؤمنين ، وإذا صادفت المؤمنين حسنة من نصر أو رخاء أو رزق ، ترى اليهود قد أساءتهم هذه الحسنة ، وأصابتهم بالهم والغم والكرب العظيم ، بينما إذا حدثت فيهم مصيبة من هزيمة أو خسارة أو موت ، إذا باليهود يفرحون فبماذا ينتظر العاقل منهم؟

أليس ينتظر منهم السعى بكل قوتهم لإلحاق الشر بالمسلمين ، ومنع الخير عنهم ؟ لم ينتظر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون من اليهود بعد نزول الآيات الكريمة عليه غير ما وضحه القرآن من بغض وضغينة وكيد وكل ذلك يفيض من عداء متمكن فى قلوبهم، هو مصدر الشر الأبدى الذى يلحقونه بهم حتى قيام الساعة وقيام الناس لرب العالمين (!!!) .

لذلك فإننا لا نعجب حين نرى الكتَّاب والمؤرخين والمفكرين ومنهم الاستاذ الدكتور محمد حسين هيكل يعجبون بتصرف النبى صلى الله عليه وسلم تجاه بنى قينقاع بإجلائهم عن المدينة المنورة حيث قال هذا الاستاذ الجليل فى صـ٢٨١ من كتابه (حياة محمد) فى اجلائه بنى قينقاع :

[وهذا تصرف سياسى ، آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر ، وهو مقدمة لم يكن منها بدٌ للآثار السياسية التى تربت بعد ذلك على خطة محمد ﷺ فليس شىء أضر على وحدة مدينة من المدن ، من تنازع الطوائف فيها .

وإذا كان نضال هذه الطوائف لابد منه ، فهو لابد منتهى إلى تغلب طائفة على أخرى تنتهى إلى سيادتها] حياة محمد ص ٢٨١ .

حقًّا لقد كان مجتمع المدينة ساعة وقوع حادث سوق بنى قينقاع عبارة عن مرجل يجور بالخلاف والاختلاف بين طوائف متباين العقائد ، والثقافات ، فمنهم اليهود يعيشون مع المشركين وبينهم يعيش المسلمون ، تتنافر مبادؤهم ، وأفكارهم ، وتتصارع عقائدهم ، ولا يُنتظر منهم إلا الإنفجار .

وقد أدى حصار بنى قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة عن أول ألسنة اللهب الصادر عن هذا الانفجار .

وإنى أرى وبالله التوفيق أن الحرب الجدلية التى اشتعلت بين اليهود ، وبين نبى الإسلام ، والتى فاقت فى حجمها وآثارها ما كانت بين النبى ﷺ وكفار

قريش ، قد حسمت فى صوره إجلاء بنى قينقاع .

فقد بدأت هذه الحرب فى المدينة عقب هجرة نبينا المعصوم محمد ﷺ إليها ، ولقد بدأت حربا جدلية مستعرة ، كان وقودها الدس والنفاق من جانب اليهود ، فى مقابل الوضوح وقوة الحجة ، وفصاحة البيان ، وعمق الثقة من جانب هذا النبى العظيم ، الذى أسس طريقة الدعوة فى كلمات توضح خصائصها فى كلمات واضحة تجليها إجابة على سؤال سأله إياه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه وأرضاه عن سنته فقال فيما رواه الإمام الفضيل بن عياض رضى الله عنه فى كتابه الشفاء صـ١١٣ من الجزء الأول :رواية عن الإمام على رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن سنته (أى طريقته فى الحياة ، فقال : (المعرفة رأسمالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة) .

هذه الطريقة فى الحياة ، أكسبت النبى ﷺ حب الناس ، وإقبالهم عليه ، يفضون إليه بأسرارهم ، ويبثون أمامه جميع عواطف الحب وخالص المشاعر ، وشدة التعلق بدينه الذى يبشر به .ومن هؤلاء الذين جذبهم هذا الإشراق فى شخصية النبى محمد ﷺ ، عبد الله بن سلام حبر اليهود ، وشيخهم الجليل ، وأميرهم المطاع الذى صادفته هذه الإشراقات المحمدية ، فإذا به يسقط عن قوامه ثوب التعصب ، ويزعن لصوت الفطرة فى قلبه ، ويسلم ، بل ويأمر أهله فيسلمون معه على الفور .

وأراد أن يكون لإسلامه تأثيره عند اليهود وغيرهم ، وأن يكشف عما فى نفوس قومه منهم من تعنت ، وما يكدر مواقفهم من تعصب فطلب من النبى ﷺ

أن يسألهم عن مكانته بينهم قبل أن يعرفهم إسلامه، فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم: « ما شأن عبد الله بن سلام فيكم ؟ » فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وعالمنا .

فلما خرج عليهم عبد الله بن سلام وعرفهم إسلامه ، ودعاهم إلى الإسلام خافوا من عاقبة إسلامه ، فعايروه وشتموه، ونسبوا إليه كل السوء، وأذاعوا ذلك فى جميع أحياء اليهود ، وأجمعوا أمرهم للكيد للنبى محمد ﷺ ونكران نبوته ورسالته، وانضم إليهم مشركوا الأوس والخزرج ، وموكب النفاق فى المدينة يقولون ما قالوا، ويؤيدونهم فى موقفهم .س

واشتعلت حرب الجدل التى سجل القرآن الكريم وقائعها كاشفا مكر اليهود، وفاضحًا خداعهم، ودسائسهم، والأسباب التى تكمن وراء نكرانهم لما ورد فى التوراة من أوصاف النبى محمد ﷺ ، ورسالته ، وأوصاف صحابته ، وأشرقت سورة البقرة وسورة آل عمران والنساء ويونس بالتنوير الربانى الذى قاد الله بذاته هذه الحرب الجدلية بين النبى ﷺ واليهود ، فسكب الأضواء التى كشفت مثالبهم، وأخرجت أسرارهم التى طووها جمرات فى حشاياهم آلاف السنين، وكشفت للنبى ﷺ كوامن عواطفهم السلبية تجاهه التى خبأتها العهود الطويلة يتوارثونها حاقدا عن حاقد يظهرها القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ
مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ
﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا
لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ
مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا
وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ
بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد واجهتهم آيات القرآن الكريم بحقيقة طباعهم ، وما درجوا عليه من نكران وجحود لآيات الله وكفرهم بما أنزل الله على رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا قد ملأوا الأرض، كما ملأوا آذان أهل المدينة بالتبشير بمقدمه عليه الصلاة والسلام ، يقيم به الله الملة العوجاء، ويفتح به آذانًا صمّا، وأعينا كمها، وقلوبا غلفا، فلما جاءهم هذا النبى ﷺ كفروا به، فلما نزلت هذه الآيات البينات أسقطت اعتبارهم، وهونت من شأنهم، وحقرتهم فى أعين من كانوا ينظرون إليهم نظرات الاحترام والتبجيل .وأظهرت هذه الآيات كل النقائص التى وصموا بها، من الأحقاد والأضغان والزيف، والتزوير والكذب والنفاق والغدر فارتج عليهم، وباتوا وهم خزايا نادمين. فأسفروا عن وجهم الحقيقى ، وأشعلوا الحرب تلو الحرب قاصدين خلع الاسلام من جذوره والقضاء على نبيه ﷺ والتنكيل بالمسلمين ، إذ أنهم فقدوا الحيلة والأسباب التى تمكنهم من تحقيق أغراضهم الدنيئة .بالقضاء على الإسلام ونبى الإسلام . صلوات الله وسلامه عليه .

بعد أن أصبح الإسلام ونبى الإسلام ومجتمع الإسلام ودولة الإسلام حقائق نورانية تتحدى كل العواصف ، وتتخطى جميع العقبات وبعد أن حقق الله وعده

ونصر عبده وأيد جنده وهزم الأحزاب ، ونفذ ما حكم به فى هذه الآية الكريمة رقم ٢٨ من سورة الفتح :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

وقوله فى سورة الصف فى الآية رقم ٩ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وأثبت الله سبحانه وتعالى عليهم فى سورة آل عمران زيف اعتقادهم فى أنفسهم بأنهم هم وحدهم حملة الكتاب ، وورثة العلم الحقيقى الذى هو علم هذا الكتاب ، وأثبت لهم أن زعمهم هذا باطل ، وأن الهدى هدى الله وفضله يؤتيه من يشاء ، وليس حكرا عليهم، فقال واصفًا تعاطيهم لدعوة الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ

﴿ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

نبئنى بربك أيها القارئ :

كيف يلتقى قوم هذه فلسفتهم فى الحياة ، أخذ فقط دون الاستعداد للعطاء، وأنانية وأثرة، وتمادى فى أكل أموال الناس بالباطل، ونفور من الحق، وادعاء باحتكار الدعوة إلى الله ، وإدعاء بالتفرد فى علم الكتاب ، ونكران ذلك على الآخر أيًا كان هذا الآخر حتى لو ثبت اتصاله بالسماء، وانتماء علمه وهداه إلى الوحى الشريف

وهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، حيث أن الهدى هداه فقط، ومهما طوواهم صدورهم على ما اعتدوا به من علم، وما ادعوا أنه الهدى ولا هدى غيره، وظنوا أنهم يحتكرونه دون الناس، مهما أصروا على ذلك ، فإنهم يجب عليهم أن يعلموا أن الفضل فيه لله سبحانه وحده .وفضل الله بيده يؤتيه من يشاء .

أما وإن نبى الله ﷺ قد بعث نبيًا ورسولاً يتلو على الناس آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فلا مفر من الإيمان واتباعه واتباع ، النور الذى أنزل معه .

إن الإنسان ليعجب أشد العجب من أمر هؤلاء القوم حين يكتشف أنهم لم يجدوا لأنفسهم مكانا فى مجتمع المسلمين ، وبينهم محمد ﷺ وهو الذى يتلو عليهم ويعلمهم قول الله تعالى فى سورة الحجرات الآية رقم ١٣ :

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الحجرات)

ولكن العجب والدهشة يزولان إذا ما عرفنا المثل الأعلى الذى يعتنقه كل فريق منهما .

أما مجتمع النبى محمد فمثله الأعلى ما قرأناه فى حديث الإمام على رضى الله عنه عندما سأل النبى ﷺ عن سنته فقال : (المعرفة رأسمالى - والعقل أصل ودينى والحب أساسى، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبرردائى ، والرضى غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى، واليقين قوتى والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة) الشفاء للقاضى عياض صـ١١٣ من الجزء الأول وعرفنا من آيات القرآن أن المثل الأعلى الثروة والمال وحب الحياة وكراهية الموت، هل من هذا شأنهم ، يجدون لهم مكانا فى مجتمع الإسلام الذى مثله الأعلى ما عرفنا من حديث الإمام على رضى الله عنه ؟ ! !

الإجابة على هذا السؤال : لا

لأنهم ينفردون بطبائعهم وثقافتهم ... فلم يجدوا عند بنى الله محمد ﷺ ما يحقق لهم أهدافهم ومثلهم الأعلى .

ثالثا : إن الله سبحانه وتعالى أنزل عليهم التوراة فيها هدى ونور ، وأنبأ نبى الله محمد ﷺ وأمته بذلك فى قوله فى سورة المائدة الآية :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٤) ﴾

(سورة المائدة)

فقد أجمل الله ما جاء فى التوراة من أحكام فى كلمتين اثنتين هدى ونور. لكنهم لم يستفيدوا منها؛ إذ أنهم تركوها وذهبوا إلى ذواتهم يحققونها مالاً وثروة، ودنيا زائفة وسلطان زائل، وظهور بعلوم الدنيا التى يصورونها فى تمثال الذهب الذى يأخذ بألبابهم ، ويقفون حياتهم للحصول عليه ..الذهب والفضة.. فقط تاركين المثل الأعلى التوراتى وراء ظهورهم ، ليحيوا حياة الملذات والشهوات وسجل الله عليهم ذلك فى سورة الجمعة فى الآية ٥ :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥) ﴾

وهكذا أعطاهم الله فى أيديهم المثل الأعلى الذى يكفل لهم سعادة الدارين، وهو المثل الأعلى التوراتى، فلم يحملوه ..وتركوه وأهملوه، وقلدوا فى ذلك واحدا منهم أشارت إليه الآيتين ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الأعراف :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

حكاية مقتل كعب بن الأشرف

يقص المؤلف نبأ مقتل كعب بن الأشرف فى قصة قد غَلّفها بما عرفناه عنه من حقد على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، إذ يبين للقارئ من أول وهلة ، أنه يذكرها ضمن عريضة الاتهام التى يقدمها هو لمحكمة التاريخ ضد هذا النبى العظيم (!!) وهى تشمل اتهامات كاذبة ، وأدلة مزعومة كلها افتراء وكذب وبهتان سرعان ما تداعت وتهاوت من أول لمسة بقلم الحق الساطع ، والبرهان القاطع الذى يرصّع تاج النبوة على جبين هذا النبى العظيم .ويقضى على ترهات هذا المؤلف ومن هم على شاكلته من أعداء نبينا صلى الله عليه وسلم القدامى والمحدثين .

وضمن هذه الاتهامات أنه عليه الصلاة والسلام أمر بقتل كعب بن الأشرف .

وإنى سأقص هذه الحكاية موثّقا وقائعها دون تدخل من جانبى ، وأترك للقارئ الحكم على كعب بن الأشرف من خلال سياق هذه الوقائع ، وعرضها على الضمير المجرد ، والعقل المنصف ، والقلب المضئ بروح العدل .

المسلمون ومعهم نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام وقد وضعت معركة بدر الكبرى أوزارها، وأسفرت عن هزيمة الكفر وانتصار الإسلام والمسلمين، وقد أنعش هذا النصر العظيم روح الإيمان فى قلوبهم، واطمأنوا إلى وقوف السماء فى صفهم تؤازرهم وتناصرهم على أعدائهم، فأصبحوا أعزة بعد أن كانوا أذلة يخافون أن تتخطفهم الناس، وظهر أمر الدين، وترامت الأنباء فى الجزيرة العربية تملأ آذان القبائل تشيع نصر الله الذى وهبه لنبيه ﷺ وللمؤمنين .

من الناس من تلقى نبأ هذا النصر بالدهشة، ومنهم من تلقاه بالحسرة والأول ، ومنهم من تلقاه بالرفض والتربص والكيد ، بغية تحويله من نصر إلى هزيمة مهما كلفه ذلك من جهد .

وذلك بسبب انزعاجه منه، وتخوفه من قوة شوكة المسلمين . وعلى رأس هذا الفريق كان كعب بن الأشرف اليهودى، الذى خاف على نفسه ، وعلى قومه من اليهود من إنتشار الإسلام وإزدياد قوة المسلمين ، مما دفعه إلى اتخاذ خطوات من شأنها أن تشعل حربا جديدة بين المسلمين وأعداء الاسلام .

ولقد أعجبتنى طريقة أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ محمد أبى زهرة عندما أحب أن يعالج حادث مقتل هذا الرجل العنيد ذاكرا الأسباب التى سوغت قتله فبدت وكأنها صحيفة الاتهام التى بنى على ما جاء بها حكم الإعدام الذى صدر ضده من سيدنا محمد ﷺ وأنقل هذه الاسباب من كتابه خاتم النبيين الجزء الثانى صـ٦٨٧ بند ٤١٠ .

(أ) أنه لما علم بمقتل المشركين من أهل بدر، أعلن غضبه على المؤمنين فقال : « لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم ، لَبَطْنُ الأرض لنا خير من ظهرها » وبذلك أعلن العداوة المكنونة فى نفسه، وماذا يصنع النبى صلى الله عليه وسلم مع عدوأظهر عداوته، ولم يكن له عهد مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

(ب) إنه كان يهجو النبى ﷺ ويشدد فى الهجاء، غير ملاحظ لكرامة ولا

حرمة، بل كان منخلعًا من كل عهد، ومن كل فضيلة ؛ وكان كالذين آذوا موسى من إخوانه اليهود، وهو متحلل من كل مروءة .

(جـ) إنه قدم المدينة المنورة يعلن عداوته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويجاهر بها، ويحرض اليهود على المؤمنين ويلقى بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير حريجة من خلق أو دين أو عهد، وجعل يشيب بنساء المؤمنين، ويشيع قالة السوء عن فضليات هؤلاء النساء .

(د) كان يحرض يهود على أن تنقض عهدها مع النبى ﷺ، وأنه كان بأفعاله يجرئ كل من لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام على الخروج عليه. وشن الحرب .ولم يترك بابا من أبواب الكيد إلا دخل إليه، وليس له أهل يرد عليهم فيمنعوه، بل هو منفرد بأعماله ، مقيم فى حصن، لا ينتمى إلى بنى النضير إلا من جهة أمه ، ولا تسرى عليه عهودهم .

(هـ) إنه لم يقف عمله على العداوة والبغضاء، واشاعة الفساد، وتحريض يهود، بل إنه تجاوز ذلك، إذ ذهب إلى مكة المكرمة، واستعدى قريشا .فنزل على الذين أوذوا فى غزوة بدر، وأخذ يحرضهم على قتال النبى ﷺ، وربط حبالهم بحباله، ونفسه بنفوسهم، حتى لقد قال أبو سفيان من فرط ما امتذجت نفوسهم به [أناشدك أدبيننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأيّنا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إننا نطعم الجزور والكرماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمال] فقال كعب اليهودى الكتابى : أنتم أهدى سبيلا .وقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن بندا واحدا من البنود التى بينها أستاذنا الشيخ أبو زهرة ليكفى للحكم على كعب بن الأشرف بالإعدام . لسبب واحد أيضا هو : أن النبى والمسلمين معه عليه الصلاة والسلام كانوا فى حالة حرب مع أعداء أكثر منهم عددا وعدة وأن الدولة المسلمة كانت فى بداية نشأتها، وفى ترك هذا الشخص الذى فرض نفسه على الأحداث عدوا لله ولرسوله وللمسلمين، يفعل ما يشاء وما يهدد الدولة الناشئة والمجتمع المجاهد بالأخطار الجسيمة التى أقلها تقويض الدولة وإبادة المجتمع سواء كان ذلك بالقتال أو بحرب اقتصادية.

هل يترك النبى صلى الله عليه وسلم هذا الذى اندفع فى طريق العداء المحموم لله سبحانه وتعالى وللبنى صلى الله عليه وسلم وللإسلام والمسلمين - هل بتركه يحمل هذه الجمرة المشتعلة يتطاير منها اللهب ليشعل جحيم الحرب فى شبه الجزيرة العربية ليشفى غليله من النبى الذى لم يفعل له شيئا يكرهه وليس بينه وبينه سابقة عداءٍ أو عدوان منه صلى الله عليه وسلم ؟! .

لم يكن سيدنا رسول الله ﷺ أن يترك هذا البركان المتأجج يتحرك فى البيئة المحيطة بمكة والمدينة ليأكل الأخضر واليابس ، ويهلك الحرث والنسل ويهدد الدولة والمجتمع ويكون بذلك قد فتح المجال أمام من يتهمونه بالتقصير ، وعدم القدرة على حراسة مقدسات المجتمع الإسلامى .والزود عن مقوماته والدفاع عن قيمه والمحافظة على هيبته ، ولا يلام إذا ما تصدى لهذا العدوان من جانب هذا الحاقد بحكم رادع حتى يكون عبرة لأمثاله .

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا هو قانون الدولة الذى به صدر حكم النبى على هذا العدو ، الذى أصر على عداوته لله سبحانه وتعالى ولنبيه صلى الله عليه وسلم ، وللإسلام والمسلمين دون حرج من مروءة ودون موقف أو قول صدر من النبى صلى الله عليه وسلم ، نال كعب بن الأشرف أو حقق له ضررا فى نفسه ، أو فى ماله ، أو فى أهله ، ولم يفعل ما فعله إلا متعمدا الفساد فى الأرض ، وإشعال نار الحرب تأكل الأخضر واليابس من الدولة وهدمها إلى الأبد وتقويض مجتمع المسلمين ، والقضاء على الإسلام دينا ودعوة ودولة ومجتمعًا ، وأصر على ذلك وحسبما يقول رجال القانون (عمدا مع سبق الإصرار والترصد) .

فإصراره واضح جلى فى تحريضه اليهود على نقض العهد ونبذ الاتفاق بينهم وبين نبى الله ﷺ وسفره إلى مكة لتحريض أعداءه على الأخذ بثأر بدر الكبرى ، ومحاولته إنشاء حلف بين قريش والأحزاب من اليهود والقبائل الأخرى ، قاصد بذلك تعبئتهم فى حرب ضده ، وهو فى كل ذلك فرد من رعايا دولة الإسلام التى تصف فعله بجريمة حرب عقوبتها الإعدام ، لأن هذه الجريمة وقعت منه فى زمن الحرب ، فلا مناص من توقيع العقوبة فى حق كعب بن الأشرف ويعزز موقف سيدنا محمد ﷺ أن مجتمع المسلمين أجمع على استنكار هذه الجريمة الشنعاء وطالب بتوقيع العقوبة عليه .إذ أن الرسول ﷺ القائد الأعلى لجيش المسلمين ورئيس الدولة المسئول عن تحقيق الأمن لشعبه والقرار والاستقرار .

وإن لم يفعل فإن هذا سيضئ الضوء الأخضر لغير كعب بن الأشرف أن يحذو حذوه ، ويفعل فعله فتكون ثغرة يدخل منها أعداء الإسلام ليفعلوا به الأفاعيل ، خاصة اليهود الذين كانوا ينتهزون أى فرصة للنيل من الإسلام يقول الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد صـ ٢٧٩ .

[زاد هذا الحادث فى مخاوف اليهود فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه ومع ذلك لم يسكتوا عن محمد ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أى فيض.

قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قينقاع ، ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها .فجعلوا يحاولون على كشف وجهها وهى تأبى. فجاء يهودى من خلفها فى سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلم على الصائغ وكان يهوديا فقتله وشدت اليهود على المسلمين فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم وهم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع [انتهى كلام الدكتور هيكل] فإذا كان هذا قد حدث من اليهود وهم قد علموا بقتل كعب بن الأشرف فماذا كان متوقعا منهم لو ترك النبى ﷺ كعبا.؟ لا شك أن تركه يعبث فى الأرض فسادا دون أن يتلقى هذه العقوبة الرادعة ، كان سيشجع اليهود جميعا على نقض العهد وإثارة القلاقل التى تهدد مجتمع المسلمين ودولتهم الناشئة ، والله وحده يعلم ماذا كان سيحدث ، لذلك فإن الحزم الذى باشره النبى ﷺ بتنفيذ الحكم الصادر على كعب بن الأشرف يظهر ما كان يتمتع به النبى ﷺ من يقظة واهتمام بشئون الإسلام والمسلمين، وما يتمتع به من حكمة وسداد ورشد لا يتوفر الا فى شخصه صلى الله عليه وسلم وأنه. أعظم رجال الدولة فى القديم والحديث ولا ينال من هذا كلام جورج بوش وأمثاله مما ورد فى صـ ٢٧٧ من الترجمة عندما قدم للحادث حيث قال :

[وقد تأججت روح الحقد فى نفس النبى بعد انتصاره فى بدر ، وتجلى هذا فى اغتيال اليهودى كعب بن الأشرف] .

والغريب أنه ألحق تعليقه هذا بإسناد الجرائم التى استحق عليها العقوبة كلها مما يتضح معه أنه اطلع على وقائع القضية ، وتأكد من سقوط كعب بن الأشرف فى أتون الجريمة ، وأنه قد ارتكب كل الجرائم التى عوقب عليها.

ولست أدرى أى شى دفعه إلى التعليق الموجود فى كتابه السالف الذكر بعد أن استبان له وجه الحق من أن كعب قد ارتكب هذه الجرائم ، إنى لعلى يقين أن الذى حمله إلى كتابه هذا التعليق ، هو حقده علىْ شخص النبى محمد ﷺ .

العلاقة بين النبى والرسول محمد بن عبد الله ﷺ وبين النبى والرسول عيسى بن مريم عليه السلام

هذه علاقة أخوة فى الله موثقة فى الكتب المقدسة الأربعة ، القرآن والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، فى صحف سيدنا إبراهيم ، وصحف سيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام .

١ - أما فى القرآن الكريم فقوله سبحانه وتعالى فى سورة الصف :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الصف)

وهذه الآية تثبت ذكر سيدنا رسول الله محمد بن عبدالله فى التوراة وفى الانجيل ، وفى القرآن أخاً لبنى الله عيسى عليه السلام وقد صرح ببشرى قدومه قبل ميلاده بخمسمائة عام ، أليس فى ذلك آية كبرى تأخذ بالأبصار وبالألباب فى آن واحد ؟ !

-٢

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

-٣

﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

٤ -

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ (سورة البقرة)

﴿ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾
وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ

فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ
هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ
ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ
ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾
ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

علم نبى الله محمد فى نبى الله عيسى عليهما الصلاة السلام وأمه سيدة نساء العالمين أبنة عمران عليهما السلام

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ

شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾
يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾
وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ
وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ
مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا
فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ
مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ
بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ
قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾

فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة مريم)

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

إن تلاوة هذه الآيات من القرآن الكريم فى تأمل وتدبر ودراسة تتجلى لنا عقيدة نبينا محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين فى أخيه نبى الله عيسى ﷺ. هذه العقيدة التى علمها النبى محمد ﷺ لأمته، صافية رائقة لم يدخل إليها ما يشوبها من فكر البشر، ولا يرنقها أقاويل إنسان .تلقاها النبى الكريم محمد ﷺ وحيًا من الله طاهراً مطهراً عمرت به قلوب المسلمين إيمانا، وأضيئت به عقولهم رشداً، وثبتت به أقدامهم على الصراط المستقيم ، تخلص هذه العقيدة الراسخة فى قلوب النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأمته التى آمنت به واتبعت النور الذى أنزل معه فيما جاء بالآية ١٧١ من سورة النساء:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ ﴾ (سورة النساء)

فهو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه :

﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ ﴾ (سورة المائدة)

وتأتى آخر آيات سورة المائدة تصور لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم الصدق فى القول والإقرار بالحقيقة ، والنطق بالحق ، فى الآيات من ١١٦ إلى ١٢٠ من سورة المائدة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾

(سورة المائدة)

إن نبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام فى أقواله أمام الله يوم القيامة لم يزد ولم ينقص عمّا قاله طفلا وليدا فى المهد ، عندما واجه المنكرين من قومه ، ونصح المحبين له فى الوقت نفسه بهذه الكلمات :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ (سورة مريم)

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة مريم)

هذه هى العقيدة الصافية الراسخة فى قلب نبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام ، وفى قلب نبى الله ورسوله محمد ﷺ ، وفى قلوب المخلصين المؤمنين من أتباع كل منهما .

وأما ما علق بهذه العقيدة من صنع البشر فإنه بعيد عن الحق ، بعيد عن الحقيقة ، بعيد عن المؤمنين.

وهذه العوالق هى ما شكى منها جورج بوش فى كتابه صـ ١١٠ ، ١١١ من الترجمة وهو يقول :

[لقد دخلت التحريفات القبيحة والخرافات فى الكنيسة وبلغت مبلغاً كبيراً حتى انفصل (لوثر) وغيره من الإصلاحيين عما أسموه مجتمعا معاد للمسيح .

فى هذه الفترة زاد توقير القديسين والشهداء وبذا ازدهرت العبادة الوثنية ممثله فى عبادة الصور والبقايا الأثرية المقدسة ،كما ساد توقير العذراء مريم توقيراً عباديا ، وساد الاعتقاد فى الأعراف وعبادة الصليب ، وأصبح كل هذا

راسخاً ومؤثلا ولذا اختفى رونق الإنجيل وقل بهائه وعانى من كسوف مظلم ، وضاع جوهر المسيحية فى خضم الطقوس التافهة والخرافية.

وفى الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الرومانية - خاصة فى الشام والمناطق المتآخمة لشبه الجزيرة العربية بالإضافة لمناطق داخل شبه الجزيرة العربية نفسها تفاقمت هذه الشرور بسبب سيادة العديد من المذاهب والهرطقات وبسبب الخلافات المستمرة بينها ؛ لقد تمزقت الكنيسة إربا بسبب النزاعات الضارية بين الآريوسيين ، والسابليان ، والنساطرة ، والكوليرديان ، واليوتيشبيان ، وقد أدَّت نزاعاتهم هذه إلى إرباك العقائد المسيحية العظيمة واغراقها فى دقائق مينا فيز يقية ومصطلحات مدرسية - فلم تعد - أى المسيحية - نهج حياة ، ولم يعد ينظر إليها بوصفها طريقا وحيداً للخلاص ، فدين الإنجيل المصدر المبارك للحب والسلام والوحدة بين البشر ، أصبح يسبب الخلافات المذهبية وما بها من انحراف - جمرة تحرق ، وعقد مجمع إثر مجمع ، وصدرت قرارات مجمعية إثر اقرارات .

لقد شتت الأساقفة البلاد فى كل اتجاه ، وسعت كل طائفة لتحقيق أغراضها والعمل على دعم عقائدها وإدانة المخالفين لها فى الرأى ، وقمعهم ، وبلغ النزاع فى الكنائس الأسقفية البروتستنطينية مبلغًا كبيراً خاصة فى الغرب لدرجة أن الفرق المتناحرة لجأت مرارا إلى العنف ، وفى مناسبة لا تنسى تلطخت كنيسة مسيحية من الداخل بدماء عدد من أتباع أسقف منافس سقطوا جميعاً ضحايا نزاع عنيف .

ليس هناك إذن ما يدعو لكثير من العجب أن تشهد هذه الأماكن (الكنائس) صراعًا مريراً للوصول إلى المناصب (الدينية) المربحة طمعًا من أناس فسدت نفوسهم ، خاصة إذا علمنا أن هذه المناصب الدينية كانت تفتح الطريق للثراء والرفاهية والنفوذ الكنسى) .

انتهى كلام جورج بوش فى صفحة ١١٠ و١١١ من كتابه .

ثم قدم سنده من التاريخ دليلا على ما وصلت إليه الانحرافات التى اقترفها رجال الدين ، بغية التمتع بزينة الحياة الدنيا على حساب الدين، والجهل الذى ساد أمم المملكة المسيحية، وضآلة عدد المؤمنين الصادقين .

وبعد إقراره بهذا الفساد فى العقيدة ، والفساد فى السلوك ، والفساد فى الاقتصاد ، ونهب الثروات وكنزها باسم الدين ، يجزع جورج بوش من بعثة سيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا يصلح من العقيدة ما فسد ، ويُعيد للدين بهاءه؟

أو ليس الدين الذى جاء به عيسى من عند الله ؟

إنه دين من عند الله سبحانه وتعالى ، صرح نبى الله عيسى باسمه الإسلام ، وقال معه ذلك الحواريون وهم مسروروون .فإذا تيقنا أنه دين الله سبحانه وتعالى وعلمنا أن الله سبحانه وتعالى رأى هذا الدين الذى فطر الناس عليه قد طاله الفساد الصادر من رجاله ، ومن الجمهور عامة وإذا ما عرفنا على وجه اليقين : أن الله لا يحب الفساد ، فإننا لا ندهش ولا نتعجب ولا نغضب ، ولا نحتج إذا بعث أخا لنبيه عيسى وهو محمد صلى الله عليه وسلم ليدعوا الناس إلى الحق منصفا أخاه نبى الله عيسى عليه السلام ومنصفا دينه الذى دعى إليه، ومنصفا الحقيقة ، ومؤديا لله حقه من عبادته وحده لا شريك له ، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .فأمره أن يصدع لأمره ، وينادى فى هؤلاء الذين قصروا فى حق الدين، وظلموا نبى الله عيسى، واعتدوا على الحق بغية التمتع بالدنيا وزينتها من مال وبنين وجاه وسلطان .ورفاهية ، ويفزع فى قلوبهم حيات التنعم وثعابين الشرك ويلقى على كل ذلك كلمات النور والحق المبين، فإذا بعصا الحق تلقف ما يأفكون عندما أمتثل لأمر الله تعالى الذى تنطوى عليه الآية الكريمة رقم ٦٤ من سورة آل عمران .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

وقد حملت هذه الآية الكريمة كل خصائص العقيدة الإسلامية ، وهى عقيدة المسلمين من قبل نبى الله عيسى عليه السلام .

فهى دعوة آدم عليه السلام حملها الأنبياء من بعده حتى تلقاها نوح عليه السلام ومن بعده إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى والأدلة كما يلى من القرآن الكريم :

١ - ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (سورة البقرة)

٢ - ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إن الله الذى أمر بعبادته وحده باعتباره الإله الواحد ، والرب الواحد ، جعل دينه واحدا يبشر به أنبياء ورسل متعددون ، وجعل كتابه واحداً من أجزاء متعددة منها ، التوراة والإنجيل ، والزبور، والقرآن وكل جزء من هذه الأجزاء يعالج مرحلة من مراحل البشرية بما هو ملائم لها ومناسب لثقافتها ، حتى جاءت المرحلة التى عالجها القرآن الكريم وقد اكتمل رشد البشرية فيها ، وأصبحت مهيأة للإصلاح الذى يلازمها إلى يوم القيامة ، فى العقيدة والشريعة، والأخلاق ، وبهذا يكون النبى محمد خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، وأنبأنا الله بانحرافات رجال الدين التى تضرر منها جورج بوش، ونعى عليهم انكبابهم على الدنيا يغترفون منها ملذات، ويكنزون الاموال ويقتنون الثروات قبل أن يحدث قومه فى هذا الكتاب بالف وثلاثمائة عام فقال عز من قائل فى سورة التوبة فى الآيتين ٣٤ و٣٥ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهاتان الآيتان تعدان من دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ ؛ لأنهما تخبران عن سلوكيات بعض رجال الدين في الزمن القديم المؤغل في القدم ، قبل أن يُولد النبي محمد ﷺ بحوالي خمسمائة عام ، وهو لم يكن قد قرأ كتابا يؤرخ لهذه الفترة من الزمن ولم يكن أحد قد درّس له علم التاريخ .

وأنت نفسك يا جورج بوش تشهد في كتابك في صـ١٠ ،١١ من الترجمة بصدق ما ورد في هاتين الآيتين عند احتجاجك على ما كان من رجال الدين من انحراف عن دين الإنجيل النقي ، وإقبالهم على كنز الذهب والفضة ، واقتناء الأموال والثروات ، زعما منهم أن هذا يحقق لهم المهابة والعزة .

وإنني بعد قراءتي لهاتين الآيتين بعد أن قرأت ما ورد بكتابك ، تعجبت من الشتائم التي ظللت تكيلها لنبينا محمد ﷺ ، دون خجل ، وأنت القسيس الأستاذ بالجامعة .ولكن سرعان ما زال عجبي واختفت دهشتي عندما تراءى لي ما تقصده من وراء حملتك الظالمة على هذا النبي الكريم ..إذ أنك تقصد أن تقود مجتمعك إلى حرب بينه وبين مجتمعات الشرق ، بقصد تكوين الثروات وإلقائها في خزينة الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد حرب ضروس بينها وبين شعوبها تغتال في أثنائها الشخصية العربية والدين.

أما بعـد ..

ولما كانت النبوة والرسالة قد ثبتتا ثبوتًا يقينيًّا للنبي والرسول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف صلى الله عليه وسلم، وأنه هو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده فإن مزاعم جورج بوش في كتابه (محمد مؤسس الاسلام ، ومؤسس أامبراطورية المسلمين) التي تخالف هذه العقيدة هذه المزاعم الجائرة الظالمة ، كلها قد سقطت وهوت في مكان سحيق تحرقها أنوار النبوة وتعصف بها أمواج الرسالة ، وهذه المزاعم التي كان هذا مصيرها ، سأضعها أمام القارئ إحصاء من أول صفحات الكتاب حتى آخره ليصبح من قرأها وقد محاها من ظاهر عقله وباطنه .

١ - زعم أن سيدنا محمدا كان يعرف القراءة والكتابة ، وقد تبين غير هذا ، فقد ولد أميًّا انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو أمى .

٢ - زعمه أن محمدا هو إنسان الخطبة والحقيقة، وثبت أن محمداً بن عبد الله : هو عبد الله ورسوله بعثه الله بالحق نبياً ورسولاً ورحمة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه .

٣ - ردد المؤلف كلمة « الدعي » يصف بها نبى الله ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ قاصدا أنه لم يكن نبيًّا ورسولاً وإنما هو يدعى ذلك ، أى إنه ليس نبياً ولا رسولا ، وإنما هو يدعى ذلك كذبا، وإن فى الرد على ذلك ما دحض هذا القول وجعل القارئ لا يحب نفسه لنفسه الاستمرار فى قراءة ذلك .

٤ - فى صـ١٤٢ من الترجمة أنكر المؤلف صدق القرآن واتهمه بالزيف وقد ظهر بجلاء سقوط هذه الادعاءات الغشيمة .

٥ - أراد المؤلف إثبات قدرة النبى على الكتابة والقراءة ؛ ليصل بذلك إلى ما زعمه من أن القرآن من تأليف النبى ، وهو ما كذبه التاريخ والواقع ، وأثبت العلم أن القرآن وحى من الله ونزل به جبريل على قلب النبى صلى الله عليه وسلم وليكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

٦ - زعم أيضا فى الفصل الثالث أن الدين الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو عبارة عن مشروع سياسى حضارى تفتقت عنه قريحته وهو بنفسه الذى رسم الخطة لنشره ، وتبين خطأ تقدير المؤلف وأصبح من اليقين المسلم به أن الإسلام رسالة الله ، وأن محمداً رسوله ﷺ بلغ للناس الرسالة دون تقصير أو ملل .

٧ - زعم أن الأحوال السياسية فى ذلك الزمان هى التى ساعدت مشروعه على النجاح ، وثبت أن الدين الإسلامى هو حاجة الإنسانية ، وأنه كان لا محالة سينتشر ويسود ، وينقذ الناس مما غرقوا فيه من الجهل والجهالة .

٨ - إعترف المؤلف فى الفصل الثالث ، بأن كنائس الشرق قد ارتدت عن الاسلام ، وهذا فى ذاته يكفى للاعتقاد بأن نبى الإسلام جاء ليصحح للمرتدين عقيدتهم ويعيدهم إلى دين الإسلام الذى هو رسالة نبى الله ﷺ

٩ - وفى الفصل الرابع حاول المؤلف أن يثبت بشرية القرآن وأنه من تأليف النبى محمد ﷺ ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل .لكنه كغيره من المعاندين استطاع أن يقدم نصاعة دين الإسلام ومزاياه، وموافقته لما يتقبله العقل السليم مما يجعل القارئ لهذا الفصل يدرك الكمال المتوفر فى هذا الدين، ويقرأ الجمال الذى يشع من عقيدته وشريعته وأخلاقه ، فلا يجد مفرا من الدخول فيه .

ويذكرنا هذا بما وصف به أبو سفيان لهرقل عظيم الروم من آيات العظمة، وصفاء العقيدة، وروعة المثل التى يدعو اليها النبى محمد ﷺ مما جعل هرقل يعلن على الملأ صدق النبى ﷺ ، وأن هذا الدين الإسلامى هو الحق الذى يجب التسليم به .

١٠ - اما الفصل الخامس : فقد جاء كلام جورج بوش فيه دالا على أنه من داخله أقر بعظمة الدين ، وعظمة النبى ، وتكامله أخلاقا، ومصادقة أفعاله لأقواله، وإن كان لا يقصد كل هذا ، وإنما قصد أن يجرد الإسلام ، ورسول الإسلام ، من كل ما هو جميل ، ويسند إليهما كل ما هو قبيح فأصيب بالفشل الذريع مما جعله يتخبط بين الثناء على رسول الاسلام محمد ﷺ وذمه للرساله التى يقوم بتبليغها وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على شئ ، فى صدره ، يتوقد لهيبا وهو حقده الذى نعوذ بالله منه .

لقد أمعن الرجل فى استخدام خياله المريض فى تفسير مخاطبة النبى ﷺ للناس ، ووعده للمؤمنين بالجنة ، ووعيده للمعاندين بالنار .

وهذا يكشف عن سذاجة وسطحية لم يسبقه أحد بالاتصاف بهما ، إذ قارن بين الجنة التى وعد الله المتقين عن فردوس الشعراء الوثنيين .

ولكنه كعادته قدم للقارئ آيات كثيرة من القرآن ، إذا وقف أمامها القارئ من غير المسلمين فإنها تشع أنوار إذا صادقت ساعة يتفتح فيها وجدانه فإنه لا مناص سيطيل التفكير فيها ، ويأخذ نورها بلبه ، ويستولى على سمعه وبصره ، فينشرح صدره للإسلام ، وما إسلام عمر بن الخطاب مأخوذاً بروعة القرآن ببعيد .

ومما يؤكد هذا ما قاله المؤلف فى صـ ٢٠٥ من الترجمة .

[ليس من العجيب إذن أن تؤتى دعوة النبى المتصاعدة ثمارها ، فلابد أن شخصا - راح يصغى لما يقول ويتأمل فيه ، ويتأثر به ، ويقبله خاصة أن النبى كان يسلك مسلكا وقورا تقيًّا فى هذا الوقت ، بالإضافة إلى مجادلاته ومناقشاته المتسمة بالهدوء والوقار ، وما دامت الحقيقة كانت على هذا النحو ، فإن عدد أتباعه إزدادوا بالتدريج .

وإنى متأكد أن كل من قرأ ، وكل من يقرأ هذا الفصل ، سيخرج منه وهو يتفكر فى عمق الإسلام ورسول الإسلام لأن الله غالب على أمره ، وهو يخاطب الفطره فى قلب الانسان ومن ثم فإنه يصل إليه بسرعة إنه أراد أن يضر الإسلام فنفعه وعامله الله بنقيض مقصودة .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلما وجدوا أنفسهم محاصرين ومحصورين لا يستطيعون من الحق فكاكا ولا يبدون أمام البرهان الحق إلا ضلالاً ، لجأوا لرصيدهم من المكر والخداع والدس والخيانة ، ليشعلوا نار الفتن ، لعلهم ينالون من الإسلام نيلا فيحرقوا أعواده الخضراء .

وقام بهذا الدور فريقان منهم . هما بنوا النضير ، وبنو قريظة وقد تولى الله بذاته الحديث بشأنهما ليحيى من حى عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينه .

فقال عز من قائل فى بنى النضير فى أول سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾

(سورة الحشر)

وتخلص قصة هذه الغزوة فى : أن بعض الصحابة من صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا قد بعثهم إلى أهل نجد رفقة أبى البراء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب إلا ستة ، الذى قدم المدينة فعرض النبى عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام ، ولكنه طلب من النبى ﷺ أن يرسل معه وفدا من الصحابة يدعونهم إلى الإسلام ، فتحفظ النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الطلب خشية أن يغدر أهل نجد بهذا الوفد فيقتلوهم ، لكن أبا براء عامر

ابن مالك ، تعهد بحمايتهم ، واعتبارهم فى جواره ، فاطمأن النبى ﷺ إلى جواره و أرسل الوفد معه بامارة المنذر عمرو من بنى ساعده وكانوا بين الأربعين والسبعين يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان ، حى رعل ، وحى ذكوان، من بنى سليم ، عند بئر يقال لها بئر معونة، فحدث حوار بين الفريقين، أوضح وفد النبى صلى الله عليه وسلم للمعترضين أنهم لا يريدون قتالا إنما هم علماء مكلفون من النبى ﷺ بتعليم الناس القرآن فلم يستمع المعترضين لهم وقتلوهم ولم ينج منهم إلا واحد هو عمرو بن أميه الضمرى واثنين من بنى عامر ظنا منه أنهم ينتمون بحلف مع رعل ، و ذكوان.

ولم يكن يعلم أن النبى ﷺ قد أعطى قومهما العهد .فقرر النبى صلى الله عليه وسلم ، دفع ديتيهما لقومهما بنى عامر.

وأحب النبى ﷺ أن يشرك معه يهود بنى النضير فى هاتين الديتين فوافقا لعهد كان بينهم وبينه أن يتحملوا الديات.

ذهب النبى ﷺومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ليستأدى الديتين من بنى النضير فأظهروا له الموافقة التامة ولكنهم طووا قلوبهم على غدر بالنبى ﷺ واتفقوا مع واحد منهم هو عمرو بن جحاش بن كعب وقال : أنا لذلك وصعد الجبل ليلقى صخرة على النبى ﷺ ليقتله وبذلك يتخلص بنو النضير من النبى ﷺ ، وعندما لجأ إلى الجبل عزم الغادر عمرو بن جحاش أن يلقى الصخرة على النبى صلى الله عليه وسلم لكن الوحى كان أسرع منه حيث نبه جبريل عليه السلام النبى ﷺ إلى هذه الجريمة التى شرع عمرو بن جحاش فى تنفيذها .فلما جاءه الصحابة حدثهم بالمؤامرة الدنيئة التى استهدفت قتله والتخلص منه وهذا فى حد ذاته تقض من بنى النضير للاتفاق المبرم بينهما .وهذا فى ذاته يصور الغدر فى أبشع صوره .فما كان من النبىﷺ غلا أن أنذرهم بالخروج من جواره لنقضهم العهد والميثاق فى الوقت الذى نهاهم عبد الله بن أبى بن سلول عن الخروج ، ووعدهم بالخروج معهم إن كان الخروج حتميا ، وبالنصر إذا قاتلوا

فتقوت نفوسهم ونابذوا النبى بالقتال ، وأعلنوا الحرب ، فخرج إليهم عليه الصلاة والسلام فى شهر ربيع الأول ، فتحصنوا وهددهم النبى صلى الله عليه وسلم بحرق النخيل ، فتوهموا أنه سيفعل فعاتبوه ، وكانوا قد اعتمدوا على وعد عبد الله بن أبى بن سلول بنصره لهم ، وإن كان الخروج فسيخرج معهم ، فلما لم يجدوا من وعد عبد الله بن أبى شيئا من الصدق ، اضطربوا ، وسرى فى قلوبهم الرعب ، فطلبوا الجلاء عن الأرض ، وطلبوا من النبى أن يعفى رجالهم من القتل ، فرفض النبى ﷺ ذلك ، وحملوا من أموالهم ما استطاعوا ، وذهبوا إلى خيبر كمحطة تجمعوا فى حصونها ، وكان من أشرافهم ابن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، فدانو لأهل خيبر بالطاعة ومن هذا السياق يتضح تماما أن بنى النضير كغيرهم من اليهود ، لم يتخلصوا من غدرهم ، ولم يتركوا حقدهم الدفين على النبى محمد صلى الله عليه وسلم. بل كان حقدهم هذا مترصد لأى فرصة تسنح له ليصدر شواظه بغية حرق النبى صلى الله عليه وسلم وبقتل أصحابه .

فلم يكن النبى ليتركهم على حالتهم هذه ، وهم يحيطون به وبأتباعه من المؤمنين، وإن أول واجباته كرئيس دولة هو أن يحافظ على أمن الدعوة ، وأمن الدولة ، وآمن المؤمنين ، لاسيما وهى دولة ناشئة من الضرورى أن يحافظ على كيانها ؛ لأنها ترفع راية الاسلام ويحيط بها الكيد من كل مكان ، فلابد من الصرامة التى هى كفيلة بالمحافظة عليها ، حتى تنهض بأعبائها أمام دولتين عريقتين مثل الروم والفرس ، مع الوضع فى الحسبان أن هناك فى داخل المدينة صف من المنافقين لا يتورع عن تحريض الناس على اقتحام هذه الدولة وحرمتها وحرمة المدينة ... ولكن هيهات هيهات ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم فى حالة يقظة تامة ، فى حرص على تأمين هذه الدولة حتى يطمئن إلى نشر الإسلام فى كل مكان .مما جعله يتخذ نفس الموقف من بنى قريظة وأشد منه لما تبين له بجلاء خيانتهم وتهديدهم لدولته الناهضة ودينه القويم .

نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم يرد على بنى قريظة :

جاء ذكر هؤلاء القوم فى القرآن الكريم فى سورة الأحزاب فى آيات أعقبت الآيات التى سجلت وقائع غزوة الخندق ، وإنى أنقل الآية التى سبقت ذكرهم وألحقها بما بعدها من آيات تشرح ما آل إليه أمرهم كما جاء فى السورة ؛ ليتضح فى ذهنى وفى ذهن القارئ مدى الارتباط بين ما لحق بالأحزاب من فشل وخذلان ، وما لحق ببنى قريظة من جزاء ، وفاق ما اقترفوا من جريمة الخيانة والغدر ، ومحاولتهم القضاء على الإسلام وعلى نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام وعلى المسلمين .

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة الأحزاب من ٢٥ إلى ٢٧ :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

إن (الآية ٢٥) تبشر بإنتهاء غزوة الخندق (وهى غزوة الأحزاب) النهاية التى قضى الله بها نصرا للاسلام ورسول الإسلام ، ونصراً للمسلمين، وخذلاناً للكفار والمنافقين وحلفائهم، الذين اجتمعوا على استئصال شأفة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ وشأفة المسلمين، فرد الله كيدهم إلى نحورهم وأجبرهم على ابتلاع ما تركز عندهم من صديد الحقد ، وحميم الغيظ ؛ فحرق أمعاءهم،

بعد أن أحبط مسعاهم ، ثم تسجل الآيتان السادسة والعشرون ، والسابعة والعشرون ، ما حاق ببنى قريظة من عذاب جزاء خيانتهم ونقضهم الميثاق وظهورهم بمظهر الأعداء ، فإذا هم يتربصون بالإسلام والمسلمين ونبيهم بعد أن أعطوا على المسالمة والموادعة العهود والمواثيق لقد كانت غزوة الخندق مرآة ظهرت عليها خيانتهم لكل عين مجردة ، وأفلحت نارها فى حرق براقع النفاق عن وجوه القوم ، فكشروا عن أنيابهم ليغمدوها فى جسد الإسلام بغية التخلص منه ، حيث رأوا فى ذيوعه وانتشاره الذلة والمسكنه تغطيان وجوههم إلى أبد الآبدين .

ولقد دفعهم إلى الانحياز إلى الأحزاب وخيانتهم للنبى صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ما كان من حيى بن أخطب الذى أوحى إليهم بنقض عهدهم بموادعة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين، والانضمام إلى الأحزاب وبذلك ينقطع المدد عن المسلمين ، فيمنون بالهزيمة، والتشتيت ، ويستريح الأحزاب ويتمكن اليهود فى الأرض ينعمون بالثروات ، ويحيون فى طمأنينة ، ولم يتوان حيى بن أخطب فسارع لمقابلة كعب بن أسد الذى بيده أمر بنى قريظة فما إن وصل إليه حتى أغلق حصنه عليه ليحول بين حيى وبين ولوجه ؛ لأنه رأى إن غدرت قريظة بعهدها مع النبى صلى الله عليه وسلم وصادف ذلك هزيمة الأحزاب فسينفرد النبى صلى الله عليه وسلم ، بها ويجعلها أثراً بعيدين ، لكن حيى أصر على نجاحه فى سفارته هذه ، فبذل فى سبيل ذلك أقصى جهد عنده حتى أقنع كعب بن أسد الذى تردد طويلا بعد أن لاحت أمامه صفات النبى الأمين صلى الله عليه وسلم من صدق ووفاء لعهده. وحيى يقذف فى أذنه كلمات [ويحك يا كعب !! جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش وبغطفان مع قادتهما وسادتهما، وقد عاهدونى وعاقدونى على الا يبرحوا حتى يستأصل ومن معه] وذكر له ما حاق باليهود من محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه، وما هو محتمل من مصائب تنزل فوقهم فيما لو فشلت الأحزاب فى

القضاء عليه ، وأن الكارثة واقعة بالمسلمين لا محالة ، ولا ينحيها عنهم إلا هذا الخندق ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة بعدها يكون محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه خبراً بعد عين .فلان كعب في يدي حيي ولكنه أبدى تحفظا ضمنه سؤالا وجهه لحيي :

* ماذا لو ارتدت الأحزاب ؟؟

هناك أعطى حيي كعباً عهداً موثقًا وهو : إن رجعت قريش وغطفان ولم يقاتلوا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه سيدخل معه حصنه ويشركه في مسيره ومصيره، عند ذلك تحركت حيّة يهود كعب ، وقبل ما طلبه حيي، وتحلل من عهده مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وانحرف عن حياده، وموادعته للنبي صلى الله عليه وسلم فوافق على الانضمام إلى الأحزاب ، فقويت جهتها، بينما انفتحت ثغرة في جهة المدينة المنورة، ولم يكن يدري كعب في لحظة موافقته أنه جلب على قومه شراً وبيلاً كانوا هم في غنى عنه، لكنه قضاء الله سبحانه وتعالى وكان أمر الله قدرا مقدوراً .

انضمت قريظة للأحزاب فسرى النبأ في صفوف المسلمين، فاهتزوا عند تلقيه ووجبت قلوبهم، وكان لابد من دراسة هذا النبأ والتثبت من صحته خشية أن يكون اشاعة .. مقصود منها الحرب النفسية فأختار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة رجال هم زعماء الأنصار سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباده سيد الخزرج ، وعبدالله بن رواحة بن جبير ، لتحقيق النبأ واشترط عليهم أن يخفوا نتيجة التحقيق في ألفاظ يخترعونها حتى لا يكون لها تأثير سلبي على جبهة الدفاع المسلمة .وعندما وصل الثلاثة إلى قريظة وجدوا الناس أسوأ منظرا ومخبرا عما شاع عنهم وفاتحوهم في التريث ودراسة الوضع، والعودة إلى العهد الذي بينهم ونبذ هذا الخرق الذي بدر منهم، فابتدرهم كعب بطلب .. كشف خبيئة نفسه ونفوس قومه ، هذا الطلب هو إعادة إخوانهم بني النضير إلى ديارهم، وقد كان بينهم وبين سعد بن معاذ حلف فاستند إلى هذا

الحلف ليناقشهم ، وهددهم بما حل ببنى النضير إن هم استمروا على موقعهم من استعداء المسلمين واستعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخرج كعب من فمه أول قذيفة فى الحرب بأن قال [من رسول الله ؟ !!لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد] وكاد المتفاوضون أن يسبّ كل منهم الفريق الذى أمامه .

إن كعب لم يُنطق هذه الكلمات إلا بعد أن تأكد من القوة التى تسانده من الأحلاف والأحزاب التى وعده بها حيى بن الأخطب ، هذه القوة التى توهمها ، هذا التوهم الذى كشف الغطاء عن نار العداوة للإسلام ولرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم والتى اصبحت فى لحظة واحدة شديدة اللظى عظيمة الأوار .

وعاد سفراء النبى صلى الله عليه وسلم من سفارتهم وقد حملوا هذا النبأ الذى تطاير شررا من فم كعب ، فحزن المسلمون وأيقنوا الخطر الذى يتهددهم.

ولم تلبث قريظة أن قطعت المدد عن أهل المدينة ، وطلبت من قريش قتال جيش الإسلام قتالا شديدا لمدة عشرة أيام ، خلالها تكون قد أعدت للحرب عدتها ، وبادر الأحلاف إلى تكوين ثلاث كتائب لمحاربة النبى صلى الله عليه وسلم :

كتيبة ابن الأعور السلمى من فوق الوادى .

وكتيبة عيينة بن حصن من الجنب .

وقد نصب له أبو سفيان من قبل الخندق :

وهى خطة فيها من الخبث والمكر ما يدل على أن بنى قريظة يتقنون فن الحرب ، ولديهم خبرة تاريخية فى القتال ، ويعرفون كيف يحيطون بعدوهم إحاطة تشل تفكيره ، وتحجم قوته ، وتضمن لهم استسلامه فى دقائق قليلة من نشوب الحرب .

واسمع معى أيها القارئ الكريم وصف هذا الزحف الأغبر على جيش المسلمين المحاصرين ، تمر عليه الليالى والأيام لا يكاد الواحد منهم يتمكن من تناول ما يسد به جوعته فالقرآن هو الذى جلى لنا وصف هذا الزحف ، وجلى

لنا الحالة المعنوية، والظروف النفسية التى سيطرت على هذا الجيش المحاصر فقال : فى سورة الأحزاب الآيات من ١٠ إلى ١٣ :

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

ها هى هجمة شرسة بارزة للعيان من جانب الأحزاب ومن قبيلة قريظة، وها هى الحالة النفسية والعصبية لأهل المدينة وجيش المسلمين شاخصة تبوح بكل ما يعانيه هؤلاء المحاصرون، من موت يتمثل لهم شبحه من كل مكان، وينتظرونه قادما إليهم من كل جهة ، فتنخلع قلوب البعض منهم لتصل إلى حناجرهم، فاعتراهم من الخوف ما يعترى الذى يضربهم الزلزال .

وما أزعجهم أكثر : هو أصوات المنافقين الذين أظهروا الإسلام خوفا وأبطنوا الكفر مصرين عليه وهم يتصايحون «ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا» واقترقوا فرقا كلها وصمت بالخوار والضعف، وأزمعوا الفرار .

لقد قعدت بالمسلمين الأسباب، ولكنهم حظوا بعناية مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، فسلط على الأحزاب الريح تحمل إليهم الصخور والأحجار

وتضربهم، والتراب والرمال تصفعهم ، وكل عناصر الطبيعة تظهر لهم المقت والسخط على إقامتهم على هذه الأرض فتطردهم .

وغادر الخوف قلوب جيش النبى صلى الله عليه وسلم مسرعا إلى قلوب الأحزاب، وزلزلت الأرض زلزالها ، وصمم رءوس الكفر والنفاق على الرحيل قبل الهلاك المحقق إن أصروا على البقاء.

وانكشف الكرب عن المسلمين، ودلفت إلى قلوبهم أشعة الأمن والطمأنينة والسلام النفسى، فهدأت الخواطر وسكتت الجوارح، وفرحوا جميعا بنصر الله.

وأحاطت ببنى قريظة جيوش الندم على طاعتهم لحيى بن أخطب ، وعضوا جميع أصابع أيديهم وأرجلهم، وأيقنوا من وقوع الجزاء الرادع فوق رءوسهم من غضب الله سبحانه وتعالى وغضب رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد جنوا على أنفسهم جناية عظمى، إذ إنهم لم يكتفوا بقطع المدد الذى عاهدوا عليه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، بل وصل بهم الأمل أن جيشوا جيشاً منهم لقتل نبىّ الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وقتال جيش الإسلام حتى يقضوا على الإسلام نفسه، فإذا بأملهم يموت وإذا بسعيهم يخيب ...وإذا بنصر الإسلام وبنى الإسلام صلى الله عليه وسلم ونصر المسلمين ، ينزل من السماء فى صورة الملائكة ، ويظهر على الأرض ريحا تُزلزل الأرض تحت أقدام الأحزاب (!!!) .

ولما اطمأن المسلمون بنصر الله هذا استرخوا وخلدوا إلى شئ من الراحة.. راحة النفس ، وراحة الجسم ..فقد عانى كل منهم كثيراً أيام الحصار والخندق وذهب النبى ﷺ لبيته ليستريح وإذا بالملك جبريل ماثل أمامه يسأله :

- هل وضعتم السلاح يا رسول الله ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- نعم .

فرد جبريل عليه السلام .

- لكن الملائكة لم تضع السلاح ..أن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره : [فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر وقال عليه الصلاة والسلام :

«لا يصلين أحدكم العصر إلا في بنى قريظة» واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى عبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنه على المدينة ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس وعشرون ليلة ..فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه ؛ لأنهم كانوا خلفاءهم فى الجاهلية ؛ فظنوا أن سعد بن معاذ سيحصل لهم على ما حصل عليه عبد الله بن أبى بن سلول لبنى قينقاع ولكن قضاء الله سبحانه وتعالى كان قد كان سبق بحكمه العادل .

والغريب العجيب الذى يثير الدهشة !.. أن بنى قريظة من سلالة علماء من بنى إسرائيل كانوا قد رحلوا إلى الحجاز ينتظرون قدوم النبى الأمى الذى تبشرهم به التوراه ويجدونه فى الانجيل أيضا مكتوبا فى الكتابين ونطقا على لسانى كل من نبى الله موسى عليه السلام ونبى الله عيسى عليه السلام ، ووجدوا من الأوفق أن يقدموا إلى الحجاز ليكونوا أول من يتبعه عندما يبعثه الله نبياً ورسولاً خاتماً للأنبياء والمرسلين .

هؤلاء هم جذور بنى قريظة الذين قطعهم الشيطان عنهم ، عندما وسوس لهم بمواقفهم لطلب حيى بن الأخطب الذى حرضهم على قلب ظهر المجن فى وجه النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بإعلان الحرب ضده ، وضد دينه وضد المسلمين (!!!) .

خارت قوى بنى قريظة تحت وطأة الحصار المحكم من النبى عليه الصلاة والسلام وجيشه، فنزلوا على حكمه عليه الصلاة والسلام الذى حكم فيهم سيدهم وولى أمرهم الصحابى الجليل سعد بن معاذ الذى هو من زعماء الأنصار فوجد فيهم خطرا على أمن الدولة الفتية وخطرا على المدينة ، وخطراً على الاسلام والمسلمين فكان حكمه كالتالى :

قتل المقاتلين منهم ، وسبى النساء ، وأسر الضعفاء والأطفال . ومصادرة الأموال .

فبشره النبى صلى الله عليه وسلم بأن حكمه هذا قد وافق حكم الله عز وجل ، فاستراح قلبه واطمأن ، وتوجه إلى الله سبحانه وتعالى داعيا إياه إن كان مبقياً الحرب بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين قريش أن يبقيه حيا ، وإن لم يكن بعد ذلك حرب بينهما أن يميته ؛ فاشتد الجرح عليه فمات رضى الله عنه وأرضاه فهذا حكم الله سبحانه وتعالى فى بنى قريظة فما هى الشكوى من هذا الحكم؟

أكان لنبى الله محمد أن يبقى عليهم حربا على مجتمع المسلمين وهم يعيشون بين المسلمين حربا عليهم وعلى الدين ؟

اسألوا أى رئيس دولة وجد فريقا من رعاياه يعمل لحساب دولة أخرى ، تطلب الفناء لشخصه ولدولته ؟

ولا يريدون إلا قتله ؟ ماذا بفعل ؟

ستجدون الإجابة هى استئصال هذا الورم الخبيث قبل كل شئ .

إن كعب لم يطنق هذه الكلمات إلا بعد أن تأكد من القوة التى تسانده من الأحلاف والاحزاب التى وعده بها حيى بن الأخطب ، هذه القوة التى توهمها هذا التوهم الذى كشف الغطاء عن نار العداوة للإسلام ولرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم والتى أصبحت فى لحظة واحدة شديدة اللظى عظيمة الأوار.

وعاد سفراء النبى صلى الله عليه وسلم من سفارتهم وقد حملوا هذا النبأ

الذى تطاير شرراً من فهم كعب .فحزن المسلمون وأيقنوا الخطر الذى يتهددهم .

ولم تلبث قريظة أن قطعت المدد عن أهل المدينة وطلبت من قريش قتال جيش الإسلام قتالاً شديداً لمدة عشرة أيام خلالها تكون قد أعدت للحرب عدتها ، وبادر الأحلاف إلى تكوين ثلاث كتائب لمحاربة النبى ﷺ .

كتيبة بن الأعوّر السلمي من فوق الوادى .

وكتيبة عيينة بن حصن من الجنب .

وقد نصب له أبو سفيان من قبل الخندق:

وهى خطة فيها من الخبث والمكر ما يدل على أن بنى قريظة يتقنون فن الحرب ، ولديهم خبرة تاريخية فى القتال ويعرفون كيف يحيطون بعدوهم إحاطة تشل تفكيره وتحجم قوته وتضمن لهم استسلامه فى دقائق قليلة من نشوب الحرب.

أمهات المؤمنين

زوجات سيدنا محمد نبى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

الذى يقرأ كتاب جورج بوش الماثل للنقد قراءة البصير الواعى الذى ينشد الحق ويبتغي الحقيقة ، يجد المؤلف يعقد بينه وبين نبينا الكريم عليه الصلاة وأزكى السلام خصومة مستعرة لا يهدأ أوارها ، ولا يُخمد لظاها ، وبالتالى يتبين له انها خصومة عمياء ؛ لأنها صدرت عن غريزة عمياء داخله فى تركيبة المؤلف النفسية .

من الكلمة الأولى فى كتابه المشئوم حتى الكلمة النهائية فيه يلفح وجه القارئ لهيب غيظه المستعر ، ويكفى هذا سببا لتشويه شهادته ، وبطلانها المطلق اللذين يجعلان القارئ يرفض كل ما جاء بها ، ويعرض عما تتضمنه من

أكاذيب وضلالات وتضليلات مقصودة يبغى من ورائها حجب شمس الإسلام وأشعتها الدافئة عن قلب الإنسان الغربى المقرور ، وعقله الحائر ، حتى يظل تحت سيطرة الهرطقات الموضوعة والتى لا صلة لها بالوحى وأنواره، ولا صلة لها بالنبوة ولا صلة لها بالدين، ويبغى من ورائها أيضا حجب الحقيقة المحمدية المضيئة بما تمتع به النبى والرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم من تكامل فى شخصيته حسده عليه خصومه ، ونعم به أحبابه وتابعوه حتى تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها، هذا النبى الكريم تحققت فى شخصه الشريف المعادلة الصعبة وهى العدل بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، العدل بين العمل لخير الدنيا بالإصلاح والعمل لخير الآخرة بالإخلاص لله فى العملين، مضحيا بمطالب الدنيا من أجل رضى الله نرى الكاتب ينفس عن غيظه هذه المرة وهو يتكلم فى أخص خصوصيات هذا النبى الكريم، لا يمنعه حياء، ولا يطفئ شواظ غيظه إنتصارات نبينا محمد المتوالية فى مجالات المبادئ الإنسانية الرفيعة، وفى آفاق المثل العليا، حيث يسمو الإنسان إلى أرقى مدارج الكمال ، وإلى أسمى قمم الخير، وإلى أروع ما يكون الجمال .. وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أجدر الناس بهذا المقام الذى منحه الله إياه .

تراه يدخل بيت هذا النبى الكريم دون خجل، ويتناول شخصيات أمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ على غير ما تعارف عليه الناس من ذوق سليم، وآداب توارثها النبلاء من أهل العلم .يدخله وعقله مندثر فى لفائف الجهل، وقلبه محوط بغياهب الظلم .ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ..هذه الظلمات جعلته يتخبط، ويخبط فيما قاله خبط عشواء ، فخرجت حججه تثير فى الحرّ حالة الغثيان ، وتثير فى العاقل الدهشة، وتستفز فى الحليم الغضب.

ولقد ترددت فى الرد عليه قليلا - فيما يتعلق بزوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنى أهابه عليه الصلاة والسلام، وأعتبر أن أى كلام فى

هذا الشأن يمس جنابه العظيم ، وعندئذ أكون فى حرج ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رفع مقامه فوق مقام الناس أجمعين، وهو سبحانه وتعالى تولى بذاته الدفاع عنه ؛ لأنه سبحانه وتعالى ، هو الذى خلقه واصطفاه خاتما للأنبياء والمرسلين ، وهو وحده الذى يعرفه ويعرف قدره، وهو الذى مدحه بما يعرف عنه من مناقب هو الذى منحها إياه، وإنى فى ذلك أتمثل قول الشاعر :

شخصية مدح الرحمن صاحبها   أظنها فى غنى عن مدح إمسان

فعندما ترددت وجدت حبى له عليه الصلاة والسلام يدفع هذا التردد حتى أخرجه تماما من قلبى فعزمت أن أخرج سيف العلم من غمده، وسيف العلم هنا هو سيف الحق ، لألتقى مع هذا الذى تجرأ على مقام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأراجيف ، تاركا وراءه الحق ، ورافعاً راية الباطل، متجنّباً النزاهة وملتزماً بشاعة الظلم ، وإنى فى الرد عليه أستعين بالله ، واستجديه الرشد ، وأستلهمه الصواب ، وأستمد منه الحكمة، وأتوكل عليه فى دحض ما سطره هذا المؤلف من أباطيل، وما كتبه من تخرصات ، فإن الله وحده المستعان وعليه التكلان. وهو بحق حسبنا ونعم الوكيل ..

***

فضل وفضائل زوجات النبى صلى الله عليه وسلم

ألزم نفسى - عند الحديث عن أمهات المؤمنين زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ينبغى أن يتوفر من أدب هذا الحديث، وأول هذا الأدب أن يكون مصدر الحديث ومنبعه ومعدنه هو ما جاء فى القرآن الكريم ، وما جاء فى الحديث الشريف على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله سبحانه وتعالى هو الأعلم بخلقه ، فهو أعلم بهن رضى الله عنهن وهو الذى اختارهن زوجات لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذى عاملهن وتعامل معهن وهو أعلم البشر جميعا بهن، وهو أقدر البشر على وصفهن وتقديرهن حق قدرهن ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهن ورضى الله عنهن - وسلام عليهن فى العالمين

فضلهن :

١ - قال الله تعالى فى سورة الأحزاب الآية ٦ :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

وإن الأمومة هنا تجعل زواج الناس منهنّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حراما من الحرام، وتملى على المسلمين توقيرهن ، واحترامهن وبرهن ، وحسن معاملتهن ، وباختصار استحقاقهن ما تستحق الأمهات من أولادهن الذين ولدنهن من حقوق .وقد أجتمعت التفاسير للقرآن والحديث على ذلك. وينظر القرطبى (الجامع لأحكام القرآن وابن كثير وغيرهما) ..

٢ - الآية ٣٢ من سورة الأحزاب :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تُعلى من قدر زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وترفع من قدرهن .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قد رفع مقام النبى فوق كل مقام من خلق الله أجمعين، وجعله المثل الأعلى لبنى آدم أجمعين، فإنه سبحانه وتعالى فى حكمه المنصوص عليه فى هذه الآية جعلهن المثل الأعلى لبنات ونساء العالمين، وأجلسهن على القمة العليا ديناً وخُلقا، بحيث تكون الزوجة منهن أسوة حسنة ، وقدوة تقتدى بها النساء جميعاً ، كما هو الحال بالنسبة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم فى منزلته التى أنزله الله إياها فى قوله عز من قائل :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

٢ - الآية ٢٨و ٢٩ من سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

وفي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، بتخيير زوجاته رضى الله عنهن بين أمرين :

الأمر الأول : فى حالة رغبتهن فى الاستمتاع بمباهج الدنيا وزخارفها ، وترفها ، والتنعم بالرفاهية والرغد فى عيشها ؛ فليقبلن الطلاق والذهاب إلى من يوفر لهم هذا النعيم .

الأمر الثانى : إذا عزفن عن الدنيا ، ورغبن فى الله وفى رسوله صلى الله عليه وسلم وفضلن الدار الآخرة ، عند الله نعيم أرقى ، وخير أكثر أعده لمن تحسن الأختيار منهن ، فلما واجههن سيدنا رسول الله ﷺ بهذا التخيير .. بادرن جميعا باختيارهن الله سبحانه وتعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم وفضلن الله وفضلن رسوله صلى الله عليه وسلم ، على كل متع الدنيا وزينتها.

وكان هذا الاختيار من جانبهن كاشفا لما هو راكز فى قلوبهن من إيمان ومن حب لله سبحانه ولنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبهذا التعالى على الدنيا وما فيها والإصرار على الدار الآخرة وما فيها حزن المقام السامى والدرجة العالية . وتحققت فيهن الفضائل كلها ومنها علو الهمة وسمو الخلق .

٤ - الآية ٣٣ من سورة الأحزاب :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هذا الجزء من الآية جاء تعقيبا على ما ورد بهذه الآية وما قبلها ، من أوامر من الله عز وجل صادرة لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بالتمسك بالفضيلة

وبما غرسه الله فيهن من نزوع نحو الكمال، وهذا التعقيب يريهن حكمة الله وراء هذه الأوامر ، والذى يجتمع فى إرادة الله سبحانه وتعالى الأزلية الأبدية أن يباعد بين أهل البيت وبين أى رجس ، وأن يطهر أهل البيت تطهيراً دائماً سرمديا حتى تقوم الساعة .

وهذا يفيد شمول العناية الإلهية بهم، ودوام رعاية الله لهم ، ومنهم بالطبع زوجات النبى، والجدير بالذكر أن الله قد خاطبهم خطاب القريب ، للقريب وحذف أدوات النداء مما ينبئ عن قربهم من الله ، الذى يعتبر القرب منه رفعة فى المقام أى رفعة، وسموا فى الدرجة أى سمو يمنحه الله لأمهات المؤمنين زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعليهن وسلم تسليما كثيرا.

٥ - الآية ٣٤ من سورة الأحزاب :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يذكر الله سيداتنا أمهات المؤمنين رضى الله عنهن بالنعمة العظمى ، والمنحة الكبرى التى تتميز بها بيوتهن ، وتزدهى بها حجراتهن ، ألا وهى : نزول القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل عليه السلام وتلاوة هذا القرآن ، والحكمة فى هذه البيوت التى تخصهن ، وهذا من الله سبحانه وتعالى تسمو به هذه البيوت التى هى حجرات على قصور ملوك الأرض الشامخة ، وإن كانت مبنية من الذهب والفضة ، وإن كانت قصور الأكاسرة والقياصرة (!!) .

الله وحده يعلم مشاعر أمهات المؤمنين رضى الله عنهن عندما سمعن لأول مرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو عليهن هذه الآية الكريمة وفيها ما يُتلى فى بيوتكن ... لكنى على يقين من أن الواحدة منهن قد أصبحت لا تعدل بحجرتها المبنية من الأجر أى قصر لأى ملك فى العالم (!!!) .

وإنها قد تضاءلت أمام عينيها زخارف الحياة الدنيا وزينتها ، ونظرت إلى كل ذلك نظرتها إلى كومة من رماد .

وشعرت بأنها عندما ناداها الله سبحانه وتعالى ضمن نساء النبى ، قد دلف إلى قلبها برد الطمأنينة والفخر والاعتزاز ، وإنها النعمة التى لا تعادلها نعمة من نعم الدنيا أبدا .

وإنها قد أقبلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكليتها تنتظر طلبة منها وهو إشارة أو وهو خلجة من خلجات نفسه الشريفة ، لتحققه مهما كلفها من جهد نفسى أو عصبى أو عضوى ، لتتأكد أنها قد نعمت برضا الله سبحانه وأنها قد استطاعت أن تقدم لله عز وجل ما تستحقه هذه النعمة العظمى من حمد الله عليها وشكره سبحانه وتعالى ، الذى أفاضها عليها ، فتفتت لله ورسوله ليؤتيها الله سبحانه وتعالى أجرها مرتين ويعدلها رزقا كريما .كما وعدنا ووعدهن الحق فى الآية ٣١ من سورة الأحزاب :

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذا ما هو مستقر فى وجدانى عقيدة راسخة فى أمهات المؤمنين زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مركوزًا فى قلبى .رحيقا صافيا رافدا من القرآن الكريم وعنه يصدر ردّى على ما جاء بكتاب جورج بوش خاصا بهن رضى الله عنهن جميعا .

وسيكون الردُّ مرتبًا حسب ما جاء بهذا الكتاب المشئوم ، وفى حدود ما أورده هذا الكاتب من أراجيف .

أولاً: السيدة الجليلة أم المؤمنين
عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما

ما قاله ويستحق الرد:

١ - أن المسلمين هم الذين يحتفلون بها ويسمونها أم المؤمنين .

٢ - أن عائشة كانت تعادى عليا بن ابى طالب عداءاً شديداً ، وكان على هو المرشح للخلافة منافسا لأبى بكر .

٣ - عندما تبوأ على الخلافة خرجت عائشة على رأس جيش لتحاربه فهزمت .

٤ - بعد هزيمتها استطاعت إحداث الفرقة بين على وأنصاره ، ودمرتهما معا .

والردُ على هذه الأراجيف يجرى كالآتى :

١- بالنسبة للقب أم المؤمنين :

هذا لقب ميز الله به زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ممنوح من الله بذاته وليس المسلمون هم الذين أطلقوه عليهن ، وإذن فهو حكم من الله سبحانه وتعالى وأذعن له المسلمون :قال الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم آية ٦ من سورة الأحزاب :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

وإذن فاعتبار زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين هو حكم من الله سبحانه وتعالى وقضاء من قضائه ، استقبله المؤمنون بالإذعان والامتثال كعقيدة من عقائدهم ، وهذا من المسلمين تسليم واستسلام لحكم الله سبحانه وتعالى محكوم بالآية الشريفة رقم ٣٦ من سورة الأحزاب :

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

والآية رقم ٥١ من سورة النور :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى لم يسبغ هذه الصفة على سيداتنا أمهات المؤمنين رضى الله عنهن تشريفا لهن فقط وإنما رتب على ذلك أحكاما فيها خصوصية من خصوصيات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تميزه عن سائر البشر ، ومنها أن زوجاته لا يحل الزواج بهن لأحد بعده أبدا ، وحرمتهن هذه حرمة أبدية لأن يعلم بسابق علمه أن بعضهن سيعشن بعده وقد نفذ المؤمنون حكمه سبحانه وتعالى فلم يتقدم أحد لخطبة إحداهن من اللاتى عشن بعده ، عليه الصلاة والسلام ، وإن الله سبحانه وتعالى يعلم بسابق علمه بأن المسلمين سيكونون بحاجة إلى زوجاته الطاهرات بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، ليفقهوا الناس فى دينهم مما يكون دافعا لهم للتردد عليهن للاستفسار

والسؤال عن أمور الدين، فحكم هذا الحكم الذى ينطوى على دفع للحرج ، وتأمين هذا التواصل من نزغات الشيطان. وإن الله سبحانه وتعالى منح هذه الخصوصية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تكريماً له واعزازاً وفى الوقت نفسه تكريماً لهن واعزازاً وصيانة لهن من الإهانة لأنهن بالقطع واليقين لن يجدن من التكريم والشرف ما نلنه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن المسلم العادى لا يرقى إلى هذا التكامل فى الشخصية ولا يرقى إلى التكامل الخلقى المتناغم فى سلوكياته والمتوفرين كمالا وجمالاً فى شخص هذا النبى العظيم ، فلن يستطيع أن يتعامل معهن التعامل الأمثل الذى كن يتلقينه منه عليه الصلاة والسلام، وتضيف إلى ذلك ما تتعرض له الزوجات العاديات اللاتى تعاشرن أزواجا عاديين من تقلبات فى المعيشة وفى الظروف التى تكتنف حياة الأسرة ، وفى الأحوال النفسية وكل ذلك ينال من المنزلة العليا ، والمقام الأسمى الذى تنعم به زوجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فإن المسلمين يسلمون بحكم الله عز وجل باعتبار زوجات النبى صلى الله عليه وسلم أمهات لهن، ويسلمون بما ترتب على ذلك من أحكام شرعية ، وهم راضون ويقولون فى غبطة وسرور .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

٢- الرد على مقولة أن عائشة كانت تعادى عليا :

* صور المؤلف العلاقة بين سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه وبين أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها على أنها صراع بينهما .

واستند فى ذلك إلى أن الإمام عليا كان منافسا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وصور خروج أم المؤمنين سيدتنا عائشة فى موقعة ، أنه شن حرب ضد أمير المؤمنين على رضى الله عنه .

وهذا التصوير خطأ كله ؛ لأنه يعتمد على روايات تتعلق بتاريخ بنى أمية ودولتهم التى أقامها الصحابى معاوية بن أبى سفيان، والمعروف أنه بعد التحكيم الذى حدث بين الامام على والصحابى معاوية بن أبى سفيان ، قد نصّب الأخير أميراً للمؤمنين فأنشا الدولة الأموية التى عاشت زمنا طويلا كان كافيا لحجب حقائق كثيرة وإبراز أضاليل أكثر بحيث لا يطمئن الباحث إلى كثير مما رددته الأفواه، أو سطرته الأقلام فى هذا الشأن.

وإذا رجعنا إلى التاريخ الصافى من عوالق التزييف النظيف من مكدرات الكذب فإنه سيقول لنا صراحة

- لقد بويع أبو بكر الصديق خليفة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجماع الصحابة ، وأولهم الإمام على بن أبى طالب الذى قال قولته المشهورة [من ساوى بينى وبين أبى بكر جلدته ثمانين جلده] .

- وإن الصحابة كانوا يعلمون أن أبا بكر هو الثانى بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- وعلمهم هذا مستمد من القرآن نفسه ، ومن أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١ - من القرآن :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

٢ - من الأحاديث الشريفة :

[مروا أبا بكر فليصل بالناس]

قالها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو مريض ، وفهم المسلمون أنها إشارة لهم بمبايعة أبى بكر خليفة وقالوا « رَضِيه رسول الله لأمر ديننا أفلا نرضاه لأمر دنيانا » .

٣ - إن الخلافة قد شرعت بالإجماع ، وهو الدليل الثالث من الأدلة الشرعية بعد القرآن والسنة.

وإن خلافة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه قد تمت بالبيعة من المسلمين ولم يتخلف عنها أحد.

٤ - أن سيدتنا عائشة تعرف مكانة سيدنا الإمام على بن أبى طالب من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمه الذى طلب من عمه أن يسمح بإقامته فى منزله فردا من أسرته وأشرف عليه ورباه حتى زوجه من ابنته الطاهرة سيدتنا فاطمة الزهراء رضى الله عنها وولدت أحب أهل بيته إليه الإمام الحسن والأمام الحسين رضى الله عنهما ، ويضاف إلى ذلك أن الإمام على هو

الجندى المخلص له عليه الصلاة والسلام الذى جاهد فى الله حق جهاده ، كما أنها تعرفه عالما وفقيها لا يشق له غبار وقد زكاه النبى صلى الله عليه وسلم، ما كان لها أن تغضب عليه أبدا ولا تقبل أذى يصل إليه ، وإن كان هناك ما يعكر صفوها منه فيكفى فى إزالته عتاب بسيط من نوع العتاب الذى يكون بين أفراد الأسرة الواحدة ، لا سيما والأسرة هنا هى أسرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن الإمام عليا رضى الله عنه يعرف قدر أم المؤمنين عائشة وهى الصديقة بنت الصديق زوجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبوها أبو بكر الصديق الذى شهد له الله سبحانه وتعالى بصحبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه الشهادة من الله سبحانه وتعالى تحكم على من يكذب صحبته هذه بالكفر والعياذ بالله ، لأن منكر هذه الصحبة يكون قد كذب القرآن الكريم فيبوء بالكفر والعياذ بالله وأبو بكر رضى الله عنه قد أنفق ماله كله على الاسلام ورسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وأيده إذ خذله الناس، وآواه إذ طرده الناس، ونصره إذ قاتله الناس وصدقه إذ كذبه الناس كما أقر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما أن أم المؤمنين عائشة زوجته صلى الله عليه وسلم فهى زوجته الأثيرة المحببة إليه، وأكثر الناس حفظا لعلمه عليه الصلاة والسلام فلا نتصور أن يكون هناك ذرة من عناد عالق فى قلب الأمام على رضى الله عنه من جهتها.

وإنى أكرر مرة ومرات أن هؤلاء الأعلام فريق من البشر سهر على تربيتهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أفلح عليه الصلاة والسلام فى تنقية قلوبهم من وساوس الشيطان وأولها الغضب الساحق لزهور المحبة بين الناس. وإن هذه الشخصيات قد مرت بمراحل تربية النبى لهم .. اجتازوا فيها كل العقبات وسموا بها فوق الاعتبارات الدنيوية ، ولم يعد فى استطاعتهم إتيان أى فعل يشوب إيمانهم أو يمس علاقتهم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم بأى

ضرر ، وليس معنى هذا أنهم معصومون ، ولكن بكل تأكيد أنهم من أعمال الفتن معصومون محفوظون من الوقوع فيها بالله خير الحافظين .

بقى أن نقرر فى حسم وجزم أن كل الأعمال التى أسندت إلى أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فيما بينها وبين أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه كلها مختلقة ومفتراه اخترعها أذناب بنى أمية وروج لها أصحاب الأغراض الشخصية والمآرب الذاتية ونفس الكلام بالنسبة للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنهم ولكل أمرء منهم ما اكتسب وعند الله الجزاء يقع عادلا على كل من روج لهذه الأكاذيب .

علاقة الرسول بزيد :

فقد أحسن الرسول معاملته ، فأحبه زيد حبا ملك عليه قلبه وشعر بالسعادة فى خدمته ، ووجد فيه حنان الأب الذى فقده ، ولما توافق أن لقيه أبوه أثناء رحلة كانت له فى مكة طلب النبى صلى الله عليه وسلم إلى زيد وخيره بين الإقامة معه وبين تسليمه لأبيه ليعيش مع أسرته ، فاختار زيد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مفضلا الحياة معه فى خدمته على الذهاب مع أبيه. فما كان من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا أن ذهب به إلى الكعبة البيت الحرام وأعلن فى الناس [أيها الناس إن زيدا أبنى يرثنى وأرثه] ومن هذه اللحظة أطلق على زيد اسم « زيد بن محمد » ولما كبر زيد ورشحته سنه ومقامه فى الاسلام للزواج خطب له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبنة عمته وهى زينب بنت جحش، وقرابتها منه عليه الصلاة والسلام أنها بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب التى رباها طفلة صغيرة، ورعاها رعاية الأب لابنته ، وحافظ عليها محافظة الأخ الأكبر لأخته الصغرى .

رأياً منه أنها هى التى يطمئن إليها زوجة لزيد تحفظ عليه دينه وعرضه ؛ إذ أن زيدا ابنه الحبيب إليه، الأثير عنده ويحب أن يكون له بيت ينعم فيه بالاستقرار الأسرى ويحب له النمو والازدهار وسط أولاد يحبهم ويحبونه ،

ووجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فى السيدة زينب بنت جحش الزوجة التى ينتظر أن تحقق لزيد هذه الأمنيات ، ولثقته فى قرابتها منه هذه القرابة الوشيجة، ولولايته الثابتة له ينص القرآن والذكر الحكيم فى سورة الأحزاب الآية ٦ من سورة الاحزاب :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

وهذه الآية الشريفة تعطى الحق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويج السيدة زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، ويكون العقد نافذاً كأنه قضاء وحكم صادر منه يسرى فى حق الزوجين ؛ لأنه فى هذا العقد يصدر عن ولاية أعطاه الله إياها ، ونستطيع أن نقول إن هذه الولاية سلطة منحها الله سبحانه وتعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بمقتضاه ينشئ عقد الزواج ملزما لطرفيه دون اعتراض من أيهما ، وهى مكنة ثابتة فى حقه فى قوله عز من قائل فى الآية رقم ٣٦ من سورة الآحزاب التى تقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

فما كان لزينب بنت جحش المؤمنة القوية الأيمان، أن تعصى رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقد عرفت مصير من يعصاه، وبعد أن عرفت حجم هذه المعصية، ووصف هذه المعصية بالضلال المبين (!!!) .

ولكن كيف يتم الزواج بين سيدة قرشية هاشمية من أوسط النسب في قريش ، وبين أحد الرقيق الذى اشترته أم المؤمنين خديجة زوج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالمال، هجس هذا السؤال في ذهن عبد الله بن جحش شقيق زينب التى أصبحت على وشك أن تكون تحت هذا الرق .

لقد كان العرب يرفضون هذا الزواج ويعيرون به !!

لكن زيدا قد أعتقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

فيرد عبد الله بن جحش على نفسه: ولو !!فإن هذا الزواج يرفضه العرب ولو اعتق من الرق فعلا .

إن الشريفة بنت الأشراف لا يحل لعبد أن يتزوجها أبدا، هذا ما يحكم به العرف فى مجتمع العرب فى الجاهلية .

وهو حكم ظالم وجاحد. لكن العرب لم يكونوا يخالفونه ، ولكن هناك حكم الله عز وجل الذى يرجع البشر لأصل خلقتهم الواحد، وهو حكم ملزم وقضاء مبرم لا يزيغ عنه إلا هالك ، هذا الحكم يتجلى فى الآية الشريفة رقم ١٣ من سورة الحجرات ساطعا بنور الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الحجرات)

هذا هو القانون الذى شرعه الله سبحانه وتعالى يضبط به مسيرة المجتمع الاسلامى، ويحقق به سلامة مصيره .

لا فرق بين أعجمى وعربى، ولا بين أبيض وأسود ، إلا بصالح الاعمال ، ولا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى .

يا له من مبدأ سام إذا لزمه البشر سعدوا وأسعدوا ، إنه المساواة التى ينشدها كل المصلحين من أهل العلم وأهل العدل على مدى التاريخ .

أراد الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بيد قومه ويد الإنسان فى كل عصر إلى التقدم والتحضر ،فأمر زينب أن تقبل الزواج من زيد لتنفض عن كيانها غبار الجاهلية ، وتقدم لبنات حواء القدوة الحسنة فى تنفيذ قانون الله وشريعته ، ونبذ قانون الجاهلية وشريعتها ..لتكون هى حاملة شعلة التحرر الوجدانى من معتقدات العنصرية تاركة وراءها عصبية الجاهلية .

أراد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجها من زيد مولاه وحبيبه لينحسر ثوب الرق عنه، وتذهب إلى غير رجعة هذه المشاعر السلبية من وجدانه ومن وجدان المجتمع نفسه، وما له لا يفعل ذلك وهو الذى بدأ برفع مقام زيد إلى درجة ابنه يرثه كما يرثه أولاده !!فأصر على أن يتم الزواج بين زينب بنت جحش وزيد ، وعلى أن يقبل أخوها عبد الله هذا الزواج كحكم من أحكام النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو حكم الله ، ونزل جبريل بالآية الشريفة رقم ٣٦ من سورة الأحزاب :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

هل كان بعد هذا البيان الواضح ، والحكم القطعى الثبوت . هل كان لزينب وأخيها عبد الله وهما المؤمنان الصالحان القريبان لنبى الله ورسوله أن يبوءا بمعصية الله والضلال المبين؟

لا : بل بادرا إلى تنفيذ أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتم الزواج والزفاف .

وكان الله سبحانه وتعالى إلى هذه اللحظة يخفى حكمته من إتمام هذا الزواج، هذه الحكمة التى لم تلبث أن ظهرت بعد قليل تضئ لعباد الله الطريق ...طريق الحياة .

لقد زفت زينب إلى زيد امتثالا لقضاء الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولكن ما لبث أن دب الخلاف بينهما، وغبرت سماء البيت أكدار الشجار. هذا الشجار الذى التزمت فيه زينب نغمة واحدة وهى تذكير زيد برقه، وشرف نسبها، وبأنها سيدة قومها، واعتبر زيد هذا الذى يصدر من زوجته تعاليا عليه، وامتهانا لكرامته يجعل من المستحيل استمرار الحياة الزوجية بينهما مما حفزه إلى شكوى ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، وطلبه الإذن له بطلاق زينب والمفارقة بينهما .

وتكررت الشكوى مما رأى النبى والرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى كل مرة يشكو فيها زيد أن يتذرع بالصبر ويقول له :

﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾

وظل الحال كذلك من شجار بين الزوجين، وسخط كل منهما على الآخر حتى اتخذت زينب خباء فى بيتها يحول بينها وبين زيد، فكرر شكواه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصرا على طلاق زوجته.

وهنا لم يجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدا من الذهاب إلى بيت المشكلة ليقوم بحلها إذا أراد الله، فخرجت إليه الزوجة الغاضبة من زوجها، فلما وجد لهيب الغضب فى وجهها قال « سبحان مصرف القلوب » ذلك ؛ لأنه يعلم الناس أن القلوب بيد الله سبحانه يحركها أينما يشاء ، راجيا أن يصرف هذا الغضب عن قلب زينب فيرق للصلح مع زيد .

لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبدى حكمته ليملأ السموات والأرض وما بينهما نورا يسطع فى القلوب ، فحضر زيد وحسم الخلاف بينه وبين زوجته الغاضبة بالطلاق ليريح ويستريح .

وكان أن انشقت السماء عن جبريل عليه السلام ليسكب نورها فى قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى الآيات من سورة الأحزاب رقم ٢ إلى ٥ :

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

ثم الآيات :.من ٣٦ إلى ٤٠ من سورة الأحزاب أيضا :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكما أن زواج زيد من زينب جاء تنفيذا لقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذى هو قضاء الله .

فإن زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انعقد بالقضاء نفسه وبحكم الله ذاته.

كان زواج زيد من زينب إرادة من الله ورسوله ، بذهاب نخوة الجاهلية ،

وعادات الجاهلية ، وعصبية الجاهلية وتعصب الجاهلية المتجلى فى التفرقة العنصرية ، ورد الناس جميعا إلى أصل واحد وأب واحد وأم واحدة ، والتميز يكون بالتقوى فقط .

وكان زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين زينب هدما لنظام التبنى الذى كان يمثل خللا فى النظام، الاجتماعى، ويمثل فجوة فى بناء الأسرة يمكن أن يملأها الشيطان بما يفكك رابطتها الوثقى ، ويزرع الغيظ فى القلوب ، ويعطى فريقا من الناس ما لا يستحقون، ويحرم فريقا آخر من المستحقين، وهكذا تختلط الأمور وتضيع الحقوق، ويتولد الصراع بين أفراد المجتمع ويتوارى السلام الاجتماعى ، الذى يمثل المناخ الذى تزدهر به الحياة. وكان فى تحريم التبنى من الله عز وجل نعمة تحقق به أمن الأسرة وسلام المجتمع وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوا الفضل العظيم .

هذا ما كان من أمر زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها حيث نرى الزواج بأمر الله الذى أصدر حكما يخضع له سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذه ولا يبالى بما يقوله الناس ، ولا يخشى فيه أحداً سوى الله .. فهو سبحانه وتعالى هو الأحق أن يخشاه .

هذا هو حقيقة ما جرى وجاء به الرواة الثقات، .فسره هذا المستشرق الذى يرتدى مسوح القسيس تفسيرا مريضاً بكلام صدر منه مشوه، ومزاعم صب الشيطان صديدها فى قلبه يقول له ، جاء فى صـ ٤١ من الترجمة (لقد ذهب محمد صلى الله عليه وسلم يوما إلى منزل زيد لأمر، ولم يجد زيدا وتصادف أن وقعت عيناه على زينب الجميلة فافتتن الرسول بمفاتنها من أول نظرة) .

***

نبأ زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أم المؤمنين سيدتنا زينب بنت جحش رضى الله عنها

لقد بدأ المؤلف سرد هذا النبأ بعبارات فيها تجريح للنبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم توحى هذه العبارات بأن هذا الزواج تم بناء على طلبه ووفق هواه.

والحقيقة أن الذى أمر بهذا الزواج وحكم به، هو الله سبحانه وتعالى لحكمة تشريعية أراد بها الله سبحانه وتعالى إقامة المجتمع الإسلامى على أسس سليمة وقواعد تشريعية تضمن له السلام والأمن من خلال أسرة تتناغم بين أفرادها الطباع، وتتجانس البناءات النفسية، وتتوحد فيها الأهداف بعد أن يتحقق الشعور مركزا بالانتماء الأسرى، هذا الشعور الذى يجعل من الأسرة بناء متماسكا قويا يتمتع بروح الإيثار النابعة عن حب حقيقى يولد الدفء الذى هو عماد السعادة والأمن لأعضاء الاسرة، فإذا علمنا أن الاسرة هى أساس المجتمع، قوته من قوتها، وضعفه من ضعفها، فإن الأسرة التى ينشدها الإسلام هى الضمانة لتحقيق مجتمع قوى متماسك .

ولقد كان المجتمع قبل الإسلام يبيح للرجل أن ينسب إلى نفسه ولدا بإدعائه بنوته .يساعده على النهوض بأعباء الحياة وفى المقابل يعطيه الحق فى أن يرثه إذا مات عن تركة ؛ هذا النظام الذى كان قائما فى الجاهليه يطلق عليه نظام التبنى، ولم ينفرد العرب بهذا النظام وإنما يشاركهم فيه مجتمعات كثيرة، مثل مجتمع مصر القديم، ومجتمعات أوروبا فقد كان شائعا عند الرومان وغيرهم .

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته نبياً ورسولاً كان قد اتخذ زيد بن حارثه مولاه ابنا، بقصة إن دلت على شئ ، فإنما تدل على عظمة هذا النبى الكريم ، ذلك أن زيدا هذا كان قد انقطع عن أسرته فى سفر فالتقطه بعض الأعراب وباعوه لأم المؤمنين سيدتنا خديجة بنت خويلد زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يتمالك نفسه فرفع صوته ذاكراً أن الله سبحانه وتعالى مقلب القلوب كيفما شاء .

هذا التفسير الخاطئ مردود على صاحبه، موضحا ما وراء هذا التفسير من خبث مقصود ؛ ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصا على نجاح هذا الزواج مصرا على أن يؤتى ثماره ذرية طيبة يكون منها ومن الذرراى التى تخرج من بابها إلى الناس ، ما يقضى على عادات الجاهلية وأعرافها من التفرقة العنصرية، وما يطمر عصبيتها النتنة، وعقد هذا الأمل على رضا زينب بقضائه وقضاء الله بزواجها من زيد ، وبهذا الدعاء الذى دعى به الله ، طلب أن يحول قلب زينب لما فيه تحقيق هذا المبدأ الذى يكون نبراسا للناس، فيزوجون الرجال من أمثال زيد من بناتهم أسوة بزينب بنت جحش ، نظر المؤلف إلى هذا الدعاء نظرة مريضة وتكلم عنه كأنه ميل عاطفى جارف أخذ النبى المعصوم صلوات الله وسلامه عليه .

ألا كبرت كلمة تخرج من فيه ومن أفواه أمثاله من المستشرقين الحاقدين!!!

إنه يدعى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم نظر إليها فافتتن بجمالها وقال [سبحان مصرف القلوب] ويعنى بذلك أنه طلب من الله صرف قلبه عن حبها (!!) .

إن هذا الادعاء من مثل هذا المؤلف محض هراء .. يكشف عن عاطفة مريضة تكمن فى صدره تجاه هذا النبى العظيم ، وقد أعمته هذه العاطفة عن حقيقة هذا الدعاء التى هى واضحة وضوح الشمس فإنه عليه الصلاة والسلام عبر بذلك عن رغبته أن يحول الله قلب إبنة عمته من كراهيتها لزيد .إلى حب يتمكن من قلبها تصلح به حياتها مع زوجها زيد ابن حارثة لتنشأ عن هذا الزواج أسرة تقوم على دعامة قوية من الإيمان بالله والشعور الحقيقى بأنه لا فرق بين أبيض وأسود ولا خادم ومخدوم إلا بالتقوى .

وأعمته هذه العاطفة السلبية من بغضه الشديد لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى نسى التاريخ ... الذى هو متخصص فيه .

فالتاريخ يقول : إن وقائع هذه القصة التى تشهد لهذا النبى العظيم قد

حدثت فى وقت كان قلبه مثقلا بهموم الدعوة الإسلامية، وعقله كان مشغولاً بترتيب صفوف المسلمين واعدادهم للدفاع عن الاسلام الذى أصبح هدفا لاعدائه المتربصين به ، الذين لا يتركون حيلة يتوقعون نصرا ولهزيمة المسلمين والقضاء على هذا الدين إلا احتالوا بها بغيا وعدوانا .وهو عليه الصلاة والسلام مع كل ذلك يجاهد أن ينسج من ذات قلبه خيوط المجتمع الإسلامى الذى مازال فى طور التكوين وهو يريد أن يكون هذا النسيج قويا يصمد أمام تيارات العنف والكراهية البادية من غير المسلمين ، ويحقق به ما هو يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، فكان عليه الصلاة يتحرى أن يكون تنظيم هذا المجتمع يقوم على الحب وينبذ الصراع، ويقوم على العدل وينبذ الظلم ، ويقوم على التعاون على البر والتقوى وينبذ التعاون على الاثم والعدوان، ويقوم على الحق وينبذ الباطل. مجتمع يكون جديراً بحمل هذه الرسالة التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور .أى أن هذا المجتمع المنشود سيكون فى المستقبل القريب هو المثل الأعلى للبشرية كلها ليصحح مسيرتها .. ويهديها إلى الصراط المستقيم .

كل هذا وأكثر منه وأعظم كانت أمواجه البيضاء من غير سوء تتفاعل فى قلبه الكبير عليه الصلاة والسلام .

ثم إن الظروف الاجتماعية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا الوقت تقول : إنه كان لديه ثلاث زوجات من حرائر قريش ومن القمة فى نسبها والذروة فى حسبها هن أمهات المؤمنين سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر أحب زوجاته إليه وحفصة بنت عمر رضى الله عنهن ، والعجب العجاب أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سنه فى ذلك الوقت الرابعة والخمسين.

أو من كانت ظروفه على هذا القدر من الخطر العظيم يندفع وراء غريزة أو عاطفة تحتل مكان هذه الهموم وهو عنده ثلاث زوجات؟! .

إننا نطرح هذا السؤال على كل ذى عقل سليم ، وعلى كل من كان له قلب

أو ألقى السمع وهو شهيد ، ونعلم الإجابة العادلة وهى أنه عليه الصلاة والسلام قد حاز من صفات الكمال والجلال ما يسمو به فوق هذه الأراجيف ، فهو الذى تم معناه وصورته .ثم اصطفاه نبيا بارى النسم ، ويشهد بذلك شاهد عيان لا يتصور فيه أى مراء أو جدل من قوم يعقلون .

هذا الشاهد هو زواجه من أم المؤمنين سيدة نساء العالمين خديجة رضى الله عنها الذى استمر ثمانية وعشرين عاما منها سبعة عشر عاما قبل البعثة ، وأحد عشر عاما بعد البعثة لم يتزوج معها زوجة أخرى، مع أنه تزوجها وهو فى سن الثالثة والعشرين ، يتمتع فيها بقوة الشباب وموفور الصحة وجمال القسمات، وكما وصفه الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل عليه رحمة الله فى كتابه "حياة محمد "فى صـ٣١٨ :الذى قال:

[فهو قد تزوج خديجة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره، وهو فى شرخ الصبا وريعان الفتوه ووسامة الطلعة، وجمال القسمات وكمال الرجولة ، ومع ذلك ظلت وحدها زوجه ثمانية وعشرين سنة حتى تخطى الخمسين هذا على حين كان تعدد الزوجات أمر شائعا بين العرب فى ذلك العهد، وعلى حين كان لمحمد مندوحة فى التزوج على خديجة، إذ لم يعش له منها ذكر، فى وقت كانت توأد فيه البنات، وكان الذكور وحدهم الذين يعتبرون خلقا، وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثته واحدى عشرة سنة بعدها وهو لم يفكر قط فى أن يشرك معها غيرها فى فراشه، ولم يعرف عنه فى حياة خديجة، ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب] .

انتهى كلام الدكتور هيكل

أو من كانت سنه خمسا وخمسين سنة ومعه ثلاث زوجات منهن أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة وهو مهموم بأمور الدعوة والدولة ، ومهموم بما بينه وبين الله سبحانه وتعالى، وهموم الوحى والقرآن والذكر الحكيم .

أو من هذا شأنه تسيطر عليه غريزة أو تستهويه مظاهر ؟

إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم العظماء فى الرجال، وأعظم القادة فى القيادة ...وأعظم العباد فى العبادة ....والله جمع له ذلك كله وأكثر منه فى قوله عز من قائل فى الآية الرابعة من سورة القلم :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

إن تكامل أخلاقه، وتناغم شمائله ، وعلو مكانته ، واكتمال عظمته، كل ذلك أعلى من قدره قبل بعثته، حتى لقبه الناس بالصادق الأمين، وعلى هذا فإنه دائما كان يتعالى على الجرى وراء الشهوات، ويهتم بمعالى الأمور ، فكيف يهوى إلى هذه النزعة وهو الآن النبى الأكرام والرسول الأعظم الذى يأخذ بأيدى مجتمعه إلى أعلى مراتب العظمة، ليصبح هذا المجتمع رائدا من رواد الحضارة الأمناء ويغسل عن وجوه الناس تراب السجود لغير الله، ويضئ هذه الوجوه بنور السجود لله رب العالمين ؟.

لقد كان فى شرخ الشباب وريعان الصبا ، ومعه زوجة واحدة هى الطاهرة أم المؤمنين خديجة، وهو لم يبعث بعد نبيا ورسولا واحتك بمجتمع مكة ، وتعامل مع أفراده الذين اكتشفوا فيه كنوز الأخلاق من العفة والصبر والصدق والأمانة فلما احتدم النزاع بين القبائل من قريش على الحجر الأسود أى قبيلة تحظى بوضعه فى مكانه من بناية الكعبة بيت الله الحرام ، وكاد يحدث قتال بينهم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول من يقدم عليهم فكان أول من دخل عليهم هو محمد بن عبد الله فهتفوا جميعا فى وقت واحد (لقد جاء الأمين) . وحكوا قصة الخلاف بينهم، فوضعَ الحجر فى بردته وأمر كل كبير قبيلة أن يأخذ طرفا من أطراف البردة فحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم تناوله من البردة ووضعه فى موضعه، وحسم بذلك الخلاف الناشب بينهم والقتال الذى

كان يهدد بسفك الدماء فقد ذهب شبحه إلى غير رجعة وسلم القوم وبنيت الكعبة البيت الحرام .

ما الذى جعل القوم يفرحون به عندما قدم إليهم ويهتفون فى صيحة واحدة فقالوا (هذا الأمين رضينا بحكمه) . . لقد كان فيهم من هو أسن منه .

ولكنهم فضلوه لما هو ثابت لديهم من نزاهته وحيدته وصدقه وأمانته ، فاجتمعوا على تحكيمه ، ورضوا جميعا بحكمه ، فكيف يتصور أن يسقط هذا الرجل العظيم ، هذه القلائد والنياشين من مكارم الأخلاق التى حلاه الله بها منذ طفولته إلى ريعان شبابه وكمله بها وكملها به وجمعها كلها فى كلمات تسطع أضواؤها فتأخذ بالألباب والأبصار فى الآية ٤ من سورة القلم :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

كيف يفعل ذلك وينتزع حق زيد الذى رفعه إليه عندما خلع عليه لقب إبنه وجعل من نفسه له أبا يرث كل واحد منهما الآخر ؟

إن العقل السليم يأبى هذا ويرفضه تماماً .

إن جورج بوش قد ردد فى ذلك كلام سلفه من أعداء النبى محمد صلى الله عليه وسلم الذين دفعهم ما كانوا يعانونه من مرض فى قلوبهم ، وحقد على هذا النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن سطع النور من جبينه فاهتدى به الضالون واطمأن به الحائرون .. وعرف الإنسان طريقه إلى ربه بعد أن هدى إلى الصراط المستقيم، وإن العدل يقضى بغير ذلك ؛ إذ أنه يرفض أن يكون الحكم على رجل بالتمسك بما يردده خصومه، والاكتفاء بما يقول أعداؤه لا سيما وأنه قسيس واستاذ بالجامعة (!!) ومؤرخ يدعى لنفسه التعبير عن حكمة التاريخ (!!) .

لقد جاءت شهادة جورج بوش عرجاء ، فسقطت فى هوة الحقد والحسد وفقدت معه كل اعتبار .

أسباب تعدد زوجات النبى
صلى الله عليه وسلم
تجتمع كلها لتكون دررا غوالى تتلألأ فى تاج النبوة على جبينه

إن من الحق الصراح الذى لا يقبل الجدل أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتخذ له زوجة غير أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها طيلة حياتها معه التى استغرقت ثمانى وعشرين سنة منها سبع عشرة سنة قبل البعثة وإحدى عشرة سنة بعدها، لم يتزوج عليها وقد كانت لديه التى يسوغها وضعه الاجتماعى، وقواعد العرف فى بيئته التى تجعل قومه يشجعونه على الزواج من أى عدد .

وضمن هذه المبررات التى تجعل من زواجه من أخريات غير أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها، أن يكون له ولد ذكر حيث أن من رزقهم منها ماتوا جميعاً ولم يبق إلا بناته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . والعرب دائما يقدمون الذكر على الأنثى .

لكنه عليه الصلاة والسلام منعه من التفكير فى ذلك خلق الوفاء الذى تحلى به وحكم سلوكه الشريف حتى التحق بالرفيق الأعلى من الجنة .

وما دام الأمر كذلك فما الذى دفعه إلى أن يتزوج هذا العدد من أمهات المؤمنين؟

والإجابة على هذا السؤال لا تكلف الذى يقرأ تاريخ هذا النبى صلى الله عليه وسلم أى جهد .

أولا : نقرأ الآيتين الشريفتين ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

وعندما نقرأ هذه الآيات تتكشف لنا حقيقة جلية تأخذ بالأبصار ، وهى أن حياته صلى الله عليه وسلم ملك لله وحده لا يشاركه فيها سوى الله ولا هو نفسه يملك من أمرها شيئا.

وعلى ذلك تكون حركة حياته كلها محكومة بأمر الله سبحانه وتعالى ونهيه ، ولا مجال لاجتهاد النبى فى أى أمر من أمور حياته صلى الله عليه وسلم. لا فى الزواج يملك أمر نفسه فالله سبحانه وتعالى هو الذى يزوجه، ولا فى الإعراض عن الزواج ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى ينهاه عن الزواج فى أى وقت يريد، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسمح له بالنوم فينام ويأمره بالقيام فينفذ أمر ربه مهما كلفه ذلك من جهد وعناء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾

(سورة المزمل)

لماذا هذه القيود على حركة حياته نوما ويقظة وحركة وسكونا؟

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾

(سورة المزمل)

هذا القول الثقيل هو القرآن الكريم بما يتضمنه من قواعد الإسلام وأحكامه فى العقيدة والشريعة والأخلاق وكل ذلك هو مقيد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه، الله وحده هو الذى يختار له، وهو عليه الصلاة والسلام عليه أن يتلقى إرادته ويتقبلها بقبول حسن ، ويسخر كيانه كله فى تنفيذ ما تقضى به هذه الإرادة العليا بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد له من يصاحبه ومن يصادقه ، ومن يعاديه ومن يجافيه، ومن يقربه منه ومن يقصيه عنه، ومن يجالسه ومن يتجنبه فى أحكام وأوامر هو لها سميع مطيع .

والله أيضا هو الذى يحدد له سبيل الدعوة إليه وإسلوب الهداية للإسلام. ولنضرب لذلك الأمثال من القرآن الكريم حتى نكون على بصيرة من الأمر وبالله التوفيق إنظر معى أيها القارئ هذه الآيات القرآنيه وسأترك لك أن تكتشف ما أردت أن أجليه فى هذا المقام .

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة الكهف)

إنه سبحانه وتعالى يحدد له نوعية الأصحاب ، ويأمره بالصبر فى صحبتهم والتعامل معهم ، ويحدد له المعاملة التى يعامل بها المخالفين له مهما كانوا من علو المنزلة وغزارة الثروة ويأمره سبحانه بأمر ملزم له بالكيفية التى تكون عليها ثيابة .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة المدثر)

وينهاه عن طرد الضعفاء والفقراء من مجالسة علية القوم حتى يسلموا .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾
(سورة الأنعام)

بل إنه يوضح له حكمته سبحانه وتعالى وهي الحكمة وراء اختلاف طبقات الناس ، ويأمره بالاحتفاء بهؤلاء الضعفاء وحسن استقباله لهم إذا جاءوه فيقول فى الآيتين التاليتين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذا كله فيما يتعلق بالدين الذى يدعو إليه وهو الإسلام فانظر معى كيف يحدد له السبيل فى أمور دنياه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

اختار لنبيه حياة تعلو فيها الروح على المادة ، فهى حياة البسطاء من الناس من بيت متواضع بسيط ومن طعام فى متناول الفقراء، ومن ثياب خشنة لا غلو فيها ولا افتخار. ومنع عنه حياة القصور الشاهقة التى تعج بما فيها ومن فيها من النعم والرياش، والتنعم والتبهرج .

حتى ضجت بعض نسائه من شدة العيش فأمره سبحانه وتعالى أن يخيرهن فى البقاء معه على ما فى هذه الحياة من فقر وشظف، وتناوب العسر واليسر أو يطلقهن ليجدن ما ينشدنه من ترف ولين .

لكنهن بادرن إلى الرضا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ولو أنى تابعت معك أيها القارئ ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تحكم سلوك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أمر دينه ودنياه لما استطعنا أنا وأنت أن نحصيها فى هذا المقام فليكن لكل مقام مقاله.

وسأختم الكلام معك أيها القارئ فيما نحن بصدده بهذه الآية رقم٥٢ من سورة الآحزاب:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

فهذا حكم من الله سبحانه وتعالى يمنعه تماما من الزواج بعد نزول الآية منعا مطلقا. والبقاء مع من تزوجهن فقط ومع ما ملكت يمينه مهما كان عددهن فالزواج محرم عليه.

وهذا الحظر يخص النبى محمد صلى الله عليه وسلم بينما نجد أن المسلم العادى له أن يتزوج العدد الذى يرغبه من النساء مهما كثر ، وكل ما يلزمه الشرع الحكيم به أن يُبقى على ذمته أربع زوجات فقط وكل ذلك يشهد أن كل امور سيدنا رسول الله، وكل حركة حياته من طعام وشراب وزواج حتى النوم والراحة كل ذلك يحكمه فيه أمر الله ونهيه.

ولذلك نقرر فى طمأنينة أنه لم يتزوج زوجة واحدة من تلقاء نفسه أو باختياره هو لنفسه ، وإنما كان ذلك بأمر من الله ونهى منه سبحانه وتعالى فهو الذى أمره بالزواج من نساءه جميعاً رضى الله عنهن ؛ ولأن فى الزواج منهن مردود جميل على دعوة الإسلام بالنمو والأزدهار.

فى ضوء ما تقدم نستأذن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تناول قصة زواج كل زوجة منهن وكل قصة على حدة .

أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها

وهى السيدة / خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى يلتقي نسبها بنسب النبي ﷺ فى الجد الخامس قصى بن كلاب، وهى أقرب أمهات المؤمنين إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى النسب، من الذروة فى نسب قريش، والعظمة فى الشرف والغزارة فى المال.

وقد ميزها الله بملكات تكتمل بها شخصيتها جمالا وكمالا ورجاحة عقل ومقومات فى شخصيتها، جعل ذلك كله الارتباط بها زوجة، محل طموح أكابر القوم فى قريش.

كمّلها الله سبحانه وتعالى وجملها بأكرم مكارم الأخلاق، وزودها بقدر من الذكاء ميزها عن كثيرين من نساء قريش، وبقدر من صفاء الروح وصفاء القلب ما مكنها من اكتشاف كنز الأخلاق الكريمة المركوز فى شخص سيدنا محمد، فقرأت فيه التميز الذى يعلى قدره فى الناس، وأبصرت بنور قلبها ونفاذ بصيرتها جوهرة النبوة تتلألأ فو جبينه، فاستقر فى وجدانها أنه نبى آخر الزمان، فانتظرت بعثته نبيا ورسولا، ولما يكن قد أوحى إليه، فلما قصى عليها نبأ الملك جبريل ونبأ اقرائه له القرآن فى سورة العلق.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (سورة العلق)

أشرقت روحها بنور ربها مع شروق شمس الحقيقة فى صدرها، وشمس الفطرة فى قلبها، فأرسل كل ذلك أضواءه تتفجر على لسانها نورا من نور الكلمات وأشعة من أشعة الإيمان نقشت على جدار الأزل والأبد هذه الكلمات :
[أبشر يا ابن عم واثبت. فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.. ووالله لن يخزيك الله أبداً] .

ما هذا الذى نطقت به أم المؤمنين إنه يسمو إلى درجة الإلهام الذى حبا الله سبحانه وتعالى به أم نبيّ الله موسى عليه السلام وتحدث عنه القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

وهو من نوع الالهام الذى تلقته أم نبى الله عيس عليه السلام مريم بنت عمران عليها السلام وهى سيدة نساء العالمين .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

ألهمها الله فأشارت إلى وليدها فنطق كلمات الحق، فاستبان هذا الحق وأضاء المكان والزمان وكذلك أم المؤمنين خديجة تلقت هذا الإلهام الربانى فتفجرت على لسانها أضواء الحكمة وفصل الخطاب ، ألا رحم الله أم المؤمنين خديجة وجزاها عن نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم وعن الاسلام والمسلمين خير الجزاء وأوفاه.

ألا ترى معى أنها جديرة بالبشرى التى تضئ حروف هذا الحديث الشريف وكلماته؟

روى الشيخان بإسنادهما إلى أبى هريرة رضى الله عنه قال : (أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك : فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب) إن كل من يقرأ هذا الحديث، ويذكر اسم أم المؤمنين خديجة ولا يقرئها السلام، يحرم خيراً كثيراً .

السلام ثم السلام ثم السلام عليك يا أمنا الكبرى خديجة ، ورحمة الله وبركاته السلام عليك فى العالمين .

ولما كان فضل أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها قد الجم هذا المؤلف، وحال بينه وبينها فلم يسئ إليها. فإنا نكتفى بهذا القدر من الحديث عنها وانتظار اليوم الذى بنعم الله علينا فيه بالهامه لنا بافرادها بكتاب نتشرف فيه بالحديث عنها مطولا بما يريح المعانى والمشاعر فى قلوبنا، ونظن به أن الله سبحانه وتعالى قد جاد علينا بغرز الوفاء لها فى وجداننا والله المستعان .

٢ - أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها

هى أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبدون بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر، فهى قرشية وأمها "الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد، كانت قد تزوجت من السكران بن عمرو أخى سهيل بن عمرو ، فتوفى عنها، فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم بمكة، بعد وفاة أم المؤمنين خديجة لأسباب إنسانية بحتة ، أثمرتها ظروف اجتماعية أحاطت بها، وإذا أضيفت إليها ظروف تتعلق بشخصها فإنها - وكل الصالحين من عباد الله معها - لم يكن لها من مخرج من الآثار المترتبة على ترملها ، إلا أن يتزوجها

النبى صلى الله عليه وسلم فكان زواجه عليه الصلاة والسلام أمنًا لها، وضمانة لصونها وحمايتها من فقر مدقع يهددها .

ومن أولى من النبى صلى الله عليه وسلم بإقالة عثرتها وتأمين حياتها وهى الحرة القرشية المؤمنة الصابرة المحتسبة، المهاجرة الهجرة الأولى إلى الحبشة مقتسمة المعاناة والمشقة لزوجها السابق السكران بن عمرو الصحابى الجليل ؟

لقد كانت بحق أجدر النساء بالتقدير، وأجدرهن بالرعاية المحمدية والعناية النبوية، فغسل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحزان عن قلبها، وأزال الخوف والقلق من صدرها... فتزوجها كريمة عزيزة أمًّا للمؤمنين...

ولما كانت هذه السيدة الجليلة كبيرة السن ؛ فإنها تنازلت عن ليلتها لأم المؤمنين عائشة راضية ومكتفية بأن تكون زوجا للنبى صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة ، وهذا الذى فعلته يشكل صفعة للحاقدين من المستشرقين الذين غالوا فى وصف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه كان مدفوعا بعاطفة أو شهوة فى زواج تم بينه وبين إحدى أمهات المؤمنين. وأول هؤلاء المدعين بغير سند تقوم عليه دعواهم هو جورج بوش مؤلف كتاب (حياة محمد مؤسس الإسلام ومؤسس الأمبراطورية الاسلامية) الذى نحن بصدد هدم كل ما قاله عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ - أم المؤمنين سيدتنا عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها

تعتبر هذه السيدة الجليلة ثالثة زوجات النبى صلى الله عليه وسلم من حيث ترتيب دخولهن فى عصمته الشريفة صلى الله عليه وسلم. وقد جاء زواجه منها فى الوقت المناسب فعلا من حيث صلاح بشريته صلى الله عليه وسلم، وصلاح الدعوة الإسلامية، التى حمَّلها الله سبحانه وتعالى له بلاغا وجهادا ودفاعا عنها

وانتصاراً لها ، ومن حيث صلاح أمر المسلمين مهاجرين وأنصاراص، وهذا فى ذاته دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتولى بذاته تزويج نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم دون تدخل منه، بل هو فى هذا المقام عبد لله يطيع أمره ويذعن لحكمه، ونبى ورسول يطيع أمر الله الذى بعثه بالحق نبيا، ويعلم من أمره ما يصلح شأنه ويصلح شأن ، الدعوة التى يتحمل أعباءها ويصلح عليه أمر المسلمين. فهو فى أمر زواجه ليس عليه إلا البلاغ .. يبلغ من يصاهره أو من يعرض عليها الزواج بما أراده الله منهما من الزواج والمصاهرة والله سبحانه وتعالى ، يتم له هذا الأمر بذاته عز وجل ويقذف فى قلب الزوجة ووليها الامتثال لأمره سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) ﴾

(سورة القصص)

والذى يتتبع قصة زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها يتيقن تماما أن هذا الزواج تم بحكم من الله عز وجل بتنفيذه صلح أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشريته ، وفى الاسلام وفى صالح المسلمين حتى تقوم الساعة ويقوم الناس لرب العالمين. ويتيقن المتأمل أيضا أن هذا هو السبب فى حب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه السيدة الجليلة العظيمة التى تكاملت فى شخصها أسباب العظمة، واجتمعت فى شخصها دواعى الجلال والإجلال، لأن المسلمين يدينون لها بدين فى عنق كل واحد منهم حتى قيام الساعة بما ينفعه فى دينه ودنياه ، قدمته له صافياً رائقاً كما علمها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الشأن بالنسبة لكل مسلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكيف لا يكون ذلك وكتب الفقه تطوى فى حناياها هذه الكلمات التى

تسطع لتضئ الزمان والمكان على مر الدهور والأعلام (خذو نصف دينكم عن هذه الحميراء) رضى الله عنها وعن والديها وأخوتها وإخواتها وآل الصديق أبى بكر رضى الله عنهم جميعا حتى يقوم الناس لرب العالمين .

فاضت هذه الكلمات عن قلبى لعلها تشفع لى عند سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند حبيبه وصديقه وصاحبه فى الغار، وثانى الاثنين أبيها أبى بكر الصديق إذا تطلعت أن أسطر كلمات فى حق أميرة الفقه، ومالكة زمام اللغة ومالكة الفصاحة والبيان ، والحائزة لمكارم الأخلاق ومجامع الإيمان ومحاسن الإسلام، وأشرف القيم ، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته الكريمة وأم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق .

فليأذن لى سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم (!!) وإنى والله ما حملنى على هذا إلا حبى له عليه الصلاة والسلام وغيرة تولدت عن هذا الحب مشتعلة فى وجدانى، وتدفعنى إلى كتابة ما تمليه على ، أقدمه شراباً للقراء تتفتح من ريه زهرات الإيمان فى قلوبهم ، وتزدهى ورود حبه وحب أهل بيته فى وجدانهم ... فتطيب بذلك حياتهم وتشرح صدورهم وتضئ فى داخلهم جذوة اليقين .

فأذن لى يا سيدى يا رسول الله .. وعلى بركة الله .

من هى السيدة عائشة ؟

هى الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر الصديق عبد الله بن عثمان، وأمها أم رومان بنت عويمر الكتانية، ولدت بعد بعثة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأربع أو خمس سنوات فهى تصغر أختها السيدة أسماء التى كانت نجما من النجوم التى تلألأت فى ليالى هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت أحب أزواج النبى صلى الله عليه وسلم إليه ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام عن السبب فى ذلك ذكر حبه لأبيها سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

وقصة زواجها من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبدأ بما رواه الأمام البخارى والأمام مسلم رضى الله عنهما ,صحيح البخارى مع فتح البارى. كتاب التعبير باب ثياب الحرير. فى المنام [١٢ / ٣٩٩] وصحيح مسلم مع شرح النووى كتاب فضائل الصحابة باب فضل أم المؤمنين عائشة [١٥-٢١٢] حديث ٢٤٢٨ واللفظ له : قالت سيدتنا عائشة

[قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أريتك فى المنام ثلاث ليال، جاءنى بك الملك فى سرقه من حرير فيقول : هذه أمرأتك فأكشف فإذا أنت هى. فأقول : إن يك هذا من عند الله فليمضه] .

وإنى سأشرف بنقل شهادة الله ربنا وربها وكفى بالله شهيداً التى وردت فى القرآن الكريم بادئاً بذلك الحديث عن مناقبها الشريفة ، فالبدأ فى هذا المجال بكلام الله أولى .

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة النور الآيات من ١١ - ٢٦ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ

﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ
ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي
مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ
وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ
ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾
يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ
ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ
وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ (سورة النور)

ولقد بدأت فى الحديث عن فضائل أم المؤمنين عائشة بهذه الآيات ؛ لأنها كلام الله العلى الأعلى حتى أطرد بأنوارها وساوس الشيطان من عقل وقلب كل من يقرأ كتاب جورج بوش أو كتب غيره من المستشرقين وما جاء فى أقوال ذوى النفوس المريضة والعقائد الزائفة من أدعياء الإسلام والمنافقين والذين أشار إليهم جورج بوش من خلال عبارته المسطره فى ٤٠٩ بالفصل السادس عشر من كتابه المشئوم. [ولم تزل هذه الوصمة عن عائشة حتى الآن] .

وهو فى كلامه يشكك فى إخلاص سيدتنا عائشة وقد بدأها الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات البينات بحكم فاصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وعلى ذلك فإن الذى يشك فى براءتها مثقال ذرة من الشك ، فإنه يكون قد كذب الله، فهو مرتد عن الإسلام كافر بالله سبحانه وتعالى مستحق من الله العذاب الأليم ؛ لأنه أنكر حكماً ورد من الشرع الحكيم بالضرورة.

والآن ننتقل إلى الحديث عن مناقيها من واقع الحديث الشريف

١ - كان سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها حبًا متميزاً انفردت به عن بقية زوجاته الطاهرات وضمن اسباب هذا التميز هو أنها بنت سيدنا الصديق أبى بكر رضى الله عنه.

روى الإمام البخارى (البخارى مع فتح البارى كتاب المغازى باب غزوة ذات السلاسل [٨ / ٧٤] حديث رقم ٤٣٥٨) وكذلك الامام مسلم [مع شرح النووى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبى بكر حديث رقم ٢٣٨٤] .

٢ - نزول الوحى على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى لحافها دون غيرها، ومعنى هذا : أن الوحى - يعنى سيدنا جبريل بما يحمل من قرآن وأحكام وأوامر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبشريات وتوجيهات من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم لم ينزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى حجرة سيدتنا عائشة فقط دون غيرها من زوجات

النبى صلى الله عليه وسلم ومن هذا نتبين بجلاء أن الله سبحانه وتعالى تفضل على هذه السيدة الجليلة عائشة بفضل وتفضيل آثرها بهما لحكمة عنده وأحسب - والله أعلم - أن فى هذا حنانا من الله سبحانه وتعالى عليها يعوضها عن الولد أن فى هذا حناناً من الله سبحانه وتعالى عليها ، يعوضها عن الولد ويملأ قلبها بالأنس والفرحة ، إذ أنها لم ترزق ولدا من أعز من أحبّت . . زوجها الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهى الشابة الفتية وكانت بالتأكيد أحرص على الحصول على هذا الفضل. فأراد الله أن يعوضها عن ذلك بهذه النعمة العظمى وهى انفرادها بنزول الوحى على سيدنا رسول الله ﷺ فى حجرتها عطاء جميلا منه سبحانه (وما كان عطاء ربك محظوراً) .

روى الإمام البخارى بإسناده إلى هشام بن عروة عن أبيه قال :

كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة : فاجتمع صواحبى إلى أم سلمة فقلن : يا أم سلمة : والله إن الناس يتحرون بهداياهم عائشة وإنا نريد الخير، كما تريده عائشة، فمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان أو حيث ما دار، قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبى صلى الله عليه وسلم ، قالت فأعرض عنى ، فلما عاد ذكرت له ذلك فأعرض عنى ، فلما كان فى الثالثة ذكرت له فقال : « يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة ، فإنه والله ما نزل على الوحى فى لحاف امرأة منكن غيرها » (صحيح البخارى - مع فتح البارى كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة ٧ / ١٠٧ حديث ٣٧٧٥ .

ألم أقل لك أيها القارئ الكريم إن الله سبحانه وتعالى هو الذى أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزواج من أم المؤمنين عائشة وما كان من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الامتثال والتسليم لله بتنفيذ أمره ومعنى هذا أن الله قد حكم على نبيه بهذا الزواج فنفذ رضا منه وتسليما .. ! ولعل هذا هو السبب الرئيسى لحب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحب العظيم لسيدتنا أم المؤمنين عائشة.

٣ - جبريل عليه السلام يرسل السلام لأم المؤمنين عائشة ، يحمله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

روى الإمام البخارى بسنده عن أم المؤمنين عائشة :قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما :

« يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام » فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته :ترى م لا أرى . ولقد اعتبر الإمام النووى هذا فضيلة جلية لأم المؤمنين عائشة [صحيح البخارى مع فتح البارى كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة ١٥ / ٢٢١ حديث (٢٤٤٧)].

٤ - بدأ بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنها أحب نسائه إليه - تنفيذ آية التخمير رقم ٢٨ من سورة الأحزاب وما بعدها فى قوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾

بدأ بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .فلما خيّرها بادرت على الفور بإجابة حاسمة كشفت عن حبها له عليه الصلاة والسلام فقالت لما طلب منها أن تستأمر أبويها : [ففى أى هذا أستامر أبوى فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة [فاقتدت بها نساء النبى صلى الله عليه وسلم .

٥ - من أعظم مناقبها، وأشرفها عند أهل الأرض وعند أهل السماء، وفوق ذلك كله عند الله سبحانه وتعالى نزول آيات من كتاب الله والذكر الحكيم ، تجلى للعالمين عظمتها وقوة إيمانها، وثقتها فى الله خالقها وبارئها، الذى اختارها زوجة لحبيبه ومصطفاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الأعلم بها، وبقدرها العظيم عنده ، وتشهد هذه الآيات أيضا يصدقها فى اللجوء إلى الله

العليم الخبير الحكم العدل السميع البصير ، وبصبرها الذى تجاوز صبر الناس جميعا وأخذ مكانه بجوار صبر النبيين والمرسلين ، وإلى جوار صبر مريم بنت عمران عليها السلام ، لتكون بجوارها مقاما ، ورفعة وسموا ، وذلك فضل الله عليها وعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أبويها ، وعبرة لنا ونحن المحبون لها ولأبويها ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

هذه الآيات البينات رامت بها أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق مقاما عليا تغبطها عليه مريم بنت عمران عليها السلام وآسيا امرأة فرعون ، وتغبطها عليه من الأمة الإسلامية أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : (هى الآيات من ١١ إلى ٢٦ من سورة النور السابق ذكرها فى مستهل ذكر هذه المناقب نقلا عن المصحف الشريف فليقرأها القارئ من المصحف الشريف) فربما تكشف له عن أسرار أكثر مما تكشف لى ، ويستبين له منها ما لم يستبين لى فإن القرآن الكريم لا نحصى كنوزه ، وإن بركات أم المؤمنين عائشة لا تنتهى عند حد .

إن الحادث الذى نزلت هذه الآيات حاسمة لما تخلله من ظنون وأوهام، ومن شماتة وتشفى من أعداء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المتسترين وراء ضباب من معسول الكلام وهم المنافقون، ومن بعض السذج والبسطاء، ومن هبوط عانى منه بعض المؤلفة قلوبهم وضعاف الإيمان .

هذا الحادث هو حادث الإفك الذى تناوله عدد غفير من مواكب العلماء المحببين ومن المستشرقين المتحاملين منهم والمعتدلين بتفصيل يجلى الحقيقة ولو كره الظالمون .

ومهما تجنى الظالمون ، أوشمت الشامتون من أمثال چورچ بوش صاحب الكتاب المشئوم .

وإنى اكتفى بما ورد بالآيات الكريمة من ١١ إلى ٢٦ من سورة النورالسابق ذكرها : ففيها النور الذى سلطه الله سبحانه وتعالى على الإفك والأفاكين، والظلم والظالمين ، فبدد هذا النور ظلام الترهات وحطم الإفك وأهله، وقذف

بالحق على الباطل فدمغه وإن أم المؤمنين سيدتنا عائشة كانت على حق فى تقديرها للموقف إذ قالت : (لا أقول لكم إلا ما قال يعقوب لأولاده) :

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة يوسف)

نعم يا أم المؤمنين حبيبة خير النبيين.

نعم يامن ربّاك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الخلق العظيم على الوحى الشريف والقرآن العظيم .

زيدينا من علم الصبر وفقه اليقين، وإنا أمامك - إن شئت - تلاميذ مخلصون، ومن علمك وفقهك وإيمانك مستذيدون . فعلمينا يا ابنة الأكرمين وزوجة خاتم النبين والمرسلين سيدنا محمد النبى العربى الأمين عليه وعليكم أفضل الصلوات والسلام من رب العالمين .

وستبقى أجيال الصالحين على مر الزمان تستضئ بسيرتك العطرة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين

٦ - ومن بركاتها نزول آيات التيمم بسببها :

[روى الإمام البخارى بإسناده إلى عائشة رضى الله عنها أنها استعارت من أسماء ـ أختها ـ قلادة فهلكت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من أصحابه فى طلبها ، فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء ، فلما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم شكوا ذلك إليه فنزلت أية التيمم فقال أسيد بن خضير : جزاك الله خيرا ، فوالله ما نزل به أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيرا] التقريب .

٧ - كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء مرضه الذى مات فيه

يحرص على أن يكون تمريضه فى بيت عائشة ، ويذكر أهل بيته بذلك حتى سمحن جميعاً أن يمرض فى بيتها حتى وفاته صلى الله عليه وسلم بين سحر عائشة ونحرها فى يومها ، وجمع الله بين ريقه وريقها فى آخر ساعة من ساعاته فى الدنيا .

وأول ساعة من الآخرة ، ودفن ببيتها كما جاء فى كتب الحديث وفى (سير أعلام النبلاء) .

وفى رواية للإمام مسلم رضى الله عنه وفى صحيح البخارى مع فتح البارى ومسلم بشرح النووى .

٨ - بشرها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها من أهل الجنة .

روى الإمام الحاكم فى مسنده بإسناده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يارسول الله : من من أزواجك فى الجنة قال : « أما إنك منهن قالت : فخيل إلى آنذاك أنه لم يتزوج بكرا غيرى (المستدرك كتاب فضائل عائشة) .

٩ - فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

هذا حديث صحيح رواه الشيخان البخارى ومسلم .

(صحيح البخارى مع فتح البارى كتاب فضائل الصحابة - فضل عائشة : [٧ / ١٠٦] حديث رقم [٣٧٧١] .

ومسلم مع شرح النووي [كتناب فضل الصحابة باب فضل عائشة : [١٥ / ٢١٩] حديث رقم [٢٤٤٦] .

وهذا التشبيه الذى يقول به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله يقصد به وجها للشبه بين أم المؤمنين عائشة فى مكانتها وبين مكانة الثريد فى الطعام أى إنها رضوان الله عليها تفيد الناس جميعا فوائد روحية تقابل فوائد التريد للناس إفادة بدينه من حيث قيمته الغذائية وسهولة تناوله، ومساعدته لمن يتناوله فى الحصول على فائدته بسهولة ويسر ، ولا يكلف المعدة جهدا فى الهضم فى الوقت الذى يمد الجسم بسعرات حرارية متفوقة تقوى الطاقة والجهد

على السعى على الرزق وجلب الخير للذى يطعمه ولأهله ولولده ، وبالمثل تفعل سيدتنا عائشة للناس تمد أرواحهم بالغذاء الروحى من العلم والفقه ، وتعلمهم أمور الدين ، فتصح عبادتهم ، وتنتعش أرواحهم، ويربوا الإيمان فى قلوبهم ويعبدون الله على بصيرة، تضع أعمالهم فى مكان القرب من الله على رجاء القبول ، فيسعدون بإيمانهم وأعمالهم وتطيب لهم دنياهم وأخراهم ، وأمهم عائشة متربعة على كرسى الفضل من الله ، وعلى قمة التفضيل من جانب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإنى أعجب من بعض العلماء وهم يفضلون بعض نساء أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على بعض ، ويعلون من قدر واحدة منهن على الآخرى ، ويستندون فى ذلك إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة.

وإنى أفضل ترك هذا الأمر لله سبحانه وتعالى ولسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله هو الأعلم بخلقه وهو الذى يحسب وكفى به حسيبا ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حده الذى يعلم من علم الله قدر كل زوجة من زوجاته ، وقدر كل بنت من بناته ، وقدر كل واحد وكل واحدة من أهله وما علينا إلا أن نأخذ من سيرته ومن سيرة أهل بيته الدرس والعبرة، وأن نتأسى بهم جميعا، ونقتدى بهم فى فعل الخير وتجنب الشر، ونصلى ونسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أهل بيته نساء ورجالا فى كل ثانية نحياها ، وفى كل مقام نكون فيه ، وفى كل مكان نتحرك فيه أونسكن.. هذا ما يجب علينا وفيه التسليم كل التسليم لله رب العالمين.

أما بعد ..

فهذه أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها فى عين الله سبحانه وتعالى أولا وفى عين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وفى عيون الصالحين من عباد الله فى الأرض وفى السماء ، وفى الملأ الأدنى وفى الملأ الأعلى.

وهى تشرف على العالمين من شرفات الغيب تحمل كتابها بيمينها تتلألأ حروفه بأنوار الحق، وتضئ صفحاته أرجاء الوجود ، تزخر بجلائل الأعمال، وتعطر الكون بأسمى الخصال ، وتنادى هى الدنيا كلها من شرفتها تملأ آذان العالمين وقلوبهم وعيونهم وأفئدتهم بكلمات هى الحق كله ، وهى الخير كله، وهى العدل كله وهى البر كله. وهى الخير للعالمين وهى تنادى بصوتها القوى أعلى ما يكون، تخاطب كل الناس أيها الناس، وتنادى العالمين أيها العالمون .

نحن أهل البيت :

نادانا الله نداء الحق، وبقول الحق، نداء فاض على كل شئ فى العالمين أذلا وأبداً ؛ بل هو خاطبنا خطابا تهتز له السموات السبع ، وتهتز له الأرض ، وتخشع له الجبال ، فقال لنا :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)

وهو الله الذى اختارنى زوجة لرسوله صلى الله عليه وسلم كما أختاره رسولا إليكم واصطفاه نبيا أيها الناس:

او من كانت صحيفتها هذه التى قرأتم، وكان كتابها الذى تصفحتم، وكانت سيرتها كما عرفتم؟ ومن كان حالها كذلك تعرف الخطيئة أو يعرف الشيطان لها طريقا ؟ اسألوا ضمائركم.. واتركوا وساوس الشيطان.

حكاية أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها

مع الإمام على كرم الله وجهه ورضى الله عنه

زعم جورج بوش متضامنا مع غيره ممن يجهلون طبيعة الاثنين، ويجهلون مأرباهما عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها حضرت لهزيمة الإمام على وأنها أعدت الجيش لمحاربته لتنصر معاوية بن أبى سفيان.

وهذا فى نظرى محض افتراء لا يصمد امام البحث العميق لقد استدلوا على ذلك بمقولة تزعم أنها حضرت موقعة الجمل ..وقد سميت هذه المعركة بموقعة الجمل نسبة إلى الجمل الذى كانت قد ركبته ووصلها لأرض المعركة ، وإنى أرى معاوية بن أبى سفيان وأنصاره قد استخدموا حضور السيدة عائشة إلى أرض المعركة ، ففى استخدامهم لقميص أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد القرآن. فهم أعلنوا أن أم المؤمنين عائشة قد جاءت لتحارب عليا لتصفية حسابات بينهما ، ولتشفى غلا طوت عليه قلبها ضده .

هذا إذا سايرنا القائلين بحضورها المعركة .

وإنى أو عز سبب حضورها إلى أرض المعركة إلى رغبة منها صادقة فى إطفاء نار الفتنة بصلح يقع بين الإمام على ومعاوية بن أبى سفيان ..وذلك بعد أن أفزعها قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، الذى وقعت فيه جموع المؤمنين فى فتنة ..أحرقت براعم الاستقرار فى قلوبهم ، وشغلتهم عن مصلحة المسلمين، ومصلحة الدين، دفعها إلى ذلك علمها بمكانتها عند طرفى النزاع وهما الإمام على رضى الله عنه ومعاوية بن أبى سفيان.

وإذن حضورها إلى أرض المعركة لا يعنى الكيد للامام على رضى الله عنه ولا نصرة لمعاوية ، وإنما هو رغبة فى حقن دماء المسلمين ، لا سيما ومنهم صحابة أجلاء يتقدمهم الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله وغيرهما من خيار الصحابة ، وأحباب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا هو المثل الأعلى

الذى تستجيب له أم المؤمنين عائشة ، وليس التدنى إلى الضغينة والحقد اللذين يوقد نارهما الشيطان ، وإنهما رجس من رجسه الذى نزهها الله عنه بمحكم القرآن الكريم .

بريئة أنت يا أم المؤمنين مما زعم هؤلاء المتخبطون .. الضالون فى أولهم وآخرهم ، ومنهم جورج بوش القسيس أستاذ التاريخ.

بريئة أنت والله يا ابنة إمامنا وإمام المؤمنين فى حب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بريئة أنت يازوجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ربَّاك على أخلاق الإسلام ومثله العليا ملأ بها قلبك ، وشغل بها وجدانك وأنار بها عقلك ، فتطهرت قلباً ، وصفوت وجدانا ، ورشدت عقلا ، وسددت قولاً ، سلمت موقفاً وسعدت دنيا وأخرى والله ذو الفضل العظيم .

وأدعو الله يا سيدتى أن يأخذ بيدى ويهبنى الوقت والجهد ، ويرزقنى التوفيق والرشد لأفرد لك كتابا يكون كله وإظهارا لما أولاك الله من نعم عليك وعلى الناس ، إنه سميع مجيب وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ولجورج بوش أن يلعق ما طفح منه من قوله من أن : أم المؤمنين عائشة خرجت على رأس جيش لتحاربه ، ولم تنجح حملتها لكنها استطاعت أن تجد الوسائل لإثارة الفرقة بين اتباع على وانفضاضهم عنه مما أدى فى النهاية إلى دماره ودمار أسرته .. ألا فيلعق جورج بوش هذا الكلام ويعيده إلى صدره فليس له مكان فى عقول الناس ولا فى صدورهم (!!) وسلام على أم المؤمنين عائشة فى العالمين .

الفصل الخامس

رؤيا حزقيال

وصلنا فى الفصل السابق إلى نقطة التماس بين ما كتبه المؤلف فى كتاب [محمد مؤسس الدين الإسلامى ومؤسس امبراطورية المسلمين] وكعابه [وادى الرؤيا في تفسير رؤيا حزقيال أو إحياء عظام بنى اسرائيل. هلى يتحول اليهود للمسيحية كشرط لعودة المسيح ؟] وما هو وارد فى الإسلام [من القرآن والسنة] ومركز تماما فى فكر ووجدان وعقل وقلوب المسلمين بشأن بنى إسرائيل ، حيث لا يكون التماسًا هادئاً بل يتحول إلى انفجار كبير تولد على أثره دولة إسرائيل (!!!) وهذا الانفجار فى ذاته يلقى مسئولية عظمى على كل مثقف فى العالم سواء كان معاصر للأحداث أو مشتركاً فى صنعها ، أو متابعاً لها من بعيد أو قريب أو مؤثرا فيها أو متأثرا بها ، أو بطلا من أبطالها ، أو متفرجا عليها ، وسواء كان مسلماً أو يهودياً أو مسيحياً أو دينياً .. أو ملحداً. لأن العامل المشترك من كل هذه النوعيات المختلفة هو الإنسانية حيث أنه فى هذه الحالة إنسان يسمع ويرى. فهو فى جميع أحواله مسئول عن كلمة حق يقولها إذ ربما يكون فى النطق بها حياة حمامة السلام ، وفى السكوت عنها تعشش غربان الحرب لتقتل حمامة السلام ، وينفجر الكون كله انفجار الموت والفناء ، ونعوذ بالله من أن يحدث على مرأى منا ومسمع ، ونسأله سبحانه أن يحيى على الأرض روضة الحب والسلام . (وأستأذن القارئ الكريم أن أدخل فى صحبته وادى الرؤيا حتى نعرف سويا حقيقتها على هدى من نور الحق والحقيقة ، لنكون معا على بصيرة ، فلا نضل ولا نخزى ، وفى هذا البحث سأنقل الرؤيا كما وردت فى كتاب جورج بوش ، لأنى معنى بدراستها على حالتها التى تراءت للمؤلف وبنى عليها نظريته . دون الحالة التى وردت عليها فى أناجيل أخرى. مكتفيا بذلك خشية الإطالة التى تحدث الملل عند القارئ ، وطمعا فى أن نصل سويا إلى الحقيقة من أقرب طريق .

الرؤيا كما وردت فى الكتاب

تفسيرات الفقرات من ١ إلى ١٤

من الإصحاح ٣٧ سفر حزقيال

الرؤيا :

١- وكانت يد الرب على فأحضرتنى بالروح إلى وسط

٢- واد ملئ بعظام وجعلنى أجتاز بينها وحولها واذا بها كثيرة جداً

٣- تغطى سطح أرض الوادى كما كانت شديدة اليبوسة .

فقال لى يا ابن آدم : أيمكن أن تحيا هذه العظام ؟! فأجب :

٤- يا سيد الرب «أنت أعلم. لى مرة أخرى تنبأ على هذه العظام وقل لها «أيتها العظام اليابسة اسمعى » .

٥- كلمة الرب ، ها أنا أجعل روحا يدخل فيك

٦- فتحيين، وأكسوك بالعصب واللجم ، وأبسط عليك جلدا، وأجعل فيك روحا (أو أنفخ فيك) فتحيين (فستحيين) .

٧- وتدركين أنى أنا الرب (وستعلمين أنى أنا الرب) .

٨- وفيما كنت أتنبأ كما أمرت، حدث صوت جلية وزلزلة، فوجدت أن العظام تقاربت كل عظم إلى عظمة ، واكتست بالعصب واللحم ، وبسط عليها الجلد لكن لم يكن فيها روح (نفس)

٩- فقال لى : « تنبأ للروح : يا ابن آدم : وقل هذا ما يأمر به السيد الرب، هيا يا روح أقبل من الرياح الأربع ، وهب على هؤلاء القتلى يحيوا » .

١٠- فتنبأت كما أمرنى الرب فدخل فيهم الروح فدبت فيهم الحياة واتنصبوا.

١١- جيشا عظيما جدا جدا ثم قال لى : يا ابن آدم هذه العظام هى جملة شعب إسرائيل .

١٢- ها هم يقولون : قد يبست عظامنا ومات رجاؤنا (أوضاع رجاؤنا وانقطعنا . لذلك تنبأ وقل لهم هذا ما يعلنه السيد الرب ، ها أنا أفتح قبوركم وأخرجكم منها يا شعبى وأحضركم إلى أرض اسرائيل) .

١٣- فتدركون (فستدركون) أنى أنا الرب حين أفتح قبوركم يا شعبى وأخرجكم يا شعبى من قبوركم.

١٤- وأجعل روحى فيكم فتحيون (فستحيون) وأردكم (وسأردكم) إلى أرضكم فتدركون (فستدركون) أنى أنا الرب ، قد تكلمت وأنجزت ما وعدت به يقول الرب .

إن الموت والحياة وجهان لحقيقة واحدة أذلية أبدية : هى سنة الله فى خلقه، ليظهر منها للعيان أن الله على كل شئ قدير ، وأن قدرة الله سبحانه وتعالى قدرة مطلقة لا يحدها حد، ولا يقف دونها حائل يحول دون تأثيرها فى الوجود .

١ -

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾

(سورة تبارك)

٢ -

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾

(سورة الإنسان)

ولقد كانت مسائل الخلق ، والحياة، والموت ، والبعث (وهو الحياة بعد الموت) كل ذلك كان مثار أسئلة الإنسان فى جميع مراحل وجوده على ظهر الأرض منذ قتل قابيل لأخيه هابيل، وستظل هذه الأسئلة على مر الزمان تطفو

على سطح مسيرة الأنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإن الأنبياء والرسل أنفسهم لم تخل صدورهم وعقولهم من السؤال عن الحياة بعد الموت، فمنهم من ورد هذا السؤال على خاطره، تحرك فى صدره فقط دون تصريح منه ومنهم من صرح به فى صورة سؤال وجهه لله عز وجل والذى نعرفه ونعرف أنه وجه السؤال لله بصيغة كاملة هو أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم كما ورد فى القرآن الكريم فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾

(سورة البقرة)

وظاهر من هذه الآية : أن السؤال عن الحياة بعد الموت ، خرج من صدر سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام على لسانه فى صيغة طلب وهو أن يريه الله عملية إحيائه للموتى بعد أن يكونوا قد ماتوا فعلا، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم ذلك فى صورة عملية ليحقق له الطمأنينة القلبية التى هى اليقين فيكون قد حقق دعوته بشقيها : كيف يحيى الله الموتى، وبث اليقين فى قلبه ولا غرو فإن الله على كل شئ قدير - فأمره أن يجمع أربعة من الطير .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية [فصرهن إليك] أى [أوثقهن] فلما أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ، ونتف ريشهن ، ومزقهن ، وخلط بعضهن ببعضهن ، ثم جزأهن أجزاء ، وجعل على كل جبل منهن جزاء قيل أربعة جبال وقيل سبعة وأخذ روءسهن بيده ثم أمره الله أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله

عـز وجل فجعـل ينظر إلى الريش يطـيـر إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها ببعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين معًا ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها ، وجعل كل طائر يجئ ليأخذ رأسه التى فى يد إبراهيم عليه السلام، وإذا قدم له رأسا غير رأسه يأباها فإذا قدم له رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولذلك قال له ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ أى عزيز لا يغلبه شئ ، ولا يمتنع من شئ، وما شاء كان ولا ممانع ؛ لأنه القاهر لكل شئ ، حكيم فى أقواله وأفعاله . وشرعه وقدره] .

(انتهى كلام ابن كثير)

وقال الإمام القرطبى فى تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) قال الحسن إخبارا عن الدافع لسيدنا إبراهيم لتوجيه هذا السؤال لله [رأى جيقة نصفها فى البر توزعها السباع ، ونصفها فى البحر توزعها دواب البحر ، فلما رأى تفرقها ، أحب أن يرى انضمامها فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع، كما رأى كيفية التفريق فقيل له (خذ أربعة من الطير) قيل هى الديك والطاووس والحمام والغراب . ثم سرد القرطبى القصة كما رواها ابن كثير فرضى الله عنهما . أجزاهما خير الجزاء] .

وإن السؤال الذى طرحه حزقيال لا يخرج عن السؤال الذى طرحه نبى الله إبراهيم .

ولكن الصحيح الذى جاء فى القرآن خاصا بالسؤال عن كيفية احياء الموتى . ليس كما جاء فى قصة الرؤيا التى جاء بكتاب [وادى الرؤيا] لجورج بوش إذ أن علماء التفسير ومنهم الإمام ابن كثير والإمام القرطبى ، حصروها فى كل من أرمياء بن حلقيا ، والخضر عليه السلام، عزيز وهو القول المشهور وعلى كل حال نذكر الآية التى تحدثت عن هذه الواقعة وهى الآية :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾

(سورة البقرة)

ولقد آليت على نفسى أن أنقل للقارئ ما قاله الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية ثم أعقبه بما قاله الإمام القرطبى، حتى تتضح أمامنا كلمة الحق نورا يقذفه الله فى قلوبنا وضياء تنفذ أشعته إلى عقولنا ، واجتماع القلب والعقل على حقيقة وهو الفرقان الذى ننشده لنميز به بين الطيب والخبيث والله المستعان :

أولاً : ما قاله الإمام ابن كثير بتصرف :

١ - بسنده عن الإمام على بن أبى طالب قال (هو عزيز) وهذا القول هو المشهور .

٢ - وعن جمع من الصحابة منهم وهب بن منبه هو أرميا بن حلقيا وهو اسم الخضر عليه السلام.

٣ - عن رجل من أهل الشام : أن الرجل الذى أماته الله مائه ثم بعثه اسمه [حزقيل] .

ثانيا : ما قاله الإمام القرطبى :

١ - عن ابن عباس وفريق معه : الذى مر على القرية هو [عزيز].

٢ - عن وهب بن منبه وفريق معه :هو «أرمياء » وهو الخضر ، وقد زكى الإمام القرطبى هذا الرأى على أساس أن الخضر عليه السلام حى (يعنى أنه من المنظرين) معلقًا أن هذا هو الصحيح .وأكد ذلك فى تفسير سورة الكهف ، أى : أن الخضر من الذين أنظرهم الله فلا يموتون إلا فى وقت معلوم قبل القيامة والله أعلم .

بقى أن نعرف القرية التى جاء ذكرها فى الآية :

١ - قال الإمام ابن كثير .المشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها ، وقتل أهلها

٢ - قال الإمام القرطبى :

(أ)هى القدس فى قول دهب بن منبه

(ب) قال بعضهم هى « المؤتفكة » .

وسواء كان هذا الذى مر على القرية عزير أو أرمياء (الخضر) وسواء كانت القرية هى القدس أو المؤتفكة .

فإن هذا المثل الذى يضربه الله تعالى مقصود منه أنه يرى عبادة طلاقة قدرته سبحانه وتعالى ، وأنه يُحيي ويميت ، وأنه على كل شئ قدير.

وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يخاطب هؤلاء القوم الذين بعث فيهم النبى محمد صلى الله عليه وسلم خطابا ينفذ إلى قلوبهم ليذرع فى قلوبهم اليقين بأنه سبحانه وتعالى ، هو الذى خلق فسوى ، وهو الذى أمات وأحيا ، وأنه أمات مرتين وأحيا مرتين، فالموت والحياة ملكه الذى لا ينازعه فيه أحد ، وقدرته التى لا ينازعه فيها احد .وأن غرس هذا اليقين فى وجدان المخاطبين بدعوة الإسلان يفيد كثيرا فى جميع مظاهر الحياة كلها، ففيه صلاح العقيدة ، وصلاح العمل ،

وصــلاح الفـرد ، وصــلاح المجتــمع وصــلاح الدنيـا ، وصــلاح الآخـرة ، أى : أن تعميق الاعتقاد فى قدرة الله سـبحانه وتعالى المطلقة ، هــو المراد احـداثه فى قلب المتلقى ، فقط .

لكن جـورج بوش تناول هــذه الرؤيا بما خلع عنهــا ثوب الموعظة الدينيـة البحتة ، وهى موعظة بيضاء من غير سوء ، وألبسهـا ثوب السياسة الأحمر المخضب بالدماء.

إن الرجل قد خلع مسـوح رجل الدين القسـيس ، وارتدى ثوب السـياسى الداهيـة الذى يتمتع بقدر عال من الذكاء المتوقد، الذى يمتطيه الدهاء ليحقق به غايته المنشودة بصبر واحتمال، وقدرة متميزة على الأخذ بأسباب الاقتناع الذى يعقبـه تسليم المخاطب العادى بما يقـره، ومـا هو المعنى من تحقـيق هدفه وكـأن وسيط مغناطيسى فى سيطرة المنوم (؟!!!) .

اقرأ معى وهو يقول فى صفحة ٨٧ تحت عنوان ملاحظات هامة :

[إن مجال النبوة الواسع هو مناجاة جبال أرض إسـرائيل وتلالها وأنهـارها ووديانها، وبثها معنى عودة أسباط إسرئيل واستقرارهم فى طول البلاد وعرضها ليعمروا المدن التى تركوها والتى كانت لمدة طويلة فريسة لبقية الوثنيين الهمج حولها، والذين استولوا عليها وعاثوا فيها فسادا ، ويخاطب الله جل جلاله الأرض المهجورة نفسها ويعلن أن فترة فحولتها فى طريقها سريعا للزوال .

وسيعمرها الناس من جديد (وطبعا المقصود بالناس هنا هم بنوا إسرائيل) . ويوبـخ الله سـبحانه وتعـالى توبيخاً محرقا المغتصبين المتكبرين الذين ابتهجوا بامتلاكهم الأماكن القديمة (العريقة) عالية الشأن التى هى حق شعب الله المختار .

هؤلاء المغتصبون الذين اغتصبوا لأنفسهم الأرض المقدسة ، وفرحت قلوبهم، واطمأنت نفوسهم الخبيثة (وهذا ما يعلنه السيد الرب) .

فى اليـوم الذى أطهـركم فيـه من كل آثامكم وأسكنكم فى المدن فـتبنى

الخـرائب، وتفلح الأرض الجـرداء .ولا تبـقى أرض خـربة فى عـينى كل عـابد، فيقولون قد صارت هذه الأرض الجرداء ، كجنة عدن . وأصبحت المدن المهجورة المتهدمة مدنا محصنة آهلة [صـ٨٧، ٨٨ من كتاب [وادى الرؤيا فى تفسير رؤيا حزقيال أو إحياء عظام بنى إسرائيل - هل يتحول اليهود للمسيحية كشرط لعودة المسيح] للمؤلف جورج بوش .

ترجمه وحققه وعلق عليه د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ثم انظر معى أيها القارئ فى آخر فقرة فى صـ ٨٨

[أما أنت يا جبال إسرائيل فتفرقين فروعك، وتحمل أشجارك أثمارا لشعبى إسرائيل لأن موعد رجوعهم بات وشيكا، فأنا لك، أعتنى بك، فتحرثين وتزرعين وأجعلك آهلة بالناس، كل شعب إسرائيل، فتعمر المدن وتبنى الخرائب . وأكثر عليك الإنسان والبهجة ، فيكثرون ويثمرون، فتصبحين آهلة كسالف الزمان، وأحسن إليك أكثر بما أحسنت فى الأيام الغابرة .فتدركون جميعا أنى أنا الرب، وأجعل الناس من شعبى إسرائيل يأتون إليك فيرثونك وتكونين لهم ملكاً ولا تتكلينهم من بعد] صـ٨٨ من الكتاب .

واقرأ معى قوله فى صـ٨٩ وادرس كلماته كلمة كلمة :

[ليس المقصود إذن هو العودة من بابل، فقد تلوثت الأرض المقدسة بعد هذه العودة مرة أخرى فقد داس العرب والاتراك ورود « إزداليون » ووطأوا زهور شارون وزنبق الوادى .فهجر اليهود ديارهم وتشتتوا اغراباء فى كل عروض الأرض] .

فلا مناص فيما نرى (جورج بوش هو الذى يرى) أن ما ورد فى النبوءة لم يتحقق بعد وأن المقصود بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، إنما هو عودة فى زمان آت وليس العودة من الأسر البابلى (!!!) .

ثم اقرأ معى هذه الفقرة الأخيرة من صـ٨٩ والأولى من صـ ٩٠ :

[هذه الأرض ذات الذكريات القدسية ستستقبل مرة أخرى سكانها القدامى

الذين رضعوا من اثدائها ، وعاشوا فى أحضانها ، وستختلط دموع الندم العميق والقلوب المكسورة بندى حرمون ، لتخصيب أوديتها القاحلة ، وذرى تلالها المهجورة .وسيستعيد الزيتون والنبيذ سمعتهما الحسنة فوق الجبال التى كانت يوما بهيجة ، وإن أصبحت الآن خربة ، وسيضحك القمح فى الوديان ، حيث ينصب البدو الجوالون خيامهم النقالة وسيحدد الأطفال السعداء سلالة الآباء المؤسيسين رياضاتهم المائية فى شوارع المدن العامرة التى تذكرنا الآن أكوامها الركامية الخربة بعظمة ونبل مضيا] .

واقرأ معى ما جاء بالفقرة الآخيرة من صـ ٩٠

[إننا لا زلنا واثقين من أننا لا نجازف بالقول بأن أكثر البحوث دقة فى مجال التتابع الزمنى النبوئى أو بتعبير آخر فى مجال ربط النبوءات بفترات تحقيقها بالإضافة إلى العلامات الدالة فى الأزمنة الحبلى بالأحداث كلها : تقدم لنا المبرر الكافى للاعتقاد بأننا أصبحنا الآن على أعتاب مرحلة سامية من مراحل التدبير الإلهى ، تتم بمقتضاها عودة اليهود إلى الشام وتجمعهم فى نسق دينى (!!!) .

إننا على يقين من أن ذلك هو أبرز ملامح ما ستتمخض عنه الأيام لكننا لا نزعم أننا نحدد بدقة مطلقة اليوم أو السنة التى سينفذ فيه الله سبحانه تدبيره الإلهى(!!!) .

إننى مقتنع اقتناعا كاملا أن هذا الحدث (عودة اليهود إلى الأرض المقدسة) وارد بوضوح فى الإصحاح الذى بين أيدينا من سفر حزقيال ، وفى ظل هذا الاقتناع ، أقترح أن أبدأ فى تفسير مطلع هذه الرؤيا بدقة وأن أفك مغاليق التدابير الإلهية المتعلقة بتحول اليهود (يقصد تحولهم للمسيحية) وعودتهم للديار المقدسة بتأمل فحوى نبؤة حزقيال . (٩١) إن هناك وجهين لنسق الأحداث يكونان موضوع النبوءة الرمزية التى نتناولها الآن .

حقيقة ليس هناك تمييز واضح بشكل ملائم للخيال أو للغة الرمزية المستخدمة ، وبالتالى فإننى سأتحدث فى سياق التفسير الذى سأورده مستخدما

مصطلحات ربما لا تكون من الدقة بحيث تميز حدثا عن حدث آخر ، أو صورة رمزية عن صورة رمزية أخرى ، لكن روح الوحى تجعلنا نجد صلة وثيقة بين الأمرين - أو الحدثين - رغم أننا لا يمكن أن نشك إطلاقا فى أن العودة إلى فلسطين)يقصد عودة اليهود إليها(ستكون سابقة لدخولهم أى اليهود فى المسيحية بشكل جماعى ، وإذا لم يجانبنى الصواب فإن المعنى الحقيقى لهذه النبوءة يفصل بشكل مدهش ودقيق تتابع الأحداث التى تؤدى إلى النتيجة الكبرى ، أو المحصلة النهائية ، أكثر مما يدركه معظم العالم المسيحى ، وإذا تمخض تطور شروح هذه النبؤة إلى ظهور وجهات نظر جديدة وشائعة فيما يتعلق بالواجب المنوط بالمسيحيين لكمال تحقيق النتيجة المرجوه ، فإن الهدف سيتحقق فى حيينه مقرونا بالجهود المبذولة لتحقيق هذا الهدف فى الوقت المناسب لتحقيقها ؛ لأنه أمر مقدر سلفا ، ومن المفهوم أن كل هذه الجهود مهما كبرت تستحق تحقيق الهدف الذى أشارت له النبوءة .

وفى صفحة ٩٢ يقول جورج بوش :

[إن الله سبحانه هو نفسه الذى أخذ على عاتقه توضيح هذه الرؤيا تحديدا صارما ، إذ قصد أن يبين بطريقة رمزية أو استعارية ، عودة إسرائيل من شتاتهم الذى طال أمده ، وانفكاكهم من عبوديتهم ، وخلاصهم من تفرقهم السياسى وانحلالهم الخلقى ، لدرجة أننى أجد من غير الملائم أن استفيض فى تبيان التطبيق الروحى أو الدينى ، لكل هذا ، والذى نظر إليه المفسرون فى كل العصور على أنه أمر عادى لا جديد فيه] .

أيها القارئ الكريم :

لقد قصدت من وراء نقلى لهذه الفقرات من كتاب [وادى الرؤيا فى تفسير رؤيا حزقيال ، أو إحياء عظام بنى إسرائيل ، هل يتحول اليهود للمسيحية كشرط لعودة المسيح « لمؤلفه جوج بوش » أن أشركك معى فى قراءة هذا المؤلف

نفسه، فإن قراءتنا لكلامه هى قراءة له يتضح بها أمامنا معالم شخصيته، فنعرف سويا الآتى :

أولاً : من هو جورج بوش ؟

ثانياً : ما هو انتماؤه العرقى ؟

ثالثاً : ماذا يقصد من وراء هذا التفسير لرؤيا حزقيال؟ .

رابعاً: ما هى مقومات فكره ؟ من هم قومه الذين ينتمى إليهم ويدين لهم بالولاء ؟ وما طبيعة النتائج المترتبة على نظريته ؟ وأسئلة كثيرة تفسر الأجابات عليها، هذا العمل الواحد الذى تمخض عنه فكره فى توأمية محمد صلى الله عليه وسلم مؤسس الدين الإسلامى ، ومؤسس الإمبراطورية الإسلانية] وتوأمه الملتصق به ولا انفصال بينهما وادى الرؤيا فى تفسير رؤيا حزقيال.

وإنى أبادر بالإجابة على كل سؤال من هذه الأسئلة بما انطبع عندى من بيان وأترك لك أيها القارئ الحرية فى الأخذ بما أقرره لك أو الإعراض عنه ، والاستقلال بانطباع آخر يخصك، وأهم شئ عندى أن تقرأ ما قرره هذا المؤلف فى كتابيه التوأمين اللصيقين فى حق الإسلام ورسول الإسلان صلى الله عليه وسلم وما قرره فى شأن مشكلة الشتات اليهودى والحل الذى إرتاه فى رؤيا حزقيال...

أولا : من هو چورج بوش مؤلف هذين الكتابين ؟

يحدثنا الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ الذى ترجم الكتابين إلى اللغة العربية، أنه كان واعظاً بارعاً فى الجدال والمناظرة، وراعياً لاحدى الكنائس فى أنديانا بولس ، وأستاذا فى اللغة العبرية والآداب الشرقية فى جامعة نيويورك ، وله قائمة مؤلفات فى هذا المجال، معظمها فى دراسات الكتاب المقدس اليهودى والمسيحى.

ولكنى عندما قرأت كتابه «حياة محمد» وكتابه « وادى الرؤيا» .

تبين لى ما يأتى :

١ - إنه لم يكن راعيا لكنيسة مسيحية ؛ ذلك لأن راعى الكنيسة المسيحية لابد أن يكون قسيسا .

وما صدر عنه من كلام فى حق الإسلام ، وفى حق نبى الإسلان محمد صلى الله عليه وسلم وفى حق المسلمين من جانب ، وما صدر منه فى حق المسيحيين من جانب آخر لا ينم عن أنه قسيس .

الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم.

[إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف والغرباء وعلينا أن نكون كالكلاب التى تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها تماماً كالمرأة الكنعانية] .

رضا هلال صـ٦٣

ولكن ما يلفت النظر أن مارتن لوثر كان يتملق اليهود بما بثه فى كتابه طمعاً فى تحويلهم إلى المسيحية ، فلما أحس منهم بعدا عن ذلك ، وأنهم يجمعون الأنصار لتهديد المسيحية أإعرض عنهم اعراض الكاره لهم ، وعبر عن ذلك فى كتابه [ما يتعلق باليهود واكاذيبهم] عام ١٥٤٤ .

وطالب فيه بطردهم من المانيا بقوله :

[من الذى يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم فى يهودا ؟ لا أحد .. إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون إليه لرحلتهم ، لا لشئ إلا للتخلص منهم ، إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا] .

وهكذا فإن حركة الإصلاح البروتستانتى لما يئسب من تحويل اليهود إلى البروتستانتية تبنت الدعوة لعودة اليهود إلى فلسطين للتخلص منهم ، وكان ذلك اعلان نشأة المسيحية الصهيونية ، التى اعتقدها جورج بوش مؤلف الكتاب وانتقلت منه إلى أجيال الشعب الأمريكى حتى وصلت بعض الرؤساء الأمريكيين مركزه فى النصف الأخير من القرن العشرين ومنهم نيكسون ، وريجان الذى كان يعتقد اعتقادا جازما بدور إسرائيل المركزى فى مخطط الرب لنهاية العالم

بمعركة [هرمجدون] والمجئ الثانى للمسيح، وكانت تلك الزعامات البروتستانتية تقرأ تاريخ القرن العشرين انطلاقا من اليهود وحركتهم القومية اليهودية الصهيونية فى إطار مخطط الرب ، فالصهيونية أعادت اليهود إلى أرض أجدادهم بالعناية الإلهية ، وتحقيقا لنبوءات العهد القديم والإنجيل ، والعناية الإلهية فقط هى التى تفسر قيام إسرائيل الجديدة وانتصار إسرائيل على الجيوش العربية فى ١٩٤٨ ثم انتصارها الساحق فى حرب الأيام سنة ١٩٦٧ حيث استردت القدس وبصفة خاصة القدس الشرقية المدينة القديمة بما تحويه من أماكن مقدسة يهودية ومسيحية وإسلامية ، وهزمت الآردنيين واستولت على الضفة الغربية كما هزمت السوريين واستولت على الجولان وهزمت المصريين واستولت على سيناء (!!!) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأما فى فرنسا : فيحكى لنا شيخ المؤرخين المصريين عبد الرحمن الجبرتى والشيخ حسن العطار فى كتابيهما (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) (نشر مكتبة الآداب) ٤٢ ميدان الأوبرا القاهرة فى صـ٦١ : ما أنقله بالحرف الواحد : تحت بند بونابرت والصهيونية منذ عام ١٧٩٦ رأى يهود أوروبا فى بونابرت الرجل الذى فتح أبواب جيتوهاتهم (جمع جيتو وهو حارة اليهود فى كل البلاد) فقد تبنت حكومة إدارة (الثورة الفرنسية) فكرة الجمهوريات الشقيقة لتفتح الباب أمام ممالك أوروبا للثورة وتحقيق الجمهورية لتتخلص الشعوب من الاضطهاد والظلم ولقد كانت السياسة الفرنسية تتوجه دائما إلى الأقليات المضطهدة سواء فى أوروبا أو الشرق ممنية إياها بتحقيق آمالها وطموحاتها . وكانت هذه الأقليات تتوجه دائما بالشكوى من أوضاعها المتدنية، وسوء معاملتها بسبب الأختلاف العرقى أو الدينى. وكان اليهود أمهر من يشكو ويستصرخ ، ولكن هل كان فى خطط نابليون مساعدة اليهود على إعادة بناء هيكل سليمان وتحقيق حلمهم التوراتى المزعوم ؟ أم إنها كانت مجرد حملات دعائية تسبق الفاتحين وتجند لهم الأعوان فى البلاد المفتوحة ؟

اختلف المؤرخون فى ذلك ويورد أحد مؤلفى كتاب الحملة المصرية وثيقة مشكوك فى صحتها عبارة عن اعلان منسوب إلى نابليون ومؤرخ أول شهر فلوريال فى العام السادس من الثورة الفرنسية ٢٠ ابريل ١٧٩٨ اكتشفت صورة منه فى براج سنة ١٩٤٠ يدعو فيها نابليون اليهود أن يتجمعوا تحت قيادته فى القدس)أسرعوا فهذه هى اللحظة التى قد لا تتكرر قبل آلاف السنين لتطالبوا بحقوقكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التى حرمتم منها لآلاف السنين، وأن تطالبوا بأن يعاد إليكم وجودكم السياسى بين الأمم ، وحقكم الطبيعى وغير المحدود فى أن تعبدوا ربكم حسب عقيدتكم] .

وأياً ما كان أمر هذا البيان من نابليون صادقا أو مكذوبا عليه، قاله أو انتحل عليه. فهو يفيد انشغال وجدان أوروبا بمسألة وطن قومى لليهود فى فلسطين التى كان يؤمن بها جورج بوش صاحب هذا الكتاب .

وأما يقال عن فرنسا : هو نفسه ما يقال عن انجلترا أو النمسا وألمانيا .

ويبقى قائما بوضوح الشمس أن الفكر والسياسة وجهد الرؤساء فى كل من أمريكا وأوروبا كان كل ذلك محشوداً حشداً كاملاً لزرع إسرائيل فى الوطن العربى بغية التخلص من اليهود الصهاينة، وبغية تحقيق استقرار فى صفوف اليهود الصهاينة. أو انقياداً لما تمليه رؤى حزقيال ، ودانيا ، ويوحنا ، وكلها وظفوها لتحقيق وجود الكيان الإسرائيلى على أرض فلسطين. هذا التوظيف السياسى لهذه الرؤى. يتبرأ منه الفكر والوجدان والشعور المسلم تبرئة تامة .

والدليل على ذلك أن المسلمين لم يستعدوا فى يوم من الأيام للقاء عسكرى يقع بينهم وبين الصهاينة ، بدليل هزائمهم المتكررة أمام الصهاينة على امتداد السنوات من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ ، وعندما خططوا لتحقيق النصر فعلا وأعدوا لذلك عدتهم وإن كانت بسيطة ؛ إلا أنها ساهمت فى تحقيق نصر أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

وإذن فالعرب والمسلمون لم يترجموا النصوص الدينية من القرآن الكريم

والأحاديث من وجهة نظر عدوانية أو عنصرية ؛ وإنما نظروا لها على أنها كلها إخبار عما يتم فى مستقبل الزمان فقط، وكل جهدهم وتفكيرهم يتركز فى تجنب الفتن فقط ، حتى يكونوا طاهرين يطلبون رضا الله .

أما الصهاينة ومعهم فريق من المسحيين فإنهم خططوا لتنفيذ رؤى أنبيائهم حسبما تراءت لهم، ولم يبالوا بالنتائج المترتبة على هذا التنفيذ ، ولم يعبأوا بالمشاكل التى تترتب على تجاهلهم لحقيقة الإنسان والآثار التى تحدث نتيجة استعمال القوة الغاشمة من تغيير الجغرافيا والتاريخ ، واقتحامهم للشخصية العربية المسلمة، معلنين اقتناعهم بنهاية التاريخ وبدء تاريخ الههم اليسوع.

فى الوقت الذى يؤمن المسلمون فيه بتداول التاريخ. ودوران الأرض... فإذا كانت هذه الأيام تشهد صولجان أمريكا زعيمة العالم الوحيدة. وأن الكل لابد يذعن لمشيئتها، فهى مخطئة .

وإذا كانت تعتقد أنها القوة المتفردة المسيطرة المتسلطة والمهيمنة على العالم، فهذا شعور يتعين مراجعته والالتزام بدراسة هذا الزهو دراسة طيبة.

وعلى العرب والمسلمين أن يفيقوا من الصدمة، ويتحفزوا لازالة آثار الصدمة، وليستقبوا أيامهم المقبلة بالثبات والصبر وإن الله مع الصابرين.

والنصر لن يتحقق إلا على نور القرآن الكريم فى قوله عز من قائل فى سورة آل عمران الآيات من ١٠٠ إلى ١٠٥ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾ (سورة آل عمران)

وفى ظل هذه الوحدة التى تشمل عليها الآيات ستتحقق جميع أسباب النصر والخروج من هذا الكرب. وبهذا الاتحاد تهابنا جميع الدول، ويهابنا كل من يفكر فى إلحاق الضرر بنا ، مجتمعين أو منفردين ، لأن قوة الله سبحانه وتعالى هى التى تكون حصننا وقوة الله لا تقهر أبدا.. فحى على الوحدة وحى على الاتحاد، فإن المسلمين لم ينصروا فى يوم من الأيام إلا بالإسلام .

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ (سورة الحج)

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة محمد)

* * *

الخاتمـــة

أيهــا القــارئ الكـريم :

ها قــد طُفت بك صــفحات هــذين الكتـابين، وإن كنت أتعبـتــك معى ، فإنى أعترف لك أننى أتعبت وأجـهــدت أيضــاً وإنى أعـترف أن التعليق على هــذين الكتـابين بمواجـهــة ما جـاء بهـمـا والرد عليــه ، فـإنى أضـعف من ذلك بكثير ، إذ أنهــما كان يتطلبـان للرد على ما جاء بهــما موكبــا مــن العلماء ، الأكثر من علماً ، والأطــول منى نفسـاً ، والأكثر صـبـراً ، ولكنى لما لم أجد أحدا من هــؤلاء المتخصـصين قد تعرض لهذين الكتابين بتعليق على الهجوم الشرس الذى صدر من مؤلفـهـمـا على شخص سـيـدنا رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم وعلى دين الإســلام وعلى المسلمين ، ولما لـم أجـد لأزهـرنا الشــريف من قــرار بتـشكيل لجنة من ثلاثين عـضـوا على الأقل من السـادة العلمـاء المتـخـصـيـصين ، وحـشـدهـم جـمـيعاً فى صف واحد ، وكل يرد على هذا المؤلف فـيـمـا جـاء به من اكتابين فى تخصصه .

لما لم أرى ذلك . فإنى استدعيت حبى لله سبـحانه وتعالى واستدعيت حبى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخرت الله وعزمت على الرد على هذه الأراجيف التى بثها جورج بوش فى كتابيه،

وأعترف بأنى لم أتعب فى شئ من ردى عليه ، فإن شخص سيدنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم غنى جـدا بمكارم الأخـلاق التى هى حـجج الدفـاع ، وهى ساطعة سطوعا ييسر على مثلى انتقـاءها وإلقاءها فى مواجـهـة هذا الذى دفعة قدره إلى الهـجـوم على النبى عليه الصلاة والسـلام لتلقف ادعاءءاته وتحيلها هباء يعقبـه حسرة منه على ما أخطأ فى جنب الله ورسولـه وسرعـان ما يبوء بالخذلان والعقوبه معاً .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولقد كنت أتمنى من صميم قلبى أن يجتمع مجمع البحوث الإسلامية برئاسة السيد / صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الذى يقوم بتوزيع نسخ من هذين الكتابين على أصحاب الفضيلة الأعضاء من علمائنا الكرام على أن يقوم كل واحد منهم بدراسة هذين الكتابين والرد عليهما ثم يثنى بالاتصال بالجامعات لتشكيل لجان من أساتذة الجامعات ، وتكليف أعضاء هذه اللجان كل فى تخصصه للرد على الترهات والأراجيف التى ينطوى عليها الكتابان.

وإنى أعرف الرد. على كلامى هذا والذى يخلص فى أن هذه الأراجيف كانت محل ردود علمية على مدى الزمن وهى قابعة تزخر بها مكتبات الأزهر والمجلس الأعلى للشئون الإسلانية وفيها الغناء.

ولكنى أرد على ذلك إن هذين الكتابين يعدان أداتين للهجوم على دين الإسلان وشخص رسول الإسلان صلى الله عليه وسلم، وما دام سلاح الهجوم قد برز فى يد العدو فيتعين مواجهة هذا العدو لمصادرة سلاحه وتجريده منه، فإما منًّا وإما فداء.

ولما كان سلاح الكلمة قد يكون أمضى من سلاح الحديد والنار فإنه كان ينبغى التصدى لهذين الكتابين بالرد عليهما وبكل اللغات.

إن هذين الكتابين يعدان من أهم وأخطر ما قيل من أقوال، ومن أسوء ما كتب عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا يتطلب الأمر التصدى لهما بنشر فضائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودحض ما جاء بهذين

الكتابين بصفة خاصة ، لأنهما يعتبران مرجع رئيس الولايات المتحدة جورج بوش ومصدرين لما هو مقتنع به من أمثال .

أما بالنسبة للاسلام فإنه كلمة الله العليا ، وهو بذاته أفصح بيانا منى فى الدعوة إليه ، وهو بنا وبغيرنا ينتشر انتشار النهار فى دنيا الناس . إنه كالشمس تصنع النهار وهى فى غنى عن حديث الناس عنها وعن فضلها .

فقد علمنا القرآن الكريم وهو كلام الله سبحانه وتعالى الذى خلقنا وخلق اليهود وخلق المسيحين طبيعة القسيسين ، وكشف لنا عن وجدانهم المهذب ، واستعدادهم الطيب لتلقى كلمات الله سبحانه وتعالى فقال فى سورة المائدة فى الآيات ٨٢ إلى ٨٥ :

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إننى عند قراءتى للكتابين فقرة فقرة : لم أجد هذا الفيض الوجدانى الذى يشع دفء المودة التى يكنها القسيسون للناس عامة ، وللذين يشتركون معهم فى صفة التدين عامة ، ولم أحس فيما كتبه هذا المؤلف ، هذا الاستعداد الطيب الذى تنطوى عليه قلوب القسيسين لسماع كلمات الحق والخير ، وما يده من رقة فى الشعور توحى بلين الكلام ، وطيب الحديث وحلاوة الإقرار بالحق والتواضع فى القول والفعل ، وحسن الاستماع إلى الآخر ، وصدق اللجوء إلى الله ، واستشراف رضا الله المتمثل فى اباحة جنات النعيم ، ومراجعة النفس لنضبط اقوالها وأفعالها ومواقفها مع يأتى إليها من الحق .. لم أجد شيئا من هذا السمو الروحى فيما قاله جورج بوش فى كتابيه ولكنى وجدت لفح نار العداوة يصعق وجهى ويحرق زهرات المحبة التى غرسها فى كيانى الإسلان وشهد به الله عز وجل فى قوله :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وإذن فإن چورج بوش الجد الأعلى لعائلة بوش .. إنما هو يهودى صهيونى يضمر العداء للإسلام ولنبى الإسلان وللمسلمين. هذا ما وقر فى قلبى ، واستقر عليه ضميرى ، ووجدته يتصادق مع ما قاله الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ فى مقدمته لكتاب جورج بوش «حياة محمد » ص (S) b .

[وكان واحد من أشهر أطباء عصره « أوليفر هولمز » فى عام ١٨٥٥ (معاصراً للمؤلف جورج بوش) قال إن إبادة الهنود الحمر هو الحل الضرورى للحيلولة دون تلوث العرق الأبيض ، وإن اصطياد الوحوش فى الغابات مهمة أخلاقية لازمة لكى يبقى الإنسان فعلا على صورة الله ، وهو المعنى الذى ترجمته

أفلام السينما الأمريكية وقدمته للعالم، وقدمه جورج بوش مؤلف هذا الكتاب منذ عام ١٨٣٠ لنا نحن العرب والمسلمين إنه يصفنا بأننا أمة من الهوام والجراد، ويتم تقديمه فى آلة الخداع الاعلامى السينمائى منذ أوائل القرن الماضى ، ويتم تفعيله على الواقع الآن ، لاحتلال وفرض الهيمنة ومصادرة مقدرات هذه الأمة، ومحاولة فرض الحظر على معتقداتها ونكرها وتغيير أنظمتها وتذويب النظام العربى الإسلانى] .

انتهى كلام الدكتور عبد الله الشيخ

ويستند الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ. فى دعم وجهة نظره هذه التى أوافقه عليها إلى ما صرح به "موشى يعلون" تعليقاً على أحداث ٢٠٠٣ وآفاق المستقبل الآتى بما يلى "لم يعد هناك عالم عربى، لم نعد نتكلم عن عالم عربى ، لا يوجد شئ اسمه تحالف عربى. هناك لاعبون لكل منهم مصلحته الخاصة، والجميع يعرف أن فى عالمنا الاحادى القطب ، كل من يريد أن يعتبر جزاء من القرية الكبيرة عليه أن يكون مرتبطا بالولايات المتحدة. وليس له حلف آخر" وكالات الأنباء ٢٧ ديسمبر سنة ٢٠٠٤ وأكتفى بذلك لأثبات أن جورج بوش مؤلف الكتاب صهيونى وعلى ذلك فنحن الذين نحتاج الإسلام لنعرف به أما الإسلام فليس فى حاجة لنا ليعرف بنا.

وبناء على ذلك فإننى أقترح على جميع الحكومات الإسلامية والحكومات العربية أن تنظم اتصالاتها وعلاقاتها الدبلوماسية على هدى ما ورد فى هذين الكتابين لأنهما كشف لنا حقيقة الدولة الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية، والدولة الصهيونية فى إسرئيل، وعلى ذلك فإنه على الحكومات العربية والإسلانية أن تتنازل حاليا عن الدعوى القديمة التى كانت تقول إن تسعة وتسعين فى المائة من لعبة حل الصراع العربى الإسرائيلى فى أيدى الأمريكان لأن هذه الدعوى قد سقطت الآن ومن أربع سنوات مضت من تاريخ انتخاب جورج

بوش رئيسا للولايات المتحدة، وستبقى كذلك فى المستقبل ، لأن جورج بوش حفيد جورج بوش واضع الكتابين .. سيظل رئيسا لمدة أربع سنوات أخرى إن شاء الله وإذن فإن الولايات المتحدة ، قد انتقلت عاصمتها إلى القدس الغربية وتل أبيب ، فعلى من يرغب فى التفاهم فى أى مسألة عالمية وتهم الطرفين الإسرائيل / العربى أن يتفق عليها عليها مع حكومة إسرئيل فقط وهى وحدها صاحبة الرأى دون الرئيس الأمريكى وذلك بسبب سيطرة الفكر الصهيونى على عقل الرئيس الذى يستمد هذا الفكر من جده فيلسوف الصهيونية الأكبر ، والنظر للحزب الجديد الذى ولد فى حضن الحزب الجمهورى ، واحتل ساحته السياسية وهو مجموعة المحافظين كما يدعون، مما يجعل من جورج بوش الأصغر شريكا فى المفاوضات ويلعب دوره تحت رئاسة شارون رئيس حكومة إسرائيل ، ويتقيد بأوامره يا حبذا لو أن الحكومات العربية ترسم خطوط دبلوماسيتها على هذا الاساس ؛ فإذا فاوضت إسرائيل فلتقنع بما تسلم به إسرائيل لها ولا تتعب نفسها فى الرجوع إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ؛ لأنها لم تعد تملك من الأمر شيئاً ، ولا تملك أن تصدر قراراً دون موافقة من الحكومة الأم فى إسرئيل .

ثانيا : ما هو انتماؤه العرقى ؟

إن جورج بوش هذا يهودى العرق، فهو من طائفة اليهود من رأسه إلى أخمص قدمه. وستقول أيها القارئ الكريم لى سائلا ؟ ألم تدع أنه صهيونى ؟ أو لا يكفى أن يكون صهيونياً ليثبت أنه يهودى ؟ وأرد عليك فى سرعة أنه ليس كل يهودى صهيونياً، وليس كل صهيونى يهوديا ؛ إذ قد يكون الشخص يهوديا ولكنه لا يدين بفكر الصهاينة، وقد يكون أحدهم صهيونى الفكر وليس يهوديا بالضرورة.

وفى حالة جورج بوش اجتمعت له الصفتان فهو يهودى العقيدة .. صهيونى الفكر والسلوك.

وإننى رأيت فيه من خلال كتابته أنه من ضمن المؤسسين الأول للفكر الصهيونى ، ومن أول المخططين للعودة لجبل صهيون وأرض الميعاد... ومن أول المخططين لبناء المملكة العبرية من النيل إلى الفرات. وإن حاييم وازمان، وبن جوريون، وليفى أشكول، وبيجن، وشامير ، وموشى ديان ، إلا تلاميذ مخلصون له يدينون له بالطاعة والولاء.

وقد ساعده على تأصيل الفكر الصهيونى سعة اطلاعه ، وشغله لمركز مرموق فى الجامعة لا سيما وأن اللغة العبرية ومعها اللاتينية كانت لغة التعليم الأساسية فى جامعة هارفارد عند تأسيسها فى عام ١٦٣٦ وشريعة موسى كانت هى القانون التى أراد جون كوتون إلى جانب العبرية التى أرادها لغة رسمية لأبناء مستعمرات الدم الأزرق الثلاث عشرة على ساحل الأطلنطى.

(انظر ص ٥١ من كتاب حياة محمد لجورج بوش) ولقد كتبه وتعتبر مراجع يستعين بها الباحثون فى المراكز العلمية والدينية والمؤسسات الجامعية.

فكتبه جميعاً مصنفة ومحفوظة فى مكتبة جامعة نيتشجان مما جعلها مصدراً ومرجعاً لعديد من الدراسات الجامعية، وبمرور الوقت أصبح هذا الفكر هو عقيدة أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية) الآن وهو المسيطر على جميع سياساتها ،

وإذا قدمت أمريكا لها اقتراحاً يمس علاقتهما من قريب أومن بعيد ، فعليها أن تحصل على موافقة الحكومة الأم فى إسرئيل ؛ لأن موافقة الولايات المتحدة وحدها لا تكفى الآن.

ويكفى أن أذكر القارئ الكريم : بأن هذا الوضع الذى أصبح واقعا ملموسا كان فى الماضى الحلم الأكبر الذى سعت الصهيونية العالمية لتحقيقه خلال القرنين الماضيين بطولهما واحتوته البروتوكولات.

إننى لا أحاول بهذه الكلمات أن أدخل اليأس إلى أهلنا على امتداد الوطن العربى والإسلامى ، ولكنى أقول ما يجيش فى صدرى وأشرح ما هو ماثل أمامى وأرجو أن يكون نظرى خاطئا.

ولكنى لا أطفئ نور الأمل فى الخروج من أزمة هذا الصراع الأبدى بين العرب والمسلمين من جهة ، وبين الصهيونية من جهة أخرى. وأطالب أهلى فى الوطن العربى والإسلامى بالصبر ، والإيمان ، ومحاولة دراسة الأسباب التى أدت إلى مضاعفة حجم الكارثة التى نعيشها والنكبة التى أصابت فلسطين ، ولن تكلف هذه الدراسة الأمة العربية والإسلامية شيئا أكثر من قراءة هذين الكتابين وأمثالهما من الإصدارات التى تفتق عنها الفكر الصهيونى. مع متابعة الحركة الصهيونية وما قام به روادها من أعمال ، وما بذلوا من جهود طيلة القرنين الماضيين حتى حققوا جزءا هاما من أهدافهم وهو قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين الذبيحة ، ولا يزالون يحملون السلاح لاستكمال تحقيق ما بقى فى صدورهم من أهداف ، لم ترفأ لهم عين، ولم يتوقف لهم قلب، ولم يناموا لحظة من ليل أو نهار وما زالوا يكافحون فيقتلون ويدمرون ويخربون والعرب فى بلهنية نائمون لا يتحركون.

وليدرس العرب بالذات والمسلمون عامة، تاريخ أصحاب الثروات من ملوك وأمراء الخليج.. ليتذكر كل واحد منهم وجوه إنفاقه المال بالإسراف فى مواضع الريبة وموائد القمار ، وغوانى الليل فى الوقت الذى كان رواد المشروع

الصهيونى يجوبون شوارع واشنطن ونيويورك وغيرهما من المدن الأمريكية ويغشون النوادى وأماكن التجمعات يطلبون من الأمريكيين التبرع بالمال لتنفيذ المشروع القومى لهم، ويطلبون من اليهود التبرع قائلين لهم [ادفع دولارا تقتل عربيا] .

ثم يتذكروا أيضا أن التكتلات اليهودية واللوبيات الصهيونية كانت تسيطر على الهيئات التشريعية فى الولايات المتحدة وكذلك فى داخل الأحزاب السياسية الكبرى، لتبسط نفوذها على الشارع السياسى وداخل مؤسسات الدولة وكل ذلك يصب فى المؤسسة العسكرية فى اسرائيل فى ظل التفوق العسكرى ، والسياسى أيضا، بينما كان العرب مشغولين بتعاطى الملذات، وسهر الليالى فى حانات الخمور، وموائد القمار.

لندرس هذا التاريخ لا لننكفئ على أنفسنا نعانى من ندم النفس وجلد الذات. ولكن لنصحوا ونتنبه ونتدارك ما فات، وما زال الأمل مفتوحا بابه حتى الآن .

ويحدونى الأمل المنبعث من هذه الصحوة الدينية التى يعيشها الشعب العربى ، وخاصة الشباب الذين أفزعهم الواقع الأليم، وأرقهم الخوف من الضياع. فبدأوا يراجعون أنفسهم ويبحثون عن المستقبل المشرق..

وما زال الحديث الشريف يسطع بأنوار الأمل فى صحيح البخارى:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيختفى اليهود وراء الأحجار والأشجار فيصرخ الحجر والشجر ويقول «يا مسلم يا عبد الله ورائى يهودى فاقتله » فى الوقت الذى تعتبر نفسها القوة العظمى الواحدة فى العالم، وللأسف يجاملها عدد كبير من الدول على أنها القطب الأوحد. مع أن ما تعتنقه من فكر جورج بوش وأمثاله هو فى ذاته فكر بَلى ، وأصبح اسما لا رئة؛ لأن الشعوب قد استيقظت والإنسانية قد عرفت مسيرها ومصيرها، ولم تعد الشعوب قطعانا تسوقها أمريكا بعصاها إلى حيث تريد.

وإذا كانت أمريكا تتصور أنها عندما تصطدم بالأمة العربية الأسلامية محاولة اغتيال شخصيتها، أو فرض أى وضع عليها ستلقى قيودا عندها أو خضوعا لها ، فعليها أن تراجع نفسها، فإن رفض الأمة الإسلامية والعربية لهيمنتها أو سيطرتها سيكون نابعا من دينها وعقيدتها، ولن تفلح أمريكا مهما حاولت تسمية هذا الرفض بالإرهاب لسبب بسيط هو أن الأمة الإسلامية والعربية تعتبر هذا الرفض جزءا من عقيدتها التى هى هويتها هذه الهوية التى لن تتغير أبدا.

ثالثا : ماذا يقصد من وراء تفسيره لرؤيا حزقيال ؟

إنه كغيره من زعماء الصهيونية لم يقصد إلا إنشاء المملكة العبرية التى يحكمها ملك من أحفاد داود ، وتمتد على أرض الشام من ساحل البحر المتوسط غربا إلى أرض الرافدين (العراق) شرقا. ومن سيناء جنوبا إلى البحر الأسود شمالا... أى من النيل إلى الفرات وتكون عاصمتها القدس الشريف !!! عاصمة أبدية ، هذا ما قصده جورج بوش من تأليفه الكتابين التوأمين اللصيقين ولن تفلح أية ذاكرة، ولن يفلح أى مبضع فى تاريخ الفكر الإنسانى أن يفصل هذين التوأمين «حياة محمد صلى الله عليه وسلم مؤسس الدين الإسلامى ومؤسس امبراطورية المسلمين ، وتوأمه اللصيق به »وادى الرؤيا فى تفسير رؤيا حزقيال أو احياء عظام بنى اسرائيل. هل يتحول اليهود للمسيحية كشرط لعودة المسيح » وهما التوأمان اللذان ولدتهما قرية جورج بوش اليهودى الصهيونى « ولكى يكون عمله متكاملا، فإن حدد الآلية التى تمكن الصهاينة من نجاح مشروعها هذا الضخم الذى سيعيد صياغة التاريخ على وفق الأصولية الصهيونية ويغير الجغرافيا بكل أنواعها - حدد هذه الآلية فى عقيدة مشتركة تخلص فى كلمتين اثنتين هما «الإيمان بالمسيح الآتى » .

وبذلك يكون جورج بوش قد حدد الضمانة الكفيلة بتحقيق مشروعه وهى

توفر «اليهودى المسيحى» أى اتحاد الديانتين فى ديانة واحدة، والعقيدتين فى عقيدة واحدة. واعتبار هذا شرطا لعودة المسيح المخلص.

وهو يقول فى صـ١٧٤ من الترجمة (وادى الرؤيا) [إن توظيف الله (سبحانه) لهذا الشعب (اليهود) ولهذه البلاد فى عالم اليوم فى تخليص البقية المختارة وتجميعها، تلك البقية التى قدر لها أن تحكم مع المسيح فى جلال وبهاء فى العالم الآتى، لأمر عجيب استثنائى وسيكون توظيف الله لهم فى العالم الآتى الذى نتحدث عنه فى ظل الحكم الروحى للمسيح وحوارييه (أو القديسين التابعين له) أمر مدهشا واستثنائيا كذلك.

إن الله قد جعل من الأبناء الروحيين لإبراهيم - ورثة الوعد الذين سيرثون هم وذراريهم هذا العالم. شعباً كبيراً عظيماً مثل نجوم السماء. وإن كان قد وعد أيضا أن تتبارك معهم كل الأسر فى الأرض وسيتحقق هذا أيضاً فى الوقت المحدد» .

قبل أن أتناول هذا التفسير الخاطئ لرؤيا حزقيال. فإنى سأقدم للقارئ رأى البابا شنودة فى مدى صحة تفسير جورج بوش لها.

فى عدد الأهرام الصادر فى٢٦ /٨ /٢٠٠٣ قال البابا شنودة .. المسيحيون الشرقيون يرفضون تماما تفسير بوش الوارد فى هذا الكتاب لرؤيا حزقيال موضحين أن عودة اليهود .. تعنى عودتهم من الاسر البابلى ليعيشوا مواطنين عادين فى فلسطين على أيام داريوس الملك الفارسى) .

وجاء هذا التصريح على لسان «البابا شنودة» بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازه المرقسية فى حديثه لجريدة الأهرام المنشور هنا حيث قال فيما يتعلق بهذا الصدد:

«كانت توجد بالفعل فى الماضى آيات تتحدث عن عودة اليهود لأراضيهم، وكان يقصد بها عودتهم من سبى بابل إلى الأراضى المقدسة، وتلك واقعة تاريخية تمت فى العهد القديم وتحديدا فى عهدى «ارتحستا» و «داريوس» وهما

من ملوك الفرس. . . حيث عاد اليهود فى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد وأعادوا بناء الهيكل فى عهد « زرع بابل» ولا توجد آيات تشير لحقهم فى العودة فى عصرنا الحديث) .

نقلت هذا التصريح من ترجمة كتاب وادى الرؤيا- لجورج بوش ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ فى صفحته الأخيرة.

والحق يقال أن جورج بوش هذا اليهودى الصهيونى يتمتع بصبر فى الجدل، ولجاجة فى الحوار يستطيع بهما أن يحرج الآخر الذى يبتلى بالدخول معه فى نقاش أو حوار، ويساعده على ذلك ذكاؤه المفرط، وقدرته الفائقة فى التلاعب بالألفاظ، ودراسته العميقة للغته العبرية، وسعة اطلاعه على الكتب الدينية، واستعداده الفائق لأن يكون زعيما سياسيا ، ولكنه فرغ نفسه لشرح قضية فريق الصهاينة من قومه .

وبعد ذلك فهو علي ما يبدو أديب يتمتع بنزعة شعرية والدليل علي ذلك أنه صب مغالطاته فى ألفاظ براقة وغلف عقيدته المخترعة فى كلمات براقة ، تستهوى السذج والبسطاء من الناس وكثير ماهم.

ولكى ينجح من يتصدى للحوار معه فى كشف هذه المغالطات وتفنيدها تمهيدا لإقناع هؤلاء السذج والبسطاء .. لابد من تمكنه أولا من عقيدته ورسوخها فى وجدانه، ولا بد من اطلاعه على كتب الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام.

أى التوراة ، والمشناه ، والكلمود ، والإنجيل ، والقرآن الكريم، وفى الوقت نفسه يكون مزودا بشئ عظيم من العلوم الكونية والعلوم الإنسانية وخاصة اللغة والأدب والتاريخ.

وهذا كله ليس متوفرا فى المجتمع الأمريكى الذى ليس من بين اهتماماته التبحر فى علوم الدين والعقيدة ، إنما همه كله منصب على توفير ما يحتاج إليه من ماديات تمكنه من مستوى مادى رفيع .

لذلك فقد وجد چورج بوش فى الشعب الأمريكى النموذج الذى يتجاوب معه، ويتلقى عنه، ويقتنع بمقولته، ويصغى لتعاليمه .. حتى تكونت الجمعيات التى تدين برأيه ومنها جمعية اليهودى المسيحى ، ويسيطر أعضاؤها الآن على مؤسسات الحكم فى الولايات المتحدة فى البيت الأبيض ومجلس النواب والكونجرس الأمريكى.

وإنى أرى أن هذا الرجل ليس مستشرقا من المستشرقين الذين تملكهم الولع بدراسة الشرق وآدابه وتاريخه وأديانه ، وإنما هو زعيم سياسى، ومنظر للجماعات الصهيونية المتطرفة، وصاحب مشروع صهيونى كبير، وقف حياته لخدمة هذا المشروع، ورسم خطة نجاحه فى تحقيقه بإتقان، وحدد معالمه بذكاء وحدد آلية تنفيذه بدهاء.

إن المستشرقين عامتهم وقفوا عند دراسة علوم الشرق ودياناته وأدابه ولغاته دراسة علمية نظرية وقاموا بهذه الدراسات بصبر، وكان من بينهم متعصبون ولكنهم اكتفوا بإظهار التعصب فقط فى كلمات تنم عن هذا التعصب الكامن فى قلوبهم فقط.

لكن جورج بوش تخطى هذه المرحلة واعتنق مشروعا واضح الأهداف وحدد آلية لتنفيذه، ورسم خطة تكفل له النجاح فى تحقيق هذا المشروع (دولة صهيون من النيل إلى الفرات) .

والدليل على ذلك أنه فسر رؤيا حزقيال تفسيرا يخدم هذا المشروع، ووظف هذه الرؤيا وظيفة سياسية بحتة ، وأخرجها من ثوبها الدينى ، وألبسها ثوبا دنيويا صرفا لا يتصل بالدين من قريب أو بعيد فالواقعة المذكورة فى التوراة وأشار إليها القرآن فى الآية رقم ١٥٩ من سورة البقرة :

تتلخص فى سؤال من عبد مؤمن لله الخالق البارئ المصور المحى المميت « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » وإجابة من الله تعالى جعلت هذا العبد يعايش طلاقة قدرته سبحانه وليعمق فى وجدانه عقيدة البعث والنشور فأماته مائة عام ثم بعثه

وسـأله : كم لبثت (يعنى ميتـا) قال « لبثت يومـاً أو بعض يوم » فصـحح له ما حدث أنه مات مائة عام ... وهذا القرن من الزمان يكفى لتحلل جسده وتحوله إلى تراب وبعض العظام ، ومع ذلك فقد بعثه حيا قادرا على الحياة ومظاهرها من الحوار والتأمل والاستيعاب.

وأمره أن ينظر ما حوله فوجد طعامه وشرابه لم يتكدر ولم يتحول إلى شئ آخر ، ونظر الحمار فوجد عظامه تتجمع كل عظمة فى مكانها حتى اكتمل هيكله العظمى كله ، حيث بدأ اللحم يكسو هذه العظام ويجرى فيه سر الحياة لتنصب حمارا .. كائنا حيا.. هناك عرف حزقيال أنه عندما مات مر بمراحل الفناء التى رآها على بقايا الحمار ثم مر بمراحل البعث التى مر بها الحمار، من تمزق أجزاء جسمه وتلفها، وفنائها وما بقى من عظامه التى جمعها ، ثم كساها لحما ، ثم سرى فيها الروح وانتصب قائما ناطقا بما هو كان فى حاجة إليه من علم اليقين فقال :

«علم أن الله على كل شئ قدير» .

أخذ بوش هذه القصة ووظفها لخدمة دعوته السياسية ، ولمشروعه السياسى العنصرى.

إنه بهذا قد خلع ثوب الدين وارتدى ثوب السياسة وخلع ثوب الإنسانية ولبس ثوب العنصرية، وخلع ثوب السماحة ولبس ثوب التعصب .

وكشف عن حقيقة هويته وثقافته أنه يهودى صهيونى متعصب.

والدليل الثانى :

أن فى أمريكا من اقتنع بفكره وبمشروعه وأنشئت الجمعيات التى تتبنى مشروعه ومنها جمعية ينتمى إليها حفيده جورج بوش حاكم الولايات المتحدة، وتصرفاته تنبئ عن ولائه التام لتعاليم جده الأعلى جورج بوش واضع هذين الكتابين وهذا يفسر نجاحه فى انتخابات ٢٠٠٠ وفى انتخابات ٢٠٠٤ وبناء عليها تربع على عرش الولايات المتحدة فى البيت الأبيض لمدة ثمانية سنوات

مضى منها أربع سنوات . سيكتب عنها التاريخ أنها سنوات التخريب والتدمير والخطر الداهم على السلام العالمى .

كما يفسر أيضا إهمال هذا الحفيد لقضية الشعب الفلسطينى ، وتشجيعه لبنى عرقه من صقور الصهاينة القابضين على السلطة فى إسرائيل للقيام بسحق الشعب الفلسطينى بكافة أنواع الأسلحة من البندقية حتى أسلحة الدمار الشامل للاجهاز على المقاومة الفلسطينية بدعوى أنها أنظمة إرهابية .

كما أن جورج بوش الحفيد كان صهيونيا فى هجومه الشرس على العراق وقتل شعبه وتدمير مدنه لا لخدمة الديمقراطية ولكن لتأمين الدولة الصهيونية وتمكينها من التوسع وتحقيق حلمها الكبير الذى هو حلمه أيضا من تكريس المملكة العبرية من النيل إلى الفرات . والقضاء على دولة الشر التى تحدث عنها جده وجد أبيه جورج بوش صاحب أرجوفة «محمد مؤسس الإسلام ومؤسس أمبراطورية المسلمين وأرجوفة تفسيره لرؤيا حزقيال » .

والله أعلم بما يكنه الغيب فى طياته للعالم بصفة عامة وللعرب والمسلمين بصفة خاصة فى السنوات الأربع المقبلة .

وهذا يجعلنى أقرر باطمئنان وصدق احساسى لأهلى وعشيرتى فى الوطن العربى والإسلامى أن عاصمة الولايات المتحدة الآن ليست واشنطن التى اختارها الشعب الأمريكى . بل العاصمة هى تل أبيب أو القدس الغربية .

وإن الكونجرس الأمريكى هو الآن فى الحقيقة هو الكنيست الاسرائيلى وما هو إلا المؤسسة التشريعية للملكة العبرية ، وأن رئيس الولايات المتحدة وجورج بوش) هو رئيس هذه الدولة العبرية المؤقت إلى أن يصحو العالم فى يوم ليجد أن الصهيونية هى التى تحكمه ، وتنميه وتوقظه ، وتطعمه وتسقيه ويصحو الشعب الأمريكى من غيبته على هزات الزلزال الأعظم الذى تتفكك به ولاياته وتتمزق به أوصاله مثلما تمزقت أوصال الاتحاد السوفيتى .

هذا ما تنطق به وقائع قصة اللقاء الأثيم بين فكر جورج بوش فى كتابيه المشئومين ، وبين معتنقى هذا الفكر العقيم.

لكنه .. وهو فى نشوة تنبؤاته نسى تماما أنه يعاند قضاء الله عز وجل، وينكر ملكية الله سبحانه وتعالى للزمان والمكان، وأنه وحده المتفرد بالسلطان وله الخلق والأمر. وأنه هو الذى شرع الإسلام وبعث نبيه محمداً رسولاً يبلغه للناس كل الناس منتزعاً راية الدعوة إليه من أيدى التوراتى ، وسلمها لسيدى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ليكون خاتما للأنبياء والمرسلين، ولتتلف أمته الأمانة من بعده وتكون خاتمة للأمم ، ونسى أن الأيام دول ، وقال الله فى حقها [وتلك الأيام نداولها بين الناس] نسى أن هذا الدين الذى حمل عليه على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أتباعه هو خلاص البشرية من الظلم والعنصرية والتعالى على الناس، وخلاصها من الفساد والمفسدين...

ونسى أن هذا الدين الحنيف قد بنى الشخصية المسلمة بناء حسنا قويا تتهيأ به باستمرار للدفاع عنه وعن مقدساته فى استمرار حتى تقوم الساعة.

فهى لا تغيب أبدا عن ساحة التاريخ ، إذ أنها بين الفترة والفترة تشرق على العالم بوجهها المضئ بنور الإيمان .. فى يدها اليمنى كتاب الله القرآن الكريم ، وفى يدها اليسرى سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفوق رأسها راية مكتوب على صفحتها بحروف النور «لا إله إلا الله محمد رسول الله » وبين يديها ومن خلفها موكب هادر نشيده يزلزل أركان الظلم بنشيد كلماته لا غالب إلا الله، ولا عدوان إلا على الظالمين.

هذا الموكب الجميل الجليل الذى وصفه الله فى القرآن الكريم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة المائدة) .

ووصفهم فى الآية رقم ٥٥ من سورة النور :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة النور)

وعلى ذلك فإن راية الحق والعدل والسلام فى يد هذه الأمة الإسلامية ، إذا قصر جيل فى نصر هذه القيم فسيعقبه جيل يحميها ويحافظ عليها ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويؤمن الخائف ، وينصر الضعيف المظلوم ويمسح دمعة اليتيم ، ويأوى ابن السبيل ويقبض على ذى الحاجة ، ويواسى المريض ، ويغيث الملهوف ، ويزرع فى الأرض أشجار السلام.

هذا هو قانون الله ... فإن استطعتم فحاربوه. واعلموا أن الله غالب على أمره ، وأنه وحده هو القوى المتين. وإن نظرة خاطفة على ما يدعيه غير المسلمين بشأن نزول المسيح وعودته إلى الأرض ، تعقبها نظرة على ما يقرره القرآن الكريم والحديث الشريف فى نفس الشأن ، فإن ذلك يكفى للوصول إلى الحقيقة التى يتعين على كل إنسان صافى القلب ، يقظ الضمير : أن يتشبث بها ويغرسها بنفسه عقيدة تضئ وجدانه ، وترسم له الطريق الذى يسلكه فى أمن وطمأنينة ، ويشارك فى نصرتها بوجدانه ، ويسعى لنشرها بروح وثابة.. ليكون الهتاف نابعا من قلبه للحق والخير والجمال ، وهى معانى تصوغ الحب والسلام.

إن لكل فريق من اليهود والنصارى والمسلمين تفسيرا لعودة المسيح مرة أخرى وأخيرة إلى الأرض.

أما اليهود فقد فسروا تلك العودة على هدى مازعموه من رؤيا حزقيال ، وقد سبق شرح وجهة نظرهم ، وأما النصارى فهم يعتمدون فى نظرتهم إلى رؤيا يوحنا فى الكتاب الوارد فى ختام العهد الجديد ، ويتحدث عن المجئ الثانى للمسيح والألفية السعيدة وقد جاءت رؤيا يوحنا صدى لما حدث من اضطهاد الامبراطور نيرون للمسيحيين ، ذلك الامبراطور الرومانى الذى أوسع المسيحيين قتلا وتشريداً تعصبا لديانته ومقتا لأتباع المسيح . فظهر كتاب يحمل اسم الرؤيا ، وكان يبدأ بعبارة « أعلان يسوع المسيح الذى أعطاه إياه الرب ليرى عبيده ما لابد أن يكون عن قريب ، وبينه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا » (رؤيا ١ : ١) .

وتقوم الرؤيا على ما يأتى :

[طوبى لذى يقرأ وللذين يسمعون أقوال النبوة ، ويحفظون ما هو مكتوب فيها لأن الوقت قريب] .

(الرؤيا ١ : ٣) .

وتنبأ يوحنا بنهاية العالم ونهاية الآلام ، ولكن سيسبق هذه النهاية أمور عجيبة لها رهبة ورعب .

لقد كان يوحنا فى حالة نشوة أعقبت قربة من الله وهوينشر البشرى من أجل شهادة يسوع ، فرأى سبعة منابر ذهبية وبين المنابر «شبه» ابن الإنسان (يسوع المسيح) رأسه وشعره أبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب من نار ، ورجلاه شبه النحاس النقى .. كأنهما محميتان فى أتون ، وصوته كصوت مياه كثيرة ومعه فى يده اليمنى سبعة كواكب ، وسيف ماض ذو حدين ، ويخرج من فمه ووجهه كالشمس وهى تضئ فى قوتها . وعندما رأى يوحنا «ابن الإنسان» هذا سقط عند رجليه كميت ، ولكن ذلك هدأ من روع يوحنا «لا تخف أنا هو الأول والآخر والحى ، وكنت ميتا ، وها أنا حى إلى أبد الآبدين ولى مفاتيح الهاوية والموت ، فاكتب ما رأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون ليد هذا

(١ : ١٧ - ١٩) .

ورأى يوحنا فى رؤياه عرشا فى السماء جالس عليه الرب وفى وسط العرش وحوله أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء . ولكل منهما ستة أجنحة ، تقول ليلا ونهارا "قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شئ .. الذى كان والكائن ، والذى يأتى وحول العرش" أربعة وعشرون شيخا ، وأمامه سبعة مصابيح نار متقدة ، هى سبعة أرواح الرب ، وعلى يمينه كتاب كان مكتوبا من الداخل ومن وراء ، ومختوما بسبعة ختوم ، وفى تلك الأثناء قال أحد الشيوخ ليوحنا :

إن أحد الحيوانات الأربعة قد غلب ، وهو الأسد الذى من سبط يهوذا أصل داود . ليفتح السفر ويفك ختومه السبعه . وهنا رأى يوحنا أنه قد أقترب من العرش «خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون ، وسبع أعين ، هى سبعة أرواح الرب المرسلة إلى كل الأرض» والخروف هنا هو تصوير ليسوع المسيح ، كان محببا جدا لدى المسيحيين وأما القرن فكان يعد رمزا للجبروت لدى العبرانيين ويبدأ الخروف فى فك الختوم السبعة ، وعندما يصل إلى نزع الختم الرابع تكون قد ظهرت أربعة خيول هى النذير على الكوارث العظيمة التى تسبق نهاية العالم إيذانا باقتراب حلول النهاية .

وعند نزع الخروف الختم الخامس ، رأى يوحنا أمام المذبح أرواح الذين ماتوا لأجل دين المسيح «وصرخوا بصوت عظيم قائلين : حتى متى أيها السيد القدس والحق لا تقضى وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض . فاعطوا كل واحد ثيابا بيضا وقيل لهم أن يستريحوا زمانا يسيرا أيضا حتى يكمل العبيد وفقاؤهم وإخوانهم أيضاً العتيدون أن يقتلوا مثلهم » (٦ : ٨ - ١١) .

ومن ينزع الخاتم السادس إذا «زلزلة عظيمة حدثت ، والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت إلى الأرض . . . ، والسماء انفلقت . . . وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما » ويتم ختم

١٤٤ ألف شخص أى١٢ الفا من كل سبطا من أسباط إسرائيل الاثنى عشر» ورأى يوحنا للذين تلقوا الموت لأجل المسيح واقفين أمام العرش والمسيح يمسح دموعهم.

وأخيرا ينزع المسيح الختم السابع، ويرى يوحنا سبعة ملائكة يمسكون بأيديهم سبعة أبواق. وملاك ثامن بيده مبخرة ملأها من نار المذبح وألقاها إلى الأرض، فأحدثت زلزلة ورعد وبرق، ويبوق الملائكة فتنهال على الدنيا الكوارث، ويهجم جيش أجنبى عظيم يأتى من جهة الفرات، وتعطى المدينة المقدسة أورشليم للوثنيين الذين سيدوسونها ٤٢ شهراً، وعندما يبوق الملاك السابع يكون ذلك إيذانا بأن ممالك العالم ستصبح للرب ومسيحه .

وتظهر فى السماء آية عجيبة «امراة متسربلة بالشمس ، والقمر تحت رجليها وعلى رأسها أكليل من اثنى عشر كوكبا وهى حبلى تصرخ متخمضة ومتوجعة لتلد» فولدت ابنا ذكرا عتيدا أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد ويظهر « تنين » عظيم أحمر له سبعة رءوس وعشرة قرون يقوم بابتلاع الطفل لكن الطفل اختطف إلى الرب وعرشه ودخل الملاك ميخائيل على رأس جيش فى معركة مع التنين المدعو ابليس والشيطان ، وسمع يوحنا صوتا ينبئ بسقوط إبليس وحلول زمن الخلاص وبداية مملكة المسيح وسلطانه ..!!

ولكن الشيطان سيجمع بعد ذلك كل قوى الشر ضد قوى الخير عند هرمجدون ، ويظهر المسيح «ومن فمه يخرج سيف ماضى لكى يضرب به الأمم وهو سيرعام بعصا من حديد ، وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب »(١٩ : ١١-١٦) ويجمع ضده الشيطان والملوك الخاضعون له ولكن المسيح ينتصر . ويهبط ملاك من السماء فيمسك بالتنين - الشيطان- ويلقى به إلى الهاوية ويختم عليه ليختفى ألف عام : (٢٠ : ١-٣) وهكذا تحل مملكة الرب لألف سنة . وبعد مرور ألف عام ، سيطلق سراح الشيطان ، « ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض يأجوج ومأجوج»

ويحاصرون المدينة الحبيبة أورشليم. لكن نارا من السماء ستسقط وتلتهمهم. وعندئذ تحل مملكة الحياة، والنعمة الأبدية وتنزل من السماء أورشليم الجديدة، لها اثنتان عشرة بوابة عليها أسماء الأسباط الاسرائيلية الأثنى عشر، ولن يدخل المدينة إلا الذين ظلوا أوفياء للمسيح.

(ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب، الذين عددهم مثل رمل البحر فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة، فنزلت نار من عند الرب. من السماء وأكلتهم، وإبليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبى الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين » (رؤيا ٢٠ : ٧ - ١٠).

وأنت ترى التشابه الكبير بين رؤيا دانيال ورؤيا حزقيال ورؤيا يوحنا فيما يتعلق بنهاية العالم.

ونشم فى رؤيا يوحنا رائحة انتمائه لليهودية بدرجة تفوق درجة غيره من الرسل. ويعنى ذلك أننا تستطيع أن نسميه المسيحى اليهودى ونحن مطمئنون، ويصادف هذا الشعور، الصدق من ناحية أنه لم يذكر شيئا عن التثليت وإنما ظهر الإله الواحد القادر على كل شئ أى الإله اليهودى [يهوة] وفى الدينونة العظيمة الأخيرة يجلس على العرش هذا الإله ذاته وليس المسيح. فيسوع أدنى مرتبة وهو الذى ذبح كالخروف أضحية للتكفير عن خطايا العالم.

عقيدة المسلمين
فى عودة المسيح عليه السلام

يستند المسلمون فى ذلك إلى :

١ - القرآن الكريم :

(أ) :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (سورة النساء)

(ب) :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة الزخرف)

وبمقتضى هذه الآيات من سورة النساء ومن سورة الزخرف .. يؤمن المسلمون بنزول نبى الله عيسى عليه السلام إلى الأرض قبل يوم القيامة فيقتل مسيخ الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير.

ويضع الجزية ويقضى ولا يقبلها من أحد من أهل الأديان بل لا يقبل إلا

الإسلام أو السيف ، فأخبرت هذه الآية من سورة النساء أنه يؤمن جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم (تفسير ابن كثير) .

الأدلة على نزول نبى الله عيسى إلى الأرض من الأحاديث الشريفة

الإمام البخارى :

١ - روى الإمام البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاًفيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (سورة النساء)

ورواه الإمام مسلم عن الحسن الحلوانى وأخرجه البخارى ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عيينة .

٢ - عن أبى هريرة رضى الله عنه روى الإمام احمد ورواه مسلم :

[ليهلن عيسى بن مريم بفج الروحاء بالحج أو بالعمرة أو ليثنينهما جميعاً]

٣ - روى الأمام أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير ويمحوا الصليب ، وتجمع له الصلاة ، ويعطى المال لا يقبل ، ويضع الخراج ، وينزل الروحا ، فيحج منها ، أو يعتمر أو يجمعهما] .

٤- روى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه .قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[الأنبياء اخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبى بينى وبينه، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه .رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل .

فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها الا الاسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الأبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون] وكذا رواه أبو داود، ورواه البخارى بطرق أخرى

٥ - روى الامام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو برايق فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم : خلو بيننا وبين الذين سبوا أمنا فنقاتلهم، فيقول المسلمون لا والله لا تخلى بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يثوب الله عليهم أبدا، ويفتح الثلث لا يفتنون أبدا فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتوت إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءو الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذا أقيمت الصلاة فينزل عيسى بن مريم فيؤمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته] .

٦ - الأمام أحمد رضى الله عنه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة :فردوا أمرهم إلى ابراهيم فقال :لا علم لى بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله. وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج ومعى قضيبان فإذا رينى ذاب كما يذوب الرصاص :قال فيهلكه الله إذا رآنى: حتى إن الحجز والشجر يقول يا مسلم إن تحتى كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله. ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون منطفون بلادهم فلا يأتون على شئ إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال : ثم يرجع الناس يشكونهم فادعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى نجوى الأرض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيخرق أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر مقيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى اهلها متى تفاجئهم بولادها ليلا أو نهاراً] رواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب به نحوه.

٧ - الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى «ابن ماجة» مراجعة محمد عبد الباقى. طبعة دار احياء الكتب العربية فيصل عيسى البابى الحلبى المجلد رقم (٢) صـ١٣٤٧ الحديث رقم ٤٠٥٥ :

عن حذيفة بن أبيد أبى سريحة قال:

[إطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدجال والدخان، والدابة وياجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام وثلاث خسوف: خسوف بالمشرق وخسوف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا] .

٨ - الامام ابن ماجة أيضاً :

الحديث رقم ٤٠٧٥ «كتاب الفتن» .

حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نضير حدثنى أبى أنه سمع النواس بن سمعان الكلابى يقول

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال الغداه فخفض فيه ورفع حتى ظننا أنه فى طائفة النخل، فلما رحنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف ذلك فينا فقال: « ما شأنكم ؟ » فقلنا:

يا رسول الله !! ذكرت الدجال الغداه فخفضت فيه ثم رفعت حتى ظننا أنه فى طائفة النخل قال]غير الدجال أخوفنى عليكم: إن يخرج وأنا فيكم فانا حجيجة دولكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه . والله خليفتى على كل مسلم. إنه شاب قطط عينه قائمة كأنى اشبهة بعبد العزى بن قطن. فمن رآه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف] .

إنه يخرج من خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا، وعاث شمالا، يا عباد الله اثبتوا قلنا يا رسول الله ! وما لبثه فى الأرض قال « أربعون يوما » يوم كسنة، ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله !فذلك اليوم الذى كسنة تكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال (فاقدروا له قدره) قال قلنا : فما اسراعه فى الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح قال: فيأتى القوم فيسيجبون له ويؤمنون به فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت وتروح عليهم سادحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعا وأمد خواصر. ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم .فيصبحون ممحلين ما بإيديهم شئ ثم يمر بالخربة فيقول لها [أخرجى كنوزك فينطلق فتتبعه كنوزها كيعاسيب النخل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شباباً فيضربه بالسيف ضربة، فيقطعه جزلتين بارمية الغرض ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرورتين، واضع

كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر . وإذا رفعه ينحدر منه جمان كاللؤلؤ . ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرقه، فينطلق حتى يدركه عند باب لد فيقتله ثم يأتى نبى الله عيسى قوما قد عصمهم الله، فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة . فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إليه : يا عيسى إنى قد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحد بقتالهم، وأحرز عبادى إلى الطور ! ! ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله : من كل حدب ينسلون، فيمرأ وائلهم على بحيرة الطبرية فيشربون ما فيها، ثم يمد آخرهم فيقولون : لقد كان فى هذا ماء مرة، ويحض نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله . فيرسل عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فدسى(موتى) كموت نفس واحدة ويهبط نبى الله عيسى وأصحابه فلا يجدون موضع شبر إلا قد ملأه زهمهم وتنهم ودماؤهم . فيرغبون إلى الله سبحانه، فيرسل عليهم طير كاعناق البخت (الجمال ذوات السنامين) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله . ثم يرسل الله عليهم مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسله حتى يتركه كالزلقة، ثم يقال للارض أنبتى ثمرتك وردى بركتك . فيومئذ تأكل العصابة من الرمانه فتشبعهم . ويستظلون بقحفها .ويبارك الله فى الرسل حتى إن اللقحة من الأبل تكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفى القبيلة .

واللقحة من البقر تكفى القبيلة، واللقحة من الغنم تكفى الفخذ (العائلة) فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحا طيبة . فتأخذ تحت أباطهم فتقبض روح كل مسلم، ويبقى سائر الناس يتهارجون كما تتهادج الحمر . فعليهم تقوم الساعة

الحديث رقم ٤٠٧٧ (كتاب الفتن) ٣٣ باب سنن ابن ماجه المجلد ٢ عن أبى أمامه الباهلى صـ ١٣٥٩ .

بنفس الأحداث السابقة ولكنه يزيد عليها ما يأتى :

[وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقلها وينشرها بالمنشار حتى

يلقى شقتين. ثم يقول : انظروا إلى عبدى هذا فإنى أبعثه الآن ثم يزعم أن له ربا غيرى .فيبعثه الله .ويقول له الخبيث من ربك ؟ فيقول ربى الله، وأنت عدو الله أنت الدجال !! والله ما كنت بعد أشد بصيره بك منى اليوم] .

قال أبو الحسن الطنافسي : فحدثنا المحاربى .

عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك الرجل أرفع أمتى درجة فى الجنة» قال: قال أبو سعيد ما منا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله .

وأيضا جاء فى هذه الحديث هذه الزيارة .

[وأنه لا يبقى شئ من الأرض إلا وطأ وظهر عليه وظهر عليه إلا مكة والمدينة لا يأتيهما من نقي من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلته حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السنجة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات .فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتبقى الخبث منها كما ينقى الكيد خبث الحديد ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص، فقالت أم شربك بنت أبى العكر :يا رسول الله !! فأين العرب يومئذ]؟؟.

قال : العرب يومئذ قليل وجلهم ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح. فبينما أمامهم قد تقدم يصلى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح. فرجع ذلك الأمام ينكفى بمشى القهقرى ليتقدم عيسى يصلى بالناس، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له :تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلى بهم إمامهم. فإذا الضرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب. فيفتح، ووراءه الدجال معه سبعون الف يهودى. كلهم ذو سيف محلى وساج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب المسلح فى الماء وينطلق هاربا. ويقول عيسى عليه السلام .

إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها. فيدركه عبد باب اللد فيقتله. فيهزم الله اليهود فلا يبقى شئ مما خلق الله بتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشئ لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة(إلا الغرقده فإنها من شجرهم لا تنطق) إلا قال

يا عبد الله المسلم هنا يهودى فتعال فأقتله .

صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن هذا الحديث فى آخره قليلتقى مع حديث الإمام البخارى رضى الله ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر :يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فأقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود] وقد تعدد رواة هذا الحديث من الصحابة رضوان الله عليهم فى كل من صحيح البخارى وصحيح مسلم (الفتن واشراط الساعة من ٧٤-٧٨) طبعة دار الشعب. صحيح مسلم بشرح النووى .

٩ - صحيح مسلم بشرح النووى (باب الفتن وأشرطة الساعة رقم ٣٤ صـ ٧٤٨ المجلد الخامس)

[هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاى رجل ليس له هجيرى إلا يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة؟] قال فقعد وكان متكئا فقال : إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث بغنيمة ثم قال بيده هكذا ...ونحاها نحو الشام فقال :عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الاسلام قلت الروم تعنى؟.

قال : نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة. فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيضئ هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلكون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيضئ هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب .. وتفتى الشرطة ثم فيقتتلون حتى يمسوا فيضئ هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهر إليهم بقية أهل الاسلام فيجعل الله الدبرة عليهم فيقتلون مقتلة، إما قال : لا يرى مثلها وإما قال : لم ير مثلها حتى إن الطائر ليمد بجنبهابهم فما يخلفهم فلا يجدونه بقى منهم إلا

الرجل الواحد . فبأى غنيمة يفرح؟ أو بأى ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا بيأس واكبر من ذلك فجاءهم الصريخ إن الدجال قد خلفهم فى ذراريهم فيرفضون ما فى ايديهم، ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لأعرف اسماءهم واسماء آبائهم والوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ أومن خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ قال ابن شيبه فى روايته عن اسيد بن جابر] .

١٠ - صحيح مسلم بشرح النووى (باب الفتن) وأشرطة الساعة الحديث ٣٢ صـ ٧٤٧ المجلد الخامس دار الشعب .

٣٢ [قال المستورد القرشى عند عمر بن العاص : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقوم الساعة والروم أكثر الناس فقال عمرو : أبصر ما تقول، قال : أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكه كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين، ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك] هذا ما تحدث به نبى الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بحروب آخر الزمان ونزول نبى الله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض عائدا ليقوم بالأعمال التى يكلفه بها الله عز وجل لتطهير الأرض من الفساد والظلم ولينقذ اتباعه من الوثنية ويطهر قلوبهم، ويصفى عقيدتهم ويخلصها من الشرك ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل المسيخ الدجال رمز الكفر والضلال والطغيان..

وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن للعالمين عامة وللمسلمين خاصة الوحدة الروحية والأخوة فى الله التى تربط بينه وبين نبى الله عيسى المسيح بن مريم صلى الله عليه وسلم، ويؤكد أنه أولى به من جميع الناس .يعلن ملك الرابطة الأزلية الأبدية التى تربط بينهما، ووحدة الرسالة التى كلف به كل منهما وجميع الأنبياء والمرسلين، والتى تزرع فى وجدان كل مسلم حب السيد

عيسى بن مريم نبى الله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه.

هكذا علم سيدنا محمد نبى الله ورسوله والمسلمين مكانة نبى الله عيسى عليه الصلاة والسلام مثلما فعل هذا النبى الكريم عيسى عندما عرف قومه مكانه نبى الأسلام صلوات الله وسلامه عليه عندما خاطب قومه قائلا فى الآية الكريمة رقم ٦ من سورة الصف من القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) ﴾

(سورة الصف)

لقد أروح الأنبياء جميعا من قبل ومثلت بين يدى الله عنه فى الآية رقم ٨١ من سورة آل عمران :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا اللقاء الروحى الذى ثم بين نبى الله عيسى ونبى الله محمد لله عليهما وسلم تسليما كثيرا فيه الحب وفيه الخير وفيه السلام، وهذا الحب الذى اخترق حاجز الزمان وحاجز المكان، وظهر فى الازل وتجلى فى الأبد يمد بساطا نورانيا تلتقى عليه أرواح المخلصين من أتباعهما لقاء الحب والسلام وينبذ تماما الصراع والاصطراع، ويمحو الخلاف والأختلاف فى بال قوم فى الغرب يصيحون صيحات الغربان منازين بصراع الحضارات.

من أين أتوا بهذا الفكر العقيم ؟ وكيف علت أصواتهم بهذه الصيحة العنصرية، والعنصرية منتنه.

إن الخلاف بين الطوائف الثلاث .المسلمة واليهودية والمسيحية فى شخصية المسيح العائد بماثل اختلافهم فى تحديد القبلة لصلاتهم الذى انطوت عليه الآية رقم ١٤٥ من سورة البقرة التى تقول:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥) ﴾

(سورة البقرة)

ونحن المسلمين نعترف بهذا الأختلاف العقائدى على طبيعة المسيح الواقع بين الطوائف الثلاثة، ولكننا نقف عند الاختلاف فقط .ونحترم لكل من الطائفتين العقيدة التى تعتنقها وكلفون من قبل الله بحسن معاملة كل من الطائفتين بأمر من الله تعالى له منا السمع والطاعة وهذا الأمر تنطوى عليه الآية الكريمة رقم ٨ من سورة الممتحنة:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾

(سورة الممتحنة)

بل إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أوضح لنا مكانه بين الأنبياء والمرسلين فقال فيما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما :عن أبى هريرة وجابر بن عبد الله رضى الله عنهما] إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى

بيتا فاحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين [اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي.

وهكذا الا يسمع الأنسان المستقيم الفكر، النظيف القلب من نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم همسة توحى بالشر، ولا يحس من كلماته إشارة إلى صراع أو إيماءة إلى اختلاف .بل كلها كلماته إلى الحب والوئام وتأصيل الإنسانية فى كيان الأنسان وبهذا الأقبال النبوى المحمدى الروحى على قلوب البشر جميعا يملأها حبا ..وعلى الأرض يزرعها بأشجار السلام تفيح فوقها رائحة الأزهار والورود وطيب الثمار، تتوارى بغرات العنصرية وتختفى إلى الابد ويصبح نشازا تعيق غير المسلمين منذ بداية القرن السادس عشر الذى لعب فيه المسيحيون اليهود أو اليهود المسيحيون الدور التاريخى فأدخلوا من السجالات الدينية. الاعتقاد بأن العناية الالهية متضمنة فى حضور الرب فى التاريخ الأنسانى وانهم سرعان ما سيبدأ التاريخ الالهى بمجئ المسيح مع بداية الألف عام السعيدة (الألفية) فظهرت بين بداية بين اللدهوتيين والمفكرين الدينين تفسيرات جديدة لسفر دانيال (العهد القديم) وسفر الرؤيا (العهد الجديد) تتصور تحول اليهود إلى المسيحية، وعودة ظهور القبائل الاسرائيلية المفقودة باعتبارها الخطوات الأخيرة بنهاية التاريخ .الأنسانى وبين ثم أصبحت الأحداث العظمى المرتبطة بذلك هى عودة اليهود المتحولين إلى أرض صهيون، وإعادة بناء العهد واعادة تأسيس الحكم الإلهى للارض من اورشليم (يرجع كتاب المسيح اليهودى ونهاية العالم ص٦١ ، ٦٢) رضا هلال مكتبة الشروق القاهرة .

وهذا ما يعتقده جورج بوش مؤلف الكتاب الذى نرد عليه، وزرعه فى المجتمع الأمريكى بكتابة هذا ومرجعيته فى هذا الشأن كتابان مارتن لوثر فى مؤلفاته ومنها [كتاب المسيح ولد يهوديا] الذى قال فيه :

[إن الروح القدس شاءت أن تنزل كل سفار] .

فهرس

المراجع

أول مرجع القرآن الكريم

م	المراجـــع	المؤلف
١	صحيح البخارى	أبو الفدا إسماعيل البخارى
٢	صحيح مسلم ـ بشرح النووى .	أبو زكريا محيى الدين
٣	البداية والنهاية	لابن كثير
٤	ختم النبيين	الإمام محمد أبو زهرة
٥	حياة محمد ﷺ	د. محمد حسين هيكل
٦	تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
٧	الجامع لأحكام القرآن	القرطبى
٨	الإسراء والمعراج	للشيخ عبد الحليم محمود
٩	الإسراء والمعراج	للشيخ محمد متولى الشعراوى
١٠	الدعوة إلى الإسلام	توماس أورنولد
١١	شمس العرب تسطع على الغرب	زيفريد هونكه
١٢	رجاء جارودى	الدكتورة زينب
١٣	القرآن وعلم النفس	الدكتور محمد عثمان نجاتى
١٤	الحديث الشريف وعلم النفس	الدكتور محمد عثمان نجاتى
١٥	دراسة الكتب المقدسة	الدكتور زغلول النجار
١٦	فى ضوء العلم	د. موريس بوكاى
١٧	الرحيق المختوم	
١٨	بحوث اجتماعية	الدكتور محمد عبد الله دراز
١٩	دفاع عن محمد ﷺ	الدكتور عبد الرحمن بدوى
٢٠	مفاتيح الغيب	الفخر الرازى

م	المراجــــع	المؤلف
٢١	القاموس القويم للقرآن الكريم	إبراهيم عبد الفتاح
٢٢	أمية الرسول ﷺ	د. محمد سالم أبو عاصى
٢٣	النبأ العظيم	الدكتور محمد عبد الله دراز
٢٤	المفخرة الكبرى	الإمام محمد أبو زهرة
٢٥	الرسالة	للإمام الشافعى
٢٦	الإسلام عي مفترق الطرق	ليوبولد فايس
٢٧	الفكر الإسلامى	
٢٨	الحديث وصفة بالاستعمار الغربى	الدكتور محمد البهى
٢٩	اعجاز القرآن	مصطفى صادق الرافعى
٣٠	التصوير الفنى فى القرآن	الأستاذ سيد قطب
٣١	أسباب النزول	جلال الدين السيوطى
٣٢	الإسلام دين الشرق والغرب	د. على عزت بوجوفيتش
٣٣	علم النفس التربوى	مقداد باجين وآخرون
٣٤	بشرية القرآن	مستر جيت
٣٥	المجمعون فى خمسين عاماً	د. محمد مهدى علام
٣٦	سنن البيهقى	الإمام البيهقى
٣٧	تاريخ الدعوة الإسلامية فى عهد	د. أحمد فؤاد الدين
٣٨	النبى والخلفاء الراشدين	
	فتوح مصر	لابن عبد الحكم
٣٩	مدخل إلى القرآن	الدكتور محمد عبد الله دراز
٤٠	الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ.	الفضيل بن عياض

م	المراجـــع	المؤلف
٤١	هذا وقـد أوضـحت عـقب كل معلومة استقيتها ذكر المرجع الذى استقيتها منه واسم صاحبه تفصيلاً ، فيرجع فى هذا الشأن إلى صفحات الكتاب.	
٤١	محمد ﷺ واليهود ترجمة محمود على مراد	الدكتور بركات أحمد
٤٢	أسباب النزول	للإمام الواحدى

تم بحمـــد الله ونعمـــه

رقم الإيداع : ١٣٣٣١ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي I.S.B.N. : 3 - 39 - 5269 - 977